

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

(٢٣٢ - ٤٤٧ هـ / ٨٤٧ - ١٠٥٥ م)

تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة


تاريخ الإسلام
السياسي والديني والثقافي والاجتماعي



تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثالث

العصر العبّاسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

(٢٣٢ - ٤٤٧ هـ / ٨٤٧ - ١٠٥٥ م)

تأليف

الدكتور حسن ابراهيم حسن

أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلاميّة وتاريخ الشرق الأدنى بجامعات
[redacted] وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلاميّة العالية
جامعة بغداد

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

الطبعة الثالثة عشرة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الجيل
بيروت

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا كتاب تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بأجزائه الأربعة للدكتور المرحوم حسن ابراهيم حسن نقدمه للقراء والطلاب في طبعة منقحة وبإخراج جديد مزودة بالفهارس الضرورية التي تسهل على الطالب الرجوع الى مبتغاه بيسر وسهولة .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب منذ نصف قرن ونيف ولاقى رواجاً وإقبالاً عند صدوره من كافة مستويات القراء وطلاب المعرفة وهواة المطالعة ، وبصدور الأجزاء التالية ازداد الإقبال عليه وبصورة خاصة من طلاب الدراسات التاريخية وكل قارىء عربي تواق لمعرفة تاريخ أمته ومنجزاتها في شتى ميادين الحضارة منذ أن أضاءت الدنيا بنور الإسلام وعبر العصور .

هذا ولا تقتصر دراسة التاريخ ومطالعته للمعرفة والهواية فقط ولكن لاستخلاص العظات والعبر فالتاريخ هو سياسة الماضي وسياسة الماضي تاريخ المستقبل ، قال تعالى في معرض أخباره عن قرون خلت : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ سورة ق ٣٧ / ٥٠ .

وقال ابن خلدون :

إعلم أن التاريخ فن غزير المذهب شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم ، والملوك في سِيَرهم وسياستهم . حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة . . . !!

قال تعالى : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

فإذا كانت هذه فائدة التاريخ كان على المؤرخ من أجل تحقيق هذا الهدف تحري الحقيقة عند تدوينه للتأريخ أو عند نقله لحادثة ما بعيداً عن الخيال والهوى لأنه بالنتيجة سيحظى بأعمال الانسان وبالتالي حقيقة هذا الانسان .

قال ابن خلدون أيضاً :

.. كثيراً ما وقع للمؤرخين من المغالط في الوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها فضلوا عن الحق وتاهوا ولا بد من رد الأخبار الى الأصول وعرضها على القواعد . . . !!

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ صدق الله العظيم

الناشر

الباب الأول

عصر نفوذ الأتراك
(٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ)

تمهيد

يعتبر عهد الخليفة المتوكل العباسي بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذي انتهى بسقوطها على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ. ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل: نذكر منها اعتماد العباسيين على الفرس ثم على الأتراك، وإيثارهم إياهم بالمناصب المدنية والعسكرية على العرب الذين كانوا مادة الإسلام وقوام الدولة العربية، فضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة.

ومما أثار حقد العرب العباسيين، فتك هؤلاء ببني أمية، وتمثيلهم بهم، ومناصبتهم العلويين العداء؛ فقام العلويون في وجههم، لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحق بها منهم، إذ أن الدولة قامت باسمهم وبسيوف أشياعهم.

ذلك إلى ضعف قيمة العهود والمواثيق في نظر الخلفاء العباسيين ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم، مع مخالفة ذلك لقوله تعالى، ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**﴾. [سورة النحل: ١٦: ١٩].

ومن ذلك ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة، كالراوندية والخرمية وأصحاب المقالات وطوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم، مما أدى إلى انقسام المسلمين شيعاً وطوائف يناهض بعضها بعضاً، بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها.

وعلى الرغم من هذه العوامل، كان للعصر العباسي الثاني ميزاته ومظاهر حضارته، فقد اشتهر فيه كثير من الخلفاء الذين حاولوا إعادة الدولة العباسية إلى ما كانت عليه من قوة ومجد، كما ظهر فيه بعض الدويلات الصغيرة المتنافسة، كالسامانية والبويهية والحمدانية

والغزنوية والسلجوقية. فكان لتلك الدويلات أثر محمود في تقدم الحضارة الإسلامية وتشجيع العلوم والآداب والفنون وغيرها، مع أنها كانت من عوامل ضعف الدولة العباسية.

وسيتضح من ترجمة حياة خلفاء هذا العصر مدى استبداد الأتراك بالسلطة في جميع أمور الدولة، وكيف أصبح في أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم.

كان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية. «وكان هذا الانقلاب من الحكم العربي إلى الحكم التركي مظهراً من مظاهر الثورة التي أحس بها معظم أجزاء الخلافة وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها في النهاية»(١).

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين آذوا أهل بغداد، ففكر في نقلهم إلى سامرا التي اتخذها قاعدة لخلافته. وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس وتآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك الذين أصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية، حتى إن المعتصم نفسه شكا منهم في أواخر أيامه، وعبر عن أسفه لأحد أعوان أخيه المأمون لاعتماده عليهم(٢).

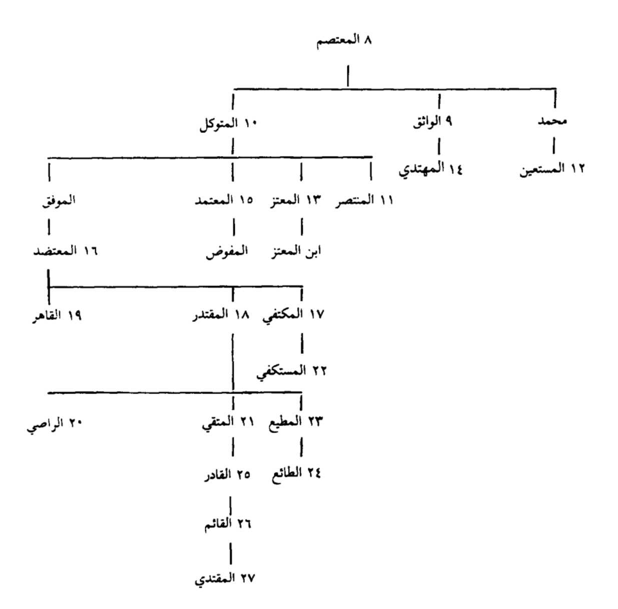
خلفاء العصر العباسي الثاني
(٢٣٢ - ٨٤٧/٤٤٧ - ١٠٥٥)

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ المتوكل	٢٣٢	٨٤٧	١٠ القاهر	٣٢٠	٩٣٢
٢ المنتصر	٢٤٧	٨٦١	١١ الراضي	٣٢٢	٩٣٤
٣ المستعين	٢٤٨	٨٦٢	١٢ المتقي	٣٢٩	٩٤٠
٤ المعتز	٢٥٢	٨٦٦	١٣ المستكفي	٣٣٣	٩٤٤
٥ المهتدي	٢٥٥	٨٦٩	١٤ المطيع	٣٣٤	٩٤٦
٦ المعتمد	٢٥٦	٨٧٠	١٥ الطائع	٣٦٣	٩٧٤
٧ المعتضد	٢٧٩	٨٩٢	١٦ القادر	٣٨١	٩٩١
٨ المكتفي	٢٨٩	٩٠٢	١٧ القائم	٤٢٢	١٠٣١
٩ المقتدر	٢٩٥	٩٠٨	١٨ المقتدي	٤٦٧	١٠٧٥

(١) Lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages, P. 29.

(٢) الطبري ج ص ٨ - ٩. أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السابعة) ص ١٧٣.

جدول يمثل تسلسل الخلفاء في الحكم



المتوكل على الله (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ):

ولد جعفر بن المعتصم في سنة ٢٠٦ هـ بفم الصلح، وهي بلدة على نهر دجلة على مقربة من مدينة واسط، ويكنى أبا الفضل. وأمه أم ولد يقال لها شجاع، «كانت ـ كما يقول الخطيب البغدادي[1] ـ من سروات النساء سخاءً وكرماً»، قيل إنها تركية، وقيل أيضاً إنها خوارزمية. وقد تربت منذ حداثة سنها في بيت المعتصم واشتركت في تربية ابنها وإعداده لاعتلاء العرش.

ولى الواثق أخاه المتوكل إمارة الحج في سنة ٢٢٧ هـ، ولما عاد غضب الواثق وحد من نفوذه. فقد ذكر المؤرخون أن أم الواثق كانت أم ولد تسمى قراطيس، وكانت شجاع أم المتوكل أم ولد كما تقدم، فلم يكن الأخوان شقيقين. وذكر الطبري (جـ ١١ ص ٢٧) أن جعفراً رأى في المنام كأن سكراً سليمانياً يسقط عليه من السماء مكتوب عليه جعفر المتوكل على الله، فقال له بعض خاصته: «هي والله أيها الأمير أعزك الله الخلافة»، وبلغ الواثق ذلك فحبسه وضيق عليه.

مات الواثق ولم يعهد لابنه محمد. وقد سئل وهو في مرضه الذي مات منه أن يوصي بالخلافة فقال كلمته المأثورة: «لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً» مقتفياً في ذلك أثر عمر بن الخطاب. وكان محمد صغيراً لا يصلح للخلافة، ولم يكن طامعاً فيها لانحراف بعض رؤساء الدولة عنه وخوفهم من أن يثأر لنفسه منهم.

وكان المتوكل يميل إلى أهل السنة ويعمل على نصرتهم، وضرب بالسياط رجلاً سب أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة. وقد بدأ حكمه بنهي الناس عن القول بخلق القرآن الذي شغل الدولة العباسية في عهد المأمون والمعتصم والواثق.

ذكر المسعودي[2] أن المتوكل «أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة»، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية. وكان لعمله هذا أثر حسن في نفوس المسلمين فأولوه احترامهم وبالغوا في تعظيمه والثناء عليه، حتى قال

---

(١) تاريخ بغداد ج ٧ص ١٦٦.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٩.

قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رده المظالم، والمتوكل في إحياء السنة.

لكن المتوكل أساء إلى نفسه بسياسة العنف التي انتهجها في معاملة العلويين، فأمر في سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من الدور، وأن يحرث ويبذر، ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المطبق (سجن)، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه[1]. وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين، وخاصة أهل بغداد الذين ردوا على الإهانات التي ألحقها بالعلويين بسببه في المساجد والطرقات.

ومن الآفات الطبيعية التي وقعت في عهد المتوكل هبوب عاصفة شديدة على بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق، فاحترق الزرع والماشية، وانقطعت المواد الغذائية عن الأسواق في بغداد وغيرها، فانتشرت المجاعة وهلك كثير من الناس.

وقد انتهز الروم فرصة الضعف الذي طرأ على الدولة العباسية فاستأنفوا غاراتهم على أراضيها، فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم. ثم غزوا قاليقلا (قيليقيا) جنوبي آسيا الصغرى وهزموا أهلها هزيمة منكرة، إلى غير ذلك من الحروب التي سيأتي الكلام عليها في باب العلاقات الخارجية.

ويظهر أن المتوكل كان يروم نقل الخلافة إلى الشام ويجعل العرب عمادها وأعوانها، تبرماً بالترك وكثرة ما أحدثوا في الدولة من فوضى وإفساد للشئون العامة، حتى ضاق بهم أهالي العراق ولم ينج الخلفاء من شرهم.

اشتهر المتوكل بالحلم. فقد ذكر محمد بن أبي عون أنه لما أتى بمحمد بن المغيث إليه وقد دعا بالنطع والسيف قال له المتوكل: يا محمد ما دعاك إلى المشاقة؟ قال: الشقوة يا أمير المؤمنين، وأنت ظل الله الممدود بينه وبين خلفه. إن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو عن عبدك. فقال المتوكل: أفعل خيرهما وأمن عليك، ارجع إلى منزلك. قال ابن المغيث: يا أمير المؤمنين! الله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) الطبري ج ١١ص ٤٤.

وفي سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده: محمداً وسماه المنتصر، وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز، وإبراهيم وسماه المؤيد، «وعد لكل واحد منهم لواءين، أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل»[١].

على أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر، لمحبته لقبيحة أم المعتز، ويظهر أن ذلك كان راجعاً إلى ما حاكه رجال بلاطه من دسائس لإقصاء المنتصر والمؤيد.

ولكن المنتصر غضب لذلك فدبر مع الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه. ولا غرو فقد حاول بعض الأتراك الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق، ولكنهم أخفقوا في تدبيرهم بفضل بغا الكبير والفتح بن خاقان[٢]. على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركي على قتل المتوكل، فضربه بالسيف، واستقرت الخلافة لابنه المنتصر.

ومن هنا يتبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك في الدولة العباسية وأثرهم في تصريف شئونها فيما بعد، حتى إن الخليفة العباسي أصبح مسلوب السلطة مهيض الجانب ضعيف الإرادة.

«كانت أيام المتوكل - كما يقول المسعودي - (جـ ٢ ص ٢٩٤) في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها، أيام سراء لا ضراء، كما قال بعضهم: كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص الشعر وأماني الحب وأيام الشباب».

ويقول ميور[٣]: «إن مدح المؤرخين لعهد المتوكل الذي دام خمس عشرة سنة أعاد في خلالها المذهب السني إلى ما كان عليه وشجع الشعراء والعلماء، يخفف بعض الشيء مما اشتهر به هذا العهد من الظلم المنطوي على القسوة والانغماس في الملاذ والتطرف في الآراء الدينية».

المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ):

خلف المتوكل ابنه وقاتله المنتصر بالله في شوال سنة ٢٤٧ هـ، وادعى أن الذي قتل

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٨.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٣) The Caliphate, P. 530.

أباه هو الفتح بن خاقان، وأنه قتل أخذاً بثأر أبيه، وبايعه الناس بالخلافة، وبعث بنسخة البيعة إلى الأمصار[١].

ولما تمت البيعة للمنتصر حسن إليه الأتراك خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يخشون بأسهما. وكتب كل واحد منهما رقعة بخطه أنه خلع نفسه من البيعة.

كان المنتصر بخلاف أبيه يحسن إلى العلويين، فأزال عنهم ما كانوا فيه من الخوف وسمح لهم بزيارة قبر الحسين، وكان أبوه قد منعهم من ذلك، فأنشد يزيد المهلبي:

ولقد بررتَ الطالبية بعد ما ذموا زماناً بعدها وزمانا
ورددت ألفة هاشم فرأيتهم بعد العداوة بينهم إخوانا

«كان المنتصر ـ على ما وصفه ابن الأثير (ج ٧ ص ٢٩) ـ عظيم الحلم راجح العقل غزير المعروف راغباً في الخير جواداً كثير الإنصاف حسن العشرة». وروى المسعودي[٢] أن علي بن يحيى المنجم قال: «ما رأيت أحداً مثل المنتصر ولا أكرم أفعالاً بغير تبجح منه ولا تكلف».

وعلى الرغم من أن المنتصر كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه، لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول: «هؤلاء قتلة الخلفاء»، ففكروا في قتله وأغروا طبيبه ابن طيفور بذلك وأعطوه ثلاثين ألف دينار، ففصده بريشة مسمومة، في ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ وله من العمر ست وعشرون سنة.

يقول صاحب الفخري (ص ٢١٧): «كان المنتصر شهماً فاتكاً سفاكاً للدم. لما قتل أباه تحدث الناس بأنه لا يطول له العمر بعده، وشبهوه بشيرويه بن كسرى حين قتل أباه ولم يستمتع بالملك بعده. وقالوا: لما قتل المنتصر أباه وبويع له بالخلافة، جلس على بساط لم ير الناس مثله، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية، فنظر إليها المنتصر واستحسنها وقال لمن حضر: هل تعرفون معناها؟ فأحجموا وقالوا لا نعرف، فاستحضر رجلاً عجمياً غريباً وأمره بقراءتها، فأحجم الرجل، فقال له المنتصر: قل وما عليك بأس فليس لك ذنب؛ فقال الرجل: على هذا البساط مكتوب: أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٧١ ـ ٧٢. (٢) مروج الذهب ٢ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

إلا ستة أشهر. فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه مغضباً، فلم تتم ستة أشهر حتى مات».

المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥٢):

ولما مات المنتصر اجتمع القواد وتشاوروا فمن يولونه الخلافة بعده، وأجمع رأيهم على تولية أحمد بن محمد المعتصم؛ وبايعوه وله من العمر ثمان وعشرون سنة ولقب المستعين بالله. وكان العباسيون لا يأمنون جانب الأتراك، كما كان هؤلاء يعملون على تولية الخلافة من يطمئنون إليه من أمراء البيت العباسي. لذلك لم يرضوا بأن يولوا أحداً من أولاد المتوكل حتى لا يثأر منهم لقتل أبيه المتوكل وسم أخيه المنتصر[١].

على أن الأتراك وعلى رأسهم باغر التركي الذي اشترك في قتل الخليفة المتوكل، سرعان ما قلبوا للمستعين ظهر المجن، ولا سيما بعد أن اتصل إلى بمسامعهم أنه عول على القضاء عليهم وهنا انقسم الأتراك على أنفسهم: فريق منهم، وعلى رأسه وصيف وبغا، صحب الخليفة إلى بغداد، وفريق آخر طلب إليه العودة إلى سامرا، واعتذروا عما بدر منهم، فامتنع عن تلبية طلبهم[٢].

ولما رأى الأتراك تنكر المستعين (بن محمد بن المعتصم) لهم وامتناعه عن العودة إلى سامرا، خلعوه وبايعوا ابن عمه المعتز بن المتوكل. ومن ثم قامت الحرب بينهما ودامت عدة أشهر، وأثر ذلك في حالة البلاد الاقتصادية، فغلت الأسعار وعظم البلاء[٣].

ولما انهزم الخليفة المستعين استجار بمحمد بن عبد الله بن طاهر، فخذله ومال إلى المعتز، وانصرف أبو أحمد الموفق من بغداد إلى سامرا، فخلع عليه المعتز وتوج ووشح بوشاحين، وخلع على من كان معه من قواده، وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة.

وقد أخرج الخليفة المعزول إلى واسط، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه، فأحسن إليه وأطلق له الحرية في التنقل والصيد. وعلى الرغم من ذلك الفوز الذي أحرزه الأتراك بخلع المستعين ونفيه، أوجسوا شراً من بقائه حياً، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٩ ـ ٥٠.

تثبت إلا إذا قتل المستعين، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز التي خافت على حياة ولدها أن تمتد إليه يد الأعداء، فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه ولاية واسط، فلم يرض أن يقتل خليفة له في رقبته بيعة، فأرسلوا سعيداً الخادم أحد حجاب القصر في شرذمة الجيش إلى واسط، فتولى قتل الخليفة بنفسه [١].

وصفوة القول أن موقف المستعين من الأتراك كان كما وصفه أحد الشعراء:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

ويقول صاحب الفخري (ص ٢٢٢): «واعلم أن المستعين كان مستضعفاً في رأيه وعقله وتدبيره، وكانت أيامه كثيرة الفتن ودولته شديدة الاضطراب، ولم يكن فيه من الخصال المحمود إلا أنه كان كريماً وهوباً».

المعتز ـ المهتدي:

كان المعتز بن المتوكل ـ كما يصفه صاحب الفخري ـ (٢٢٠) جميل الشخص حسن الصورة، ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس. إلا أن الأتراك كانوا منذ قتل المتوكل قد استولوا على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه».

ومما يدل على مدى تغلغل الأتراك في أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم هذه العبارة التي رواها صاحب الفخري (ص ٢٢١) قال: «ولما جلس المعتز على سرير الخلافة، قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة. وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا: فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلا من ضحك».

وكان المعتز يخاف الأتراك ويخشى بأسهم ولا يأمن جانبهم: وكان بغا الصغير أشد هؤلاء خطراً عليه. ويصف ابن الأثير قتل المعتز في هذه العبارة: «فدخل إليه جماعة منهم

---

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٦٠ ـ ٦١.

فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه. وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر. وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان. وكانت أمه قبيحة قد اتخذت من دارها سرداباً، فخرجت منه هي وأخت المعتز. وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحداً يجوز إليها، وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة (جرعة) من ماء البئر فمنعه ثم أدخلوه سرداباً وحصحصوا عليه، أي جعلوه في بيت وسدوا بابه، فمات.

استخفت قبيحة بعد موت ابنها المستعين خوفاً على حياتها من شر صالح بن وصيف، وأخفت ما عندها من المال وقدره ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار، عدا كثيراً من الجواهر والحلي والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذي لا تعرف له قيمة ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ورفضت أن تدفع للثائرين خمسين ألف دينار فقط[١].

أما المهتدي بن الواثق فقد ولي الخلافة بعد قتل أخيه المعتز سنة ٢٥٥ هـ، وظهرت في أيامه قبيحة أم المعتز بعد أن استخفت مدة، كما قام العامة في مستهل خلافته بثورة في بغداد وأبوا مبايعته، ولكنه استعمل المال في إخماد هذه الثورة فبايعوه. ثم لم يلبث الجند أن ثاروا عليه بسبب استيلاء سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد على رواتبهم، وعبث الخراسانيون بالعامة فعولوا على التخلص من قائدهم وطردوه. كما أذكى العلويون نار الثورة في كثير من البلاد الإسلامية. فقد ثار الحسن بن زيد العلوي بطبرستان، وبدأت ثورة الزنج التي هددت الدولة العباسية زهاء أربع عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ). وشق الخوارج بزعامة مساورة الشاوري عصا الطاعة في الموصل.

ومن أهم هذه الثورات: ثورة أحمد بن عيسى بن الشيخ. وكان أبوه عيسى والياً على فلسطين والأردن. ولما مات تغلب ابنه أحمد على دمشق وامتنع عن حمل المال إلى دار الخلافة، وانتهز فرصة اضطراب حبل الأمور في حاضرة الدولة، فحدثته نفسه بالعصيان والاستيلاء على سائر بلاد الشام وطمع في مصر.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

وقد عمد الخليفة المهتدي إلى التخلص منه بالمكايد والخدع، فولاه أرمينية على أن يستخلف من ينوب عنه في ولاية الشام ليقضيه عنها، وندب أحمد بن طولون لقتاله على أن يتقلد بلاد الشام بعد إخضاعه [١]. ولكن سرعان ما وافى ابن طولون وهو في الطريق كتاب من العراق يأمره بالعودة إلى مصر. وقدم ماجور التركي من العراق وهزم قوة ابن الشيخ واستولى على دمشق، ولحق ابن الشيخ بنواحي أرمينية فتولى ماجور أعمال الشام كلها.

وكان المهتدي ـ كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل ـ ألعوبة في أيدي الأتراك. وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من الضعف وما بلغته الخلافة من الوهن والانحلال من هذه العبارة التي رواها الطبري: «رفع المهتدي يديه إلى السماء ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو، فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه. اللهم تول كيد من كايد المسلمين، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا؟ اللهم إني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نكب المسلمون فيه، ناصراً لهم ودافعاً عنهم، اللهم فآجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان، ثم انحدرت دموعه يبكي» [٢].

نعم! لقد أصبح الخليفة العباسي في ذلك العصر ألعوبة في أيدي هؤلاء الجند الذين كانوا تحت إمرة موسى بن بغا. ولكن المهتدي اتخذ من هذا الضعف قوة لأخذ الثأر. وكيف يثأر لنفسه ولا جيش يحميه؟ لقد لجأ إلى الحيلة والدهاء وحاول أن يستميل إليه باكباك أحد قواد الجيش، فطلب إليه أن يقوم بقتل موسى بن بغا على أن يؤمره على الجيش من بعده. ولكن باكباك لم يثق بالخليفة ووعوده، وسار إلى موسى وعرض عليه الكتاب، واتفقا فيما بينهما على أن يسير باكباك إلى المهتدي متظاهراً بالإخلاص له حتى يدبر قتله.

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتل الخليفة على أثر قتلة بعض الموالي، فثاروا عليه، ثم أسروه وخلعوه ولم يكتفوا بذلك بل عذبوه حتى مات في رجب سنة ٢٥٦ هـ [٣].

وقد وصف المسعودي [٤] الخليفة المهتدي في هذه العبارة: «وأمر بالمعروف ونهى

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢١٤. المقريزي خطط جـ ٢ ص ٣١٥.

(٢) الطبري جـ ١١ ص ١٧٣.

(٣) السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢.

(٤) الذهب جـ ٢ ص ٤٣١.

عن المنكر وحرم الشراب، ونهى عن القيان وأظهر العدل. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب ويؤم بهم، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريق الواضحة، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة حتى قتلوه».

وكان المهتدي أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة. وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول: إني أستحيي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس. وكان يجلس للمظالم فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم، كما كان يتقلل في مأكله وملبسه(١).

روى إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين قال: إن المهتدي وجدوا في متاعه سفطاً فيه جبة صوف وكساء وبرنس. وكان يلبسه في الليل ويصلي فيه ويقول: أما تستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز؟ وكان قد أطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم. وقد أثر عنه أنه كان إذا صام أفطر على الخبز والزيت والخل والملح(٢).

المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ):

وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على خليفة المهتدي في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ، وبايعوا المعتمد بن المتوكل بالخلافة، وكان إذ ذاك محبوساً بالجوسق. يقول صاحب الفخري (ص ٢٢٦): «وقد غلب أخوه الموفق حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها. وذلك أن صاحب الزنج أو دعيّ آل علي، لما ثار في وجه الخلافة العباسية واستفحل أمره في هجر وبلاد البحرين، وقدم البصرة، أنفذ الخلفية المعتمد إلى مكة رسولاً أحضر أخاه أبا طلحة (٢٥٧ هـ) ـ وكان الخليفة المهتدي قد نفاه إليها ـ وولى عهده ابنه جعفر، وسماه المفوض إلى الله، وولى أخاه أبا أحمد طلحة من بعده وسماه الموفق، وقسم الدولة العباسية بين ابنه وأخيه، فخص الموفق بالبلاد الشرقية، وولى المفوض البلاد الغربية، وضم إليه موسى بن بغا، وولاه أفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان وغيرها، فحكمها باسمه؛ واتخذ موسى بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كاتباً له. وشرط الخليفة أن يختص المفوض والموفق كل بعمله لا ينظر أحدهما في عمل

---

(١) الفخري ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٣ ـ ٨٤.

الآخر، وأن يقوم كل منهما بالنفقة على قسمه من خراج ذلك القسم، وأمر بكتاب البيعة فحفظ في الكعبة. على أن هذا العمل لم يرض الموفق، لما كان يضمره لأخيه من حسد، وما كان يراه من عدم أهليته للخلافة؛ وزاد في حقده عليه تقديمه ابنه المفوض عليه في الخلافة، يقول صاحب الفخري (ص ٢٢٦): «كان المعتمد مستضعفاً، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره. وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة: للمعتمد الخطبة والسكة، والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقود العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء. وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته». ويقول السيوطي[١]: «وانهمك المعتمد في اللهو واللذات واشتغل عن الرعية، فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة».

أما موسى بن بغا فهو أحسن الأمثلة التي تبين لنا مدى اتساع نفوذ الأتراك في ذلك العصر: كان بغا الكبير ابن موسى من قواد الجيش العباسي أيام الخليفة المعتصم. وقد اشترك في كثير من الحروب التي شبت للذود عن الخلافة، وأبدى فيها شجاعة ممتازة رفعته فوق غيره من القواد، حتى سمح له أن يتزوج من بيت الخلافة، فكان ـ كما يقول الطبري ـ ابن خالة المتوكل.

وقد بدأ موسى حياته في الجندية، ودرج في الجيش حتى أصبح من أكبر قواده، وقام بدور هام في الثورات التي أقامها الأتراك في وجه الخلفاء: فطوراً نراه يذب عن عرش الخلافة وطوراً يتآمر مع المتآمرين لثل هذا العرش. كما نرى الخلفاء يندبونه لتهدئة الثائرين على الدولة. ولما ولي المعتمد الخلافة صانع الأتراك وخاصة قائدهم موسى بن بغا وبالغ في إكرامه، فأرسله في سنة ٢٥٩ هـ لقتال صاحب الزنج، وشيعه إلى خارج مدينة سامرا وخلع عليه. ولما ولى ابنه المفوض العهد ضم إليه موسى، فغدا الساعد الأيمن لكل من المفوض والموفق؛ يستعينان به على إخماد ثورة الزنج تارة، وعلى كبح جماح الخارجين على الدولة تارة أخرى، حتى وافته منيته سنة ٢٦٤ هـ.

وقد وقع في عهد الخليفة المعتمد أحداث هامة كان لها أثر كبير في تاريخ الدولة العباسية: أهمها ثورة الزنج، واختفاء الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الإثني عشرية. وتأسيس طائفة الإسماعيلية التي تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢.

وقد أثارت ثورة الزنج الطاحنة عداء الموفق لابن طولون وإلى مصر. ولم يكن الموفق بعيد النظر، فلو أنه استمال ابن طولون الذي لبى نداءه أول الأمر وأمده بما يعينه على حرب هذا الخارجي ـ على الرغم من أنه لم يكن تابعاً له ـ لاستطاع أن يوجه همه ويبذل كل جهوده في محاربة صاحب الزنج والقضاء عليه وعلى أتباعه، قبل أن يستفحل خطرهم ويتفاقم شرهم في بلاد الدولة العباسية الشرقية التي كان يليها الموفق.

نعم! لقد نفذت موارد الشرق أو كادت لما حل به من البلاء على أثر هذه الحروب المتصلة التي شنها الموفق على الزنج. هذا إلى ما كان من تثاقل الأهالي عن حمل الخراج وانصراف الخليفة إلى ملاذه، فأقبل على الصيد واللعب ومنادمة النساء، فضاعت حرمة الخلافة واستقلَّ العمال بالولايات.

ولم ير الموفق الذي ندبه الخليفة لمحاربة الزنج بدًّا من الالتجاء إلى أحمد بن طولون؛ فأرسل إليه مع تحرير خادم الخليفة المتوكل كتاباً يشكو فيه سوء الحالة المالية في بلاده، وطلب إليه أن يمده بالمال الذي يساعده عن الاستمرار في محاربة صاحب الزنج، ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى ابن طولون كتاباً يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة وكل ما جرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الرقيق والخيل والشمع والطراز[1] وغير ذلك. كما أرسل إليه أيضاً كتاباً سرياً يقول فيه إن أبا أحمد الموفق إنما أرسل رسوله ليستقصي أخباره وليكون عيناً عليه؛ ويشير على ابن طولون بأن يأخذ الحيطة لنفسه، لأن الموفق كاتب قواد مصر ليفسدهم عليه[2].

وقد بعث ابن طولون مع رسول الموفق مليوناً ومائتي ألف دينار، وشيعه بنفسه حتى وصل إلى العريش؛ وبذلك خالف ابن طولون الخليفة وأرسل المال إلى الموفق، لأنه كان يعلم حقيقة الحال في البلاد الشرقية، كما وقف على مدى الخطر الذي كان يهدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج.

---

(١) الطراز من شارات السلطان وهو كتابة اسم الخليفة مع كلمات أخرى يتفاءلون بها في ثيابهم الخاصة. وقد سميت الدور التي يصنع بها الطراز «دور الطراز» كما كان القائم عليها يسمى «صاحب الطراز» ـ انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٢ ـ ٢٩٣. الخطط للمقريزي جـ ٢ ص ٤٠٧,٢١٢,٧٩ كتاب أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية للدكتور أدولف جروهمان ترجمة المؤلف جـ ١ ص ٣ ـ ٤ Encylopaedia of Islam. Tiraz S.V.

(٢) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ٤٩ ـ ٢٠. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

على أن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع، وأظهر الجفاء في كتاب طويل أرسله إليه، ثم عمد إلى اختيار رجل يصرف به ابن طولون عن مصر، وأوعز إلى موسى بن بغا - وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وإقداماً - بصرف ابن طولون عن مصر وتقليدها ماجور والي الشام. فكتب موسى إلى ماجور كتاب التقليد وأنفذه إليه، ولكنه توقف عن إرساله إلى ابن طولون، لما كان بينهما من النسب، ولأنه آنس في نفسه العجز عن مناهضته. وقد خشي ابن بغا أن يزداد نفوذ ابن طولون، لأن في ولايته على مصر والشام تهديداً لسلطة الخليفة والأتراك معاً. وسرعان ما سار إلى الرقة وأخذ يستعد لقتاله؛ وأقام ابن بغا بالرقة عشرة أشهر يتحين الفرص لقتال ابن طولون؛ ولكن أحواله اضطربت لتألب الجند عليه ومطالبتهم بدفع أرزاقهم؛ فعاد إلى بغداد حيث عرضت له علته، فحل إلى سامرا وأقام بها شهرين ومات في شهر صفر من سنة ٢٦٤ هـ[١].

على أن الموفق لم يستطع الكيد لابن طولون والنيل منه بعزله عن مصر. فعمد إلى عزله عن الثغور الشآمية. بيد أن الخليفة أمر بردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها.

وسرعان ما سار ابن طولون بجيشه نحو بلاد الشام، فدانت له أمهات مدنها ودعي له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥ هـ) وجعل الرقة مقراً لولايته الجديدة. ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لإخماد ثورة ابنه العباس، ولكن لما بلغه خروج لؤلؤ والي الرقة عليه خرج ثانية إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ)، واستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في طريقه إلى الشام بلغه خروج أهل طرسوس وعزلهم واليه عليهم، فعول على السير إليها.

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال الموفق بحرب صاحب الزنوج، وخرج من سامرا متظاهراً بالصيد (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ)، وأرسل ابن طولون قائدين من قواده لانتظار الخليفة بالرقة. وأراد الخليفة أن يمر على إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة، وكان الموفق أرسل إليه صالح بن مخلد يأمره برد الخليفة والقبض على من معه من القواد ويمنيه بأطيب الأماني. ولما وصل المعتمد إلى الحديثة لقية ابن كنداج وتظاهر بموالاته له؟[٢]، وانحدر به إلى سامرا، ومنعه من نزول دار الخلافة. ولا غرو فقد شل الموفق يده عن مباشرة أمور الدولة وحجر عليه. وقد قيل إنه احتاج يوماً إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها[٣].

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) راجع سيرة ابن طولون لابن الداية ص ٦٨، ٦٩ الكندي: كتاب الولاة ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٧ - ١٨١.

وصفوة القول أن الخليفة المعتمد كان على حد قول السيوطي[١]: «هو أول خليفة قهر وحجر عليه ,ونكل به».

ولم يزل العداء مستحكماً بين الموفق والطولونيين في مصر بعد وفاة أحمد بن طولون؛ فقد واصل ابنه خمارويه لعن الموفق على المنابر، وبعث الواسطي كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف. وعززه من البحر بأسطول قوي. وخرج الموفق من بغداد، وانضم إليه ابن كنداج والي الموصل، ومحمد بن أبي الساج والي أرمينية والجبال، واستولوا على دمشق، فلم ير خمارويه بدأً من الخروج بنفسه، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله، وتم الصلح بين ,وآلي مصر ودار الخلافة، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم، ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة.

كانت أيام المعتمد أيام محن وخطوب. ذكر ابن الأثير (ج ٧ ص ١٥٨) أن الحرب اشتعلت في أوائل سنة ٢٧٨ هـ بين أصحاب وصيف الخادم والبربر وغيرهم، وأنه قتل جماعة كبيرة من الفريقين. وفي هذه السنة توفي أبو أحمد الموفق بعد أن أعياه النقرس الذي ألم به وهو في بلاد الجبل حتى إنه لم يقدر على الركوب، فعمل له سرير عليه قبة، فكان يقعد عليه وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة، حتى إنه يضع عليها الثلج، ثم صارت علة رجله داء الفيل[٢]. وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة، فقال لهم يوماً: قد ضجرتم من حملي، بودي أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسي وآكل وأنا في عافية. وقال في مرضه: أطبق ديواني على مائة ألف مرتزق ما أصبح فيهم أسوأ حالاً مني».

وصل الموفق إلى داره في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ٢٧٨ هـ ومات، فحمل أنصاره الخليفة المعتمد وأولاد من المدائن. ومات الموفق ودفن بالرصافة بعد أن قبض على أزمة الأمور في الدولة العباسية وغلب على أخيه المعتمد حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها.

وكان الموفق ـ مع ذلك ـ «عادلاً حسن السيرة يجلس للمظالم، وعنده القضاة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣.

(٢) هو ورم في الساق يسيل منه ماء..

وغيرهم، فينتصف الناس بعضهم من بعض». وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه والسياسة وغير ذلك. قال يوماً: إن جدي عبد الله بن العباس قال إن الذباب ليقع على جليسي فيؤذيني ذلك ـ وهذا نهاية الكرم ـ وأنا والله أرى جلسائي بالعين التي أرى بها إخواني. والله لو تهيأ لي أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان. وكان الموفق يميل إلى الأبهة والترف.

جلس أبو العباس بن الموفق للعزاء، واجتمع القواد وبايعوه بولاية العهد بعد المفوض إلى الله بن المعتمد، ولقبوه المعتضد بالله، وتحولت إليه سلطة أبيه. فضعف أمر الخليفة المعتمد. فأشهد على نفسه أنه خلع ابنه المفوض من ولاية العهد وبايع لأبي العباس المعتضد. ومات المعتمد بعد أشهر فجأة حتى تواترت الإشاعات بأنه سم. وقد بقي في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، كانت عهد فتن واضطرابات، على الرغم من ازدهار عصره بطائفة من العلماء الأعلام كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصري المشهور والقاضي بكار.

المعتضد بالله ـ والمكتفي بالله:

لما مات الخليفة المعتمد بويع لأبي العباس بن الموفق ولقب المعتضد بالله وقد أحسن المعتضد إلى آل علي، وأخذ يشيد بفضله ويذم الأمويين على أن بعض خاصته نصح له بأن يعدل عن هذه السياسة حتى لا يمهد السبيل إلى رعاياه بالالتفاف حول العلويين فتضيع هيبة العباسيين ويخرج الأمر من أيديهم. كذلك اكتسب المعتضد محبة الناس عند ما أصدر أوامره بإبطال ديوان المواريث، وبأن يورث ذوو الأرحام. كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها. ومنع القصاص والمنجمين من الجلوس في الطريق، وصلى بالناس صلاة الأضحى، فكبر في الركعة الأولى ستاً وفي الثانية واحدة، ولم تسمع منه الخطبة[١].

وقد أقر المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب في الوزارة. وقد عهده خرج عمرو بن الليث الصفار أحد زعماء الصفارية واستولى على كثير من بلاد الفرس، كما ظهر في عهده القرامطة في الكوفة على يد حمدان قرمط، وفي البحرين على يد أبي سعيد الجنابي وظهر

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

ابن حوشب في بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدي، وأبو عبد الله الشيعي الذي نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب وحارب كثيراً من زعماء البربر ومهد للقضاء على دولة الأغالبة فيما بعد. كما ظهر في عهد المعتضد نصر بن أحمد الساماني مؤسس الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر على ما سيأتي الكلام على ذلك في الباب الرابع.

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توثيق العلاقات بين خمارويه بن أحمد بن طولون والخليفة العباسي. ولا غرو فقد استطاع خمارويه أن يكسب رضا المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده. ويذكر أبو المحاسن[١] «أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه اثنتي عشرة خلعة، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً». وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقبت بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي، ولكنه اختارها لنفسه.

وكان المعتضد وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة، إذا غضب على قائد أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه. وكان شهماً جلداً موصوفاً بالرجلة، قد لقي الحروب وعرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام. وهابه الناس ورهبوه أعظم رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط علته. وكانت أيامه كثيرة الأمن والرخاء، وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ورفع الظلم عن الرعية، كما كان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس.

وقد وصفه ابن الأثير[٢] في هذه العبارة: «كان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق، وكان شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم، وكان فيه شح. بلغه خبر وصيف خادم ابن أبي الساج وعليه قباء أصفر. فسار من ساعته وظفر بوصيف وعاد فدخل أنطاكية وعليه القباء، فقال بعض أهلها: الخليفة بغير سواد فقال بعض أصحابه: إنه سار فيه ولم ينزعه إلى الآن. وكان عفيفاً، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه».

وقد نبغ في عهد المعتضد كثير من الكتّاب والمفكرين والشعراء، نخص بالذكر منهم ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) مثقف الخليفة المكتفي في حداثته، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمبرد اللغوي المشهور (٢٨٦ هـ) وابن قتيبة (٢٧٦ هـ)، والبلاذري (٢٧٩ هـ)، وأبا حنيفة

---

(١) النجوم الزهراء جـ ٣ ص ٧٨. (٢) جـ ٧ ص ١٨٣.

الدينوري (٢٧٦ هـ)، وابن واضح اليعقوبي (٢٨٢ هـ)، وكانوا من أكابر مؤرخي هذا العصر. كما نبغ ثابت بن قرة الحراني الرياضي المشهور، وابن الفقيه الهمذاني الجغرافي وكلاهما مات حول سنة ٢٨٧ هـ. ومن أفذاذ شعراء هذا العصر ابن المعتز وابن الرومي وكان المعتضد نفسه شاعراً يجيد الشعر[١].

لما مات المعتضد ولي الخلافة بعده ابنه أبو محمد وتلقب المكتفي بالله. وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك، وكان يضرب المثل بحسنها. وكان عند موت أبيه بالرقة، فقام القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب بأخذ البيعة له. وقد عاد الخليفة الجديد إلى بغداد ونزل بدار الخلافة، وأقر القاسم بن وهب في الوزارة. وسرعان ما أدركت هذا الوزير الوفاة، فاستوزر المكتفي العباس بن القاسم.

وقد عمل الوزير القاسم بن وهب الذي أخذ البيعة للمكتفي على التخلص من بدر «صاحب جيش المعتضد والمستولي على أمره والمطاع في خدمه وغلمانه». وعزا الطبري ذلك إلى أن هذا الوزير كان قد حاول تحويل الخلافة عن بيت المعتضد في حياته، ولكن بدراً غلام المعتضد لم يوافقه على ذلك، فانتهز هذا الوزير فرصة تغيب بدر في فارس ودبر مؤامرة انتهت باغتياله[٢]، لأنه خاف أن يفشي سر مؤامرته ضد أبناء المعتضد. واتخذ من تغير المكتفي على بدر منذ عهد أبيه المعتضد وسيلة لإيغار صدره عليه، وصور بدراً بصورة الثائر[٣].

وفي عهد المكتفي كان السامانيون أصحاب النفوذ المطلق في فارس، كما تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة، وفي سورية بزعامة زكرويه وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين، وذكر المؤرخون أنهم هاجموا قوافل الحاج في عودتهم من مكة وقتلوا منهم عشرين ألفاً.

وقد خرج القرامطة الشماليون الذين ثاروا في العراق العربي وبادية السماوة وبلاد الشام بزعامة يحيى بن زكرويه، فقتل في سنة ٢٩٠ هـ. ثم خرج أخوه الحسين. كما زالت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة المكتفي سنة ٢٩٢ هـ. ثم أزال نفوذ قرامطة الشمال بقتله زكرويه سنة ٢٩٤ هـ.

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٤٨.
(٢) الطبري جـ ١١ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

وكان المكتفي حسن السيرة محبوباً عند الرعية «سار سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له». ولكنه كان مبذراً كثير البذل. ويقول السيوطي[١] إنه «هدم المطامير التي اتخذها أبوه المعتضد وصيرها مساجد، وأمر برد البساتين والحوانيت التي أخذها أبوه من الناس ليعملها قصراً إلى أهلها». ومن مآثر المكتفي المسجد الجامع بالرحبة والتاج والدار الشاطئية ببغداد.

واشتهر في أيام المكتفي من العلماء عبد الله بن أحمد بن حنبل، وثعلب إمام العربية، والبزاز صاحب المسند، ومحمد بن نصر المروزي الإمام. وأبو جعفر الترمذي شيخ الشافعية في العراق.

ولم يعمر المكتفي في الخلافة. فمات في ١١ من ذي الحجة سنة ٢٩٥ هـ، وكان في ريعان الشباب، فخلفه أخوه المقتدر.

المقتدر ـ القاهر:

خلف المكتفي أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد وهو في الثالثة عشرة من عمره، وتلقب المقتدر، وكان كالريشة في مهب الريح، قلده العباس بن الحسن وزير المكتفي ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز، وانتصح بنصحية ابن الفرات الذي أشار عليه بتولية المقتدر وقال له: اتقِ الله ولا تنصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وجارية هذا وضيعة هذا وفرس هذا، ومن لقي الناس ولقوه وعرف الأمور وتحنك وحسب حساب نعم الناس. قال (ابن الفرات): فاستعاد ذلك مني الوزير دفعات، ثم قال: فبمن تشير؟ فقلت بجعفر بن المعتضد فقال: ويحك! جعفر صبي، قلت: إلا أنه ابن المعتضد. ولم تجيء برجل يأمر وينهى ويعرف ما لنا وممن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبيره أنت[٢]؟

ولكن الوزير العباس بن الحسن لم يلبث أن عمل على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة. ولما بلغ ذلك المقتدر أعطى ابن المعتز بعض المال، فعدل عن رغبته في الخلافة. غير أن هذا لم يمنع أنصاره من تحقيق سياستهم، فلم ير المقتدر بداً من الهرب في ٢٠ من ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ، فحضر القواد والقضاة والأعيان وبايعوا عبد الله بن

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٠، ٢٥١. (٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣.

المعتز بالخلافة ولقبوه المرتضى بالله[١]، فاستورز محمد بن داود بن الجراح وقلد علي بن عيسى الدواوين، وولى أبا المثنى أحمد بن يعقوب القضاء.

روى السيوطي[٢] أن محمد بن جرير الطبري لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال: «ما الخبر؟ قيل: بويع ابن المعتز. قال: فمن رشح للوزارة؟ قيل: محمد بن داود: قال: فمن ذكر للقضاء؟ قيل: أبو المثنى، فأطرق ثم قال: هذا الأمر لا يتم، قيل له: وكيف؟ قال: كل واحد ممن سميتهم متقدم في معناه عالي الرتبة، والزمام مدبر والدنيا مولية، وما أرى هذا إلا إلى إضمحلال، وما أرى لمدته طولاً».

ولما تم الأمر لابن المعتز، أرسل إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار محمد بن طاهر حتى يتيسر له الانتقال إلى دار الخلافة، فعول أتباع المقتدر، وعلى رأسهم مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية على محاربة ابن المعتز، واتجهوا إلى المخرم حيث كان يقيم ابن المعتز، فهرب مع وزيره محمد بن داود وقاضيه أحمد بن داود وحاجبه يمن. وسادت الفوضى بغداد، ووقع النهب والقتل، وحبس المقتدر عبد الله بن المعتز، فظل في حبسه إلى أن مات، وقبض على الفقهاء والأمراء الذين ناصروه وساعدوه على خلعه، وبذلك استقر الأمر للمقتدر من جديد[٣].

كان المقتدر ـ كما وصفه صاحب الفخري (ص ٢٣٣) «سمحاً كريماً كثير الإنفاق، رد رسوم الخلافة من التجمل وسعة الإدارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات».

ولما توطدت سلطة المقتدر استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات. وإليه يرجع الفضل في تهدئة الفتنة التي سادت بغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر، وتم له ذلك في يوم واحد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

ودبَّرْتَ في ساعةٍ دولة ... تميلُ بغيرك في أشهر[٤]

على أن هذا الوزير لم يبق في الوزارة مدة طويلة، فقد قبض عليه المقتدر لأمور نسبت إليه، واستوزر بعده أبا علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان، وكان سيء السيرة كثير

(١) يقول الطبري (جـ ١١ ص ٤٠٥) إنه لقب الراضي بالله. ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ٢٥٢) إنه لقب الغالب بالله.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٦ ـ ٨.

(٤) الفخري ص ٢٣٨.

التولية والعزل، وقد ساءت حالة الدولة في عهد الوزير، حتى إن الخليفة لم ير بداً من عزله وتعيين علي بن عيسى بدله (٣٠١هـ).

على أن بقاء هذه الوزارة لم يطل بسبب إسراف الخليفة المقتدر، وعزله الوزراء والقبض عليهم، وتدخل النساء في أمور الدولة لصغر سنه وانصرافه إلى اللهو. وفي ذلك يقول صاحب الفخري (ص ٢٣٥): واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاته، فخربت الدنيا في أيامه، وخلت بيوت الأموال، واختلفت الكلمة، فخلع، ثم أعيد، ثم قتل.

ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه، وكانت تسمى «السيدة» وبلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهرمانتها من أحد الوزراء كان مصيره العزل لا محالة، وقد اتسعت سلطة «السيدة» إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم، وأدى تدخل النساء في أمور الدولة إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها.

انتشرت الفتن في عهد المقتدر، فخرج عليه مؤنس الخادم في سنة ٣١٧ هـ بعد أن بلغه أنه فكر في تولية هارون بن غريب مكانه، وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتذمر الجيش من إسراف الحاشية والخدم، وضياع الأموال وإفساد الحكم بسبب تدخلهم في أمور الدولة ويلح عليه في إخراجهم من قصره والاستيلاء على ما في أيديهم. فرد المقتدر عليه بكتاب ينفي فيه التهم التي وجهت إليه وإلى رجال حاشيته. فطلب القواد، وعلى رأسهم أبو الهيجاء الحمداني ونازوك، إخراج هارون بن غريب عن بغداد، فأجابهم الخليفة إلى ما طلبوه، وولى هارون الثغور الشامية والجزرية. وخلا الجو بذلك لهؤلاء، فثاروا على الخليفة، وأخرجوه من داره، ونادوا بخلعه، وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة، ولقبوه القاهر بالله[1].

على أن إقامة الحفلات بمناسبة تقليد القاهر الخلافة لم تشبع نهم الجند، «فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السنة، ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردوه إلى الخلافة، فحملوه على

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٢.

أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة». وقد هدأت الأحوال بعودة المقتدر الذي أطلق للجند أرزاقهم وزاد فيها، وباع ما في خزانته من الأمتعة والجواهر[١].

وقد وصف ميور[٢] الدولة العباسية في عهد المقتدر فقال: «إن عهد هذا الخليفة التعس قد هوى بالدولة إلى الحضيض. فقد ضاعت ممتلكاتها في الخارج: فضاعت إفريقية وأوشكت مصر أن تضيع، واستقل أمراء بني حمدان بالموصل، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا إغاراتهم المتصلة على الحدود المتاخمة التي ضعف الدفاع عنها. ومع ذلك بقي شيء من الاعتراف بسلطان الخلافة في البلاد الشرقية، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيراً باستقلال ولاياتهم. أما في الأراضي القريبة من حاضرة العباسيين فقد أخمدت ثورات القرامطة المخيفين إلى حين. وفي بغداد نفسها، صار الخليفة المقتدر الذي كان آلة في أيدي رجال البلاط المفسدين ذوي الأطماع الدنيئة تحت رحمة حراسه من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون إلى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم، الذين لا يمتون إلى العباسيين بصلة والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين إلى حين».

وإذا علمنا أن هذا الخليفة قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح في النهاية عندما حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشه الذي استعان به، فلا نعجب إذا تلاشت تلك الهيبة التي عمل أسلافه القريبون على استعادتها، وغدا العرش مرة ثانية هدفاً للازدراء في الداخل، وفرصة سانحة تحمل على إغراء المغيرين على الدولة من الخارج. أضف إلى ذلك أن الشعب قد فسدت أخلاقه، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذي يضم رجالاً أقوياء يدافعون عن بلادهم، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحالة إلى ذلك. أما الآن فقد أصبحوا أحزاباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء، كما فعلوا في ذلك الحين عند تفسير نص من النصوص، وكما حدث أيضاً عندما ثار الحنابلة ورموا الطبري بالإلحاد وحالوا دون دفنه.

وقد أشار ابن الأثير[٣] إلى ذلك بقوله: دفن الطبري «ليلاً بداره لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وادعوا عليه بالرفض ثم ادعوا عليه بالإلحاد.. فليس الأمر كذلك وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم: ولذلك سبب هو أن الطبري

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٠.

(٢) The Caliphate, PP.567 - 8.

(٣) جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.

جمع كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ـ لم يصنف مثله ـ ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً. فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا.

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغضاً إنه الذميم

لم يمض على عودة المقتدر إلى الخلافة المرة الثانية سنة واحدة، حتى خرج عليه مؤنس ثانية، وانتهى الأمر بقتله، وتركت جثته مكشوفة أياماً ثم دفن بالموضع الذي مات فيه وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة ٣٢٠ هـ. وقد أدى ما فعله مؤنس إلى تجرؤ الولاة العباسيين على خلفائهم، كما أدى إلى ضعف الخلافة[١].

وفي عهد المقتدر نبغ كثير من العلماء، نخص بالذكر منهم الفقيه محمد بن داود الظاهري وابن شريح شيخ الشافعية، والجنيد شيخ الصوفية، والنسائي صاحب كتاب السنن، والجبائي شيخ المعتزلة، وابن جرير الطبري، والزجاج النحوي، والأخفش الصغير النحوي، وأبو عوانة صاحب الصحيح، وقدامة بن جعفر الكاتب، وابن زكريا الطبيب.

ولي الخلافة بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله. وفي عهده انتشرت الفتن الداخلية، فلم تمض عليه في الخلافة سنة واحدة حتى شغب عليه الجند، واتفق بعض كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه وتولية أحد أولاد المكتفي. فلما علم القاهر بذلك عول على التخلص منهم. «فتحيل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطين على ابن المكتفي بين حيطين»[٢].

وقد اشتهر القاهر بالقسوة، واتخذ حربة عظيمة يحملها بيده إذا سعى في ذلك، ويطرحها بين يديه في حال جلوسه يباشر الحرب[٣] بتلك الحربة لمن يريد قتله، فسكن من كان يستعدي على من كان قبله من الخلفاء والتشغب والوثب عليهم. وكان. . مخوف السطوة»[٤]. ويقول السيوطي[٥]: «إنه زيدت في ألقابه عبارة المنتقم من أعداء الله ونقش

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧.
(٣) ولعله يريد الضرب.
(٤) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٤.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧، ٢٥٨.

ذلك على السكة». وكان القاهر ـ كما وصفه الصولي ـ «أهوج سفاكاً للدماء قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة، مدمن الخمر، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل».

وقد نجا الوزير ابن مقلة بنفسه، إلا أن داره أحرقت، ونهبت دور أتباعه. ولما هدأت الفتنة أعطى الخليفة القاهر الجند أرزاقهم، فهدأت نفوسهم وسكنت ثائرتهم؛ واستطاع أن يقبض على زمام الأمور من جديد[١]. إلا أن جماعة الساجية أتباع ابن أبي الساج أحد قواد المعتمد، والحجرية[٢] خافوا بطش القاهر، وشجعهم على شق عصا الطاعة دسائس ابن مقلة. وزاد شك هؤلاء الجند إقامة الخليفة القاهر المطامير[٣] في داره للفتك بزعمائهم. ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٩٧): إن القاهر لما تمكن من الخلافة أغلظ للساجية والحجرية حتى كان لا يقضي لأكابرهم حاجة، وإنه حفر في داره خمسين مطمورة تحت الأرض، وأحكم أبوابها. وقيل: إنه حفرها لمقدمي الساجية والحجرية وأثار بذلك نفورهم وخوفهم منه، كما قبض على جماعة من القرامطة وأرسلوا من فارس إلى بغداد، فحبسوا في تلك المطامير، ثم تقدم سراً بفتح الأبواب عليهم والإحسان إليهم، ليستعين بهم وبغلمانه على القبض على مقدمي الحجرية والساجية.

وفي عهد القاهر اشتهر من العلماء أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذي نبغ في الشعر واللغة، حتى وصفه المسعودي[٤] بقوله: «إنه برع في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها».

وذكر صاحب الفخري (ص ٢٤٩) أن القاهر «خرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس، وقصد بذلك التشنيع على المستكفي، فرآه بعض الهاشميين، فمنعه من ذلك، وأعطاه خمسمائة درهم» ولما علم المستكفي بذلك منعه من الخروج، وظل محبوساً إلى أن مات في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٩ هـ، وذلك في عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ)، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٨٣ ـ ٨٤.
(٢) هم جماعة من الشباب يقيمون في حجرة منفردة، وهم فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء.
(٣) المطمورة هي حفرة تحت الأرض. وبنى مطمورة إذا بنى بيتاً في الأرض. ويقصد بذلك حجراً تحت حجر الأرض للسجن والتعذيب.
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٨.

الباب الثاني

عصر إمرة الأمراء
(٣٢٤ - ٣٣٤/ ٩٣٩ - ٩٤٨)

١ - عوامل ظهور نظام إمرة الأمراء:

كانت بلاد فارس وما جاورها بيئة صالحة لنمو كثير من العناصر التي ناوأت الخلافة العباسية، فقد قامت في هذه البلاد عدة دول كالطاهرية والصفارية والسامانية، كما قامت فيها أيضاً دول أسسها رجال من الديالمة من أمثال ماكان بن كالي، ومرداويج بن زيار، وأخيه وشمكير بن زيار. ثم قامت فيها دولة بني بويه الذين استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ثم دولة السلاجقة الذين استولوا عليها سنة ٤٤٧ هـ، ووضعوا الخلافة العباسية تحت حمايتهم واستبدوا بالسلطة دون الخلفاء ثم قامت الدولة الخوارزمية التي تخلصت من نفوذ السلاجقة وناوأت الخلافة والمغول، وكانت في النهاية سبب ما حل بالخلافة من المصائب التي انتهت بسقوط بغداد وزوال الدولة العباسية في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

وفي سنة ٣٢٢ هـ عظم أمر مرداويج بن زيار الديلمي أحد قواد أسفار أمير قزوين، فطرد أسفار واستولى على بلاده، ثم فتح الري وأصفهان، وكانا من قبل تحت ولاية يوسف بن أبي الساج، واستولى على طبرستان وجرجان والري وهمذان وأصبهان، وبلغت جيوشه نواحي حلوان. وقد عمل هذا القائد على الاستيلاء على بغداد وإعادة مجد الدولة الفارسية ولم ير الخليفة العباسي المقتدر بدا من إقراره على ما بيده، بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية(١).

ولما قتل مرداويج بن زيار الديلمي على يد غلمانه خلفه أخوه وشمكير. على أن نفوذه سرعان ما ضعف وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الري سنة ٣٣٠ هـ، كما انتزع أبو علي

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٦٥ و٧٢ - ٧٣، ٨٤ - ٨٥و١١٣ - ١١٤.

محمد بن المظفر بن محتاج والي نصر بن أحمد الساماني على بلاد خراسان، بلاد طبرستان وجرجان، وأرغمه على المسير إلى بلاد الجبل حيث أذعن لطاعة نصر بن أحمد الساماني ثم لابنه نوح بن نصر. ولما اعتلى منصور بن نوح عرش الدولة السامانية أنفذه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه، ولكنه مات في الطريق.

استعان الراضي في إدارة شئون دولته ببعض وزراء ضعاف كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزراء. وليس أدل على ذلك مما بذله أبو علي بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة في عهد الراضي. فقد دفع للخليفة خمسمائة ألف دينار. غير أنه لم يتمتع بالوزارة طويلاً، إذ ثار عليه الجند، وقامت في البلاد فتنة انتهت بعزله، وصرفه الراضي عن الوزارة واستوزر عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح، فظهر عجزه عن إدارة البلاد. وقلد الراضي أخاه الوزارة، فاختلت أمور الدولة في عهد وزارته ولم يلبث أن استقال من منصبه، فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي ـ وكان ـ كغيره من الوزراء الذين سبقوه ـ ضعيف الجانب، لم يقم بأي عمل في سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها، بل لقد اشتد ضعف الدولة في عهده، واضطر أخيراً إلى الاختفاء حتى لا يلحق به أذى الأهلين.

وقد وصفه صاحب الفخري (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) في هذه العبارة: «وكان قصيراً جداً في غاية القصر، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخي الوزير من مشاورة الخليفة، وتطير الناس من ذلك وقالوا: هذا مؤذن بنقص الدولة، فكان الأمر كما قالوا عليه، واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر».

٢ ـ ابن رائق يتقلد إمرة الأمراء ـ بجكم يخلفه:

ولما رأى الخليفة الراضي أن الكرخي عجز عن النهوض بأعباء الوزارة، استوزر سليمان بن الحسن بن مخلد، فعجز هو أيضاً عن إدارة شئون البلاد، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة، مما دعا الخليفة إلى استمالة ابن رائق ـ وكان يلي واسط والبصرة ـ وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه «أمير الأمراء»، فازدادت سلطته، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم، وزادت مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير. «ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون في جميع النواحي، وفوض إليه تدبير المملكة، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك، وأن يكنى، وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ماكرد

الديلمي (من الساجية) وخادم من خدم السلطان»[١].

ويظهر أن محمد بن رائق لم يكن أول من تلقب بلقب أمير الأمراء. فقد ذكر مسكويه[٢] أنه لما ظهرت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس الخادم، قلد هذا الخليفة هارون بن غريب إمرة الأمراء سنة ٣١٦ هـ.

وبذلك زال نفوذ الوزير فلم يعد ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولم يكن له غير اسم الوزارة، كما لم يحضر في دار السلطان إلا في أيام المواكب ويقف ساكتاً. وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في كافة شئون الدولة. وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الأمراء[٣]، فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون، ويطلقون لنفقات السلطان ما يريدون، وبطلت بيوت الأموال».

وإن حالة الخلفاء العباسيين في عهد إمرة الأمراء لتشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين كانوا أشبه بالأعيب في أيدي نظار السراي (Maires) والذين لم يعد لهم من الأمر شيء إلا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية. وفيما عد ذلك عاشوا عيشة العزلة في إحدى ضياعهم[٤].

على أن نفوذ ابن رائق لم يلبث أن ضعف سنة ٣٣٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له. فقد حاربه أبو عبد الله البريدي صاحب الأهواز، كما خرج عليه أحد قواده واسمه بجكم، ودخل بغداد سنة ٣٢٧هـ، وآلت إليه إمرة الأمراء، واستولى بذلك على جميع شئون الدولة زهاء سنتين (٣٢٧ ـ ٣٢٩). وقد وصف الصولي حالة بغداد في الوقت الذي تقلد فيه بجكم إمرة الأمراء، فقال إن العامة عاثوا في الأرض فساداً، وانقضوا على الحمامات العامة وأخذوا ثياب من فيها. وكثرت المصادرات وتفاقم شر اللصوص الذين تسلحوا بالعدد لكبس الدور ليلاً. وشكا الناس من غير جدوى إلى بجكم ما أحله بهم أصحابه من بلاء، وانتشرت الفوضى والمنازعات وساءت حالة العراق.

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية أصبحت من الضعف بحيث لم يتمكن الخليفة الراضي من دفع أرزاق الجند ولا من الحصول على ما يكفيه. وفكر الخليفة في الاستنجاد

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ص ٣٥١

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٨٨

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٩٢.

(٤) Oman, European History. P.268.

بأبي عبد الله الحسن البريدي[١]. وظلت الحال على ذلك حتى توفي الراضي ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ، بعد أن حكم الدولة العباسية ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وستة أشهر، وكان الغالب على أمور دولته بجكم التركي. وكان قبل وفاته يقيم بواسط. ويظهر أنه كان لحبسه في عهد الخليفة القاهر أثر كبير في ضعف جسمه.

كان الخليفة الراضي آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء. وقد «سئل أن يخطب يوم الجمعة، فصعد المنبر بسر من رأى. فشنف الأسماع وبالغ في الموعظة»[٢].

وقد وصف ابن الأثير[٣] الدولة العباسية في عهد الراضي في هذه العبارة فقال: «ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف: فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها. والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي[٤]، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي».

ولما توفي الراضي بالله اجتمع الكوفي كاتب بجكم مع سليمان بن الحسن وزير الراضي وغيره ممن تقلّد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويين والقضاة وأفراد البيت العباسي وسائر رجالات الدولة العباسية وشاورهم فيمن يصلح للخلافة فرشحوا إبراهيم بن المقتدر لهذا المنصب، فأحضر إلى دار الخلافة وبويعَ له في العشرين من شهر ربيع الأول سنة

---

(١) الصولي. أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٢) الفخري ص ٢٥١. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦١.
(٣) جـ ٨ ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٤) أعلن عبد الرحمن الثالث بن محمد الأموي في بلاد الأندلس (١٠ ـ ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ.

٣٢٩ هـ، وعرضت عليه ألقاب فاختار منها لقب المتقي لله وبايعه الناس وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط[١].

٣ ـ البريديون ـ الحمدانيون:

وقد أحل جند بجكم الهزيمة بالبريديين بالمذار، بين واسط والبصرة وأسروا كثيراً من أصحابهم. وسرعان ما تتابعت المصائب على بجكم وأخذ نجمه يأفل، فنهبت القافلة الذاهبة إلى خراسان، وأخذ الحزن منه كل مأخذ، حتى امتنع عن الطعام أياماً. ثم ورد الخبر بقتل ماكان بن كالي التركي، فاحتجب ثلاثة أيام غما عليه ثم ورد الخبر بإيقاع صاحب خراسان بأخي مرداويج بن زيار وهزيمته إياه، وانتهت هذه المصائب بقتل بجكم نفسه بيد بعض الأكراد الذين عول على انتهاب أموالهم.

على أن موت بجكم لم يضعف نفوذ الأمراء. فقد دخل أبو الحسين البريدي واسط ثم دخل بغداد في جيش كثيف من الأتراك والديلم، واستولى على دار الخلافة وصرف الوزير ابن ميمون. وتقلد الوزارة أبو عبد الله البريدي. على أن البريديين لاقوا في بغداد مقاومة عنيفة، وهرب الخليفة المتقي وابنه ومحمد بن رائق (وكان قد عاد من الشام بعد موت بجكم) إلى الموصل، وقتل أصحاب البريدي من وجدوه في دار الخلافة من حاشية الخليفة ونهبوا دار الخلافة نفسها[٢].

على أن البريديين لم يظفروا بمحبة الناس جميعاً، فقد عزم الديلم على اغتيال الوزير أبي عبد الله البريدي إذ دخل قصر الخلافة وسبوه وأساءوا إلى البريديين، وأعانهم العامة وتجمعوا على جانبي نهر دجلة، وأخذوا يصيحون ويهتفون هتافات تنم عن سخطهم عليه وكراهتهم له. وهكذا غدت الوزارة عبئاً ثقيلاً لا يحمله الناس، فقد رغب علي بن عيسى عن قبول الوزارة، ورغب عنها أخوه عبد الرحمن، وأخيراً استوزر الخليفة أبا إسحاق الإسكافي المعروف بالقراريطي، فأشار عليه بأن يعين رجلاً يعهد إليه بإمرة الجيش. وفي ٣ من شوال سنة ٣٢٩ عين كورتكين أميراً للجيش، وخلع عليه، وسرعان ما أرسل على رأس جيش كثيف أخرج البريديين من واسط[٣].

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

علم أبو عبد الله البريدي أن جماعة من الأتراك بزعامة توزون يريدون الفتك به وعلم توزون بذلك، فاستولى على دار مؤنس، وعاد الخليفة المتقي إلى بغداد في ١٨ شوال سنة ٣٣٠ هـ بعد أن غاب عنها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، وقلد توزون شرطة بغداد، واستوزر أبا إسحاق القراريطي. ثم سطع نجم بني حمدان في أفق الدولة العباسية[١]، فخلع الخليفة على الحسن بن عبد الله، وطوق وسور بسوارين وسمي ناصر الدولة، كما خلع على أخيه أبي الحسن ولقب سيف الدولة. وقد بدأ ناصر الدولة بن حمدان عهده بإصلاح السكة، وحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها، وأضاف إلى عبارة محمد رسول الله ﷺ. ثم ضرب في المحرم من سنة ٣٣١ هـ دنانير جديدة، وهدد الصيارف بإنزال العقاب بهم إذا لم يقلعوا عن الربا[٢].

على أن حال بغداد في عهد الحمدانيين (٣٣٠ ـ ٣٣١ هـ) الذين عرفوا بتشجيع الأدباء والشعراء بعطاياهم، لم تكن أحسن منها في عهد من سبقهم من أمراء الأمراء. فقد «كثرت المتلصصة ببغداد، وكبست دور المياسير، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه، على انسداد طرقهم، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج. وغلت الأسعار في جمادى الآخرة غلاء عظيماً، ومات الناس جوعاً ووقع فيهم الوباء، فكانوا يبقون على الطريق أياماً لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم. . وكثر الجراد في هذا الوقت فصاده الناس، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده. وكان نعمة من الله جلّ وعلا. . وغلت الأسعار وعز كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس». أضف إلى ذلك وقوع الخلاف بين سيف الدولة الحمداني وتوزون واستيلاء البريديين على الجامدة، ثم وقوع الحرب بين البريديين وأحمد بن بويه على مقربة من البصرة[٣] على أن سوء التفاهم بين الخليفة وبني حمدان لم يحل دون زواج أبي منصور بن المتقي من ابنة ناصر الدولة بن حمدان.

استوزر ناصر الدولة بن حمدان أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني، فلم يكن له من الوزارة إلا اسمها. ويقول الصولي (ص ٢٣٥): «وضيق ناصر الدولة على المتقي لله في نفقاته وعلى أهل داره، وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها في جملته، واقتصر به على أجزاء يسيرة. . وتحدث الناس عن فعله هذا وصنعه بالخليفة، ما كثر به الشاكي له والداعي

(١) مسكويه جـ ٢ ص ٢٨.
(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله: ص ٢٢٩ ـ ٢٢٩و٢٣١.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤ ـ ٢٣٧.

عليه، وتمنى الناس بني البريدي وغيرهم مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس وأخذ أموالهم».

وقد علل ميور[١] قصر عهد الحمدانيين في بغداد بهذه العبارة: «إن العرب لم تعد لديهم القدرة على مناوأة العناصر المتبربرة التي أصبحت لها السيادة في بغداد في ذلك الوقت. وإن الجند المرتزقة من الأجانب وقوادهم قد ألفوا منذ زمن طويل الاحترام والطاعة لرؤسائهم من العرب، حتى إننا نرى أن الجند من العرب الذين أهمل شأنهم وطرح بهم في زوايا النسيان، لم يقووا بعد على التماسك والاحتفاظ بشخصيتهم أمام الأتراك الذين مرنوا على الحرب وألفوا حسن النظام». وهكذا لم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واحدة، واضطروا إلى العودة إلى الموصل، واستطاع أحد قواد الترك، واسمه توزون، أن يدخل بغداد بعد أن انتصر على البريديين في البصرة وواسط، ولم يستطع الحمدانيون أن يفرضوا نفوذهم على الأتراك في بغداد التي أصبحت مرعى خصيباً للفوضى ومصادرة الأهلين».

٤ ـ توزون ـ ابن شيرزاد:

بذلك مهد ناصر الدولة بن حمدان لدخول توزون بغداد في شهر رمضان سنة ٢٣١ هـ. وفي ٦ من شوال من هذه السنة خلع الخليفة المتقي على توزون وجعله أمير الأمراء. وكانت سياسة توزون ترمي إلى مصالحة البريديين في واسط والتفرغ لمحاربة الحمدانيين[٢].

على أن البريديين سرعان ما استولوا على واسط، فطردهم توزون منها ثم استولى على تكريت، واتخذ ابن شيرزاد الذي هرب من البريديين كاتباً له على غير رضا من الخليفة، ثم سيره إلى بغداد فدخلها في المحرم سنة ٣٣٢ هـ، فعزم الخليفة على الخروج من حاضرة ملكه برغم نصيحة القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى. ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ٢٦٢) «فسار المتقي بأهله إلى تكريت، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون، فالتقيا بعكبرة[٣]، فانهزم ابن حمدان والمتقي إلى الموصل، ثم تلاقوا مرة أخرى، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين».

---

(١) The Caliphate, p. 573.

(٢) الصولي ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥، ٢٤٧.

(٣) بضم العين وتسكين الكاف وفتح الباء. بليدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد شمالاً عشرة فراسخ.

ولما اتصل بتوزون خبر هرب الخليفة من بغداد وتغيره عليه وعمله على التخلص منه، اتفق مع البريدي وزوجه ابنته ثم سار إلى بغداد، وسار سيف الدولة الحمداني إلى تكريت حيث كان يقيم الخليفة، ولحق به أخوه ناصر الدولة بن حمدان. وعلى مقربة من تكريت وقعت الحرب بين الحمدانيين وبين توزون الذي انتصر عليهم، ثم سار الحمدانيون مع الخليفة إلى الموصل[1].

وقد شجع انتصار توزون على الحمدانيين في تكريت على المسير إلى الموصل لاستخلاصها منهم، وكتب إلى الخليفة يستميله، فلم يصغ إليه لأنه لم يكن يثق به. ثم قصد الحمدانيون بصحبة المتقي إلى نصيبين، ودخل توزون الموصل، فسار الخليفة إلى الرق ولحق به سيف الدولة، وأرسل المتقي إلى توزون كتاباً يعبر فيه عن سخطه عليه لاتصاله بالبريدي، وطلب إليه أن يعقد الصلح مع سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة «فتم الصلح وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين، كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم. وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي عند بني حمدان بالموصل، ثم ساروا عنها إلى الرقة فأقاموا بها[2].

وفي سنة ٣٣٢ هـ علم الإخشيد بما آل إليه أمر الخليفة المتقي، وما كان من خروجه من بغداد ووقوعه في يد الحمدانيين وقد استفحل أمرهم، وتنازع السلطة بين توزون والبريدي وقد قوي بطشهما، فلم يجد بداً من الاستنجاد بمحمد بن طغج الإخشيد في مصر، فحضر إلى الرقة حيث التقى بالخليفة الذي مال إلى مصلحة توزون بعد أن تعهد بحمايته، وعاد الخليفة إلى بغداد، وسار الإخشيد إلى مصر.

ولكن بطانة الخليفة أوغرت صدره من ناحية أمير الأمراء، وشجعته على انتهاج سياسة العداء نحوه. ولا غرو فقد كان توزون يرمي إلى مصالحة ناصر الدولة بن حمدان والخليفة بعد أن تصالح مع البريديين وأمن جانبهم، حتى إذا تم له ذلك تفرغ لمناهضة بني بويه الذين تفاقم شرهم وتزايد خطرهم. وتم الصلح بين توزون وناصر الدولة، ورجع إلى بغداد في الوقت الذي دخل فيه بنو بويه واسط، وجمعوا الضرائب وجبوا الخراج. بيد أن توزون لم يهدأ من ناحية الخليفة الذي كتب إلى بني بويه ودعاهم إلى المسير إلى بغداد وقامت المؤامرات في بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بني بويه.

---

(١) الصولي ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥. ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٤.

(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٤.

ولم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقي بسبب تآمره عليه وعمله على صرفه. فقبض توزون عليه في شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ، ونهب أصحابه عسكره، وأخذ الخاتم من يده، «واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله فألبسه ثياباً جاء بها معه ودفع إليه الخاتم. فصار إلى مضرب الأمير، فعقد له الأمر، وكحل[١] المتقي لله، فصاح، فأمر أصحاب الدبادب[٢] فضربوا بها. فصاح فلم يسمع صياحه، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله. فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً»[٣].

يقول السيوطي[٤]: ولما كحل (المتقي) قال القاهر:

صرت وإبراهيم شيخي[٥] عمى   لا بد للشيخين من مصدر
ما دام توزون له إمرة   مُطاعةٌ فالميل في المجمر

وظل المتقي مسجوناً خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ.

كانت الدولة العباسية في الوقت الذي خلع فيه المتقي مضطربة، إذ كانت السلطة كلها في يد توزون أمير الأمراء وقد استعان بأبي جعفر بن شيرزاد الذي اتخذه كاتباً له، وتولى الوزارة أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة، وتقلد القضاء أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي، والشرطة ببغداد أبو بكر محمد بن جعفر النقيب، والحسبة رجل يعرف بالأسمر، كما اتخذ أبا العباس أحمد بن خاقان المفلحي حاجباً له، وولي مصر والشام أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، وولي الحسن بن عبد الله بن حمدان الموصل وديار ربيعة وديار بكر، ونوح بن نصر بن أحمد الساماني بلاد خراسان، وعلي بن بويه فارس والأهواز، وأصبهان الحسن بن بويه[٦] ولما بويع عبد الله بن المكتفي لقب المستكفي بالله، وكان في الحادية والأربعين من عمره، وأمه أم ولد تسمى أملح الناس[٧].

وقد أمدنا مسكويه[٨]، وعنه أخذ ابن الأثير، بمعلومات طريفة عن خلع المتقي وأخذ البيعة للمستكفي، وما كان للأتراك والنساء من أثر في ذلك. ومن ذلك يتبين مبلغ الضعف

---

(١) كناية عن سمل عينيه.
(٢) الدبادب: جمع دبدب وهو الطبل.
(٣) الصولى ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. ابن الأثير جـ ٨ ص ١٤٩.
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣.
(٥) وردت في السيوطي (ص ٢٦٣) شيخ وهو خطأ.
(٦) الصولى ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣.
(٨) تجارب الأمم: جـ ٢ ص ٧٢ ـ ٧٥.

الذي وصلت إليه الخلافة العباسية والخلاف الذي ساد بين أفراد البيت العباسي، حتى إن هؤلاء كانوا لا يتورعون عن التآمر بعضهم على بعض ابتغاء الوصول إلى الحكم.

وكان الخليفة المستكفي كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ألعوبة في أيدي الأتراك، حتى إن توزون الذي أقره الخليفة في منصب إمرة الأمراء «ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه يقف بين يديه»[1]. ولا شك أن الدافع الذي حدا بتوزون إلى انتهاج هذه السياسة هو الوقوف على أسرار الخليفة وما يجري في دار الخلافة من أمور.

وفي أوائل عهد المستكفي مات توزون (المحرم سنة ٣٣٤ هـ)، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهر، فخلفه في إمرة الأمراء أبو جعفر بن شيرزاد.

اختلف المؤرخون في تقدير أعمال شيرزاد: فالصولي يرى أنه كان من أحسن الأمراء سياسة. على أن هذا الأمير لم يكن أقل عنتاً ممن سبقوه، فقد زاد أرزاق الجند من الأتراك والديلم زيادة كبيرة، وصادر الأموال لاسترضائهم، وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس، وزادت الضرائب في أيامه زيادة حملت التجار على الهرب من بغداد، وضاعت هيبة الحكومة، وعجز الشرطة عن الضرب على أيدي اللصوص والمفسدين.

ولم تطل خلافة المستكفي بالله، فقد جلس على العرش سنة وأربعة أشهر استبد توزون فيها بالسلطة، ثم خلفه ابن شيرزاد الذي استخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ثم استولى معز الدولة بن بويه على بغداد.

على أن الخلافة العباسية لم تستفد من هذا النظام الذي أدخله الراضي بإنشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها، بل زادت أحوالها سوءاً. وإن من يستقصي عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) والمتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) والمستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) ـ ذلك العهد الذي انتهى بدخول بني بويه بغداد واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء ـ يجده عبارة عن سلسلة منازعات لا تنقطع بين رجالات الدولة العباسية الذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء. نعم! قام النزاع بين ابن رائق وأبي عبد الله البريدي صاحب الأهواز، وخرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء، وعمل

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٤١.

فيها إلى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ، ثم دخل ابن رائق بغداد ولحق به منافسه أبو عبد الله البريدي. وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقي إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، فقتل هذا ابن رائق حتى لا يقف في سبيله ويحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء. وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد بصحبة الخليفة العباسي، وتقلد أعباء هذا المنصب في مستهل شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ. على أن بغداد في عهد الحمدانيين (٣٣٠ ـ ٣٣١ هـ) لم تكن أحسن حالاً منها في عهد من سبقهم من أمراء الأمراء. فقد طردهم منها توزون التركي رئيس الشرطة في شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ، وطارد جيوشهم إلى الموصل؛ وتقلد إمرة الأمراء، وقبض على الخليفة وسمل عينيه (صفر سنة ٣٣٣ هـ) وخلعه وولى بدله المستكفي. ثم مات توزون سنة ٣٣٤ هـ وتولى إمرة الأمراء تركي آخر هو ابن شيرزاد صاحب الأمر والنهي في عهد توزون.

والآن ننتقل إلى الكلام عن عصر بني بويه في العراق، وفي فارس، وفي الري وهمذان وأصبهان.

الباب الثالث

عصر بني بويه في العراق

(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

بنو بويه قبل استيلائهم على بغداد:

ظهر بنو بويه في عالم التاريخ في أوائل القرن الرابع الهجري من خلال ذلك الغموض الذي اكتنف تاريخهم قبل ذلك. وقد نقل لنا مترجمو حياتهم أقوالاً مختلفة عن أسلافهم. وإن سلسلة نسب هذه الأسرة مسألة يحوطها الشك، شأن الملوك والأمراء الذين تظهر عظمتهم مرة واحدة.

يقول بعض المؤرخين إنهم ينتسبون إلى بهرام جور أحد ملوك ساسان، ويلحقهم بعض آخر بالآلهة كما كان يفعل الرومان في تمجيد أبطالهم، ويقول غيرهم إنهم كانوا من دهماء الناس. ويرى زترشتين[١] أن نسبهم لا يرجع إلى بهرام جور ولكنه يرجع إلى كبير وزرائه مهر نرسي. وينسبهم بعض آخر إلى بني ضبة من العرب.

ويقول صاحب الفخري (ص ٢٤٩): «أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد من ملوك الفرس، حتى يتصل بيهوذا بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذلك إلى آدم أبيّ البشر. وليسوا من الديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم»[٢]... فإن جدهم أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم. وكان بويه صياد سمك، وقد كان معز الدولة

---

(١) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) تقع في الجنوب الغربي من بحر قزوين (الخزر أو بحر طبرستان لأنها أكبر البلاد الواقعة عليه). وقد فتحت في خلافة عمر بن الخطاب، وخضع أهلها للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم إلى أن دخل بلادهم الحسن بن على الزيدي الملقب بالأطروش، فأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم على يديه كثير من الأهالي.

بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول: كنت أحتطب الحطب على رأسي»[١].

وتاريخ بني بويه قبل ظهورهم في عالم الدول أشبه بالخرافة، وكان لانتشار التنجيم والطلسمات في ذلك الوقت أثره في التنبؤ بما أضمره لهم القدر من التقدم في معارج الرقي والوصول إلى درجة عظيمة من الملك واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء، حتى خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعدما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة. يقول صاحب الفخري (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠) «فكان من مبدأ دولتهم ما حدث شهريار بن رستم الديلمي قال: «كان أبو شجاع بويه في مبدأ أمره صديقاً لي؛ فدخلت عليه وقد ماتت زوجته أم أولاده الثلاثة الذين تملكوا البلاد، وهم عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد. وقد اشتد حزن أبي شجاع بويه على زوجته، فعزيته وسكنت قلقه، ونقلته إلى منزلي، وأحضرت له طعاماً وجمعت إليه أولاده الثلاثة. فبينا هم عندي إذ مر بالباب شخص يقول: المنجم المعزم، مفسر المنامات، كاتب الرقي والطلسمات؛ فاستدعاه أبو شجاع بويه وقال له: قد رأيت البارحة رؤيا فسرها لي، ثم قص عليه الرؤيا، فقال المنجم: هذا منام عظيم ولا أفسره إلا بخلعة وفرس؛ فقال له بويه: والله ما أملك غير الثياب التي على جسدي، وإن أعطيتك إياها بقيت عرياناً. فقال المنجم: فعشرة دنانير، فقال له بويه: والله ما أملك دينارين فكيف عشرة؟ ثم إنه أعطاه شيئاً يسيراً، فقال المنجم: أعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك؛ فقال له بويه: أما تستحي تسخر بنا! أنا رجل فقير مضطر وأولادي هؤلاء فقراء مساكين، فمن أين هم والملك؟ فقال له المنجم: فأخبرني عن وقت ولادة واحد واحد من أولادك، فأخبره بويه ذلك، فجعل ينظر في أصطرلابه وتقاويمه، ثم نهض المنجم وقبل يد عماد الدولة أبي الحسن علي وقال: هذا والله الذي يملك البلاد؛ ثم يملك هذا من بعده، وقبض على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع بويه وقال لأولاده: اصفعوه فقد أفرط في السخرية بنا، فصفعوه ونحن نضحك منه فقال المنجم: لا بأس بهذا إذا ذكرتم لي هذا الحال عند ولايتكم؛ فأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم وانصرف».

---

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٥٦) أن معز الدولة كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته الثلاثة البلاد، وكان أصغر إخوته.

بنو بويه[1]

١ ـ في فارس

	هجرية	ميلادية
١ عماد الدولة (أبو الحسن علي)	٣٢٠ *	٩٣٢
٢ عضد الدولة (أبو شجاع خسرو)	٣٣٨ *	٩٤٦
٣ شرف الدولة (أبو الفوارس شيرزاد)	٣٧٢ *	٩٨٢
٤ صمصام (أبو كالينجار المرزبان)	٣٧٩ *	٩٨٩
٥ بهاء الدولة (العراق)	٣٨٨ *	٩٩٨
٦ سلطان الدولة (أبو شجاع)	٤١٣ *	١٠١٢
٧ عماد الدولة (أبو كاليجار المرزبان)	٤١٥ *	١٠٢٤
٨ أبو نصر خسرو (فيروز الرحيم)	٤٤٠ ـ ٤٤٧ *	١٠٤٨ ـ ١٠٥٥

* (هذه العلامة تدل على أنه كان يحكم بلاد العراق أيضاً)

٢ ـ في العراق والأهواز وكرمان

	هجرية	ميلادية
١ معز الدولة (أبو الحسين أحمد)	٣٢٠	٩٣٢
٢ عز الدولة (بختيار)	٣٥٦	٩٦٧
٣ عضد الدولة (في فارس)	٣٦٧	٩٧٧
٤ شرف الدولة (في فارس)	٣٧٢	٩٨٢
٥ بهاء الدولة أبو نصر (فيروز)	٢٧٩	٩٨٩
٦ سلطان الدولة (في فارس)	٤٠٣	١٠١٢

(١) أنظر كتاب Stanley Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp.141.4 حيث نقلنا هذه الجداول التي تبين مدى نفوذ بني بويه في فارس، وفي العراق والأهواز وكرمان، وفي الري وهمذان وأصبهان.

ولايات منقسمة في العراق

	هجرية	ميلادية
١ مشرف الدولة	٤١١	١٠٢٠
٢ جلال الدولة	٤١٦	١٠٢٥
٣ عماد الدولة (في فارس)	٤٣٥	١٠٤٣
٤ أبو نصر خسرو فيروز (في فارس)	٤٤٠ ـ ٤٤٧	١٩٤٨ ـ ١٠٥٥

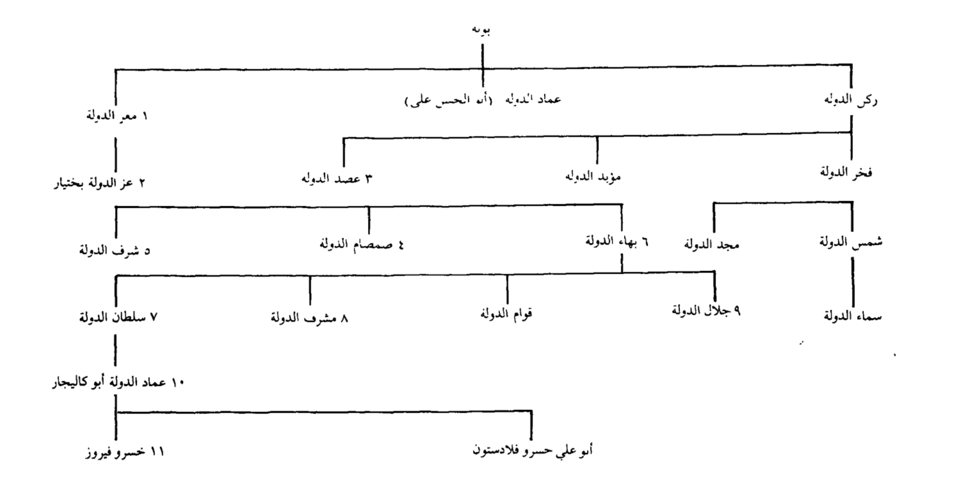
كرمان

	هجرية	ميلادية
١ قوام الدولة (أبو الفوارس)	٤٠٣	١٠١٢
٢ عماد الدولة (في فارس)	٤١٩	١٠٢٨
٣ أبو منصور فلادستون	٤٤٠ ـ ٤٤٨	١٠٤٨ ـ ١٠٥٦

٣ ـ في الري وهمذان وأصبهان

	هجرية	ميلادية
١ ركن الدولة أبو علي حسن	٣٢٠	٩٣٢
٢ مؤيد الدولة أبو منصور (أصبهان فقط)	٣٦٦ ـ ٣٧٣	٩٧٦ ـ ٩٨٣
٣ فخر الدولة أبو الحسن علي		
(ضم أصبهان سنة ٩٧٣)	٣٦٦	٩٧٦
٤ مجد الدولة أبو طالب رستم		
(عزله محمود الغزنوي)	٣٧٨ ـ ٤٢٠	٩٩٧ ـ ١٠٢٩
٥ شمس الدولة أبو طاهر (همذان فقط)	٣٨٧	٩٩٧
٦ سماء الدولة أبو الحسن		
(عزله ابن كاكويه)	٤١٢ ـ ٤١٤	١٠٢١ ـ ١٠٢٣

جدول يمثل تسلسل أمراء بني بويه في الحكم



دخل بنو بويه في زي الأجناد. وسرعان ما ارتقى علي بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء في جيش ماكان بن كالي. فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زيار، الذي خرج على أسفار بن شيرويه، واستولى على كل بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم والكرج[١]، زاد نفوذه حول سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م)، وتحبب إلى الرعبة فأحبته، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه، وسريراً من الفضة يجلس عليه أكابر قواده. وامتدت سلطته إلى حدود العراق، وأسس الدولة الزيارية، وأراد أن يستولي على بغداد «وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب» (الفخري ص ٢٥١).

ولما رأى أولاد بويه أن كفة مرداويج آخذة في الرجحان انحازوا إليه، وسر مرداويج أول الأمر بانحيازهم، وولى علي بن بويه بلاد الكرج[٢]. إلا أن مرداويج لم يلبث أن خشي خطرهم فأعاد إلى الخليفة مدينة أصبهان التي كان قد فتحها أحمد بن بويه باسمه، وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين[٣]، ثم أرسل إلى أخيه وشمكير في الري يأمره بصرف أولاد بويه إذا ما وصلوا إليه، فصرفهم إلا علي بن بويه لما رآه فيه من الكرم وحسن التدبير، وساعده على الخروج سراً أبو عبد الله الحسين بن محمد الملقب بالعميد والد أبي الفضل بن العميد وزير ركن الدولة المشهور. ومضى علي بن بويه إلى بلاد الكرج وآل إليه حكمها[٤].

على أن الجو لم يصف لعلي بن بويه، فقد عول مرداويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشاً كبيراً لإخراجه منها، فقصد أصبهان، فلم يحسن صاحبها المظفر بن ياقوت لقاءه، فاضطر إلى محاربته وانتصر عليه، واضطر إلى الهرب إلى فارس التي كان يليها أبوه ياقوت، وانضم إليه أربعمائة من الديلم. فبلغ عدد جنده سبعمائة[٥]. ثم علم علي بن بويه بمسير وشمكير إليه، فقصد مدينة أرجان الكبيرة وتقع على بعد ستين فرسخاً من كل من شيراز والأهواز، واستخرج خراجها الذي بلغ ألفي ألف درهم. ثم خاف أن يجتمع عليه مرداويج ووشمكير، فسار إلى إصطخر وانتصر على المظفر بن ياقوت، ثم دخل شيراز سنة ٣٢٢ هـ[٦].

---

(١) بفتح أوله وثانيه مدينة بين همذان أو أصبهان.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٠٠.
(٣) أنظر لفظ بويه في دائرة المعارف الإسلامية.
(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨.
(٥) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٣ حيث نرى اختلافاً في هذا العدد.
(٦) مسكويه: تجارب الأمم ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

بعد ذلك أخذ علي بن بويه يعمل على كسب رضا مرداويج. فتملق ثانية، وأقام الخطبة له وأهدى إليه كثيراً من الطرف، وأنفذ إليه أخاه الحسن بن بويه رهينة، فقلده أرجان[١]. ثم تبع ذلك قتل مرداويج (سنة ٣٢٣ هـ)، فاطمأن علي بن بويه من جهته، ولم يبق أمامه إلا القضاء على مناوأة ياقوت الذي عاد إلى الظهور، واتفق مع أبي عبد الله البريدي على طرده من شيراز، ثم أحل به الهزيمة بنواحي أرجان، ودانت له بلاد فارس بالطاعة، وعقد الصلح مع البريدي، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي يطلب اعترافه بسلطانه في فارس، فتم له ما أراد.

ولم يكن علي بن بويه (عماد الدولة) هو وحده الذي سما إلى قمة المجد والعظمة من أولاد أبي شجاع بويه، فقد كان فر أخوه ركن الدولة الحسن الذي كان رهينة عند مرداويج بعد قتله، واستولى على أصبهان والري وهمذان وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له[٢]، كما نازع أحمد بن بويه (معز الدولة) علي بن العباس على ولاية كرمان[٣] وانتصر عليه. ولكنه تركها له ملبياً دعوة أخيه علي بن بويه لمعاونة البريدي على ابن رائق (سنة ٣٢٦ هـ)، واستولى على الأهواز، ثم دعاه الخليفة المتقي إلى دخول بغداد حين ساءت العلاقة بينه وبين توزون، فسار إليها في سنة ٢٣٢ هـ، ولكن توزون هزمه قبل أن يصل إليها[٤].

معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ):

خلع مرداويج على أولاد بويه على ما تقدم، وتمكن علي بن بويه من مد سلطانه من بلاد الكرج إلى الأهواز؛ وتولى أخوه السلطة في كل جهات فارس الجنوبية، ثم كاتبه قواد بغداد وطلبوا إليه المسير إليهم والاستيلاء على هذه المدينة، فقابله الخليفة المستكفي واحتفى به، وخلع عليه، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٠٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٣) يفتح أوله وقد يكسر. وسكون ثانية وآخره نون. ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان تقع مكران شرقيها ومكران غربيها وخراسان شماليها وبحر فارس جنوبيها. وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي. تشبه البصرة في وفرة خيراتها.

(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١١٩ ـ ١٢٠و١٤٤ ـ ١٤٥.

ركن الدولة، «وضرب ألقابهم على السكة، ولقب المستكفي إمام الحق وضرب ذلك على السكة»[١].

وقد أصبح بنو بويه في عهد هؤلاء الخلفاء مطلقي التصرف في العراق، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم فإن معز الدولة لما دخل بغداد فكر في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها. ولكنه عدل عن هذه السياسة لما قد يتعرض له سلطانه من خطر، بسبب وجود خلافة علوية، يطيعها الجند، ويعترف بها الديلم، ويكونون أداة في يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء.

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٢٦) أن معز الدولة أهان الخليفة المستكفي وقبض عليه وسمل عينيه، وأجلس المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) على عرش الخلافة، وحدد له ألف درهم في اليوم، ثم قطع ذلك الراتب بعد أن فتح البصرة وحدد له إقطاعات يسيرة يعيش منها، كما عين له كاتباً يتصرف في شئونها. ولم يكن هذا كل ما قام به معز الدولة لتقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة، فقد عين ابنه بختيار أميراً للأمراء في سنة ٣٣٤ هـ[٢].

وكان لسياسة بني بويه أسوأ الأثر في العراق، فقد قامت الفتن الطائفية، وثار الجند كل في وجه الآخر، وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب، وساد الفزع قلوب الأهلين، وأدى تعصب بني بويه للشيعة إلى إرغام السنيين على الاشتراك في أعياد الشيعيين.

ولم تقتصر سياسة معز الدولة على الحد من نفوذ الخليفة العباسي في بغداد، بل عمل أيضاً على إقرار نفوذه في البلاد التابعة للدولة العباسية. فتراه يعمل على إضعاف الحمدانيين في الموصل، ويرسل إليها في سنة ٣٣٤ هـ جيشاً لمحاربة ناصر الدولة بن حمدان الذي انتهز فرصة خروج معز الدولة بصحبة الخليفة المطيع، واستولى على بغداد. وسار معز الدولة إلى تكريت، وكانت تحت نفوذ الحمدانيين، ونهبها، وعاد بصحبة الخليفة إلى بغداد ونزلا بالجانب الشرقي، وكان ناصر الدولة وابن شيرزاد قد نزلا بالجانب الغربي منها. ثم قامت الحرب بين الفريقين في بغداد، وحاول أنصار الدولة دون وصول الميرة إلى جند معز الدولة، وإبطال السكة التي تحمل اسم الخليفة المطيع، وضرب السكة باسم المتقي على

---

(١) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٥٦) أنه كان يقال له الأقطع. لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٥٨.

النحو الذي ضربت به في سنة ٣٣١ هـ، واستمرت الحرب أربعة أشهر استقر بعدها معز الدولة ببغداد، وسار ناصر الدولة إلى عكبرة(١).

كذلك عمل معز الدولة على إخضاع البريديين لسلطانه حتى يصفو له الجو في بلاد العراق، فعول على انتزاع البصرة من أبي القاسم البريدي، وصحب معه الخليفة المطيع، وكان أبو القاسم البريدي قد هرب إلى هجر قاعدة القرامطة الأساسية(٢).

تربع معز الدولة بن بويه على دست السلطنة في بغداد اثنتين وعشرين سنة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) استأثر فيها بالسلطة دون الخليفة الذي لم يعد له من الخلافة إلا اسمها، ومد نفوذه على جميع بلاد العراق وخطب له في عمان وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة علي في فارس وركن الدولة حسن في الري وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء. وما زال معز الدولة يعمل على تحقيق سياسته حتى اعتراه المرض الذي مات منه وهو في طريقه لحرب صاحب البطائح على مقربة من البصرة، فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد حيث وافته منيته في شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ، وهو في الثالثة والخمسين من عمره، فخلفه ابنه منصور بختيار الذي تلقب بلقب عز الدولة، وكان أبوه قد عهد إليه بالسلطنة من بعده حين شعر بدنو أجله.

بختيار (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ):

وكان معز الدولة بن بويه ملماً بأحوال الدولة العباسية، فعمل على دفع الخطر عنها، وأمن شر أعدائه البريديين والحمدانيين وغيرهم كما تقدم. فلما شعر بدنو أجله أوصى ابنه عز الدولة بختيار باليقظة والتحرز من ناحية أعدائه، وخاصة من ناحية الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من جنده، وأن يجريهم على أرزاقهم، كما أوصاه بمداراة الديلم ليكتفي خطرهم، وبطاعة عمه ركن الدولة والرجوع إليه في الأمور الهامة، وطاعة ابن عمه عضد الدولة لأنه أكبر منه سناً وأكثر منه تجربة وأحذق بالسياسة، كما أوصاه بإقرار كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس لإخلاصهما وكفايتهما.

ولكن بختيار لم يعبأ بنصائح أبيه ولم يسر على وفق السياسة التي رسمها له، بل انصرف إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء، وأثار سخط كاتبيه وفرق بينهما وطمع في إقطاعات كبار حاشيته وخاصة سبكتكين. وكان معز الدولة يثق به ويعتمد عليه، فأشار على

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٢. ١٦٣. ١٦٧.
(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١١٢.

بختيار ألا يقطع أمراً دونه لحسن سياسته وتمكن هيبته من قلوب الجند. ولم يكتف بختيار بهذا بل أخذ يناوىء ابن عمه عضد الدولة وترك استشارة عمه ركن الدولة، ونفى كبار الديلم طمعاً في أموالهم.

ولما رأى سبكتكين انصراف بختيار عنه وطمعه في إقطاعاته وأمواله، «انقبض عنه، فصار لا يركب إليه ولا يثق به، واقتصر على التراسل على أيدي المتوسطين. وكان لسبكتكين أصحاب أخبار في المعسكر، وفي دار بختيار خاصة، وله عيون وجواسيس من خاصة حاشيته وبطانته، فكان لا يخفى عليه شيء من حركاته»[١]. وفي عهد بختيار استولى الفاطميون على مصر في سنة ٣٥٨ هـ، وقطعت الخطبة للخليفة العباسي، وذكر اسم الخليفة الفاطمي محله.

وسرعان ما عزل بختيار الخليفة المطيع وولي الطائع الخلافة، واضطربت أمور الدولة: فالشيعة في نزاع متصل مع أهل السنة، والجند من الأتراك والديلم وغيرهم يلحون في طلب أرزاقهم، وأصحاب الإقطاعات التي اغتصبها بختيار حانقون ساخطون يتربصون الدوائر للنيل منه. ولم ير بختيار بداً من الاستنجاد بعمه ركن الدولة في الري وهمذان وأصبهان وابن عمه عضد الدولة في فارس، كما كتب إلى أبي تغلب بن حمدان يطلب معونته. وكان من أثر تفاقم العلاقة بين بختيار من ناحية وبين سبكتكين والخليفة الطائع من ناحية أخرى، أن قامت الحرب بين الفريقين في المحرم سنة ٣٦٤هـ[٢].

لذلك لم ير بختيار بداً من الاستنجاد بابن عمه عضد الدولة الذي لم يرع لابن عمه حرمة لأنه كان شديد الرغبة في الاستئثار بالسلطة في بغداد. واتصل سراً بجند بختيار وشجعهم على طلب أرزاقهم، وحث بختيار من ناحية أخرى على مقاومتهم والضرب على أيديهم، واتخذ من حقد الخليفة الطائع وكراهته ليختار فرصة للوصول إلى السلطة[٣].

وضعف شأن بختيار الذي عزله جنده من الأتراك بإيعاز عضد الدولة، الذي استقرت قدمه ببغداد وقبض على ابن عمه بختيار (سنة ٣٦٤ هـ)، وكتب إلى والده ركن الدولة يخبره بذلك، فأنكر عليه غاية الإنكار، وكتب إليه يهدده بالمسير إليه إن لم يرد ابن عمه إلى

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٣٥.
(٢) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٢.
(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٤.

ولايته، فأطلقه عضد الدولة إلى ولايته بعد أن استحلفه على أن يكون نائباً عنه بالعراق وألا يخالف له أمراً، ثم توجه إلى فارس. وكان من أثر ذلك أن تزوج الخليفة الطائع لله بنت بختيار على صداق قدره مائة ألف دينار. ولما توفي ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ، قصد عضد الدولة العراق وحارب بختيار في واسط، وانتصر عليه وأرغمه على الفرار من بغداد؛ فقصد الحمدانيين في الموصل، واستعان بأبي تغلب بن حمدان، والتقى الجيشان بنواحي تكريت. ولكن الهزيمة حلت ببختيار، وأسر وسيق إلى بغداد، فقتله عضد الدولة[١].

كان بختيار ـ على وصفه أبو العميد[٢] ـ «ملكاً شهماً جلداً قوي الجسم والقلب، فيقال إنه كان يصرع الثور بيديه من غير أعوان ولا حبال (في الأصل والأحبال)، يقبض على قوائمه ويطرحه على الأرض. وكان يبرز (بضم الياء) للأسود ويصيدها (في الأصل ويصيدهم)، وكان كريماً شجاعاً».

عضد الدولة[٣] ـ صمصام الدولة:

بذلك صفا الجو لعضد في الدولة العراق في سنة ٣٦٧ هـ وخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية وتوجه وطوقه وسوده، وعقد له لواءين بيده، وولاه ما وراء بابه[٤]. ولكن العلاقة لم تلبث أن تبدلت بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة الذي أمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين وحمله على ضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات في اليوم: في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر بغداد؛ مع أن ذلك من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره[٥].

ونقرأ في ابن العميد في حوادث سنة ٣٦٨ هـ أن عضد الدولة استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر، وهرب أبو تغلب الحمداني إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمي، وأن الخليفة الطائع أمر «بأن يخطب للملك عضد الدولة ببغداد في خطبة الجمعة، وأن يضرب على باب عضد الدولة بالدبادب في أوقات الصلوات الخمس، كما تقرأ أن عضد الدولة أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأنه كان يخطب له على

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤و٢٥٠. (٢) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦.

(٣) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فناخسرو، فلما نزل عمه عماد الدولة إليه عن فارس واستولى أبو شجاع عليها بعد موته تلقب بلقب عضد الدولة. ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦.

(٤) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٣٥. (٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠.

المنابر بشاهنشاة لأعظم ملك الملوك. ولم يبلغ أحد من أمراء بني بويه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك وبسطة السلطان، حتى دان له سائر أمراء بني بويه. وامتد سلطانه ـ كما يقول ابن العميد ـ على «بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج»(١).

قال أمدروز(٢): «إن قوة بني بويه قد تسنمت غاربها في عهد عضد الدولة، وإن قصره كان محط كبار رجال العلم والأدب، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب، ومنها كتاب الإيضاح والتكملة في النحو الذي صنفه له الشيخ أبو علي الفارسي، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه لأبي إسحاق الصابي. كما أقام البيمارستانات، ومن أشهرها البيمارستان العضدي ببغداد الذي يقول فيه ابن خلكان(٣): «ليس في الدنيا مثل ترتيبه، وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه».

بيد أن عضد الدولة، على الرغم مما اشتهر به من حسن السياسة، رمي بالقسوة وسفك الدماء والغدر بمن أمنه(٤) ومما يدل على اغتراره بنفسه واعتزازه بقوته قوله وهو على فراش الموت:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدواً ولم أهمل على جيشه خلقا
وأخليت دور الملك من بعد عزمهم ... فشردتهم غرباً وبددتهم شرقا(٥)

وقد وصفه علماء عصره فقال أحدهم(٦): «لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها وأعطاها فوق قيمتها، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها. وقال الثاني: استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه. وقال الثالث: ما رأيت عاقلاً في عقله ولا غافلاً في غفلته مثله. لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرم ويغرم وهو يظن أنه غانم. وقال الرابع: من جد للدنيا هزلت به ومن أهزل راغباً عنها جدت له. وقال الخامس: ترك هذه الدنيا شاغرة ورحل

---

(١) تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

(٢) Amedroz, Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad, J.R. A. S. (1901), p. 779.Le Strange: Baghdad During the abbasid Caliphate. p.234 et Seq.

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤١٨.

(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص ٤٢و٥٦.

(٥) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٣٩.

(٦) أبو شجاع جـ ٣ ص ٧٥ ـ ٧٧.

عنها بلادٍ زاد ولا راحلة. وقال السادس: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف. وقال السابع: إنما سلبك من قدر عليك وقال الثامن: أما أنه لو كان معتبراً في حياته لما صار عبرة في مماته. وقال التاسع: الصاعد في درجات الدنيا إلى إسفال، والنازل في درجاتها إلى تعال. وقال العاشر: كيف غفلت عن هذا الأمر حتى نفذ فيك؟ وهلا اتخذت دونه جنة تقيك؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين».

توفي عضد الدولة في الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢، وله من العمر سبعة وأربعون سنة وأحد عشر شهراً، وحمل إلى مشهد الإمام علي بن أبي طالب. وكانت ولايته خمس سنين ونصف سنة، استبد فيها بالسلطة، وأمن شر أعدائه في الداخل والخارج، ووطد دعائم سلطانه فنشر العدل وشجع العلماء وعني بالعبارة على ما رأينا.

ولما مات عضد الدولة خلفه ابنه أبو كاليجار المرزبان، الذي بايعه الأمراء والقواد ولقبوه صمصام الدولة[١]، ولقبه الخليفة الطائع شمس الملة[٢] «وخلع عليه الخلع السبع والعمة السوداء، وسور وطوق وتوج، وعقد له لواءان وحمل على فرس بمركب ذهب وقيد بين يديه مثله، وقرىء عهد بتقليده الأمور فيما بلغت الدولة (العباسية) من جميع الممالك. . . وجددت له البيعة، وأطلق رسومها وأقيمت الدعوة وغيرت السكة».

ويظهر أن العلاقة بين الخليفة الطائع وصمصام الدولة كانت تنطوي على شيء من المودة والصفاء. على أن النزاع لم يلبث أن قام بين صمصام الدولة وأكبر إخوانه شرف الدولة، وكان يمتد نفوذه على أصبهان والري وشيراز وغيرها[٣] وقد عزم على أخذ بلاد العراق، وتسلسل إليه جنود صمصام الدولة ودخلوا في طاعته[٤].

وقد أدرك صمصام الدولة حرج مركزه ورأى عجزه عن مناهضة أخيه، فأرسل إليه يطلب الصلح. ولكن هذا الصلح لم يتم. ففي سنة ٣٧٦ هـ. سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط فاستولى عليها، ولما استشار صمصام الدولة أصحابه نصح له بعضهم بالمسير إلى الموصل وبلاد الجبل حيث تتاح له فرصة مقاومة أخيه شرف الدولة وإحداث الشقاق بين

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧١.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٤٢.

(٤) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٢١.

أنصاره من الديلم والأتراك، وأشار بعضهم الآخر بمكاتبة عمه فخر الدولة وطلب النجدة منه والمسير إلى قرميسين(١)، ثم إلى أصبهان وفارس والاستيلاء على خزائن شرف الدولة في أثناء غيبته، ومن ثم يضطر هذا إلى العودة إلى فارس وطلب الصلح من جديد(٢) بيد أن صمصام الدولة لم يأبه لتلك النصائح وقصد أخاه في بعض خاصته، فأحسن لقاءه، ولكنه لم يلبث أن قبض عليه، ثم صحبه إلى بغداد ونزل بقصر الشفيعي:

على أن وصول شرف الدولة إلى بغداد لم يضع حداً للنزاع الذي قام بينه وبين أخيه، فقد دب الشقاق بين الأتراك والديلم، وتمت الغلبة لهؤلاء فنادوا بعودة صمصام الدولة إلى السلطنة. ولكن شرف الدولة هدد بقتل أخيه، وتمكن من توحيد صفوف الأتراك والديلم، وأرسل أخاه إلى فارس فاعتقل في إحدى قلاعها(٣) بعد أن حكم في العراق ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

شرف الدولة ـ بهاء الدولة:

ولما استقرت إمارة شرف الدولة بن عضد الدولة في العراق، قدم بغداد فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر، وطوقه وسوره وكتب له عهداً وولاه ما وراء بابه، وعقد له لواءين، ولقبه شاهنشاه(٤).

وكانت سياسة شرف الدولة ترمي إلى التودد إلى أخيه صمصام الدولة، حتى إنه أنكر على الشعراء تعريضهم به في قصائدهم التي أنشدوها حين هنئوه بالسلطنة(٥). ولكن بعض رجال حاشيته ما زالوا يوغرون صدره على أخيه ويخوفونه من خروجه عليه، حتى إنه اعتقله في إحدى قلاع فارس(٦).

وقد عمل شرف الدولة على تحقيق العدل بين الناس «ورفع أمر المصادرات وقطع أسبابها وذم طرق السعايات وسد أبوابها. . . وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام. وطالب

(١) بفتح القاف وكسر الميم، بلد بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً، يقع بالقرب من دينور كما يقع بين همذان وحلوان على جادة الحاج.
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧ ـ ١٨.
(٣) أبو شجاع: جـ ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٤.
(٤) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١.
(٥) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٤.
(٦) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٢.

العمال بعمل المصالح وأخذهم بإقامة العمارات. ووجد الأسعار متزايدة والأقوات متعذرة، فرتب نقل الغلات من بلاد فارس في البحر وجد في حملها من كل بلد»[١].

قلد شرف الدولة أحد رؤساء البطيحة أميراً عليها ولقبه مهذب الدولة. وكانت البطيحة أرضاً واسعة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة والفرات منذ أيام كسرى أبرويز، فتبطح الماء في تلك الجهات فرحل أهلها عنها. ثم جاء الإسلام وتغلب الماء على النواحي المجاورة، حتى كانت السفن تسير فيها، وبنوا القرى في المرتفعات التي يغمرها الماء وزرعوا الأرز في بعض أرضها. ثم تمكن أهل هذه الجهات في أوائل عهد بني بويه من أن يؤمروا عليهم أميراً منهم، وتحصنوا بالمياه والسفن، وخرجت هذه الجهات عن طاعة الدولة العباسية.

ويقول ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨ ـ ١٩) إن مهذب الدولة أحسن السيرة وبذل الخير والإحسان، فقصده الناس وأمن عنده الخائف، وصارت البطيحة معقلاً لكل من قصدها واتخذها الأكابر وطناً، وبنوا فيها الدور الحسنة ووسعهم بره وإحسانه، وكاتب ملوك الأطراف وكاتبوه، وزوجه بهاء الدولة ابنته، وعظم شأنه إلى أن قصده القادر بالله فحماه، وبقي عنده إلى أن أتته الخلافة.

وقد قامت المنافسة بين شرف الدولة وبين عمه فخر الدولة. لذلك نراه يرسل مقدم عسكره أو قائد قواده، ويسمى فراتكين الجهشياري، لقتال بدر بن حسنويه في بلاد الجبل لميله إلى عمه. وعلى الرغم من كثرة عدد جند شرف الدولة وإحرازه النصر والظفر أول الأمر، أحل بهم بدر الهزيمة، ثم استولى على بلاد الجبل وما والاها، وأصبح خطراً يهدد بلاد العراق[٢].

ولم يطل عهد شرف الدولة، فمات في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ، بعد أن حكم ببغداد سنتين وثمانية أشهر[٣] ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره. وكان قد عهد

(١) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٦ ـ ١٣٧. (٢) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٣٩ ـ ١٤١.

(٣) يلاحظ أن ستانلي لينبول أغفل حكم صمصام الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ إلى سنة ٣٧٦ هـ، وجعل سلطنة شرف الدولة في العراق من سنة ٣٧٢ هـ إلى سنة ٣٧٩ هـ، على حين أنه لم يحكم في العراق إلا سنتين وتسعة أشهر (٣٧٦ ـ ٣٧٩ هـ).

قبل وفاته إلى أخيه أبي نصر، والذي قبل ذلك بعد تردد، لاضطراب حبل إمارة بني بويه في العراق، وجلس للعزاء وركب الخليفة الطائع للعزاء كذلك، فتلقاه بهاء الدولة وقبل الأرض بين يديه (١).

وبعد خمسة أيام من وفاة شرف الدولة، ركب أبو نصر إلى دار الخلافة، فخلع عليه الخليفة الطائع الخلع السلطانية، ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة، وقرىء عهده بين يديه بالتقليد (٢).

أقر بهاء الدولة أبا منصور بن صالحان وزير شرف الدولة في الوزارة، ثم استوزر أبا نصر خواشاذة وخلع عليه، وأقر أصحاب الدواوين وغيرهم من الموظفين في مناصبهم. وتمكن بما أوتيه من الدهاء من القبض على الأمير أبي علي ابن أخيه شرف الدولة وقتله ليصفو له الجو، كما تمكن من استمالة الأتراك الذين التفوا حوله. ولما قامت الفتنة بين الأتراك والديلم في مستهل إمارته، انضم بهاء الدولة إلى الأتراك، واستطاع بذلك أن يضعف من نفوذ الديلم (٣).

بيد أن استمالة بهاء الدولة الأتراك إليه وإضعاف نفوذ الديلم لم يضع حداً للمصاعب التي قامت في وجهه، فقد واجه صعوبة لا تقل خطراً من خارج بلاد العراق. فإن فخر الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان طمع في الاستيلاء على بلاد العراق بعد موت شرف الدولة، وشجعه على تحقيق هذه السياسة وزيره الصاحب بن عباد الكاتب المشهور، الذي كان يرنو ببصره إلى بغداد والجلوس على دست الوزارة فيها، ويترقب الفرص للوصول إلى غايته، وأيقن أن الفرصة قد سنحت له بموت شرف الدولة(٤).

ولما علم بهاء الدولة بنبأ وصول فخر الدولة إلى الأهواز عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد، والتقى الجيشان بالقرب من خوزستان، وتم النصر لبهاء الدولة الذي سار بعد ذلك إلى واسط والبصرة(٥)، وبعث بجيوشه إلى أرجان، فاستولى على قلعتها المنيعة، وكان بها من العين ألف ألف دينار ومن الورق ثمانية آلاف ألف(٦).

---

(١) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٥٠ ـ ١٥٢، ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٣.
(٢) أبو شجاع جـ ٣ ص ١٥٣. ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣.
(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ١٦٣ ـ ١٧٤.
(٥) أبو شجاع ج ٣ ص ١٦٦و١٦٩.
(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٨.

والآن نعود إلى الكلام على صمصام الدولة الذي بعث به أخوه شرف الدولة إلى فارس واعتقله في إحدى قلاعها سنة ٢٧٦ هـ، فنقول إنه تمكن من الهرب من معتقله، وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة على مقربة من شيراز سنة ٣٨٠ هـ، وتم الصلح بينهما على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، وحلف كل منهما لصاحبه على الوفاء، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز [١].

على أن هذا الصلح لم يطل أمده، فإن بهاء الدولة عمل على الاستيلاء على فارس، وقابل صمصام الدولة هذا العمل باستيلائه على خوزستان في سنة ٣٨٣ هـ، وعلى الأهواز في سنة ٣٨٥ هـ. وساعده على ذلك موت نائب بهاء الدولة بها ورغبة جنده من الأتراك في العودة إلى بغداد. كما استولت جيوش صمصام الدولة على البصرة (٣٨٦ هـ)، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إحراز النصر النهائي لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، على أن يخطب في البصرة لكل من صمصام الدولة وبهاء الدولة ومهذب الدولة، ولم ينجل الصراع الذي قام بين صمصام الدولة وبهاء الدولة إلا بقتل أولهما في سنة ٣٨٨هـ[٢].

وسرعان ما ساءت العلاقة بين بهاء الدولة والخليفة الطائع، ولم يستفد الخلفاء العباسيون من سياسة بني بويه الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يستمدون نفوذهم من الخليفة ويتمتعون برضاه ليكتسبوا رضاء العامة. فقد قبض بهاء الدولة على الخليفة الطائع وخلعه، وبايع القادر بالله في سنة ٣٨١ هـ. وقد عزا السيوطي[٣] ذلك إلى أن الخليفة حبس أحد خواص بهاء الدولة. ولكن الواقع أن السلطان البويهي طمع في أموال الخليفة وأرسل إليه يسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد له. فأذن له الخليفة وجلس له كما جرت العادة. فدخل بهاء الدولة في جمع كثير، ثم قبل الأرض وجلس على كرسي، ودخل أحد الديلم وتظاهر بأنه يريد أن يقبل يد الخليفة. ثم جذبه وأنزله عن سريره، والخليفة يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد: وأخذ بهاء الدولة ما في دار الخليفة من الذخائر[٤]. وكان من هؤلاء الذين شاهدوا هذه المأساة الشريف الرضي الذي بادر إلى التسليم ونجا بنفسه بعد أن امتهن أكثر رجالات الدولة من القضاة والأشراف وسلبت ثيابهم.

---

(١) أبو شجاع ج ٣ ص ١٨٣ ـ ١٨٣.
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩، ٤١، ٤٦، ٥٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٧٢.
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩.

ويقول أبو شجاع إن الخليفة الطائع أجبر على أن يخلع نفسه وينزل عن الخلافة إلى أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، الذي تلقب القادر بالله بعد أن بقي في الخلافة سبع عشرة سنة وثمانية شهور وخمسة أيام (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ). وقد وصف ابن العميد (ص ٢٤٣) الخليفة الطائع فقال: «كان جواداً كريماً، إلا أن يده كانت قصيرة مع بني بويه، فإنهم كانوا الملوك وليس للخليفة إلا مجرد الاسم». وكان القادر أطول الخلفاء العباسيين حكماً، وقد بقيت خلافته أكثر من إحدى وأربعين سنة.

ثار الديلم والأتراك وطلبوا رسم البيعة على ما جرت به العادة، ومنعوا الخطبة باسم الخليفة، وترددت الرسل بين الجند وبهاء الدولة الذي أجاب طلبهم وأغدق عليهم ومنح كلاً منهم ثمانمائة درهم، وأقيمت الخطبة باسم أبي العباس أحمد القادر بالله، وهنأه الناس بالخلافة ومدحه الشعراء؛ وأنشد الشريف الرضي قصيدة طويلة(١).

كان القادر ـ كما وصفه الخطيب البغدادي(٢) ـ «من الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل، وكثرة البر والصدقات على صفة اشتهرت عنه، وعرف بها عند كل أحد، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد». وقد صنف في الأصول كتاباً ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وذكر فيه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفاء المعتزلة والقائلين بخلق القرآن. وكان هذا الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر الناس سماعه.

ازداد نفوذ بهاء الدولة في عهد القادر؛ فاستبد بالسلطة دون الخليفة الذي «قلده ما وراء بابه»(٣). وقد استمرت العلاقة بين الخليفة العباسي وبين بهاء الدولة على شيء من الصفاء، بدليل زواج الخليفة من سكينة ابنة بهاء الدين على صداق قدره مائة ألف دينار (٣٨٣ هـ)(٤)، وإضافة هذه الألقاب إلى بهاء الدولة في خطبة الجمعة بأمر الخليفة وهي: «قوام الدين، صفي أمير المؤمنين»(٥).

وعلى الرغم من استبداد بهاء الدولة بالسلطة، نرى الخليفة القادر يعمل على تولية ابنه

---

(١) ديوان الشريف الرضي جـ ١ ص ٤٧.

(٢) تاريخ بغداد جـ ٤ ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٤.

(٤) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٥٤.

(٥) هلال الصابي: كتاب التاريخ، الجزء الثاني (بيروت ١٩٠٤) ٤٤٣.

العهد من بعده لبقاء الحكم في بيته، وإن كان ذلك الحكم قد انتقل في الواقع إلى أيدي بني بويه[١].

حاول بهاء الدولة التخلص من أبناء بختيار، وكانوا قد قتلوا صمصام الدولة واستولوا على فارس وعولوا على محاربته واستمالة الديلم الذين كانوا يحنقون عليه لاعتماده على الأتراك. إلا أن بهاء الدولة استمال زعيم الديلم إليه، وحارب ابني بختيار اللذين انتقلت إليهما الزعامة في فارس[٢]، واستطاع أن يحدث الشقاق في صفوفهما، وأن يوقع بهما الهزيمة ويستولي على فارس سنة ٣٧٩ هـ: فلحق أحدهما بالبطيحة، ولحق الثاني ببلاد الديلم، ولكنه عاد إلى فارس حيث التف حوله كثير من الزط والديلم والأتراك، واستولى على أغلب بلاد كرمان. على أن بهاء الدولة أرسل إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله (٣٩٠ هـ)[٣].

وقد اضطربت أحوال البطيحة واستولى عليها أبو العباس بن واصل، وطرد صاحبها مهذب الدولة (صهر بهاء الدولة) ثم استولى على البصرة وهدد جنوبي بلاد العراق؛ وهزم جيوش بهاء الدولة (٣٩٤ هـ)، الذي أرسل إليه من بغداد جيشاً بقيادة مهذب الدولة، فتمكن من استردادها، واتفق مع بهاء الدولة على أن يدفع له خمسين ألف دينار جزية سنوية. على أن خطر ابن واصل لم يزل باستيلاء بهاء الدولة على البطيحة وطرده منها، فإنه سار إلى البصرة، وكانت في قبضة يده، وهدد الأهواز وانتصر على جيوش بهاء الدولة فيها. وعلى الرغم من انتصار ابن واصل، راسل بهاء الدولة وصالحه وزاد في إقطاعه، وحلف كل منهما لصاحبه وعاد إلى البصرة[٤].

وفي سنة ٤٠١ هـ تعرض نفوذ بني بويه في العراق للخطر، حيث خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل، الذي آلت إليه السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، فأرسل الخليفة القادر أبا بكر الباقلاني الفقيه المشهور إلى بهاء الدولة، وطلب إليه أن يعمل على قمع هذه الحركة، فأرسل بهاء الدولة جيشاً اضطر قرواش إلى إعادة الخطبة للخليفة العباسي[٥].

---

(١) هلال الصابي: ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٢٤٠.
(٢) هما أبو نصر الذي تلقب نور الدولة ومحيي الأمة، وأبو القاسم الذي تلقب حسام الدولة سيد الأمة.
(٣) هلال الصابي: كتاب التاريخ ص ٤٧٩ ـ ٤٩٤. ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦ ـ ٥٧ ـ و ٦٠ ـ ٦١.
(٤) ابن العميد. تاريخ المسلمين ص ٢٥٧. (٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ٨٣.

بيد أن بهاء الدولة أجاب الخليفة العباسي إلى طلبه احتفاظاً بنفوذه هو في بلاد العراق والوقوف في سبيل كل من يعمل على الحد من هذا النفوذ، لا سيما إذا علمنا أن الخليفة العباسي لم يكن له مع بني بويه من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. ومع هذا فقد عرف بنو بويه بالتعصب للمذاهب الشيعية. وبلغ من تعصبهم أن قامت الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين في بغداد وفي غيرها من أمهات مدن العراق، ففي سنة ٣٨٩ هـ قامت بين الشيعيين والسنيين في بغداد ثورة كاد يقتل فيها أبو حامد الأسفراييني. وتعصب أهل الشيعة ببغداد للخليفة الحاكم الفاطمي وصاحوا: يا حاكم يا منصور؟

وكان بهاء الدولة ـ على ما وصفه أبو المحاسن[١] ـ ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء، حتى إن خواصه كانوا يهربون من قربه، وجمع من المال ما لم يجمعه أحد بني بويه، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه ولا أقبح سيرة».

توفي بهاء الدولة في الخامس من شهر جمادى الآخرة من سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة (٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ) وتسعة أشهر وأيام. وكان في الثانية والأربعين من عمره، وحملت جثته من أرجان إلى مشهد علي بن أبي طالب بالكوفة، فخلفه في السلطنة ابنه سلطان الدولة أو شجاع، وكان قد عهد إليه بالسلطنة من بعد.

سلطان الدولة ومشرف الدولة ابنا بهاء الدين (٤٠٣ ـ ٤١٦ هـ):

خلف بهاء الدولة في السلطنة ابنه سلطان الدولة أبو شجاع (٤٠٣ ـ ٤١١ هـ). وقد استهل عهده بتولية أخيه جلال الدولة أبي طاهر البصرة، وتولية أخيه الآخر قوام الدولة أبي الفوارس. ويعزو ابن الأثير (جـ ٩ ص ٩٠، ١٠٩ ـ ١١٠) ذلك الشقاق إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بحرب أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، فبادر إلى امتلاك شيراز في سنة ٤٠٧ هـ. ولكن جيوش سلطان الدولة لم تلبث أن أخرجته منها وطاردته إلى كرمان واحتلتها، ثم إلى خراسان حيث لجأ أبو الفوارس إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، الذي أمده بجيش استرد به كرمان (٤٠٨ هـ). على أن هذا الجيش لم يقو على الوقوف في وجه جند سلطان الدولة، فاضطر أبو الفوارس إلى التقهقر واللحاق بشمس الدولة بن فخر

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٢٣.

الدولة بن بويه صاحب همذان، ثم بمهذب الدولة صاحب البطيحة، وانتهز الأمر بإعادة كرمان إلى أبي الفوارس الذي اعترف بزعامة أخيه سلطان الدولة.

ولم تقتصر مصاعب سلطان الدولة على مناوأة أخيه قوام الدولة أبي الفوارس، فقد شغب عليه الجند في العراق وأرادوا تولية أخيه مشرف الدولة السلطنة فيها، وأشار بعض خواص سلطان الدولة عليه بالقبض على أخيه، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وعمل على الهرب إلى واسط فقال له الجند: «إما أن تجعل عندنا ولدك (أبا كاليجار) أو أخاك مشرف الدولة، فراسل أخاه بذلك، فامتنع ثم أجاب بعد معاودة. ثم إنهما اتفقا واجتمعا ببغداد... وفارق سلطان الدولة بغداد وقصد الأهواز (ذو الحجة ٤١١ هـ) واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق»[١] (٤١١ ـ ٤١٦ هـ). إلا أن الحرب لم تلبث أن قامت بين هذين الأخوين، وحلت الهزيمة بجيش سلطان الدولة الذي هرب من الأهواز إلى أرجان، وقوي أمر مشرف الدولة، فلقب في أواخر شهر ذي الحجة بلقب شاهنشاه، واعترف أخوه جلال الدولة أبو طاهر صاحب البصرة بسلطانه، وخطب له ببغداد في أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ[٢].

على أن سلطان الدولة أخذ يعمل على استرداد نفوذه. واتخذ من ثورة الديلم على وزير أخيه مشرف الدولة وقتلهم إياه فرصة لتحقيق أغراضه؛ فأنفذ ابنه أبا كاليجار إلى الأهواز فاستولى عليها سنة ٤١٢ هـ، وتم الصلح بينه وبين أخيه سلطان الدولة وحلف كل منهما لصاحبه على أن يكون العراق لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة (سنة ٤١٣ هـ)، وصفا الجو لمشرف الدولة بوفاة أخيه سلطان الدولة في سنة ٤١٥ هـ. وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر[٣].

وفي أيام مشرف الدولة ازداد نفوذ الأتراك. ويرجع ذلك إلى ضعف سلاطين بني بويه وتسلم الأطفال عرش السلطنة في بغداد في ذلك الوقت. ولا عجب فقد ولي سلطان الدولة السلطنة وهو في الثالثة عشرة من عمره، ووليها أخوه مشرف الدولة وهو في الثامنة عشرة. ويقول ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٢٥) في حوادث سنة ٤١٥ هـ إن مشرف الدولة اضطر إلى الهرب مع وزيره وجماعة من مقدمي الديلم إلى قرواش بن مقلد العقيلي، ولم يعد إلا بعد أن استوثق منهم.

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١١٨.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١١٩ ـ ١٢١.

(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

كان مشرف الدولة كثير الخير قليل الشر عـادلاً حسن السيرة، ولم يعمـر في السلطة سـوى خمس سنين وخمسة وعشرين يوماً، ومات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة.

جلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ):

كان أبو طاهر جلال الدولة من أطول سلاطين بني بويه عهداً في الحكم، فقد أقيمت له الخطبة بالعراق بعد أخيه مشرف الدولة، وطلب إليه وهو بـالبصرة الحضـور إلى بغداد، ولكنه سار إلى واسط ثم عاد إلى البصرة، فقطعت الخطبة له وتحولت إلى ابن أخيه الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة، وكان مشغولاً بالحرب مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاتخذ جلال الدولة من ذلك فرصة للمسير إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة لنفسه من جديد[١].

ويقول أبو الفدا (جـ ٢ ص ١٥٦) إن الخليفة القـادر استدعى جـلال الدولـة، وكان بالبصرة، إلى بغداد «لما حصل من النهب والفتن»، لخلوها من السلطان، فدخلها في اليوم الثالث من شهر رمضان (سنة ٤١٨ هـ) وخرج الخليفة القادر للقائه، وحلفه واستـوثق منه، واستقر جلال الدولة في بغداد.

وقد أوضح ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٥) ازدياد نفوذ الأتراك وتـأثيرهم في تسييـر أمور الدولة العباسية في ذلـك الحين، حتى إنهم أخذوا يتـدخلون في توليـة سلاطين بني بـويه وعزلهم، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم بالطاعة والوفاء، والخليفة في ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم.

على أن الأتراك كانوا ينـزعون دائماً إلى شق عصا الطاعة مدفـوعين بعوامـل الطمـع وابتزاز الأموال. ففي سنة ٤١٩ هـ ثاروا على جلال الدولة ببغداد ونهبـوا داره ودور أنصاره كما نهبوا صياغات أخرجها جلال الدولـة لتضرب دنـانير ودراهم، وتفـرق فيهم. وحصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء، حتى شرب أهله ماء البئر وأكلوا ثمرة البستان.. ثم أرسل إلى الخليفة القادر بالله ليصلح الأمر مع أولئك القواد، فـأصلح بينهم وبين جلال الدولة. ولم يمض غير أيام حتى عادوا إلى الشغب واضطر جلال الدولة إلى بيع فرشه وثيابه وخيمه، وفرق ثمنها فيهم[٢].

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ١٣٧.

ولم يكن هذا كله ما صادف جلال الدولة من صعاب في سبيل إقرار ملكه بالعراق، فقد قام في وجهه أبو كاليجار بن سلطان الدولة الذي استمال إليه بعض أمراء العراق واستولى على البصرة، ثم سار إلى واسط واحتلها، فسار جلال الدولة إلى الأهواز وانتهبها في غيبة أبي كالجيار، وأحل الهزيمة بجنده واسترد واسط[١]، ثم استولى على البصرة من جند أبي كاليجار[٢].

مات الخليفة القادر في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ، بعد أن بقي في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة وعشرين يوماً، وكان في السابعة والثمانين من عمره. وعلى الرغم من استبدادا الأتراك والديلم بأمور الدولة، احتفظ القادر بهيبة الخلافة.

وقد خلف القادر ابنه القائم بأمر الله سنة ٤٢٢ هـ، وكان في الثانية والثلاثين من عمره، وأمه أم ولد رومية تسمى بدر الدجى (وقيل قطر الندى)، وكان أبوه قد ولاه عهده في سنة ٤٢١ هـ وكان القائم ـ كما يقول أبو المحاسن ـ[٣] «متديناً ورعاً زاهداً عالماً في وجهه أثر صفار من قيام الليل وكان يسرد (يتابع) الصوم» وقد عمر في الخلافة أربعاً وأربعين سنة[٤].

وكان الخليفة القائم في عهد سلطة جلال الدولة وأبي كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه في الوقت الذي أصبح فيه بنو بويه يديرون العالم الإسلامي من غير أن يحفلوا بمن يدعي أنه أمير المؤمنين[٥]. على أن ما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن لم يكن راجعاً أيضاً إلى قيام النزاع والمنافسة بين بني بويه من جهة وبينهم وبين الجند من جهة أخرى. ففي سنة ٤٢٤ هـ أصبحت البصرة مركزاً للصراع بين جلال الدولة وبين ابن أخيه عماد الدولة بن سلطان الدولة الذي خطب له على منابرها.

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٥٣.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٨.

(٤) يقول أبو المحاسن «جـ ٥ ص ٩٨»، «ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصراً للمستنصر العبيدي... وكلاهما مكث في الخلافة ما لم يمكنه غيره من آبائه وأجداده من طول المدة، فالقائم هذا كانت مدته أربعاً وأربعين سنة والمستنصر ستين سنة»، وقد نسي أبو المحاسن أن عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس مكث في الحكم أكثر من خمسين سنة «٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ» وإن لم يكن آباؤه من الخلفاء.

(٥) Arnoold, The Caliphate, p.63

ولكن جند جلال الدولة استردوا هذه المدينة ثم جلوا عنها في السنة التالية. كما شغب الجند على جلال الدولة وقبضوا عليه وأخرجوه من داره. ولولا انقسام هؤلاء الجند على أنفسهم لزال ملك جلال الدولة الذي أفاد من جراء هذا الانقسام وعاد إلى بغداد بعد قليل(١).

وقد صور هارولد باون(٢) في مقاله الذي نشره في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٢٩ سوء مركز جلال الدولة منذ تولي مقاليد الحكم سنة ٤١٦ هـ فقال: «إن إدارة جلال الدولة منذ تولي مقاليد الحكم في سنة ٤١٦ هـ كانت في غاية الضعف؛ فإن بغداد قد عدت منذ ذلك الحين مسرحاً للشغب والمنازعات الطائفية، وزاد هذه المنازعات تعقيداً منافسات الجند الذين كانوا يتألفون من أجناس مختلفة أهمها العرب والديلم والأتراك. أضف إلى ذلك أن الأتراك قد عطفوا على دعوى أبي كاليجار بن سلطان الدولة، الأخ الأكبر لجلال الدولة لتسلم عرش السلطة في العراق. وقام هؤلاء الجند ثلاث مرات بمحاولات عنيفة ترمي إلى خلع جلال الدولة وتنصيب ابن أخيه أبي كاليجار في السلطنة وكانت الحروب بين الفريقين لا تكاد تنقطع في السنين الأولى من حكم جلال الدولة. وبلغت الفوضى ذروتها في بغداد سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٧ م)، وأرغم السلطان على الهرب من حاضرة العباسيين ثلاث مرات خوفاً على حياته؛ ولكن جلال الدولة وابن أخيه (أبو كاليجار) عقدا الصلح سنة ٤٢٨ هـ، فساد الوفاق بينهما».

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢ ـ ١٨٣) في حوادث سنة ٤٣٢ هـ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهي وقرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل، الذي لم يعبأ بأوامر جلال الدولة، وأخذ يؤلب الجند من الأتراك عليه. وانتهت الحروب التي قامت بينهما بعودة قرواش إلى طاعة بني بويه.

ولم تكن المصاعب التي صادفت جلال الدولة مقصورة على ذلك النزاع الذي كان يقوم بين أمراء بني بويه من حين إلى حين، وعلى شغب الجند عليه، بل كان راجعاً أيضاً إلى تذمُّر الخليفة القائم منه بسبب تدخله في شئونه الخاصة.

توفي جلال الدولة في شهر شعبان سنة ٤٣٥ هـ بعد أن حكم بغداد ست عشرة سنة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٦١.

(٢) Harold Bowen: The Last Buwayhids J.R.A.S. (1929), p.229.

وأحد عشر شهراً، وكان في الثانية والخمسين من عمره. وقد عرف بالضعف وسوء التدبير، وامتاز عهده بازدياد نفوذ الجند والولاة. وكان، كغيره من سلاطين بني بويه، مغالياً في التشيع، وكان يكثر من زيارة مشهدي علي بن أبي طالب وابنه الحسين، حتى إنه كان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ.

أبو كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ):

عمل جلال الدولة على أن يخلفه في السلطنة ابنه الأكبر أبو منصور فيروز. وقد ولاه أبوه البصرة إلى أن خرجت من يده، فولاه واسط، ولم يكن فيروز الذي لقبه الخليفة «الملك العزيز»، كلفا بشئون الدولة، بل صرف وقته في الانغماس في الملاذ من ناحية، وفي دراسة الأدب والتاريخ والنحو ونظم القصائد من ناحية أخرى[1].

ولم يستطيع الملك العزيز الاحتفاظ بنفوذ أبيه في بغداد. فقد استمال أبو كاليجار بن سلطان الدولة كبار القواد بالأموال، فأقاموا الخطبة له، واستقر أمره ببغداد. على حين أخذ أنصار الملك العزيز ينفضون من حوله، ولجئوا إلى الأمراء على غير جدوى، حتى مات بميافارقين سنة ٤٤١ هـ.

بذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد، ولكنه لم يجد من الخليفة القائم الذي لم يخرج للقائه الترحيب الذي كان يؤمله. ولما ضرب أبو كاليجار الدبادب على داره في أوقات الصلوات الخمس، وأمر الخليفة بقصرها على ثلاث مرات، لم يحفل بأمر الخليفة[2].

وقد اعترف سائر أمراء العراق بنفوذ أبي كاليجار، واستولى أنصاره على همذان، وطردوا نائب طغرلبك السلجوقي منها. وأمر أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز التي ظهر فيها إذ ذاك المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (٤٧٠ هـ)، الذي شغل منصب داعي دعاة الفاطميين في فارس وداعي دعاتهم في مصر بعد ذلك. ويرجع سبب بناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ، إلى ما كان يخشاه أبو كاليجار من اتساع نفوذ السلاجقة الذين ازداد خطرهم في الأربع السنين الأولى من حكمه.

وقد حارب أبو كاليجار صاحب أصبهان لنقضه العهد وانضمامه إلى طغرلبك السلجوقي واستيلائه على بعض نواحي كرمان، وإلحاق الهزيمة به وطرده من هذه البلاد.

---

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٢ ص ١٦٧. (٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ٣٧ ـ ٣٨.

ولكن أبا كاليجار نجح في استمالة صاحب أصبهان الذي دعا له على منابرها في سنة ٤٣٨ هـ. وبعد ذلك بسنتين عقد الصلح بين أبي كاليجاروبين طغرلبك، الذي كتب إلى أخيه (إبراهيم بن ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده. واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك(١).

وكان من أثر عقد الصلح الذي اقترن بربط البيتين البويهي والسلجوقي برباط المصاهرة، أن تأجل استيلاء السلاجقة على بغداد إلى حين، كما تأخر تهديد السلاجقة لأملاك الفاطميين في الشام ومصر.

وقد اتخذ بنو بويه الشيعيون من التقرب إلى الفاطميين وسلة لإثارة مخاوف العباسيين حتى لا يرتموا في أحضان أعدائهم السلاجقة السنيين. وكأنهم بذلك رجعوا إلى السياسة التي أراد معز الدولة بن بويه أن يتبعها حيال الفاطميين بعد استيلائه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ، ولكنه أشير عليه بالعدول عن هذه السياسة.

وقد نقل هارولد باون عن كتاب Fàrs - Namch أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السبعية الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديالمة في فارس على يد ذلك الداهي القدير الذي نجح حتى في تحويل هذا الأمير (أبي كاليجار) إلى عقائد هذا المذهب.

ساءت العلاقة بين أبي كاليجار وبين واليه في كرمان، فقصده في شهر ربيع الآخر من هذه السنة. ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق، وتوفي في شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وله من العمر أربعون سنة ومدة سلطنته أربع سنين وشهران وأيام، وحكم فارس والأهواز خمساً وعشرين سنة(٣). وكان، كما يصفه أبو المحاسن (جـ ٥ ص ٤٦)، «شجاعاً، فاتكاً مشغولاً بالشرب واللهو».

أبو نصر الملك الرحيم (٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ):

لما علم أبو نصر خسرو فيروز بموت أبيه أبي كاليجار، وكان نائباً عنه في العراق،

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٩٩.

(٢) The Last Buwayhids, J.R.A.S.(1929), p.134

(٣) أبو المحاسن ج ٥ ص ٤٦.

استخلف الجند، وراسل الخليفة القائم في تلقيبه بالملك الرحيم. وترددت الرسل بينهما في ذلك إلى أن أجيب إلى ملتمسه؛ سوى «الملك الرحيم». فإن الخليفة امتنع من إجابته وقال: لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى، واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة. هذا ما ذكره ابن الأثير (جـ ٩ ص ٢٠٤) أما أبو المحاسن (جـ ٥ ص ٤٦) فقد ذكر أن الخليفة القائم بأمر الله لقبه «الملك الرحيم» وخلع عليه خلعة السلطنة. وكانت الخلع سبع جباب كاملة، والتاج والطوق والسوارين واللواءين كما كان (قد) فعل بعضد الدولة.

وكان للملك الرحيم إخوة كثيرون هم: الأمير أبو منصور فلادستون، وأبو طالب كامرو، وأبو المظفر بهرام، وأبو علي فناخسرو، وأبو سعد خسروشاه، واسفنديار، وبويه، وأخ صغير وأختان، تزوجت إحداهما الخليفة القائم وماتت سنة ٤٤٠ هـ، وتزوجت الأخرى طغرلبك[١].

استولى أبو منصور على شيراز، فسير إليه أخوه الملك الرحيم أخاه الآخر أبا سعد خسروشاه فاستولى عليها، وأقام الخطبة فيها للملك الرحيم الذي سار إلى خوزستان، فأذعنت له بالطاعة، كما هزمت جيوشه الملك العزيز بن جلال الدولة الذي طمع في امتلاك البصرة، فانقطع أمله في العودة إلى السلطنة ومات في السنة التالية (٤٤١ هـ).

ولكن الأحوال تقلبت بالملك الرحيم، فإن أخاه أبا منصور صاحب فارس انتصر عليه وملك الأهواز (٤٤١ هـ) ولم يلبث أن خرج منها بسبب شغب الجند عليه. وإعادة الخطبة للملك الرحيم الذي استرد الأهواز بنفسه في السنة التالية، وفي سنة ٤٤٣ هـ أرسل الملك الرحيم أخاه أبا سعد فاستولى على قلعة إصطخر ومدينة شيراز، وأصبحت مدن العراق وفارس مركزاً للنزاع بين الملك الرحيم وبين إخوته تارة وبينه وبين السلاجقة تارة أخرى[٢].

وكانت هذه الحروب التي قامت بين أبناء أبي كاليجار من أهم عوامل ضعف بني بويه، فإنه بدلاً من أن يستعين الملك الرحيم بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده، قلم أظفاره وهيأ لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد، كما كانت مناوأة أبي الحارث البساسيري أحد قواد بني بويه الأتراك للخليفة القائم من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بني بويه.

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٠٤ Harold Bowen J.R.A.S. (1929).p.227

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٦ - ٢٢٩.

ويصف البنداري[1] كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها وكيف استقل فيها، وكيف أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين، وكيف قضي على الملك الرحيم آخر سلاطين بني بويه في العراق، بعد أن حكموا أكثر من قرن على ما سنفصله في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ ـ ١٠.

الباب الرابع

الدول المستقلة

تمهيد

استبد أمير الأمراء بالسلطنة على ما تقدم، وتولى بجكم الحكم في أمور الدولة كافة، كما ذكر اسمه في الخطبة على جميع المنابر، واستقلّ أكثر الولايات الإسلامية عن الدولة العباسية، وقامت الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ ـ ٧٥٦/٣٩٧ ـ ١٩٠٢) على يد عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل، وتأسست دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣١١/ ٧٨٨ ـ ٩٣٢) على يد إدريس عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ودولة الأغالبة في تونس (١٨٤ ـ ٢٦٩/ ٨٠٠ ـ ٩٠٨) على يد إبراهيم بن الأغلب. كذلك كانت سيادة الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥) والإخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) والفاطميين (٣٥٨ ـ ٥٦٧/ ٩٦٩ ـ ١١٧١) في مصر.

أما في الشرق فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩/ ٨٢٠ ـ ٨٧٢) في خراسان، ومنهم انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠/ ٧٦٨ ـ ٩٠٣) التي قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار، والدولة السامانية (٢٦٦ ـ ٣٨٩/ ٨٧٤ ـ ٩٩٩) التي تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢/ ٩٦٢ ـ ١١٣٦) لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالي الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني، كما زاد نفوذ بني بويه.

وكان لقيام هذه الدول أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية؛ ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً لهذه الحضارة ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين في الحضارة وفي العلوم والمعارف، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى، وأصبح كل منها قبلة العلماء والشعراء والكتّاب الذين تنقلوا بين هذه الحواضر طلباً للعلم أو ابتغاء الكسب، هذا إلى أن قيام هذه الدول لم يؤثر في مظاهر الحضارة الإسلامية، على العكس عاد عليها بفوائد كثيرة. ولنذكر طرفاً عن الدول التي قامت في ذلك العصر.

الدولة الصفارية

(٢٥٤ ـ ٢٩٠/٨٦٧ ـ ٩٠٣)

يعقوب بن الليث الصفار:

تأسست الدولة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار (٢٥٤ ـ ٢٦٥ هـ)، الذي أغار على بلاد الدولة الطاهرية في خراسان، التي أسسها طاهر بن الحسين في عهد الخليفة المأمون (٢٠٥ هـ).

وقد استقل بنو طاهر بحكم هذه البلاد، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعترفون بسلطان الخليفة العباسي، «واشتد نفوذهم إلى حدود بلاد الهند» ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا فيها حتى سنة ٢٥٩ هـ.

كان يعقوب وأخوه عمرو يشتغلان بعمل الصفر ويتظاهران بالزهد. وكان يعقوب أحد زعماء المطوعة، واشتهر أمره منذ سنة ٢٣٧ هـ، كما كان أحد قواد صالح بن النضر الكناني الذي استولى على سجستان. ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استردها من هؤلاء المطوعة.

وسرعان ما تغلب على هذه المدينة درهم بن الحسين زعيم المطوعة الذي ظهر عجزه، فولي جنده قائده يعقوب بن الليث الذي تولى أمر المطوعة وحارب الخوارج والشراة وهزمهم هزيمة منكرة، ولم يلبث أن اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها[1].

ثم احتلت جيوشه نيسابور (سنة ٢٥٩ هـ) قاعدة الدولة الطاهرية، مخالفاً أوامر الخليفة ومدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا إليه لاستخلاصها من آل طاهر[2].

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٢٣٢.

ولم يكن يعقوب بن الليث يرمي إلى القضاء على الدولة الطاهرية، بل عمل على أن يمد نفوذه على بلاد فارس وخراسان. لذلك تراه يحارب الترك على تخوم سجستان، فرهبته الملوك وأذهن له ملك المولتان: وملك الرخج، وملك الطبسين، وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم، كما حارب الحسن بن زيد (٢٥٠ ـ ٣٧٠ هـ) مؤسس الدولة العلوية في طبرستان وهزمه[١].

وفي سنه ٢٦١ بدأت أطماع يعقوب بن الليث الواسعة تظهر ظهوراً بيناً، وأدرك الخليفة العباسي المعتمد مدى الخطر الذي تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذه، فأضمر له العداء، وجمع ببغداد حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان. وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب، وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس[٢].

وقد أثار الخليفة العباسي بعمله هذا حنق يعقوب، فأعد عدته لقصد العراق ثم سار إلى الأهواز، «وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور، وشرطتي بغداد وسر من رأى، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ويقرأ عليهم خلاف ما قرىء عليهم أولاً. ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب. ففعل ذلك الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله. وأجابه إلى ما طلب، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار، وأجيب إلى الولاية التي طلبها»[٣].

بيد أن أطماع يعقوب لم تقف عند حد، فلم يقنع بتوليته الخليفة العباسي له على هذه البلاد، بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه. ويظهر أنه كان يعتمد على جيش قوي؛ فقد ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣١٧) أن مساحة معسكره كانت ميلاً في ميل، وأن دوابه كانت في غاية الفراهية، ولكن ذلك كله لم يغنه شيئاً، فقد ثار جنده عليه حين رأوا الخليفة المعتمد على رأس الجيش فحلت به الهزيمة.

على أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد يعقوب بن الليث الذي لم يكتف بما استولى عليه من البلاد، بل أخذ يحارب بعض ولاة الخليفة. وفي أواخر سنة ٢٦٣ هـ، استولى على

(١) الطبري جـ ١١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ٢٣٤.
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١٦.

جند يسابور، ثم أخذ الأهواز من يد صاحب الزنج بعد حروب طاحنة[١].

وقد ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٢٠) أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل إليه يعقوب بن الليث ليأمن جانبه، فيقول: أرسل إليه رسولاً يترضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس؛ فوصل الرسول ويعقوب مريض، فجلس له، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً، ومعه بصل، وأحضر الرسول فأدى الرسالة، وقال له: «قل للخليفة إني عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني؛ وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا السيف هذا، حتى آخذ بسيفي أو تكسرني وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل. وعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات» (في جند يسابور)[٢] وكان موته لأربع عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة ٢٦٥ هـ[٣].

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، فكان يحسن اختيار رجاله، كما كان يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها بالعدة والسلاح. وامتلأت خزائنه بالأموال حتى قيل إنه ترك خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار[٤].

ويقول براون[٥] إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال إنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التي قام بها يعقوب بن الليث الصفار فإنه على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق، نجح في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها أول الأمر، بل في معظم أرجاء فارس وإلى أسوار بغداد تقريباً.

عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ):

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفار أقر أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) راد نظام الملك في كتابه سياسة نامه Siyasset Nsmeh (ed. Schefer. pp.1316 أن يعقوب هدد المعتمد بإرسال رأسه إلى المهدية حاضرة الفاطميين: وهذا خطأ ظاهر، لأن يعقوب مات في سنة ٢٦٥ هـ أي قبل قيام الدولة الفاطمية بإحدى وثلاثين سنة. وكان تأسيس المهدية التي اتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي حاضرة بعد ذلك، أنظر أيضاً.
Browne Lit. Hist. of Persia. vol. I.p.353

(٣) (ابن خلكان جـ ٢ ص ٣١٩.

(٤) أنظر الملحق الثاني.

(٥) Lit. Hist. of Persia, vol. I.pp.346 - 7.

بغداد، وخلع عليه. وبذلك قبض عمرو على ما كان بيد أخيه، وأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد والبصرة، وبعث إلى الموفق بعامود من ذهب(١).

ويقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٣٣٠) إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة حتى قيل: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث.

على أن العلاقة لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية، فقد عزل الخليفة المعتمد عمرو بن الليث عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملأ من حاج خراسان، ولعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر، بيد أن محمد بن طاهر آثر البقاء بحاضرة الخلافة وأناب رافع بن هرثمة في إدارة ولاية خراسان، وانتصرت جيوش المعتمد على عمرو بن الليث، وخرج أبو أحمد الموفق في سنة ٢٧٤ هـ لحربه، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على كرمان وسجستان وعاد أدراجه(٢).

ولما ولي المعتضد الخلافة (٢٧٩ هـ)، عزل رافع بن هرثمة الذي كان محمد بن طاهر قد أنابه عنه في ولايتها، وأعادها إلى عمرو بن الليث. ولكن رافعاً لم يذعن لأمر الخليفة وشق عصا الطاعة، وحارب عمراً الذي قتله في سنة ٣٨٣ هـ وبعث برأسه إلى المعتضد؛ ففرح لذلك غاية الفرح، وأرسل إليه الخلع واللواء دليلاً على رضائه عنه. ولكن عمراً اعتذر عن قبول هذه الخلع وأصر على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر، وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني. ولم يجد الخليفة بداً من إجابة عمرو الذي لم تقف أطماعه عند حد وكتب إليه إسماعيل: «إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيماً بهذا الثغر؛ فأبى إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: لو شئت أن أسكره ببدر الأموال وأعبره لفعلت».

ولكن عمراً لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته الجيوش بنفسه، فحلت به الهزيمة ووقع أسيراً في قبضة إسماعيل بن أحمد الساماني، وتشتت شمل جيشه الذي بلغ سبعين ألفاً أيدي سبأ وكانت هذه الموقعة من المواقع

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٢٥٥. (٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٥٣.

الحاسمة، لأنها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها[١].

ولما علم الخليفة المعتضد بهزيمة عمرو بن الليث فرح فرحاً شديداً وأشاد بذكر إسماعيل بن أحمد الذي سير عمراً إلى الخليفة، وألبس عمرو دراعة ديباج، وبرنس السخط، وحمل على جمل له سنامان ـ يقال له إذا كان ضخماً على هذه الصورة «الفالج» ـ في غاية الارتفاع، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدي للخليفة. وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسنى، وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه، فرقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه. ثم أدخل إلى الخليفة، وقد جلس له، واحتفل به، فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعاً وقال له: هذا ما يبغيك يا عمرو. ثم أخرج من بين يديه إلى حجرة قد أعدت له. ومات عمرو في غد ذلك اليوم، ودفن، وقيل إنه قتل[٢].

«وكان عمرو ـ كما يقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٧٨ ـ ١٧٩) عظيم السياسة، قد منع أصحابه وقواده أن يضرب أحد غلاماً إلا بأمره، أو يتولى عقوبة الغلام نائبه أو أحد حجابه. وكان يشتري المماليك الصغار ويربيهم ويهبهم لقواد، ويجري عليهم الجرايات الحسنة سراً ليطالعوه بأحوال قواده، ولا يكتم عنه من أخبارهم شيء. ولم يكونوا يعلمون من ينقل إليه عنهم، فكان أحدهم يحذره وهو وحده».

ولما أسر عمرو، آل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (صفر سنة ٢٨٨ هـ)، إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء، لاستبداد سبك السبكري غلام عمرو بن الليث بالسلطة، حيث قبض عليه وعلى أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث في سنة ٢٩٦ هـ وبعث بهما إلى بغداد. وتغلب على بلاد فارس إلى أن طرده منها الليث بن علي بن الليث الصفار، فاستنجد السبكري بالخليفة المقتدر، فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم (٢٩٧ هـ) وحلت الهزيمة بالليث الصفاري وأسر. ولكن الجو لم يصف للخلافة بسبب عصيان السبكري وامتناعه عن إرسال الأموال إلى بيت المال[٣].

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٧٨ ـ ١٧٩. ابن خلكان ج ١ ص ٣٢١، ٣٣٢.

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٢٤. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠.

وقد بعثت الخلافة العباسية الجيوش تلو الجيوش للقضاء على السبكري، ولكنها لم تستطع القبض عليه حتى تمكن أحمد بن إسماعيل السامـاني من الاستيلاء على سجستـان والقبض على محمد بن علي بن الليث الصفاري، ثم على السبكري، وبعث بهما إلى بغداد في شوال سنة ٢٩٨ هـ. ومن ثم زالت الدولة الصفارية التي لم يقتصر خطرهـا على انتزاع ذلك الجزء الكبير من أراضي الدولة العباسية، بل حاول يعقوب فتح بغداد، واقتفى أخـوه عمرو أثـره، ولكنهما لم يصلا إلى بغيتهما.

ويرجع ضعف الدولة الصفارية وزوالها إلى موقف الخلافة العباسية العدائي منها، وما بذلته من الجهود المتصلة للقضاء عليها. أضف إلى ذلك موقف السامانيين من هذه الدولة، فقد هزم إسماعيل بن أحمد الساماني جيوش عمـرو بن الليث الصفـار وأرسـله إلى بغداد، وقضى ابنه أحمد بن إسماعيل عليها نهائياً. هذا إلى منـاوأة بعض قوادهـم ولا سيمـا سبك السبكري غلام عمرو بن الليث الصفار الذي كان لثـورته أثـر كبير في ضعف هـذه الدولـة وزوالها في النهاية.

الدولة السامانية

(٢٦١ - ٣٨٩ / ٨٧٤ - ٩٩٩)

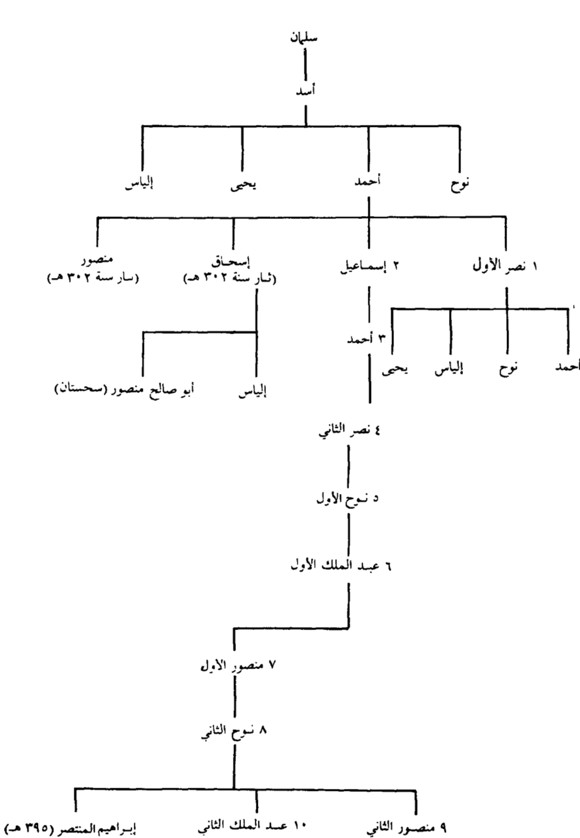
البيت الساماني[1]

	هجرية	ميلادية
١ نصر الأول بن أحمد	٣٦١	٨٧٤
٢ إسماعيل بن أحمد	٢٧٩	٨٩٢
٣ أحمد بن إسماعيل	٢٩٥	٩٠٧
٤ نصر الثاني بن أحمد	٣٠١	٩١٣
٥ نوح الأول بن نصر	٣٣١	٩٤٢
٦ عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣	٩٥٤
٧ منصور الأول بن نوح	٣٥٠	٩٦١
٨ نوح الثاني بن منصور	٣٦٦	٩٧٦
٩ منصور الثاني بن نوح الثاني	٣٨٧	٩٩٧
١٠ عبد الملك الثاني بن نوح الثاني	٣٨١	٩٩٩

(١) Lane - poole: Muhammadan Dynasties, pp. 132 - 133

(خانات تركستان: الغزنويون)

تسلسل آل سامان



إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ):

تنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة في المجد يرجع أصلها إلى بهرام جور ـ وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم.

وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الإسلام، وسمى ابنه باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في أواخر عهد الأمويين، وظهر أولاد أسد بن سامان في عهد الخليفة المأمون، فولي نوح بن أسد سمرقند في سنة ٢٠٤ هـ. وأحمد بن أسد فرغانة، ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة، وإلياس بن أسد هراة. ولما ولي طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال.

وكان لأحمد بن أسد سبعة أولاد، اشتهر منهم إسماعيل ونصر الذي خلف أباه على سمرقند وما يليها من قبل الطاهريين حتى ولاه الخليفة العباسي المعتمد بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ. ومن ثم تأسست الدولة السامانية، وأصبح نصر بن أحمد الساماني من القوة بحيث استطاع أن يولي أخاه إسماعيل على بخارى (٢٦١ هـ). ولكن النزاع لم يلبث أن دب بينهما بسبب إثارة خصومهما العداوة والبغضاء بينهما، حتى إن نصراً قصد أخاه إسماعيل لحربه في سنة ٢٧٢ هـ، ولكنهما تصالحا مدة، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد وقامت الحرب بينهما في سنة ٢٧٥ هـ، وظفر إسماعيل بأخيه نصر. فلما حمل إليه ترجل له إسماعيل وقبل يديه، ورده من موضعه إلى سمرقند، وناب عنه في ولاية بخارى[1]. ولما مات نصر في سنة ٢٧٩ هـ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل. وفي عهد إسماعيل ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة، وقامت بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية كما تقدم.

وقد تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد الذي كان ينازع السامانيين السلطة في خراسان. على أن القائد الذي تم على يديه فتح هذه البلاد لم يلبث أن ثار عليه، واتخذ البياض شعاراً له، مناوئاً بذلك العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم ـ وسار إسماعيل بن أحمد على رأس جيش كبير، وأحل الهزيمة بهذا القائد، وضم الري وقزوين إلى سلطانه، وبذلك أمن حدوده بلاده من ناحية الغرب (سنة ٢٨٩ هـ).

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٩٩ و١٠٠.

وفي سنة ٢٩١ هـ صد إسماعيل جيوش الترك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية[١]، ومات إسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ. ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى التي ارتقت في عهد إسماعيل حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية. على أنه ليست هناك نقوش تدل على أن هذا القبر هو قبر إسماعيل، كما يستدل من الكتابات التي نقشت على القبر نفسه أو على الأبنية المحيطة به.

وقد وصف ابن الاثير (جـ ٧ ص ١٠٠) إسماعيل بن أحمد الساماني فقال: «إنه كان خيراً يحب أهل العلم والدين، ويكرمهم». وقال في موضع آخر (جـ ٨ ص ٢ ـ ٣) «إنه كان عاقلاً عادلاً، حسن السيرة في رعيته، حليماً. حكي عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدبه، فمر به الأمير إسماعيل يوماً، والمؤدب لا يعلم به، فسمعه وهو يسبُّ ابنه ويقول له: لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك. فدخل إليه، فقال له: يا هذا؟ نحن لم نذنب ذنباً لتسبنا، فهل ترى أن تعفينا من سبك، وتخص المذنب بشتمك وذمك؟ فارتاع المؤدب، فخرج إسماعيل من عنده وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه».

أحمد بن إسماعيل وابنه نصر (٢٩٥ ـ ٣٣١ هـ):

لما توفي إسماعيل بن أحمد الساماني سنة ٢٩٥ هـ أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه. وقد تم زوال الدولة الصفارية على يديه. فأسر غلامه سيمجور، سبك السبكري غلام عمرو بن الليث الصفار، كما أسر الليث بن علي الصفاري[٢]. وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفاري وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد[٣]. على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلعت طاعة أحمد بن إسماعيل، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار. فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها، واستمرت الحرب بين الفريقين نحواً من سنة حتى تم النصر للسامانيين، وقبض على الصفاري، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين.

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١ هـ. وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٧) أنه كان مولعاً بالصيد، فخرج متصيداً، وأنه أتاه كتاب نائبه بطبرستان يخبره

(١) أنظر لفظ إسماعيل بن أحمد في Encylopaedia of Islam, vol.II.pp.pp.545 - 6
(٢) الطبري ج ١٢ ص ١١، ١٩.
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١ ـ ٢٢.

بظهور الحسن بن علي العلوي الأطروش وتغلبه عليها، وأنه أخرجه عنها، فحزن أحمد لذلك وعاد إلى معسكره، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد، فنزل عليه فتطير الناس من ذلك. وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه، فلا يجسر أحد أن يقربه. فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة، فدخل إليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ فحمل إلى بخارى فدفن بها ولقب بالشهيد.

كان أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني في الثامنة من عمره حين قتل أبوه، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه، وهو إسحاق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر - عدا بخارى - إليه وإلى أولاده، وأرسل هو وبعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان. ولكن الخليفة أقر نصراً على بلاد أبيه، وأقر اللقب الذي تلقب به وهو السعيد، وضبط بلاده أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني[1].

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠١ هـ أن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق، ثارا على السعيد نصر وسارا نحو بخارى. ولكن الهزيمة حلت بهما غير مرة، واستولت جيوش نصر على سمرقند، واختفى إسحاق، ثم أسر، وهرب ابنه إلياس إلى فرغانة، وخرج ابنه الثاني أبو صالح منصور على نصر في السنة التالية، وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على أن يتولوها نيابة عنه، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور، واستمرت الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين (٣٠٢ - ٣٠٦ م)؛ وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر[2].

أخذ إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني الذي كان قد ثار مع أبيه يعدُّ العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس، ثم قصد سمرقند مناوئاً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذي انتصرت جيوشه عليه في سنة ٣١٠ هـ، وأرغمته على الهرب إلى فرغانة والاختفاء بها، ثم أخذ يعد العدة من جديد بمعونة صاحب الشاش، ولكن الهزيمة حلت به وأسر صاحب الشاش ومات.

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة. حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت الساماني في إقرار سلطانهم في بلاد المشرق. ولما

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨.

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٨، ٣٠ - ٣١.

دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط لإنقاذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثاني الساماني بولاية الري، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبي الساج، فاستولى عليها نصر وولي عليها سيمجور وعاد إلى بخارى.

وفي سنة ٣٣٢ هـ ثار أبو علي محمد بن إلياس على نصر بن أحمد الساماني واستولى عن كرمان، فسير إليه نصر ماكان بن كالي على رأس جيش كثيف أحل الهزيمة بابن إلياس، واستولى على كرمان ووليها من قبل السامانيين. على أن ماكان بن كالي خرج على السامانيين في جرجان سنة ٣٢٨ هـ. فأرسل إليه نصر بن أحمد جيشاً هزمه واستولى على هذه البلاد وأعادها إلى نفوذ السامانيين كما انتزعت جيوشهم الري من يد وشمكير بن زيار (أخي مرداويج بن زيار) بعد أن هرب إلى طبرستان ثم دخل في طاعة السامانيين، ومن يد ماكان بن كالي الذي قتل. ثم أخذت انتصارات جيوش السامانيين تتابع، فاستولت على أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغت حدود حلوان[١].

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الأثير فقال إنه كان حليماً كريماً عاقلاً[٢]. حكي عنه أنه خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهب خزانته وأمواله. فلما عاد السعيد إلى حاضرة ملكه، قيل له إن جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض لهم وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منها سكيناً نفيساً بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر باسترضائه. وطال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً، فأقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له في قصره بيتاً سماه بيت العبادة. فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي إليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع. وكان ذلك في سنة ٣٣١ هـ، بعد أن ولي إمرة السامانيين ثلاثين سنة وشهراً وثلاثة أيام، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة[٣].

وقد خالف نظام الملك[٤] ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد الساماني فقال إنه دان بعقائد الإسماعيلية وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله. فلما أدرك نصر الخطر المحدق به، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٩٦، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٧

(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٤٢.

(٤) Siyasset Nâmeh, vol.II.pp.278 - 281.

وأنصاره في بلاده. وذكر المقريزي أن نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال.

نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ):

تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وما وراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١ هـ، واستهل إمارته بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه، وولاهم بعض الولايات، وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبني بويه في أيام نوح بن نصر الذي عمل على استرداد الري من يد ركن الدولة بن بويه، وتفاقم النزاع بينهما، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين. بيد أن نوحاً أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الري، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ[١].

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبي علي بن محتاج الذي أخلص له ولأبيه من قبل[٢].

وقد كاتب الجند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر الساماني ـ وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان ـ يطلبون إليه الحضور لمبايعته، فلبى دعوتهم. وقامت الحرب بينه بمساعدة أبي علي وبين نوح بن نصر. واستولى على نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥ هـ وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل. على أن أبا علي لم يلبث أن خرج على إبراهيم الذي مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن يتقلد إمرة جيوشه، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخي الأمير نوح بن نصر، وبايع له، وأقام الخطبة باسمه في كثير من نواحي خراسان وبلاد ما وراء النهر. واستمرت الحروب بين أبي علي ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى ٣٣٧ هـ، وانتهت بعقد الصلح بينهما[٣].

واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الري وبلاد الجبل من ركن الدولة بن بويه الذي كان له أثر كبير في إثارة أبي علي (٣٣٩ هـ)[٤]

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٦٤ ـ ١٦٣ ـ ١٣٥.
(٤) مسكويه جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠١، ١٠٣ ـ ١٠٤.

وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبي علي الذي استطاع بمساعدة وشمكير بن زيار أن يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع لنوح بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار. على أن نوحاً لم يلبث أن ساورته الريب في إخلاص أبي علي. فعزله عن قيادة الجيوش في خراسان، فراسل ركن الدولة وسار إليه في الري حيث أكرمه، وتدخل لدى الخليفة العباسي المطيع، فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة بن بويه، وذلك سنة ٣٤٣ هـ، وهي السنة التي توفي فيها الأمير نوح بن نصر[(١)].

عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٢ - ٣٦٦ هـ):

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين سنة ٣٤٣ هـ، قلد بكر بن مالك قيادة الجيوش في خراسان، وسيره من بخارى لإخراج أبي علي بن محتاج، الذي انضم جنده إلى عبد الملك وبقي هو في مائتي رجل من أصحابه، واضطر إلى الهرب ولجأ إلى ركن الدولة في الري فأحسن وفادته[(٢)].

على أن أيام عبد الملك بن نوح لم تطل بسبب كبوة فرسه في شهر شوال سنة ٣٥٠ هـ فآلت السلطنة من بعده إلى أخيه أبي صالح منصور بن نوح، وافتتنت خراسان بعده، كما يقول مسكويه (جـ ٢ ص ١٨٩)، ودب الضعف إلى جسم الدولة السامانية.

وفي عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد، وولوا مكانه رجلاً من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين. ولكن منصور بن نوح، أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد، لكنه لم يلبث أن طرد منها، ثم استردها بمعونة السامانيين. بيد أن علاقته بالسامانيين لم تلبث أن ساءت، «فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التي استقرت القاعدة عليها»، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربته بسجستان، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مبلغ الضعف الذي دب إلى البيت الساماني. وقد أحسن ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٠٢) بقوله: «وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم».

وفي سنة ٣٥٦ هـ قامت الحرب في جهات الري بين منصور بن نوح وركن الدولة بن بويه، ولم ينته العداء بين السامانيين والبويهين إلا في سنة ٣٦١ هـ، حيث تم الصلح بين

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٧.
(٢) مسكويه ج ٢ ص ١٥٧.

الأمير منصور بن نوح الساماني وبين عضد الدولة، على أن يحمل كل من ركن الدولة في كل سنة مائة ألف دينار. ويحمل إليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار. وتزوج نوح بابنة عضد الدولة. وحمل إليه من الهدايا والتحف، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق[١].

نوح الثاني بن منصور (٢٦٦ ـ ٣٨٧ هـ):

ولما مات منصور بن نوح سنة ٣٦٦ هـ، تولى بعده ابنه نوح الثاني وتلقب المنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره. وقام بأمر الدولة السامانية في مستهل إمارته وزيره أبو الحسن العتبي، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير العتبي، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش، كما قامت الحرب في هذه السنة بين الأمير نوح بن منصور الساماني وبين عضد الدولة بن بويه الذي استولى على جرجان، ولا سيما بعد أن اتصل بهم نبأ قتل الوزير أبي الحسن العتبي الذي يرجع إليه الفضل في متابعة هذه الحروب[٢]. أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت الساماني على نوح بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه[٣].

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذي كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل أبي العباس تاش عن خراسان وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليها، فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن بويه الذي أمدّه بجيش يحارب به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم كتب إلى الأمير نوح يستميله ويستعطفه. ولكن ابن عزيز تشدد في عزله ووافقته على ذلك أم الأمير نوح التي كان لها الأمر والنهي في دولة ولدها، حتى كانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض أهل ذلك العصر:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما ... رأيُ النساء وإمْرَةُ الصِّبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى ... وأخو الصبا يجري بغير عنان[٤]

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣ هـ ثار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور. وفائق الخاصة غلام نوح بن

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٥. أبو المحاسن جـ ٤ ص ٦٣.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤ ـ ٥.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٠ ـ ١١.
(٤) مسكويه جـ ٣ ص ٩٣.

نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقاً حتى تتاخم حدود الصين، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحاً لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على أثر موت بغراخان وثورة أهالي بخارى عليه[(١)].

وفي سنة ٣٨٤ هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه وانتصرت جيوشهما بالقرب من هراة على الأمراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا إلى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بخارى، وعاد سبكتكين إلى هراة. وأقام محمود بنيسابور[(٢)]. على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود.

ومع أن أيام نوح بن منصور الساماني طالت مدتها حتى أربت على إحدى وعشرين سنة، كان عهده مليئاً بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه، وتدخل النساء والوزراء في الحكم، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة وطمع بني بويه والأتراك في بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه[(٣)].

زوال الدولة السامانية:

لما توفي نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ، قام بعده ابنه منصور بن نوح، فعمل على تأليف القلوب حوله. بإغداق الأموال على أنصاره وقواده. على أن إيلك المعروف بغراخان التركي، الذي كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند. وانضم إليه فائق الخاصة الذي تمكن من الاستيلاء على بخاري، متظاهراً بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور، «رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق؛ فعاد إليها ودخلها، وولى فائق أمره وحكم في دولته، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان»[(٤)]. وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤٨.
(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٤٨.
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨.

نوح ومحمود الغزنوي الذي أثار سخطه تولية بكتوزون على خراسان؛ وطلب إعادتها إليه، فلم يجب طلبه وساءت العلاقة بينهم. وسرعان ما قبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح وسملا عينيه ولما يمض عليه في الإمارة غير سنة وسبعة أشهر. ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح. واتخذ محمود الغزنوي من اضطراب حبل الأمور في الدولة السامانية فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى، واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله. ووقعت بلاد ما وراء النهر في يد إيلك بغراخان الذي قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح، ولكنه لم يلبث أن قبض على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه، وحبس معه أخاه منصور بن نوح الذي ولي إدارة السامانيين من قبله، كما حبس أخويه أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب ابني نوح، وحبس من أعمامه أبا زكريا وأبا سليمان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة.

وإن من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم، واستعانتهم بعض أمراء هذا البيت على نوح بن نصر (٣٣١ - ٣٤٣ هـ)، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال الأطراف ببني بويه، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها في النهاية. أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء.

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان، وأصبحت كأن لم تغن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار»[١].

ولأمراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الأدب، وبخاصة الأدب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث، حتى إن الفرس أخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الأدب الفارسي منذ ذلك الوقت. ومن ذلك كتاب الشاهنامه للفردوسي، ومختصر الطبري للبلعمي وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ).

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ - ٥٦.

أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسي. ومن أشهر كتب الطب في ذلك العصر الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي وأهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحاق الساماني الذي ولي سجستان نيابة عن السامانيين. وقد روى لنا ابن سينا الفيلسوف المشهور الذي قامت علاقته بالسامانيين منذ حداثة سنه على أساس متين بعد أن أسعده الحظ بشفاء الأمير نوح بن منصور على يديه مع أنه قد ناهز السابعة عشرة من عمره ـ روى أنه رأى في مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل.

الدولة الغزنوية

(في بلاد الأفغان والبنجاب)

٣٥١ - ٥٨٢/٩٦٢ - ١١٣٦

البيت الغزنوي[١]

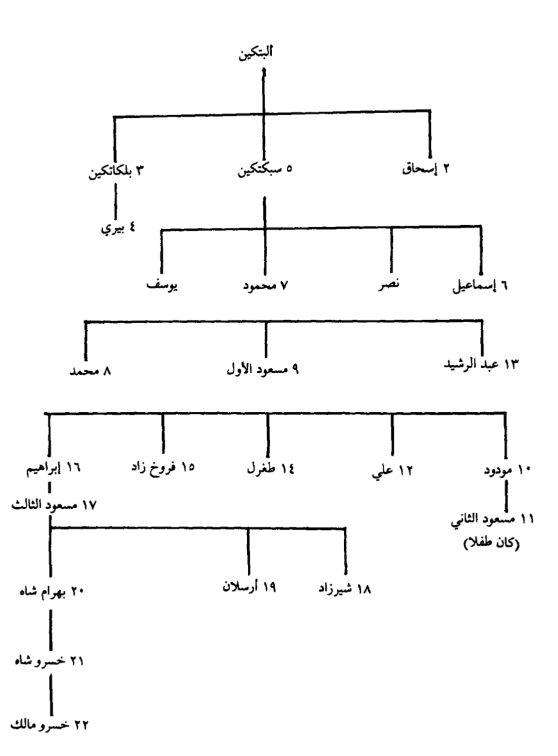
	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ ألبتكين	٣٥١	٩٦٢	١٢ علي أبو الحسن بهاء الدولة	٤٤١	١٠٤٨
٢ إسحاق	٣٥٢	٩٦٣	١٣ عبد الرشيد: عز الدولة	٤٤١	١٠٤٩
٣ بلافكين	٣٥٥	٩٦٦	١٤ طغرل (مغتصب)	٤٤٤	١٠٥٢
٤ بيري	٣٦٢	٩٧٢	١٥ فروخ زاد: جمال الدولة	٤٤٤	١٠٥٥
٥ سبكتكين	٣٦٦	٩٧٦	١٦ إبراهيم: ظهير الدولة	٤٥١	١٠٥٩
٦ إسماعيل	٣٨٧	٩٩٧	١٧ مسعود الثالث علاء الدولة	٤٩٢	١٠٩٩
٧ محمود: يمين الدولة	٣٨٨	٩٩٨	١٨ شيرزاد: كمال الدولة	٥٠٨	١١١٤
٨ محمد: جلال الدولة	٤٢١	١٠٣٠	١٩ أرسلان: سلطان الدولة	٥٠٩	١١١٥
٩ مسعود الأول ناصر دين الله	٤٢٢	١٠٣٠	٢٠ بهرام شاه: يمين الدولة	٥١٢	١١١٨
١٠ مودود: شهاب الدولة	٤٣٢	١٠٤٠	٢١ خسرو شاه: معز الدولة	٥٤٧	١١٥٢
١١ مسعود الثاني[٢]	٤١١	١٠٤٨	٢٢ خسرو مالك: تاج الدولة	٥٥٥	١١٦٠
				٥٨٢	١١٨٦

[الغوريون]

(١) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 289 - 290.

(٢) أخطأ لينبول بذكر وفاته سنة ٤٤٠ هـ، ولذلك أصلحنا هذه السنة عن كتب التاريخ.

جدول الأمراء الغزنويين



سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ):

كان ألبتكين من الموالي الأتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين فأسندوا إليهم المناصب العالية في الدولة. وقد عين عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣ - ٣٥٠ هـ) ألبتكين حاجباً في بلاطه، ثم عينه في سنة ٣٤٤ هـ عاملاً على مدينة هراة، ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه، فعاد إلى مدينة غزنة التي كان أبوه يليها من قبل السامانيين، وحل محله في حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ، واستطاع أن يناوىء منصوراً الأول بن نوح الساماني (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ)، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التي استولى عليها، كما لم يتمكن ابنه إسحاق من مد نفوذ الغزنويين.

وكان لإسحاق مملوكان، هما بلكاتكين Balkatigin وسبكتكين Subuktigin. وقد آلت السلطة من بعده إلى أولهما فضرب النقود باسمه في غزنة سنة ٣٥٩ هـ، وتبعه في حكمها بيري أحد أهالي هذه المدينة. ويعتبر سبكتكين أحد موالي ألبتكين وزوج ابنته المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية[١]. ويذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٤٧) أن إسحاق بن ألبتكين لما توفي «ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم، فاختلفوا، ثم اتفقوا على سبكتكين، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة».

وقد مد سبكتكين سلطانه في الشرق، حيث أسس دولة حاضرتها بشاور، وفي فارس باستيلائه على خراسان التي ولاه عليها نوح بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤ هـ، مكافأة له على قمع الثوار في بلاد ما وراء النهر[٢].

ذكر ابن الأثير في حوادث سنتي ٣٦٦، ٣٦٩ هـ أن سبكتكين استولى على ناحية قصدار القريبة من غزنة، وبست الواقعة بين سجستان وهراة، وأن صاحب بست كان قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله، فأحل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست. ثم صار إلى قصدار بعد أن خرج عليه واليها. واعتصم بها لمناعتها وصعوبة مسالكها، واستولى عليها وأرغم هذا الوالي على الاعتراف بطاعته.

---

(١) Encyclopedia of Islam, Ghaznavids, S.V. (Vol.II,p.154)

(٢) Brown: Lit. Hist: of Persia, vol. I, pp. 371 - 372.

وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند، فاستولى على بعض المواقع الجبلية فيها، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية[١]، وعاد إلى بلاده سالماً ظافراً. ولكن جيبال أحد ملوك الهند، الذي كانت مملكته تمتد في شمال غربي الهند، رأى في استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديداً لمملكته، وبدأت بين ملوك الهند وملوك غزنة حروب طاحنة انتهت باستيلاء محمود بن سبكتكين على جزء كبير من هذه البلاد.

وفي سنة ٣٩٦ هـ حلت الهزيمة بجيبال، وطلب الصلح مع سبكتكين «على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها إليه وخمسين فيلاً يحملها إليه، فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد، ولكن جيبال قبض على من معه من المسلمين مقابل رهائنه. فلما سمع سبكتكين بذلك سار نحو الهند وخرب كل ما مر عليه من بلادهم، ثم قصد لمغان، وكانت من أحسن قلاعهم، ففتحها عنوة، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، ثم عاد إلى غزنة وسار جيبال في مائة ألف مقاتل التقوا بجند سبكتكين الذي أحل الهزيمة بالهنود، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة. وكان من أثر انتصار سبكتكين في هذه الموقعة أن دخل في طاعته الأفغان والخليج»[٢].

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلاً عن السامانيين وأكثر نفوذاً منهم[٣]، اعترف ـ كما يقول لينبول[٤] ـ لهم بالسيادة وشن الحروب وفتح البلاد باسمهم، حتى «اتسعت رقعة ولايته، وعظم حجم جريدته، وعمرت أرض خزينته، وأشفقت النفوس من هيبته»[٥] ففي سنة ٣٨٤ هـ نرى نوح بن نصر الساماني يستعين بسبكتكين صاحب غزنة على حروب أبي علي بن سيمجور وفائق الخاصة، اللذين شقا عصا الطاعة في خراسان، وولاه خراسان، ودارت الحرب بنواحي هراة بين نوح الساماني وسبكتكين وابنه محمود من ناحية، وبين أبي علي بن سيمجور وفائق الخاصة وفخر الدولة بن ركن الدولة البويهي من ناحية أخرى، وانتهت بانتصار سبكتكين، وتتبُّعه أبا علي وفائقاً إلى نيسابور، واستيلائه عليها.

---

(١) كانت هذه الأراضي ولا تزال تعرف باسم Hid أو Hund، ويعرف ملوكها باسم ملوك مملكة الشاهات، ويعرفون عامة باسم ملوك الهنود في كابل.

(٢) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٥٨، ٧٦.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٨.

(٤) Mahammadan Dynasstics,p. 286.

(٥) العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص٦٣.

وبعودة نيسابور إلى السامانيين ولي نوح محمود بن سبكتكين ناصر الدولة[١].

مات سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ بعد أن حكم عشرين سنة وضع فيها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومتانة الخلق، تلك الإمبراطورية التي اتسعت رقعتها وامتدت حدودها في عهد ابنه محمود الغزنوي، و «كان سبكتكين عادلاً خيراً كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء»[٢].

وقد رثاه أبو الفتح البستي الشاعر المشهور الذي اتخذه سبكتكين كاتباً له بقوله:

قلت إذ مات ناصر الدين والدو ... لة حياه ربه بالكرامه
وتداعت جموعه بافتراق ... هكذا هكذا تكون القيامه[٣]

يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ):

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه إسماعيل؛ وكان ضعيف الرأي والتدبير حتى كادت تنفذ خزائنه، فأرسل إليه أخوه محمود، وكان أكبر منه سناً، يبين له أحقيته في السلطنة بعد أبيه. واتصل بمحمود قواد إسماعيل سراً، والتقت جيوشهما بظاهر غزنة. وبانتصار محمود استقر له ملك الغزنويين، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة شهور.

يقول براون[٤]: «إن قوة محمود الغزنوي التي لا تحد قد ظهرت فجأة، وإنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتي عشرة مرة، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب، وأخضع بلاد الغور، وبلاد ما وراء النهر، ووالى لبني بويه ضرباته التي انتهت باستيلائه على أصبهان».

وكان من أهم الأغراض التي رمى إليها محمود الغزنوي أن يرث ملك السامانيين. وقد حز في نفسه انتزاع منصور بن نوح نيسابور منه وإمرة جيش خراسان وتوليتهما بكتوزون واتخذ محمود من انحلال الدولة السامانية، وتآمر بكتوزون وفائق الخاصة على منصور بن نوح، وقبضهما عليه، وسمل عينيه، وتولية أخيه الصغير، فرصة لتحقيق سياسته. وأحل محمود الهزيمة بجيش السامانيين في مرو (جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ)، وارتد

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٨. العتبي: تاريخ اليميني ج ١ ص ٥٠ - ٥١، ٥٤.
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨.
(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٤.
(٤) Lit. Hist. of Persia, vol. I. p.376.

عبد الملك بن نوح إلى بلاد ما وراء النهر. وصفت له خراسان، وعين أخاه نصراً على جيوشها، فاتخذ نيسابور مركزاً له، وخطب للخليفة القادر. وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي. ومن بلاد ما وراء النهر على يد بغراخان[١].

كان محمود الغزنوي أول من تلقب من الغزنويين بلقب سلطان. بعد أن كان يلقب بلقب أمير. وقد لقبه الخليفة القادر بالله يمين الدولة، وأمين الملة. وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه[٢].

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من بلاد. بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه. فحارب خلف بن أحمد صاحب سجستان. واستولى عليها (٣٩٣). ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه. فأخضعها وأقطعها أخاه نصراً[٣].

وفي سنة ٤٠١ هـ حارب محمود الغور. وكانوا لا يدينون بالإسلام. وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة. ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل. وقد أوقع محمود بهم وأخضعهم لسلطانه. ونشر الإسلام بينهم. وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين.

ومن أهم الأعمال التي قام بها محمود الغزنوي إزالته سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل. فقد انتهز فرصة استنجاد مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه بالأمر دونه وانصرف إلى النساء واشتغل بقراءة الكتب. فاختلت دولته بعد موت أمه وأرسل إليه في سنة ٤٢٠ هـ جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبي دلف. ثم سار محمود إلى الري ودخلها. وأحضر مجد الدولة وقال له: أما قرأت شانامة (يقصد الشاهنامة للفردوسي: وهو تاريخ الفرس)، وتاريخ الطبري (وهو تاريخ المسلمين)؟ قال: بلى؟ قال: ما حالك حال من قرأهما[٤]. أما لعبت بالشطرنج؟ قال: بلى! قال: فهل رأيت شاهاً يدخل على شاه؟ قال: لا! قال: فمن حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك؟ ثم سيره إلى خراسان وملك قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحابه الباطنية: ونفى المعتزلة إلى خراسان. وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم. وأخذ عدا ذلك مائة حمل من الكتب[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٥٤. (٢) ابن خلكان: جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٣) تاريخ اليمني جـ ١ ص ٩٩ ـ ١٠٤. ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٠، ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) في الأصل قرأها والسؤال عن كتابين. (٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩.

كذلك حارب محمود الغزنوي الأتراك الغزية. أصحاب أرسلان بن سلجوق. وكانوا يقطنون صحارى بخارى. ولما قبض على زعيمهم أرسلان في بلاد ما وراء النهر وأرسله إلى بلاد الهند وقتل كثيراً من أصحابه. هرب جمع كبير منهم في سنة ٤٢٠ هـ ولحقوا بخراسان وعانوا فيها. فهربوا إلى أصبهان حيث طاردتهم جيوش محمود الغزنوي وأوقعت بهم. ثم سار محمود إلى خراسان حيث تفاقم شر هؤلاء الغز. وما زال يحاربهم حتى مات. واستمر ابنه مسعود في حربهم[١].

ولم تقتصر جهود الغزنوي على فتح البلاد في فارس وخراسان وغيرهما. بل إنه اهتم أيضاً بالقضاء على أهل البدع والأهواء. ففي سنة ٤٠٨ هـ نراه يشمر عن ساعد الجد في محاربتهم في غير هوادة. يقول الذهبي[٢]: «وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله. وبث كلمته في عماله بخراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة. وصلبهم ونفاهم. وأمر بلعنهم على المنابر. وشردهم من ديارهم».

ولما وجد الفاطميون في مصر ما يلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية في بلاد المشرق على يد محمود الغزنوي، عملوا على استمالته إليهم. ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم.

فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند:

اصطبغت حملات محمود الغزنوي في بلاد الهند بين سنتي ٣٩٢ و ٤١٥ هـ (١٠٠٠ و ١٠٢٤ م) بصبغة الجهاد الديني. وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين. ولذلك فرض - كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٨٥) - على نفسه في كل عام غزو الهند. أضف إلى ذلك أن جيبال ملك البنجاب الذي حارب أباه سبكتكين حروباً طاحنة، كان لا يزال في قوة لا يستهان بها، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جمال - كل ذلك أمد محموداً بمزايا فريدة ساعدت على نجاح غزواته في بلاد الهند. ومما ساعد محموداً على تحقيق هذه الأغراض استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر التي آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) تاريخ الإسلام: مخطوط جـ ٣ ورقة ٢٧٩.

سجستان وبلاد الغور. مما قوي مركزه الحربي في الداخل وأطلق يده في توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند[1].

وفي سنة ٣٩٢ هـ غزا محمود الغزنوي شمالي الهند؛ وانتصر على جيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف. ثم أطلق جيبال على جزء من المال يؤديه. وكان من عادة الهنود أن من وقع منهم أسيراً في أيدي المسلمين لا تنعقد له بعدها رياسة. ولذلك حلق جيبال رأسه، ثم ألقى نفسه في النار فاحترق، وترك مملكته لابنه أنندبال Anandpal. وكان من أثر ما أحرزه محمود بن نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه «الغازي»[2].

وبعد أن أحل محمود الغزنوي الهزيمة بجيبال سار نحو ويهند Und وانتصر على أهلها. ثم قصد إقليم الملتان، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة؛ فاستولى على مدينة بهاطية. وانتصر على صاحبها بحيرا (٣٩٥ هـ) ونشر الإسلام فيها، وولى عليها أحد المسلمين. وعهد إليه بتعليم أهلها قواعد الإسلام. وفي سنة ٣٩٦ هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها. وانتصر وهو في طريقه إليها على أنندبال بن جيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده. ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان، وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة، بقدوم محمود الغزنوي إلى بلاده، فر إلى سرنديب: فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليها الجزية[3].

وفي سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوي الحرب على ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد محمود، وتلقب بلقب نواسه شاه؛ وحكم بلاده نيابة عنه. ولكنه ارتد عن هذا الدين، وشق عصا الطاعة. فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى أملاكه.

وبينما كان محمود مشغولاً بحرب إيلك خان، الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين ثم حارب جيوشهم على مقربة من بلخ وجيوش الغور على ما تقدم، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفاً لمقاومة محمود والدفاع عن بلادهم وعن دينهم. وفي سنة ٣٩٨ هـ عبر محمود نهر السند والتقى في ويهند الواقعة في البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات

---

(١) أنظر Encyclopaedia of Islam, vol.II.p.155.

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٦٤.

(٣) Defrèmery, Essai Sur L'Histoire des Ismaéliens, p.30.

أبرهمن بال بن أنندبال وراجات أدجين وجواليار ودلهي وغيرها، وكادوا يظفرون بالمسلمين(١).

ثم تبع يمين الدولة أثر أبرهمن بال حتى بلغ قلعة بهيم نغر، وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم ونقلوا إليها الذخائر والجواهر، فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم وأرغمهم على طلب الأمان، وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته، «فأخذ من الجواهر ما لا يحد، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منا. وكان فيها بيت مملوء من فضة، طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش تلك الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك، فأدخلهم إليه فرأوا ما لم يسمعوا بمثله»(٢).

وكان من أثر انتصار محمود في هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات، ودفع أنندبال إلى محمود غرامة كبيرة؛ وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب. أما داود صاحب بلاد الملتان فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة، فغزا محمود بلاده في سنتي ٤٠٠ و٤٠١هـ واستولى على حاضرتها، وقتل كثيراً من أهلها، وقبض على داود وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته(٣)، ثم استولى محمود الغزنوي على ناردين (٤٠٤ هـ)، وهدم الصنم المعروف بسومنان وغنم غنائم كثيرة. ثم عزم محمود على امتلاك قشمير، ولكنه لم يوفق في حملاته العديدة التي قام بها في السنوات ٤٠٤ و٤٠٥ و٤٠٦هـ، وفقد كثيراً من جنده وغرق كثير منهم بسبب فيضان بعض الأنهار(٤).

أقسم محمود على أن يغزو بلاد الهند في كل سنة، ولكنه انشغل في سنة ٤٠٧ هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون، وكان قد تزوج من أخت محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب على منابر بلاده، فقتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه.

---

(١) Wosceley Haig: Encylopaedia of Islam , vol. ii.133.

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٧.

(٣) Encyclopaedia of Islam, vol. II. 133.

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩١ ـ ٩٦.

فقصد محمود هذه البلاد، واستولى عليها، وأنزل العقاب بالثوار؛ وولى عليها نائباً من قبله، ثم تفرغ لبلاد قشمير[١].

لذلك نراه يسير من غزنة سيراً متصلاً مدة ثلاثة أشهر، ثم يعبر نهري سيحون وجيلوم فيخضع له ملوك هذه الجهات. ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى قشمير فيخضع له صاحبها ويسلم على يديه. ولما سمع راجا برن Barran، (ويدعى هودب أو هردتا Hardattc) زعيم بولند شهر بنبأ وصول جيوش محمود إلى بلاده، سقط في يده، وأخذ الفزع من نفسه كل مأخذ، وخشي على حياته من عقاب الله، ولم ير بداً من اعتناق الإسلام، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى. وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله، وأعلنوا للفاتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصبة الكفار العداء. ثم سار عنه إلى قلعة كلجند Kulcand، وعليها راجا مهبان Mahaban، فقاتله محمود قتالاً شديداً، وغنم المسلمون أمواله، وملكوا حصونه ثم سار نحو معبد لهم في مدينة مثورا Mathura أو بندرابان Bandrapan، وهو يقع على نهر، وفيه كثير من الأصنام: منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلثمائة مثقال، ومن الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك كله. ثم سار نحو كنوج Kannawj، وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج، وكان صاحبها راجبال Radjyapala قد فارقها، ثم عبر نهر الجنج (أو كنك على ما يسميه ابن الأثير) فاستولى محمود الغزنوي على قلاعها وأعمالها وفيها نحو عشرة آلاف بيت من بيوت الأصنام. ثم سار إلى قلعة البراهمة وتسمى مجهاون Mujhawan فقاتلوه قتالاً شديداً، فأحل بهم الهزيمة ولم ينج منهم إلا الشريد؛ ثم سار نحو قلعة آسي[٢] على نهر الجنج. فلما اقترب منها هرب صاحبها جندبال فاستولى عليها يمين الدولة، ثم سار إلى قلعة شروة Sharwa، فلما اقترب منها نقل صاحبها جندراي[٣] ماله وفيوله نحو جبال منيعة يحتمي بها، ففتحها يمين الدولة وغنم ما فيها، ثم سار في طلب جندراي، وأسر كثيراً منهم وغنم ما معهم من مال وفيلة. وكان السبي في هذه الغزوة من الكثرة بحيث إن أحدهم كان يباع بأقل

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩٨.

(٢) ذكرها ولسلي هيج أسني Asni

(٣) راي هو راجا حسب تسمية ابن الأثير الذي يقول (ج ٩ ص ١١٥) إن «راي هو لقب الملك ككيصر وكسرى، ولا يزال هذا اللقب إلى الآن شائعاً في بلاد الهند».

من عشرة دراهم. ولما عاد محمود الغزنوي من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة وأنفق على بنائه كل ما غنمه في هذه الغزاة.

وقد حز في نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوي من نصر مؤزر وما أبداه بعضهم من تخاذل، فسار نندا راجا كالنجار Kâlindjàr وراجا جواليار Gwaliyar إلى راجبال راجا كنوج وحارباه، لتركه حاضرة بلاده، وقتلاه. وانضم إلى نندا كثيراً من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود الغزنوي. وهدد سلطانه في هذه البلاد. فلم ير بداً من العودة إلى الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله. وقضى في طريقه على جماعة الأفغان الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند، ويقطعون الطريق، ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد. ولما تم له ما أراد، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم في بلاد البنجاب وغنم منهم غنائم كثيرة (٤٠٩/١٠١٩)[١].

وهكذا استمرت غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند سنة بعد أخرى، حتى توج انتصاراته الباهرة في غزواته التي شنها عليها باسترداد ناردين. وهدم صنم سومنان الذي كان الهنود يعتبرونه الملاذ الذي يحميهم من غزوات الغزنويين. «فكان كلما فتح يمين الدولة من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات (سومنان على الأصح)، ولو كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء. فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام[٢]. فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) واستولى على أجمر Adjmâr وأنهلوارة Anhilwara، فتركها صاحبها بهيم Bhim، ووصل إلى سومنان في ١٦ ذي القعدة سنة ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٦ م). فرأى حصناً منيعاً دافع عنه أهله أشد دفاع. ثم علم أن أمراء جوجرات Gudjarat الذين فروا قبل قدومه قد لموا شملهم للذود عن معبودهم، وساروا نحو المدينة، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند، واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة؛ فولوا الأدبار، واستطاع أن يستولي على هذا الصنم المشهور. وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المؤزر، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند[٣].

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١١٨.

(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥.

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه، حتى إنه فكر في اتخاذ أنهلورا حاضرة له واستخلاف ابنه مسعود في حكم غزنة، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأي، وعاد إلى غزنة محملاً بالغنائم. وكانت آخر غزوات محمود الغزنوي لبلاد الهند في سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) لتأديب الثوار الذين اعترضوه في أثناء عودته إلى غزنة، وأعد لهذه الغزوة أسطولاً صغيراً، وأحل الهزيمة بالجات Djats في نهر السند(١).

ولم يفتر محمود الغزنوي عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده، حتى إننا نرى نائبه ينال نكين في هذه البلاد يستولي في السنة التي تولى فيها محمود على نرسي، وكانت تعد من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت.

يقول ولسلي هيج(٢): «يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محموداً (الغزنوي) سلطاناً هندياً خالصاً. فقد فتح في خريف حياته إقليم البنجاب، ونشر الإسلام في ربوع الهند، وفتح طريقاً سلكه بعده كثيرون، وقنع خلفاؤه، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، بحكم إقليم البنجاب، وكونوا أسرة هندية خالصة».

ويقول ستانلي لينبول(٣): «إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم، ،يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد. فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغوري(٤) وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة»(٥).

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحه «إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية، قد حض عنها أجناس الشرك، وبنى بها مساجد وجوامع(٦)، وأقام بدلاً من

---

(١) W. Haig: Encylopaedia of Islam vol. II.P.134.

(٢) Cambridge History of India (Cambridge, 1928) vol, III, pp.62 - 27.

(٣) The Muhammadan Dynasties, p. 284.

(٤) حكمت الدولة الغزنوية بلاد أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣(١١٤٨ م)إلى سنة٦١٢هـ(١٢١٥).

(٥) Ishwari Prassad: Inde du VIIe au XVIIe Siécle, p. 48 et Suiv. أنظر حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في الهند: بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مايو ١٩٤٤ ص ٧.

(٦) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٥.

بيوت الأصنام، مساجد الإسلام، وعن مشاهد البهتان، معاهد التوحيد والإيمان فصارت الأطفال تهدد في بطالاتها بإقدامه، وتفزع بإقبال ألويته وأعلامه، وظل أندبالهم وجيبالهم وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمي:

وعلى عدُوِّك يابنَ عمِّ محمدٍ رصدان: ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبَّه رُعْتَه وإذا هدا سَلَّتْ عليه سيوفك الأحلام[١]

وقد أطنب العتبي[٢] في سجايا محمود الغزنوي، وأشاد باتساع رقعة مملكته في هذه العبارة فقال:

«إن راية الإسلام لم تظل على سلطان أحسن ديناً، وأصدق يقيناً، وأحسن علماً، وأوقع حلماً، وأسد سيرة، وأخلص سريرة، وأتم وفاء وأعم سخاء وأوفر حباء، وأغنى غناء وأعظم قدراً، وأفخم ذكراً، وأمد باعاً، وأشد امتناعاً، وأجل جلالة، وأكمل عدة وآلة، وأرفع ملكاً وسلطاناً، وأطوع أنصاراً وأعواناً، وأردع سيفاً وسناناً، وأحمى للإسلام وذويه وأنفى للشرك ومنتحليه، وأعدى للباطل من يليه، اكتساباً ووراثة وطباعاً واستفادة، من الأمير السيد، الملك المؤيد، يمين الدولة، وأمين الملة، أبي القاسم محمود بن ناصر الدين، أبي منصور سبكتكين: ملك الشرق بجنبيه، والصدر من العالم ويديه، لانتظام الإقليم الرابع وما يليه من ثالث الأقاليم وخامسها[٣] في حوزة ملكه، وحصون انتظام ممالكه الفسيحة، وولاياتها العريضة في قبضة ملكه، ومصير أمرائها وذوي الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته وجبايته، واستدرائهم من آفات الزمان بظل ولايته ورعايته، وإذعان ملوك الأرض على بعدهم لعزته. وارتياعهم من فائض هيبته، واحترامهم على تقاذف الديار، وتحاجز الأنجاد والأغوار، من فاجىء ركضته، واستخفاء الهند والروم تحت جيوبها عند ذكره، واقشعرارهم لمهب الرياح من أرضه. وقد كان أدام الله دولته منذ لفظه المهد وجفاه الرضاع، وانحلت عن لسانه عقدة الكلام، واستغنى عن الإشارة بالإفهام، مشغول اللسان بالذكر والقرآن، مشغول

---

(١) العتبي: تاريخ اليميني جـ ١ ص ٣٨ ـ ٣٩. (٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٣) أراد بالإقليم الرابع خراسان، لأنها من أشهر كور هذا الأقليم، وأراد بالإقليم الثالث الذي منه قندهار وكابل وكثير من مدن بلاد الهند. والأقليم الخامس هو ما يلي الأقليم الرابع من ناحية الشمال، ويراد به ما تملكه السلطان محمود الغزنوي من بلاد الترك وخوارزم وغيرها. ولا يبعد أن يكون العتبي قد أراد بالصدر من العالم الأقليم الرابع خراسان، لأنه يقع بالأقاليم السبعة وسطاً، وهو كالصدر من الإنسان وما يليه من الأقليم الثالث والخامس كاليدين.

النفس بالسيف والسنان، ممدود الهمة إلى معالي الأمور، معقود الأمنية بسياسة الجمهور، لعبه مع الأتراب جد، وجده مستكد، يألم لما لا يعلمه حتى يقتله خبراً، ويحزن لما يحزن حتى يدمثه قسراً وقهراً».

كان محمود الغزنوي ـ كما وصفه ابن الأثير[١] ـ عاقلاً ديناً خيراً[٢]، عنده علم ومعرفة، له كثير من الكتب في الفنون، وقصده العلماء من أقطار البلاد. وكان يكرمهم، ويقبل عليهم، ويعظمهم ويحسن إليهم. وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته، والرفق بهم، كثير الغزوات، ملازماً للجهاد. وفتوحه مشهورة مذكورة... وفيه ما يستدل به على بذل نفسه لله تعالى واهتمامه بالجهاد، ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أحد الأموال بكل طريق[٣]... وكان ربعة مليح اللون حسن الوجه، صغير العينين، أحمر الشعر».

وقد نقل أبو نصر العتبي عن بديع الزمان الهمداني (١٠٠٧/٣٩٨) أبياتاً يصف فيها ازدهار الدولة الغزنوية في عهد يمين الدولة محمود الغزنوي وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسي إلى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي على السامانيين[٤].

مسعود الأول (٤٢١ ـ ٤٣٢ هـ):

لما حضرت محمود الغزنوي الوفاة، أوصى إلى ابنه محمد نائبه ببلخ بالحكم من بعده، ولقبه جلال الدولة، ولم يوص لابنه الأكبر مسعود لإيقاع الوشاة به عند أبيه. ووصل محمد إلى غزنة بعد موت أبيه بأربعين يوماً، وخلع على قواده وعساكره، فأطاعوه.

---

(١) جـ ٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) ذكر ابن خلكان (جـ ٢ ص ٨٦) أن محموداً الغزنوي كان مولعاً بعلم الحديث، وقد رأى أن أكثر هذه الأحاديث موافق لمذهب الشافعي، ولذلك تحول محمود إليه، وترك مذهب أبي حنيفة.

(٣) ذكر ابن الأثير جـ ٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١) أن محموداً قبض على وزيره أبي القاسم أحمد بن الحسن الميمندي (٤١٢ هـ) طمعاً في ماله، «وأخذ منه لما قبض عليه مالاً وأغراضاً بقيمة خمسة آلاف درهم. وذكر أيضاً أنه «بلغه أن إنساناً من نيسابور كثير المال عظيم الغنى، فأحضره إلى غرفة وقال له: بلغنا أنك قرمطي، فقال: لست بقرمطي، ولي مال يؤخذ منه ما يراد وأعفى من هذا الاسم، فأخذ منه مالاً وكتب معه كتاباً بصحة اعتقاده».

(٤) تاريخ اليميني جـ ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦.

أما مسعود فقد كان شأنه مع أخيه محمد شأن أبيه محمود مع أخيه إسماعيل بن سبكتكين، فإن مسعوداً لما بلغه خبر وفاة أبيه وهو بأصبهان، سار إلى خراسان، وكتب إلى أخيه يطلب إقراره على البلاد التي كان قد فتحها، وهي بعض بلاد طبرستان والجبل وأصبهان، ووعد بتقديم اسم أخيه في الخطبة على اسمه. ولكن محمداً لم يجب أخاه إلى طلبه، وانضم بعض جنده إلى مسعود، لكبر سنه وشجاعته وقوة بأسه، وثار بعضهم الآخر عليه، وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه، لأنه كان مشغولاً بالشراب واللعب عن تدبير الدولة، ونادوا بأخيه مسعود سلطاناً عليهم. وذلك في ذي القعدة سنة ٤٠١ هـ أي بعد اعتلائه السلطنة بخمسة أشهر[١]. ولقبه الخليفة القادر ناصر دين الله وحافظ عباد الله، وظهير خليفة الله[٢]، وسيد الملوك والسلاطين[٣].

وفي سنة ٤٠٦ هـ ولى محمود ابنه مسعوداً العهد من بعده. ثم ولاه هراة. وفي سنة ٤١١ هـ عهد إليه بمحاربة الغور، فأبلى بلاء حسناً. وأخضع الجزء الشمالي الغربي من هذه البلاد. ولكن أباه لم يلبث أن غضب عليه وسجنه في المولتان. ثم عفا عنه. وقلده ولاية هراة ثانية. ولما فتحت بلاد الري في سنة ٤٣٠ هـ (١٠٢٩ م) وزالت منها سيادة البويهيين من أبناء ركن الدولة، وليها مسعود الذي ضم همذان وأصبهان وأزال سلطان البويهيين منهما.

عمل مسعود على إقرار نفوذه في بلاد المشرق. فاستولى على مكران (٤٢٢ هـ). ثم على كرمان التي لم تلبث أن خرجت عن طاعته. ثم سار إلى خراسان لفتح بلاد العراق. فاتخذ أحمد بن ينال نكين نائب الغزنويين في لاهور من ذلك فرصة للاستقلال بهذه البلاد واضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة. وولى علاء الدولة بن كاكويه. وكان بنو بويه قد ولوه أصبهان. فطلب من مسعود إقراره عليها بجزية سنوية على هذه المدينة. وأقر دارا بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان. وأرسل أبا سهل الحمدوني لإقرار الأمور في الري. وسار مسعود إلى الهند وفتح قلعة سرستي الجبلية في جنوبي قشمير وقد حاول أبوه محمود فتحها من قبل فلم يوفق. وأرغم نائبه أحمد بن ينال نكين على الارتداد إلى نهر السند. حيث غرق (٢٤٦ هـ) ثم عاد إلى هذه البلاد في السنة التالية، واستولى على

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٥٠.

(٢) Encyclopaedia of Islam, vol. III, p.400

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨١.

بعض قلاعها مثل هانسي Hansi وسونيبات Sonipat، وخلف ابنه مجدداً على بلاد البنجاب[١].

ولما تغلب مسعود على الصعاب التي اعترضته في الهند، اعترضته صعوبة أخرى في خراسان، حيث نازعه السلطة فيها قوتان خطيرتان، هما الغز والسلاجقة. أما الغز فقد أجلاهم عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ ـ ٤٣١ هـ)، وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم في الوقت الذي قامت فيه الاضطرابات بعد وفاة محمود الغزنوي، فقد نهبوا هراة في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان إغارات منظمة. وفي سنة ٤٢٦ هـ حاربهم مسعود وهزمهم هزيمة منكرة. ولم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة، لشغله بغزو الهند، مما أدى إلى ازدياد قوتهم وطمعهم في أملاك الغزنويين. على أن ذلك لم يضعف قوة السلاجقة المعنوية. فضاعفوا جهدهم، واستولوا على مرو ونيسابور وسرخس (سنة ٤٢٩ هـ)، بل على معظم بلاد خراسان سوى بلخ. ولم ير مسعود بداً من قتالهم بنفسه. فعاد من غزنة، وانتصر على طغرل في شهر شعبان سنة ٤٣٠ هـ. وطرد السلاجقة والغز من خراسان. ولكن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعوداً في شهر رمضان سنة ٤٣١ هـ هزيمة منكرة وأفلت من الأسر.

وكانت هذه الهزيمة بعيدة الأثر في نفس مسعود، حتى إنه عزم على الانسحاب إلى بلاد الهند حيث يستطيع أن يجمع جيشاً جراراً يحارب به السلاجقة[٢]. وبعد أن عبر نهر السند بقليل، ثار مواليه وقبضوا عليه ونهبوا خزائنه، وانضموا إلى سائر الجند، وأقاموا أخاه محمداً (وكان بصحبته مسمولاً بعد أن قبض عليه) وسلموا عليه بالإمارة، وبقي مسعود فيمن معه من العسكر، وانتهت هذه الحروب الأهلية التي قامت بين جند مسعود وأنصار أخيه محمد بقتل مسعود.

وقد أطنب ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢) في وصف مناقب مسعود واتساع رقعة سلطنته فقال: إنه كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة. محباً للعلماء. فصنفوا له التصانيف الكثيرة في العلوم. وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة. قيل إنه تصدق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأنه عمر كثيراً من المساجد، وأجزل العطاء للشعراء. أعطى

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠ ـ ١٧٢، ١٨١.

(٢) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٨٢.

شاعراً على قصيدة ألف دينار، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم. وكان يكتب خطاً حسناً. وقد امتد نفوذه على أصبهان والري وهمذان وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان وسندستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند.

مودود بن مسعود (٤٣٢ ـ ٤٤١ هـ):

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتنصل من تبعة قتل أبيه، فرد عليه بهذه العبارة التي تنم عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه، فقال: «أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين)، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلاً يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي، الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين. وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شر تأبطتم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا، وهم كانوا أعقَّ وأظلما».

سار مودود من خراسان قاصداً غزنة وحارب عمه محمداً، وكان قد عاد من الهند، بالقرب من دينور على طريق كابل وبشاور، وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعاً إلا عبد الرحيم الذي غضب لقتل عمه، كما قتل كل من رمى بالاشتراك في هذه المؤامرة، وبنى في المكان الذي انتصر فيه على عمه قرية ورباطاً، سماهما فتح آباذ، ودخل غزنة في شهر شعبان سنة ٤٣٢ هـ.

وقد أثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة، فثار عليهم أهالي البلاد التي خضعت لهم، ودخلوا في طاعة مودود الذي استقر أمره بغزنة، ولم يعد يخشى أحداً إلا أخاه مجدوداً. وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند وولاه إقليم البنجاب في سنة ٥٢٦ هـ كما تقدم، فعصى أخاه مودوداً واستقل ببلاد هور والمولتان، وجهز جيشاً سار به نحو غزنة ولكنه مات في شهر ذي الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام[١].

وقد أصبح السلاجقة على مر الأيام خطراً يهدد الدولة الغزنوية؛ ففي سنة ٤٣٥ هـ انتصر ألب أرسلان بن داود السلجوقي على جيش مودود الغزنوي، ومع ذلك تمكنت جماعة

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨٢.

من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحي بست[١].

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها، فقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٩٣ ـ ١٩٤) أن ثلاثة من ملوك الهند[٢] تحالفوا مع بعض راجاتها. وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين في هذه البلاد، وأن مودوداً أرسل جيشاً كبيراً للقضاء على قوة الهنود وتقويض حلفهم، فانهزم سخبال.

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم في بلاد الهند الشمالية إلى حين. وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التي استولى عليها السلاجقة في عهد أبيه، فحاربهم في سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه، ووعدهم بإقرارهم على ما يفتحونه من بلاد، وعمرهم بالأموال الضخمة. ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته لولا أن هلك كثير من جنده في الصحراء، كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ويطرد السلاجقة منها، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم ويسير مودود من غزنة سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة، ولكن المرض ينتابه، فيعود إلى حاضرة ملكه، ويموت في العشرين من رجب من هذه السنة، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، بعد أن ملك تسع سنوات وعشرة أشهر[٣].

وحاول موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة؛ فقد عرف بالشجاعة والإقدام، وعمل على توطيد ملكه وإعادة مملكته إلى ما كانت عليه في عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوي.

عبد الرشيد ـ فروخ زاد (٤٤١ ـ ٤٥١ هـ):

تولى مسعود الثاني بعد وفاة أبيه مودود، ولكنه لم يبق في السلطنة سوى خمسة أيام، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبو الحسن علي بن مسعود الأول. وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي فرصة الاضطراب الذي ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، ودعا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) ومنهم سخبال Sukhpal الذي تحالف مع نواسى شاه بن جبيبال ملك ويهند Waihand وديبال هريانة Dipal Haryana

(٣) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٠٨.

الجند إلى طاعته فأجابوه، وساروا إلى غزنة، ففر علي بن مسعود، واستقر الأمر له، وتلقب عز الدولة، وشمس دين الله، وسيف الدولة. وقيل إنه تلقب أيضاً جمال الدولة.

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان، مستعيناً في ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذي أرسله إلى هذه البلاد. ولما آنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة حتى أصبح على بعد ستة فراسخ منها، وحاول خداع عبد الرشيد، مدعياً أن الجند تألبوا عليه وألحوا في العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم. وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته في غزنة، قبض عليه طغرل وقتله سنة ٤٤٤ هـ، واستولى على بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول.

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين في الهند برغم ما بذله من جهود في إغرائه واستمالته إليه. واتصل هذا الوالي بوجوه القواد، كما اتصل بزوجة طغرل، وأنكر على هؤلاء إغضاءهم وقعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد. وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد، فدخلوا على طغرل وقتلوه، وولوا فروخ شاه الذي اعتمد على خرخيز نائب الغزنويين في الهند في إدارة دولته.

قضى فروخ في السلطنة سبع سنين في محاربة أعدائه، وخاصة السلاجقة، ولم يأمن جانب قواده ومماليكه. ويحدثنا ابن الأثير (جـ ١٠ ص ٢) في حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا عليه واتفقوا على قتله وهو في الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره. ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت في حالته النفسية تأثيراً سيئاً، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ويحتقر الحياة؛ ولم يعش بعد هذه الحادثة طويلاً، فمات في شهر صفر سنة ٤٥١ هـ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم بن مسعود (٤٥١ - ٤٩٢ هـ) الذي طالت سلطنته، وعقد الصلح من السلاجقة، وفتح في الهند كثيراً من القلاع التي امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوي من قبل.

وبعد. فلما كان بحثاً مقصوراً على العصر العباسي الثاني من عهد المتوكل إلى أن استولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧ هـ رأينا أن نترك إتمام الكلام على الغزنويين إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله.

على أنه ينبغي ألا نترك هذا الموضوع دون أن نبين ما امتازت به الدولة الغزنوية في هذا العصر، فنقول: إن سلاطين هذه الدولة كانوا سنيين متشددين، ولذلك حاربوا أهل

البدع والأهواء، كالمعتزلة والجهمية والقرامطة وغيرهم، كما كانوا يشجعون الفن والثقافة ويغدقون على الشعراء والكتّاب والعلماء كأبي الفتح العتبي (١٠٣٦/٤٢٨) وأبي الريحان البيروني (٤٤١ هـ) والفردوسي صاحب الشاهنامه، وكان بعضهم ـ كمحمود الغزنوي ـ كلفا بدراسة الحديث وغيره من علوم الدين، كما عملوا على نشر الإسلام. فأنفقوا حياتهم في فتح بلاد الغور والهند، وهدموا الأصنام والمعابد. وكان لهذه الفتوح آثار بعيدة المدى، فقد فتح الطريق إلى الهند، وتوغل المسلمون فيها، وضموا بلاد البنجاب نهائياً، وخضع أهالي جوجرات الذين قبلوا تنصيب الراجات عليهم من قبل الغزنويين الذين نصبوا أنفسهم للقضاء على قوات السلاجقة في خراسان، والغور في الأفغان، وخانات الترك في بلاد ما وراء النهر. كما استولوا على الري وأصبهان وغيرهما من بني بويه، وضموا إليها خوارزم وطبرستان وبلاد الجبل، وامتدت بلادهم ـ كما رأينا ـ من لاهور إلى سمرقند وأصبهان[١].

ويمثل ظهور الدولة الغزنوية ـ كما يقول فيليب حتّي[٢] ـ أول انتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة النهائية في الإسلام. ومع ذلك فإن الدولة الغزنوية لا تختلف في أساسها عن الدولة الصفارية أو الدولة السامانية. وإن هذه الدولة المفككة الأوصال إنما حافظت على كيانها بقوة السيف، ولما تراخت اليد التي كانت تقبض على هذا السيف، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التي كانت تتألف منها هذه الإمبراطورية، وهذا ما حدث بعد موت محمود الغزنوي».

وقد زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين في الهند وانقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة.

وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير[٣] من أحسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود، فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهودة.

---

(١) Lane - Pool: Muhammadan Dynasties.p.288.

(٢) History of the Arabs. p. 465

(٣) الكامل ج ١١ ص ٦٩.

بنو بويه في فارس

عماد الدولة بن بويه (٣٢٠ ـ ٣٣٨ هـ):

رأينا من قبل كيف ولي علي بن بويه بلاد الكرج من قبل مرداويج بن زيار الديلمي، وكيف أمر أخاه وشمكير بن زيار في الري بصرف أولاد بويه، فصرفهم إلا علي بن بويه لما رآه فيه من حسن التدبير، وكيف ساعده أبو عبد الله محمد الملقب بالعميد والد أبي الفضل بن العميد على المسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها. ومع ذلك فقد عمل وشمكير على صرف عماد الدولة عن بلاد الكرج، فقال له ابن العميد: «إنه لا يرجع طوعاً، وربما قاتل من يقصده ويخرج عن طاعتنا». فتركه(١).

على أن علي بن بويه تحبب إلى أهالي الكرج وأحسن إليهم، وافتتح كثيراً من قلاع الخرمية واستولى على ما فيها من الذخائر والأموال، وأغدق على الأهلين، فلهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وامتدحوا سيرته، وأحبه الناس وقصدوه. ولكن الجو لم يصف له، لموقف مرداويج العدائي منه، وعزمه على طرده من بلاد الكرج. وحنق بعض ولاته عليه، وملك علي بن بويه أصبهان، فقوي أمره وعلا شأنه في عيون الناس، لأنه هزم بمائتين من أصحابه آلافاً من أصحاب السلطان، وبلغ ذلك مرداويج فأقلقه(٢).

ولما أحس مرداويج بن زيار ازدياد نفوذ علي بن بويه وعد بأن يمده بجيوش يفتح بها ما حوله من البلاد باسمه، وأن يؤول حكمها إليه مع إقامة الخطبة لمرداويج على منابرها، وأرسل في الوقت نفسه أخاه وشمكير على رأس جيش كثيف يفاجىء به علي بن بويه في أصبهان وهو مطمئن إلى وعوده. ولكن علي بن بويه أدرك سوء نية مرداويج، فرحل عن أصبهان.

ثم استولى مرداويج على شيراز، ولم يلبث أن استقر نفوذه في فارس، وكتب إلى الخليفة العباسي الراضي وإلى وزيره أبي علي بن مقلة يعلن طاعته ويطلب إقراره على ما

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٢.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

بيده من البلاد، ويتعهد بأداء ألف ألف درهم في كل سنة، فأجيب إلى طلبه، وأقر على ولاية فارس، وأرسلت إليه الخلع [١].

ولما قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ، لم يبق أمام علي بن بويه إلا مناوأة ياقوت الذي استولى على الأهواز وحاربه بنواحي أرجان، وأصبح يخشى بأسه، وكان ـ كما يقول ابن خلكان[٢] ـ سبب سعادة بني بويه وانتشار صيتهم، واستيلائهم على البلاد، وامتلاكهم العراقين والأهواز، وسياستهم أمور الرعية أحسن سياسة.

وفي ٣٣٤ هـ لقب الخليفة المستكفي علي بن بويه عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة، ولقب أخاه أحمد معز الدولة، ومن ثم أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهي في بغداد.

وكانت علاقة عماد الدولة على فارس بأخويه معز الدولة أحمد في العراق وركن الدولة حسن في الري وهمذان وأصبهان، تقوم على أساس متين من المودة والصفاء. فقد كان معز الدولة صاحب أمر الخلافة يومئذ «يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه، ويكاتبه بالعبودية ويقبل الأرض بين يديه إذا اجتمعا، مع عظم سلطانه لكونه أكبر سناً»[٣].

وليس أدل على ما ساد بين أولاد بني بويه من وئام ووفاق ومودة من أن عماد الدولة علياً لما أحس بالموت أرسل إلى أخيه ركن الدولة يطلب إليه ابنه إرسال عضد الدولة ليوليه عهده بفارس، لأنه لم يكن له ولد ذكر.

عضد الدولة (٣٣٨ ـ ٣٧٢ هـ):

ولما مات عماد الدولة في سنة ٣٣٨ هـ. تولى بلاد فارس بعده ابن أخيه عضد الدولة. ولكن نفوذه لم يستقر في هذه البلاد بسبب سخط بعض قواد البويهيين عليه، لولا تدخل عمه معز الدولة صاحب بلاد العراق، وأبيه ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان[٤].

واستمرت العلاقة بين عضد الدولة وعمه معز الدولة على أساس من المودة والصفاء، حتى آلت السلطة إلى بختيار، فاتخذ عضد الدولة من سوء سياسة ابن عمه فرصة لبسط نفوذه على البلاد التابعة له. ففي سنة ٣٥٧ هـ قامت الثورة في بلاد كرمان. فاستولى عليها عضد الدولة

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٦٤.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٣٠٠.
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٤.

وأقطعها ابنه أبا الفوارس، الذي ولي بعده ولقب شرف الدولة (٣٧٢ ـ ٣٧٩ هـ). كذلك اتخذ عضد الدولة من ضعف نفوذ بختيار في عمان فرصة لإقامة الدعوة لنفسه فيها وبسط نفوذه عليها. فلما ثار الزنج على عامل عضد الدولة وقتلوه وولوا عليها رجلاً منهم، أرسل من كرمان جيشاً استرد هذه البلاد في سنة ٣٦٢ هـ. ثم قضى على الثوار نهائياً في السنة التالية[1]. ولما مات ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ، يمم عضد الدولة شطر العراق وحارب جيوش بختيار في واسط وأحل به الهزيمة في تكريت وأسره، وبعث به إلى بغداد حيث قتل وخلع عليه الخليفة الطائع[2]. وبذلك امتد نفوذ عضد الدولة إلى العراق والأهواز وكرمان وفارس. ثم إلى البلاد الممتدة بين همذان والري التي استولى عليها من أخيه فخر الدولة في ٣٦٩ هـ. وأناب عنه في حكمها أخاه مؤيد الدولة.

شرف الدولة ـ صمصام الدولة (٣٧٢ ـ ٣٨٨ هـ):

رأينا أن عضد الدولة لما استولى على كرمان في سنة ٣٥٧ هـ أقطعها ابنه شرف الدولة الذي خرج بعد موت أخيه في ٣٧٢ هـ من كرمان إلى فارس. وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه وقتله لأنه كان يسيء صحبته أيام أبيه. وأطلق الشريف أبا الحسين محمد بن عمر العلوي، والنقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي، والقاضي أبا محمد بن معروف، وأبا نصر خواشاذة. وكان عضد الدولة قد حبسهم، وأظهر العداء لأخيه صمصام الدولة وقطع خطبته، وأقام الخطبة لنفسه، وتلقب بتاج الدولة، واستولى على البصرة، وأقطعها أخاه أبا الحسين. فبقي كذلك ثلاث سنين إلى أن قبض عليه شرف الدولة[3].

ويظهر أن صمصام الدولة كان يخشى منافسة أخيه الأكبر شرف الدولة. لذلك نراه بعد أن يلي أمور العراق يخلع على أخويه أبي الحسين أحمد وأبي طاهر فيروز شاه. ويقطعهما فارس. ويأمرهما بأن يحولا دون وصول أخيهما شرف الدولة إليها. غير أن شرف الدولة كان قد سبقهما إلى احتلالهما فعاد إلى الأهواز. ومن ثم قامت الحرب بين صمصام الدولة وشرف الدولة الذي انتصر على أخيه واستقل بالأهواز سنة ٣٧٣ هـ[4].

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٠، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٢) مسكويه: جـ ٢ ص ٢٨٠ ـ ٣٨٦.
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٩.
(٤) مسكويه: جـ ٣ ص ١٢٠ ـ ١٢٤.

وفي سنة ٣٧٥ هـ قصد شرف الدولة الأهواز واستولى عليها، وأرغم أخاه أبا الحسين على الفرار، ثم استولى على البصرة وقبض على أخيه أبي طاهر فيروز شاه. وخشي صمصام الدولة ازدياد خطر أخيه شرف الدولة، وتم الصلح بينهما، ويقضي بأن يذكر اسم شرف الدولة على المنابر في بلاد العراق قبل اسم أخيه، وأن يكون نائباً عن أخيه في حكم العراق، وأن يطلق صمصام الدولة أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويسيره إليه. وخلع الخليفة الطائع على شرف الدولة كما جرت العادة بأن يخلع على كل من تؤول إليه السلطة.

ولكن هذا الصلح لم يطل وعاد شرف الدولة عن الصلح وقصد بغداد، واستولى على بلاد العراق من يد أخيه صمصام الدولة في سنة ٣٧٦ هـ، وساق أخاه إلى فارس حيث اعتقل في إحدى قلاعها، وسملت عيناه.

فلما مات شرف الدولة في سنة ٣٧٩ هـ فر صمصام الدولة من معتقله، والتف حوله كثير من الديلم. واستأنف الصراع بينه وبين أخيه بهاء الدولة الذي آل إليه حكم بلاد العراق بعد أخيه شرف الدولة، كما قامت الحرب بينه وبين أبي علي بن شرف الدولة في فارس وكان يليها من قبل أبيه. وفي سنة ٣٨٠ هـ انتصر صمصام الدولة على جيش بهاء الدولة على مقربة من شيراز، وعقد الصلح بينهما، على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان، ولبهاء الدولة خوزستان والعراق[١].

وصاحب حسن الطالع صمصام الدولة، فأحرز الانتصارات المتصلة باستيلاء جيوشه على الأهواز سنة ٣٨٥ هـ وعلى خوزستان والبصرة سنة ٣٨٦ هـ. وكادت تقع بلاد العراق في قبضته لولا تدخل مهذب الدولة صاحب البطيحة. وانتهت هذه الحروب بعقد الصلح بين بهاء الدولة وصمصام الدولة، على أن يخطب لهما ولمهذب الدولة في البصرة، ولم ينته ذلك الصراع إلا باغتيال صمصام الدولة في سنة ٣٨٨ هـ على يد أبي نصر أخذاً بثأر أبيه بختيار الذي قتله عضد الدولة. وكان صمصام الدولة حين قتل في الخامسة والثلاثين من عمره[٢].

بهاء الدولة ـ سلطان الدولة (٣٨٨ ـ ٤١٥ هـ):

ولما قتل صمصام الدولة استولى ابنا بختيار هذان على فارس، وتلقب أولهما نور

(١) أبو شجاع. ذيل تجارب الأمم لمسكويه جـ ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٢) راجع أسباب اغتيال صمصام الدولة في ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٣.

الدولة ومحيي الأمة، وتلقب ثانيهما حسام الدولة وسيد الأمة. ولكن بهاء الدولة أحل بهما الهزيمة، واستولى على فارس في سنة ٣٨٩ هـ[١]، ثم قصد شيراز، واستأصل شأفة أنصار أبناء بختيار، وأخرج جثة أخيه صمصام الدولة ودفنها في مقبرة بني بويه بشيراز، ثم استولت جيوشه على كرمان[٢].

وفي سنة ٣٩٠ هـ عاد أبو نصر بن بختيار، وكان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد أن حلت به الهزيمة بشيراز سنة ٣٨٩ هـ، إلى فارس، والتف حوله عدد كبير من الديلم والأتراك والزط، ثم قصد كرمان وحارب عامل بهاء الدولة فيها، واستولى على أغلب بلادها، وأثار قلق بهاء الدولة الذي سير إليه جيشاً أحل به الهزيمة وقتله، وبعث برأسه إلى بهاء الدولة. وبذلك استقر سلطان بهاء الدولة في فارس وكرمان إلى أن مات في سنة ٤٠٣ هـ، فخلفه ابنه سلطان الدولة أبو شجاع. وكان قد عهد إليه بالسلطنة في العراق وفارس وما يليهما من بعده.

وقد ذكرنا من قبل أن سلطان الدولة استهل سلطته بتولية أخويه جلال الدولة البصرة وقوام الدولة أبي الفوارس كرمان، وأن الشقاق دب بينه وبين أخيه قوام الدولة الذي أغراه الديلم بحرب أخيه، فاستولى على شيراز ثم على كرمان، التي استردها سلطان الدولة في السنة التالية بمساعدة محمود الغزنوي، وانتهى الأمر بإعادة كرمان إلى قوام الدولة واعترافه بسلطان أخيه. كما تعرض نفوذ سلطان الدولة للخطر بسبب مناوأة أخيه مشرف الدولة الذي استخلف على العراق (٤١١ - ٤١٦ هـ) وخطب له ببغداد في (٤١٢ هـ)، وانتهى هذا النزاع بعقد للصلح على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة الذي لم يلبث أن توفي سنة ٤١٥ هـ.

عماد الدولة أبو كاليجار (٤١٥ - ٤٤٠ هـ):

لما تولى سلطان الدولة الذي آل إليه ملك فارس لم يصف الجو لابنه أبي كاليجار وأصبحت فارس مركزاً للنزاع، وتقلبت هذه البلاد بين أبي كاليجار وعمه أبي الفوارس حتى استولى أبو كاليجار عليها نهائياً في سنة ٤٤٧ هـ[٤].

وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٣٤ - ١٣٥) في حوادث سنة ٤١٨ هـ أن نفوذ أبي كاليجار امتد إلى جنوب العراق، وأن أهالي البطيحة ثاروا عليه فأخضعهم لنفوذه، وأن

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٦.
(٢) مسكويه جـ ٣ ص ٣٢٦ - ٣٢٧.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٦٠ - ٦١.
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٢٥ - ١٢٦.

الحرب تجددت بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان، وأن الصلح عقد بينهما على أن تكون كرمان لأبي الفوارس وفارس لأبي كاليجار، وأن يدفع أبو كاليجار لعمه عشرين ألف دينار في كل سنة.

وفي سنة ٤١٩ هـ استولى أبو كاليجار على البصرة وطرد منها الملك العزيز بن جلال الدولة، واستولى في السنة نفسها على كرمان على أثر وفاة صاحبها أبي الفوارس بغير قتال ثم على مدينة واسط (٤٢٠ هـ). ولكن جلال الدولة لم يلبث أن استردها، كما استرد البصرة (٤٢١ هـ) التي أصبحت مركزاً للصراع بينه وبين أبي كاليجار الذي خطب له على منابرها في سنة ٤٢٤ هـ[1].

على أن تولية أبي كاليجار السلطنة في بلاد العراق (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) لم تشغله عن الاهتمام بشئون فارس وتستنفد الكثير من صحته، حتى إنه مات سنة ٤٤٠ هـ وهو في طريقه لإخماد ثورة نائبه بكرمان.

وفي عهد أبي نصر فيروز الملك الرحيم بن أبي كاليجار (٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ) زال سلطان البويهيين في فارس والعراق. ولا غرو فقد ورث هذا السلطان عن أبيه تركة مثقلة بالمتاعب والأخطار في الداخل والخارج. ففي الداخل نرى انقسام أفراد هذا البيت بعضهم على بعض: فهناك الملك عبد العزيز بن جلال الدولة، كان يطمع في السلطنة ويحارب الملك الرحيم في البصرة، لولا أن حالت وفاته في سنة ٤٤١ هـ دون تحقيق أمنيته، وهناك أيضاً أبو منصور بن أبي كاليجار (أخو الملك الرحيم) يستولي على الأهواز (٤٤١ هـ).

ولولا شغب الجند عليه لخرجت هذه البلاد عن سلطان الملك الرحيم. وتجددت متاعب هذا السلطان بخروج أخيه أبي منصور عليه من جديد، واستيلائه على الأهواز ومطاردة جيوشه إلى واسط، كما حارب أيضاً أخاه أبا علي فناخسرو في البصرة، وإن كان قد تم له النصر عليه. وهكذا أصبحت أمهات مدن العراق وفارس مركزاً للصراع بين الملك الرحيم وبين إخوته وأقاربه.

أما في الخارج فقد ازداد نشاط السلاجقة وتفاقم خطرهم وقويت أطماعهم في الاستيلاء على فارس والعراق، بل على الشام ومصر. وشجعهم على تحقيق هذه الأماني

---

(١) المصدر نفسه جـ ٩ ص ١٣٨.

ضعف بني بويه في أواخر أيامهم، واستعانة العباسيين بمنافسيهم السلاجقة لتخليصهم من استبداد البويهيين. وقد تمكن السلاجقة أخيراً من الاستيلاء على أملاك بني بويه في فارس والعراق، كما كانت مناوأة أبي الحارث البساسيري للخليفة العباسي المطيع من أهم الأسباب التي عجلت بسقوط هذه الدولة، بعد أن حكمت كثيراً من البلاد الإسلامية أكثر من قرن.

بنو بويه في الري وهمذان وأصبهان

ركن الدولة (٣٣٠ - ٣٦٦ هـ):

بينا من قبل تألق نجم أولاد بويه في أوائل القرن الرابع الهجري، فمد عماد الدولة نفوذه في فارس، واستولى ركن الدولة الذي كان رهينة عند مرداويج بن زيار على أصبهان والري وهمذان وسائر بلاد العراق العجمي، واستولى معز الدولة على الأهواز. وفي سنة ٣٣٤ هـ استعان الخليفة العباسي المستكفي بأحمد بن بويه لتخليصه من شر الأتراك، وطلب إليه المسير إلى بغداد، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، ولقب أخاه أبا علي الحسن ركن الدولة.

وفي سنة ٣٢٧ هـ بدأ الصراع بين ركن الدولة الحسن وبين وشمكير بن زيار الديلمي أخي مرداويج بن زيار، الذي عز عليه استيلاء ركن الدولة على البلاد التي كانت بيد أخيه؛ فأرسل إليه جيشاً طرده من أصبهان، فاضطر ركن الدولة إلى التقهقر إلى بلاد فارس. ثم سار في السنة التالية إلى واسط ليمد نفوذه منها إلى ما جاورها من البلاد، ولكنه اضطر أمام مقاومة البريديين والخليفة الراضي وبجكم إلى التقهقر نحو الأهواز. وفي هذه السنة نفسها عاد ركن الدولة إلى أصبهان واستولى عليها وطرد أصحاب وشمكير منها، واتفق هو وأخوه عماد الدولة مع أبي علي بن محتاج قائد نصر بن أحمد الساماني بخراسان وأخذا يحرضانه على ماكان بن كالي ووشمكير يعدانه المساعدة عليهما. وقد رمي ركن الدولة وعماد الدولة ابنا بويه من وراء صداقتهما لابن محتاج إلى بسط نفوذهما على بلاد وشمكير[1]. ولم يكتف ركن الدولة بذلك، بل سار في سنة ٣٢٩ هـ إلى الري حيث حارب جيوش وشمكير وانتصر

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٧، ١٣٠.

عليها، وانضم إليه عدد كبير منهم[1]. وقد تحققت سياسة ابني بويه باستيلاء ركن الدولة على الري، فآلت إليهما أعمال الري والجبل وفارس والأهواز والعراق، وجبي باسمهما خراج الموصل وديار بكر وديار مضر (٣٣٥ هـ).

على أن ركن الدولة لم يتمتع بالهدوء في بلاده التي كانت تتعرض لهجمات منافسيه الكثيرين وكان من أشد هؤلاء خطراً، وشمكير بن زيار الديلمي، وأمراء السامانيين. ولكن موت وشمكير بن زيار فجأة، أبعد هذا الخطر الذي كان يهدد بلاد ركن الدولة[2].

وكان ركن الدولة يعمل على أن يكون البويهيون قوة متحدة متماسكة تقف في وقت الخطوب يداً واحدة. كما كانت العلاقة بين معز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة أولاد بويه تقوم على أساس المودة والصفاء واحترام الصغير لمن هو أكبر منه سناً، كما كانت تقوم على أساس احترام العهود والمواثيق حتى مع غير بني بويه. وقد رأينا ذلك واضحاً جلياً، حين تهددت بلاد ركن الدولة لخطر وشمكير والسامانيين. وعندما استنجد عز الدولة بختيار بابن عمه عضد الدولة صاحب فارس الذي طمع في بلاده واتخذ من ضعفه فرصة للوصول إلى السلطنة، أنكر أبوه ركن الدولة عليه عمله وهدده بالمسير إليه في العراق، ورد بختيار إلى سلطنته فيها.

كان عماد الدولة أكبر أولاد أبيه، وركن الدولة أوسطهم، ومعز الدولة أصغرهم «وكان ركن الدولة ـ كما وصفه ابن خلكان (جـ ١ ص ١٤١ ـ) ـ ملكاً جليل المقدار عالي الهمة».

اشتهر ركن الدولة بحسن الخلق وعفة اللسان والعفو عند المقدرة. ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٢٠٨) أن وشمكير بن زيار الديلمي كتب إلى ركن الدولة يتهدده بضروب من الوعيد والتهديد ويقول: والله لئن ظفرت بك لأفعلن بك ولأصنعن، بألفاظ قبيحة، فلم يتجاسر الكاتب أن يقرأه، فأخذه ركن الدولة فقرأه وقال للكاتب: أكتب إليه: أما جمعك وأحشادك، فما كنت قط أهون منك علي الآن، وأما تهديدك وإبعادك، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضده، ولأحسنن إليك ولأكرمنك.

ولما كتب ركن الدولة إلى عضد الدولة يلومه على ما فعل مع ابن عمه بختيار، وعزمه على إبعاده عن السلطنة في العراق وانتزاعها منه ويتهدده إن هو أصر على تنفيذ أغراضه ذكر

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨. (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

له حسن معاملته لأصدقائه وأعدائه على السواء، ووفاته بوعوده فقال: «أما عرفت أني نصرت الحسن بن القيرزان وهو غريب مني مراراً كثيرة أخاطر فيها بملكي ونفسي؟ فإذا ظفرت أعدت له بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان وأعدته إلى أذربيجان، وأنفذت وزيري وعساكري في نصرته، ولم آخذ منه درهماً واحداً. كل ذلك طلباً لحسن الذكر ومحافظة على الفتوة[١].

وتوفي ركن الدولة في سنة ٣٦٦ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالنصر والظفر ومكارم الأخلاق، وكان في الثانية والثمانين من عمره.

أولاد ركن الدولة (٣٦٦ ـ ٤٢٠ هـ):

ذكرنا أن ركن الدولة ولى عهده ابنه عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها، على أن يحكما هذه البلاد بإشراف أخيهما عضد الدولة. وكان عضد الدولة يخشى أخاه فخر الدولة ويخاف اتصاله ببختيار واتحادهما عليه؛ فعول على أخذ بلاد العراق على بلاد أخيه فخر الدولة في سنة ٣٦٩ هـ، فأخذ عضد الدولة ما كان بيد فخر الدولة، وأناب أخاه مؤيد الدولة عنه في حكم هذه البلاد[٢].

ولما مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ، ولحق به أخوه مؤيد الدولة؛ اختار قواده أخاه فخر الدولة. وأشار الصاحب بن عباد باختياره لكبر سنه ووافر هيبته. واتخذ فخر الدولة الصاحب بن عباد وزيراً له، وخلع عليه الخليفة العباسي الطائع، وقامت العلاقة بين كل من فخر الدولة وابني أخيه صمصام الدولة وشرف الدولة، ابني عضد الدولة على أساس الوفاق واتحاد المصلحة[٣].

ولكن هذه العلاقة تبدلت في عهد بهاء الدولة في العراق (٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ). فقد طمع فخر الدولة كما طمح أخوه عضد الدولة من قبل في الاستيلاء على بلاد العراق، وشجعه وزيره الصاحب بن عباد على فتحها ليتقلد الوزارة في بغداد. ولكن بهاء الدولة صاحب العراق سير إليه جيشاً التقى به على مقربة من خوزستان وأحل به الهزيمة[٤].

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٥.
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص ٢٥٦.
(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٠.
(٤) أبو شجاع: جـ ٣ ص ١٦٦، ١٦٩.

وكان فخر الدولة، بحكم قرب بلاده من بلاد السامانيين في عداء مع أمرائهم، وكان يقوم بمساعدة الخارجين عليهم، كما حدث في مساعدته أبا علي بن محتاج وفائق الخاصة على نوح الثاني بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤ هـ.

توفي فخر الدولة في سنة ٣٨٧ هـ، وقام بالأمر من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم (٣٨٧ - ٤٢٠ هـ) الذي لم يجاوز الرابعة من عمره، على أن يلي أخوه شمس الدولة أبو طاهر همذان وقرميسين إلى حدود العراق. وكان لأمه مركز خاص في إدارة شئون دولة ابنها الصغير، واستعانت في ذلك الأمر ببعض الأمراء. ولكن ذلك لم يحل دون طمع أمراء البلاد المجاورة لبلاده. فقد طمع فيها شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار الديلمي، واستولى على جرجان ومزق جيوش مجد الدولة شر ممزق.

ولم يتوطد ملك مجد الدولة في عهده الطويل الذي بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة. ويرجع ذلك إلى صغر سنه كما تقدم، وطمع بعض الأمراء في السلطنة، واستبداد أمه بالأمر دونه، «حتى جعلته كالمحجور عليه»، مما أثار حنقه عليها، وجعله يعمل على التخلص من نفوذها. فلما فطنت إلى ما يراد بها، هربت من الري، واستعانت بابنها الثاني شمس الدولة أبي طالب صاحب همذان وقرميسين، كما استعانت ببدر بن حسنويه الكردي أمير الجبل من قبل مجد الدولة، الذي استعان من قبل بزوجها فخر الدولة على بهاء الدولة. ثم عادت إلى الري، وحبست مجد الدولة، وأجلست ابنها شمس الدولة على العرش في سنة ٣٩٠ هـ فتقلدت الأمور نحواً من سنة «صارت فيها تعطي الأمر وتسمع رسائل الملوك وتعطي الأجوبة»، وأثارت بذلك حنق شمس الدولة الذي أصبح معها كالمحجور عليه. فأعادت أخاه مجد الدولة إلى الملك لأنه ألين عريكة. وسرعان ما ازدادت مطامع شمس الدولة، فعمل على إقصاء أخيه وأمه من بلاد الري، وأرغمهما على الرحيل عنها، ولكنه اضطر إلى العودة إلى همذان على أثر شغب الجند عليه[1].

ولم تطل أيام أولاد ركن الدولة في همذان وقرميسين؛ فقد استعان شمس الدولة بعلاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه، وكان يلي أصبهان من قبل مجد الدولة، على الأتراك الذين تفاقم شرهم وكثرت مشاغباتهم عليه. وعلى الرغم من قضائه عليهم في سنة ٤١٤ هـ أخذت

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٦و٩٢ - ٩٣.

قوته تضعف سريعاً وسلطانه يضمحل، وتمكن ابن كاكويه من القضاء على ابنه سماء الدولة في سنة ٤١٤ هـ؛ وزال سلطان ركن الدولة وأولاده نهائياً من هذه البلاد.

كذلك لم تطل أيام أولاد ركن الدولة في الري، فإن مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه بالأمر دونه، وانصرف إلى المطالعة والدرس واختلت أحوال بلاده بعد وفاة أمه، استنجد في سنة ٤٢٠ هـ بيمين الدولة محمود الغزنوي، فأرسل إليه جيشاً قبض عليه وعلى ابنه أبي دُلف، واستحوذ على ما كان في خزائنه من الأموال، كما استولى على الري وأزال عنها سلطان البويهيين نهائياً.

الدولة الحمدانية (١)

(في الموصل وحلب وغيرهما)

(٣١٧ - ٣٩٤/٩٢٩ - ١٠٠٣)

١ - الموصل

	هجرية	ميلادية
١ ناصر الدولة أبو محمد الحسن	٣١٧	٩٢٩
٢ عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر	٣٥٨	٩٦٨
	٣٦٩	٩٧٩
٣ أبو طاهر إبراهيم	٣٧١	٩٨١
أبو عبد الله الحسين	٣٨٠	٩٩١

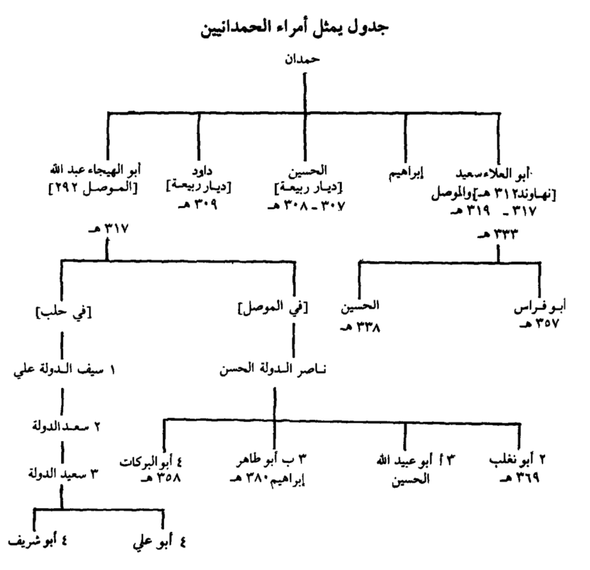
(البويهيون والعقيليون)

(١) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, pp. 112 - 113.

٢ ـ في حلب	هجرية	ميلادية
١ سيف الدولة أبو المحاسن علي	٣٣٣	٩٤٤
٢ سعد الدولة أبو المعالي شريف	٣٥٦	٩٦٧
٣ سعيد الدولة أبو الفضائل سعد	٣٨١	٩٩١
٤ أبو الحسن علي	٣٩٢	١٠٠١
أبو المعالي شريف	٣٩٤	١٠٠٣

(الفاطميون)

جدول يمثل أمراء الحمدانيين



الحمدانيون في الموصل

ناصر الدولة (٣١٧ - ٣٥٨ هـ):

ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصل التي قامت بضواحي مدينة الموصل، وقد قام حمدون بدور هام في الحوادث السياسية التي وقعت في هذه المدينة منذ سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م). وقد تحالف مع هارون الشاري الخارجي في سنة ٢٧٢ هـ، واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وحاربه الخليفة المعتضد في سنة ٢٨١ هـ، فهرب حمدان تاركاً ابنه الحسين عليها. واستولى الخليفة على ماردين، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل، وسجنه في بغداد؛ واستمر في سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجي وخلع عليه المعتضد، وطوقه وخلع على إخوته... وأمر بحل قيود حمدان بن حمدون[1] والتوسعة عليه والإحسان إليه ووعد بإطلاقه»[2].

من ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين، فاشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة ومناصرته عبد الله بن المعتز الذي استولى على الخلافة من المقتدر مدة قصيرة. فكرهه المقتدر وأقصاه، ثم عفا عنه بتوسط أخيه إبراهيم وولاه قم وقاشان. ولكنه لم يلبث أن تنازع مع الخليفة المقتدر، فحبسه حتى مات في سنة ٣٠٦ هـ.

قلد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وما يليها في سنة ٢٩٢ هـ، وولى أخاه إبراهيم ديار ربيعة في سنة ٣٠٧ هـ، فظل بها إلى أن خلفه عليها أخو داود سنة ٣٠٩ هـ، كما ولى أخاه سعيداً نهاوند في سنة ٣١٢ هـ، وقلد غيرهم من بني حمدان بعض مناصب الدولة، وأناب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن عنه في حكم الموصل ٣٠٨ هـ، واستطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات في سنة ٣٥٨ هـ، إلا فترة قصيرة لا تزيد على سنتين (٣١٧ - ٣١٩ هـ). كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة، ولقبه الخليفة المتقي في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ ناصر الدولة، ولقب أخاه سيف الدولة[3].

---

(١) وردت في ابن الأثير ج ٧ ص ١٧ ابن حمدان.

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٦٦ - ١٦٧، ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٨.

سطع نجم ناصر الدولة بن حمدان في أفق الدولة العباسية، كما رأينا، وتقلد إمرة الأمراء في هذه السنة بعد أن قتل ابن رائق ونال رضاء الخليفة المتقي لله[١]؛ فأصلح السكة، ولكنه اشتط في فرض الضرائب، فغلت الأسعار، وعز الطعام واللباس، وضيق على الخليفة المتقي لله في نفقاته، وانتزع منه ضياعه وأثار بذلك حنق الخليفة وسخط الناس عليه[٢].

وقامت الحروب الأهلية بين ناصر الدولة وبين البريديين من ناحية وبين هؤلاء والبويهيين من ناحية أخرى[٣]، وانتهز الخليفة فرصة خروجه إلى الموصل، فاستنجد بتوزون ومهد له السبيل لدخول بغداد (سنة ٣٣١ هـ). ولم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء في بغداد أكثر من سنة واضطروا إلى العودة إلى الموصل.

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسي الذي لجأ إلى ناصر الدولة بن حمدان، وقامت الحرب بين الفريقين في عُكبرة، وتبعد عن بغداد بعشرة فراسخ، وانهزم ابن حمدان والخليفة إلى الموصل ثم إلى نصيبين. وقد شجعت هزائم الحمدانيين على ضياع الموصل وعقد الصلح بين توزون وابن حمدان، الذي أقر على ما بيده من البلاد ثلاث سنوات، على أن يؤدي ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم في كل سنة.

ولم يقف النزاع بين توزون والبريديين من ناحية وبينه وبين الحمدانيين والخليفة المتقي من ناحية أخرى، حتى إن الخليفة مل من الحمدانيين وكاتب توزون في الصلح. ولكن محمد بن طغج الإخشيد الذي التقى بالخليفة في الرقة، نصح له بالمسير معه إلى مصر، ولكنه عاد إلى بغداد. وكان الخليفة المتقي يستعين على توزون بناصر الدولة بن حمدان في الموصل تارة وببني بويه الذين أخذت قوتهم في الازدياد تارة أخرى. ولكن ذلك لم يغنه شيئاً، فقد سمله توزون وحبسه وولي المستكفي الخلافة (صفر سنة ٣٣٣ هـ)[٤]. ثم مات توزون بعد قليل (المحرم سنة ٣٣٤ هـ)، وتولى ابن شيرزاد إمرة الأمراء. وقد قيل إنه رغب في تحويل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان، إلا أن الجند أبوا عليه ذلك، وأقرهم الخليفة على ذلك.

وسرعان ما دخل بنو بويه بغداد (٣٣٤ هـ)، ودخلت العلاقة بين البويهيين والخلافة العباسية في طور جديد. وكانت سياسة بني بويه ترمي إلى الحد من نفوذ الحمدانيين في

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٥.
(٢) أبو بكر الصولي. أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٤٠، ٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

الموصل، فنرى معز الدولة يسير بصحبة الخليفة المطيع لمحاربة ناصر الدولة ويلتقي الجيشان عند عكبرة ويتمكن ابن شيرزاد من أن يدخل بغداد ويحكمها باسم ناصر الدولة، ثم يلحق به هذا بعد قليل ويخطب للمتقي على منابر بغداد ويضرب السكة باسمه. ولم يستطع معز الدولة أن يسترد بغداد إلا بعد أربعة أشهر، وأرغم ناصر الدولة على الارتداد إلى الموصل، وعقد الصلح بينهما في أوائل سنة ٣٣٥ هـ؛ ولكن العلاقة بين الحمدانيين والبويهيين لم تستقر نهائياً، بل أخذ النزاع يدب بينهم من حين إلى حين.

وفي سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م) اتخذ ناصر الدولة بن حمدان من خروج معز الدولة من بغداد لإخماد الثورة في الأهواز، فرصة لدخول بغداد والاستيلاء عليها. ولما قضى معز الدولة على هذه الثورة، رحل الحمدانيون عن بغداد، وامتنع ناصر الدولة عن إرسال الأموال المقررة لدار الخلافة، فاستولى معز الدولة على الموصل ونصيبين، وأرسل جيشاً إلى الرحبة، وأرغم ناصر الدولة على الهرب إلى ميافارقين ثم إلى حلب التي استقل بها أخوه سيف الدولة، ولم يتم الصلح بينه وبين معز الدولة إلا بعد أن تدخل سيف الدولة وأخذ على عاتقه أداء ما على أخيه من الأموال[1].

ويظهر أن الحوادث التي تتابعت على ناصر الدولة الحمداني قد أثرت في حالته النفسية تأثيراً شديداً: فضمان أخيه سيف الدولة له بأن يقوم بدفع الأموال المقررة عليه لمعز الدولة (٣٤٧ هـ)، وطلب البويهيين زيادة هذه الأموال، وتوغل جيوشهم في البلاد التابعة لناصر الدولة، وعقد معز الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل وديار ربيعة والرحبة وما كان في يده بمال مقرر (٣٥٣ هـ). وموت أخيه سيف الدولة الذي كان شديد المحبة له (٣٥٦ هـ) - كل ذلك حز في نفسه، حتى تغيرت أحواله، وساءت أخلاقه، وضعف عقله، ولم يبق له حرمة عند أولاده الذين اختلفوا على أنفسهم، وقبض عليه ابنه أبو تغلب بمدينة الموصل وحبسه، وظل في حبسه إلى أن توفي في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ[2].

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ):

أسرع إلى الدولة الحمدانية في الموصل الضعف بعد وفاة ناصر الدولة واختلف أولاده على أنفسهم، وصاروا شيعاً وأحزاباً، وطرد بنو بويه أبا تغلب الغضنفر من الموصل

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٣ - ١٨٩. (٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٩٨.

(٣٦٧ هـ)، ولم يكن استردادها على أيدي أخويه أبي طاهر إبراهيم وأبي عبد الله الحسين إلا انتعاشاً قصير المدى.

وبعد وفاة ناصر الدولة استمر النزاع بين أولاده وانقسموا إلى فريقين: فريق يناصر حمدان بن ناصر الدولة، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب. ولكن الهزائم تتابعت على حمدان، فلجأ إلى بختيار بن معز الدولة في بغداد، فأكرم وفادته، وتوسط في الصلح بينه وبين أخيه، وأرسل النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي سفيراً في الصلح بين ولدي ناصر الدولة. وقد دفع بختيار إلى اختيار أبي أحمد الموسوي أنه من العلويين الذين كان يميل إليهم الحمدانيون والبويهيون على السواء، وتم الصلح بين الأخوين وعاد حمدان إلى الرحبة[١]. وكان أخوه أبو تغلب قد استولى عليها منه وأناب عليها أخاه أبا البركات (٣٥٨ ـ ٣٥٩ هـ). على أن النزاع لم ينته بهذا الصلح، بل تجدد في عنف وشدة، حتى إن حمدان قتل أخاه أبا البركات (٣ رمضان ٣٥٩ هـ). واشتد الصراع بين أبي تغلب وحمدان، الذي حلت به الهزيمة، فسار إلى بغداد، ولجأ مع أخيه إبراهيم إلى بختيار من جديد، فتلقاهما بالقبول وأكرمهما، وأصبح الحمدانيون جماعتين: جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهما بختيار، وجماعة بزعامة أبي تغلب وأخيه الحسين[٢].

صفا الجو لأبي تغلب بعد أن أحل الهزيمة بأخيه حمدان، فاستولى على حران (٣٥٩ هـ)، ولكنه عجز عن الوقوف في وجه الروم الذين أغاروا على الرها ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر وعلى الرغم من حالة الضعف التي سادت بين أفراد البيت الحمداني، كان أبو تغلب كأبيه ناصر الدولة، ينفس على البويهيين ازدياد نفوذهم ويعمل على إزالة سلطانهم من العراق. فلما قصد بختيار بلاد الموصل لمساعدة حمدان على أخيه أبي تغلب، انتهز هذا فرصة ابتعاد بختيار عن بغداد وخلوها من جنده، وقصدها وكاد يستولي عليها. وقد خشي بختيار بأس هذا المنافس. وجاء في عقد الصلح أن يرد أبو تغلب إلى أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردين، وأن يلقب (أبو تغلب) بلقب سلطان، وأن يسلم إليه ابنة بختيار التي كان قد تزوجها. ولكن الحرب التي تجددت بينهما انتهت بإقرار هذا الصلح سنة ٣٦٣ هـ[٣].

(١) بضم الراء وسكون الحاء وفتح الباء بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات جنوبي قرقيسيا.
(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٥.
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦ ـ ٢٢٨.

وفي سنتي ٣٦٧، ٣٦٨ هـ استولى عضد الدولة البويهي على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار مضر من يد أبي تغلب الحمداني، فعوَّل على قصد دمشق واتخاذها مركزاً لولايته، ولكنها امتنعت عليه، فلجأ إلى الخليفة العزيز الفاطمي الذي طلب منه القدوم إلى القاهرة لإمداده بالمال والرجال. ولكنه خشي أن يكون في هذا خديعة للفتك به، فرحل إلى طبرية وتبودلت الرسل بينهما. وفي ذلك الوقت خرج دغفل بن مفرج الطائي أمير الرملة من قبل العزيز بالله الفاطمي، وعمل على طرد العقيليين من الشام، ولجأ هؤلاء إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة وطلبوا منه المعونة، ولكنه اعتذر عن إجابة طلبهم حتى لا يثير حنق الخليفة الفاطمي عليه، بل توسط بينهم وبين هذا الخليفة، وخشي دغفل بن مفرج، والفضل بن صالح ـ وكان العزيز قد أرسله على رأس جيش لقمع الثورة في دمشق ـ خطر أبي تغلب وحارباه هو وبني عقيل. وأحلا به الهزيمة وقتلاه في شهر صفر سنة ٣٦٩ هـ[١].

على أن الحمدانيين استعادوا الموصل وما يليها في سنة ٣٧٩ هـ على يد أبي طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة، وأخيه أبي عبد الله الحسين[٢]. ولكنهم لم يبقوا فيها أكثر من سنة، لأن الأكراد طمعوا في إزالة دولتهم، وانتصر أبو علي بن مروان الكردي على أبي عبد الله الحسين أخي أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، وبعث به إلى مصر بشفاعة الخليفة العزيز بالله الفاطمي، كما قيل أبو الزواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني. واستولى على مدينتي نصيبين وبلد (٣٧٩ هـ)، وضم إليهما الموصل في السنة التالية، ولكه طرد منها على أيدي بني بويه؛ ثم استردها أخوه المقلد بن المسيب العقيلي الذي أقره بهاء الدولة البويهي على هذه البلاد وما يليها في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٤)[٣].

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

الحمدانيون في حلب

سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ):

ذكرنا أن الخليفة المتقي لقب الحسن بن حمدان ناصر الدولة، ولقب أخاه علياً سيف الدولة في شهر شعبان سنة ٣٣٠ هـ، وأن سيف الدولة أصبح الساعد الأيمن لأخيه ناصر الدولة في حروبه مع البريديين والأتراك، فتراه يستولي على مدينة واسط من البريديين ويعمل على ضم البصرة إليه، ولكنه لم يستطع تحقيق أمنيته لقلة المال عنده. بيد أن علاقة المودة التي كانت تربط الحمدانيين بالأتراك وعلى رأسهم توزون، لم تلبث أن تبدلت. وثار الأتراك على سيف الدولة بواسط، فهرب من معسكره إلى بغداد، ثم لحق بأخيه ناصر الدولة الذي كان يلي إمرة الأمراء، وأرغم أمام ثورات الأتراك على المسير إلى الموصل، وانتهز سيف الدولة فرصة النزاع الذي قام في واسط بين الأتراك بزعامة توزون، وعول على أخذ بغداد، وساعده الخليفة المتقي سراً. ولكنه لم يستطع البقاء فيها لاستيلاء توزون عليها.

سار سيف الدولة الحمداني إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣ هـ[١]، وهرب إلى مصر يانس المؤنسي الخصي، وكان قد وليها من قبل الإخشيد. فأرسل الإخشيد جيشاً لمحاربته بقيادة كافور ومعه يانس، فتقابلا مع الحمدانيين عند الرستن الواقعة على نهر العاصي الذي يمر بالقرب من حماه، فحلت الهزيمة بالمصريين وأسر منهم أربعة آلاف عدا القتلى والغرقى.

ثم تقدم سيف الدولة يريد دمشق، فسار إليه الإخشيد الذي حلت به الهزيمة في قنسرين، ولكنه انتهز فرصة انشغال الحمدانيين بجمع الغنائم واقتسامها، فأطلق عشرة آلاف من صناديد جنده، بددوا شمل العدو، ودخل حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق إلا أنه - على الرغم من انتصاره - تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، كما تعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق[٢].

---

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) أن أول من ملك حلب من بني بويه هو الحسين بن سعيد أخو أبي فراس الحمداني الشاعر المشهور، وذلك في شهر رجب سنة ٣٣٢ هـ.

(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ١٥٩ - ١٦٠.

ولعل الإخشيد كان يرمي من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة، أن يبقي الدولة الحمدانية حصناً منيعاً يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين، الذين لا يفترون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المتاخمة لبلادهم، والذين أغاروا سنة ٣٣١ هـ على أرزن وميافارقين ونصيبين، فقتلوا وسبوا كثيراً من المسلمين، ثم دخلوا في السنة التالية ٣٣٢ هـ رأس العين، المدينة الكبيرة المشهورة في بلاد الجزيرة، بين حران ونصيبين، في ثمانين ألفاً، فقتلوا وسبوا خلقاً عظيماً من المسلمين.

ولكن هذا الصلح لم يطل، فإن الإخشيد لما مات في سنة ٣٣٤ هـ وتولى كافور الوصاية على ابنه أبي الحسن علي، استولى سيف الدولة الحمداني على دمشق في هذه السنة، ثم سار إلى الرملة لغزو مصر؛ فحاربه كافور بصحبة الحسن بن عبيد الله بن طغج وانتصر عليه في اللجون ببلاد الأردن، وتبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلاً وعن الرملة بنحو أربعين ميلاً؛ ثم انتصرا عليه انتصاراً حاسماً بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق. ودخل الجيش مدينة حلب. وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح. بنفس الشروط التي عقدت بها أواخر أيام الإخشيد.ما عدا الجزية فقد وقف دفعها[١].

وسرعان ما أخذ نفوذ سيف الدولة يزداد، حتى إن معز الدولة بن بويه قبل توسط لديه في شأن أخيه ناصر الدولة، فأبرم الصلح معه، على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التي يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها لبيت المال ببغداد.

وقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين، حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة، انتصر في بعضها وحلت به الهزيمة في بعض آخر. وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحاً للحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم في ذلك العصر. وقد أغار سيف الدولة على زبطرة وعرقة وملطية ونواحيها، فقتل وأحرق وسبى، وانثنى قافلاً إلى درب موزار، فوجد عليه قسطنطين بن فردس الدمستق فأوقع به، وقتل صناديد رجاله، ثم عبر الفرات وأوغل في بلاد الروم والتقى بجيش فردس بمرعش وهزمه. وقتل رؤوس البطارقة، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذي أصابته ضربة في وجهه، وأكثر الشعراء في هذه الموقعة فقال أبو فراس الحمداني:

وآب بقسطنطينَ وهو مكبل   تحفُّ بطاريق به وزرازرُ[٢]

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٦٤.   (٢) جمع زرزار وهو البطريق.

وولى على الرسم الدمستق هاربا وفي وجهه عذر من السيف عاذر[١]

ثم سار سيف الدولة لبناء الحدث. وهي قلعة عظيمة الشأن؛ فاشتد ذلك على ملك الروم الذي أرسل جيشاً جراراً يضم عظماء مملكته وعلى رأسهم فردس الدمستق، وأحاطوا بعسكر سيف الدولة الذي حمل على العدو واخترق الصفوف طلباً للدمستق فولى هارباً، وأسر صهره وابن بنته، وقتل خلق كثير من الروم، وأكثر الشعراء في هذه الموقعة فقال أبو الطيب المتنبي:

بناها عليٌّ والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من مشاهير العلماء والكتاب والشعراء، كأبي الفتح عثمان بن جني النحوي، وأبي الطيب المتنبي. واشتهر كثير من أمراء الحمدانيين بالشعر؛ كأبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة، وابن أخيه الحسين بن ناصر الدولة. وكان سيف الدولة نفسه شاعراً يجيد الشعر؛ فمن شعره الذي يعبر فيه عن وفاته لأخيه ناصر الدولة قوله:

وهبت لك العَليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق[٢]

وقد وصف الثعالبي (جـ ١ ص ١١ - ١٢) سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية في عهده في هذه العبارة فقال:

«وكان بنو حمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة. وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطه قلادتهم. وكان غرة الزمان وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور. وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها، ويفل أنيابها وتذل صعابها، وتكفي الرعية سوء آدابها. وغزواته تدرك من طاغية الروم النار. وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء وحلبة[٣]

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ - ٢٣.
(٢) ابن الأثير ج ص ٢٠٨.
(٣) الحلبة: الخيل تجتمع للسباق من كل أوب ولا تخرج من مكان واحد.

الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به... وكان كل من أبي محمد بن عبد الله بن محمد القاضي الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت كقول أبي الطيب المتنبي:

خليليَّ إنِّي لا أرَى غَيرَ شاعر ... فلي منهم الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا إنّ السيوفَ كثيرةٌ ... ولكنَّ سيفَ الدولة اليوم واحدُ

توفي سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ، ونقل إلى ميافارقين بعد أن ملك ثلاثاً وعشرين سنة، وتولى بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف.

سعد الدولة ـ سعيد الدولة (٣٥٦ ـ ٣٩٢ هـ):

وفي عهد سعد الدولة بدأ الضعف يدب في جسم الحمدانيين في حلب. فقد قتل خاله أبا فراس بن أبي العلاء سعيد بن حمدان، الشاعر المشهور (سنة ٣٥٧ هـ)[١]، وثار عليه قَرْعويه غلام أبيه سيف الدولة واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، وأقام فيها نحو ست سنين[٢]، ثم عبر أبو المعالي نهر الفرات وقصد حماه فأقام بها[٣].

سار سعد الدولة بعد ذلك إلى حمص وشرع في عمارتها وتحصينها، وكان الروم قد عاثوا فيها حين أغاروا عليها في سنة ٣٥٨ هـ. وتم الصلح بينه وبين قرعويه (٣٥٩ هـ). وخطب له على منابر حلب، ولكنه آثر البقاء بحمص وناصر الفاطميين فخطب للخليفة المعز لدين الله[٤].

على أن النزاع لم يلبث أن قام بين بكجور وسعد الدولة الذي عزله عن حمص فكتب إلى العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) يطلب إليه أن يوليه دمشق وينفذ إليه جيشاً يستولي به على حلب.

دخل بكجور دمشق (٣٧٣ هـ) وساءت العلاقة بينه وبين يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز، الذي حقد عليه لقتله نائبه في ضياعه بدمشق، وعمل على قتله. ولما كشف

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١١.
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧.
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢١٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١١٩ ـ ٢٢٠.

بكجور سر هـذه المؤامرة، نكـل بأتبـاع ابن كلس وقتلهم وصلبهم (رمضان ٣٧٧ هـ)، ثم طلب من سعد الدولة أن يرده إلـى ولايـة حمص، فأجـابه إلى ذلـك (٣٧٩ هـ)، ولكنه لم يستطع الاستقرار فيها، وساءت علاقته بالفاطميين وبسعد الدولة، فلجأ إلى بهاء الدولة بن بويه فلم يظفر بشيء.

ولما مات يعقوب بن كلس وتقلد الوزارة عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً من أقباط مصر، خافه بكجور كما خاف يعقوب بن كلس من قبل، وأرسل إلى الخليفة العزيز يطلب مساعدته للاستيلاء على حلب، فأجابه إلى ما أراد وكتب إلى والي طرابلس يأمره بمساعدته ولكن عيسى أمره بمماطلة بكجور الذي وصل إلى حلب. وعلم سعد الدولة الحمداني بما يراد به، فكاتب باسيل الثاني إمبراطور الروم (٣٥٢ ـ ٤١٦ /٩٦٣ ـ ١٠٢٥)، وطلب إليه أن يأمر والي إنطاكية بمعونته. ووقعت الحرب بين بكجور، يساعده المغـاربة والعرب، وبين سعد الدولة يساعده الروم والأرمن والديلم والأتراك وخمسمائة من صناديد العـرب من بني كلاب[1].

وهكـذا وقع النـزاع بين الحمدانيين وبين قـوادهم، وقامت الحـروب الأهلية بينهم، وأصبح سعـد الدولة يستعين بالروم، وغدا بكجور يستعين بالفاطميين. وكان لسعد الدولة وبكجور الغُرم وللروم والفاطميين الغنم.

وقد أراد سعد الدولة أن يوحد الصفوف بين جند الحمدانيين جميعاً، وآثر سياسة اللين والمسالمة على سياسـة النـزاع والحرب؛ فكتب إلى بكجـور يدعـوه إلى رعايـة حق الرق والولاء، ويطلب إليه الكف عن مناجـزته ومنـاوأته، ويعـده بإقـطاعه الأراضي الممتـدة بين حمص والرقة؛ فلم يزدد بكجور إلا غروراً، وأبى إلا القتال، ودارت رحى الحرب ووقعت الدائرة عليه. وقد عزا ابن القلانسي (٣٤ ـ ٣٦) هزيمة بكجور إلى بخله وانتصار سعد الدولة إلى جوده وكرمه وميل العرب إليه.

ولما صفا الجو لسعد الدولة الحمداني وأمن شر بكجور، سار إلى الرقة، وكان بها أبو الحسن بن المغربي، وكان قد هرب إلى الكوفة خوفاً من بطش بكجور، كما كان بها أولاد بكجور، الذين آلت أموالهم إلى سعد الدولة بعـد قتل أبيهم، فكتبـوا إلى الخليفة العـزيز

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣ ـ ٣٤.

الفاطمي يسألونه التدخل لدى سعد الدولة عسى أن يكف عن أذاهم، فكتب إليه العزيز كتاباً يتوعده فيه ويأمره بإنفاذهم إلى مصر. ولما وصل كتاب الخنيفة الفاطمي إلى سعد الدولة أساءت معاملة رسوله، وأخذ يعد العدة لحربه لولا أن عرضت له علته التي مات منها في سنة ٣٨١ هـ، فحمل تابوته إلى الرقة ودفن بها[١].

تولى سعيد الدولة بعد وفاة أبيه سعد الدولة، وكان قد عهد إليه وهو في مرضه الأخير، وأوصى لؤلؤاً الخادم به وبابنه الآخر أبي الهيجاء وبأخته ست الناس. وقد أخذ لؤلؤ البيعة لسعيد الدولة الذي امتاز عهده بوقوع الحروب بين الحمدانيين والفاطميين، الذين لم يتمكن قائدهم منجوتكين من أخذ حلب بسبب قلة الأقوات وارتد إلى دمشق. وعظم ذلك على الخليفة العزيز، فخرج بنفسه لفتحها. ولكنه مات في بلبيس سنة ٣٨٦ هـ[٢].

ولم يكد سعد الدولة يتخلص من شر بكجور، حتى وقع ابنه سعيد الدولة في شر لؤلؤ الذي آلت إليه الوصاية عليه، فطمع في ولايته وقتله هو وابنته وكان قد تزوج منها، ثم ملك الدولة الحمدانية باسم ولدي سعيد الدولة: أبي الحسن علي، وأبي المعالي شريف. ولم يلبث أن أرسلهما مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة. وجعل ابنه منصوراً ولياً على الدولة (سنة ٣٩٤ هـ). ومات لؤلؤ بعد أن تقدمت به السن (١٠٠٨/٣٩٩)، فخلفه ابنه منصور الذي اعترف بسلطان الخليفة الفاطمي الحاكم وذكر اسمه في الخطبة فلقبه مرتضى الدولة. ويمكن أن يقال إن نفوذ الفاطميين امتد إلى حلب منذ ذلكالحين، ولكنه توطد بعد أن قام النزاع بين مرتضى الدولة وبين الفتح غلام أبيه، الذي انضم إلى جانب الحاكم الفاطمي، فأقطعه صيدا وصور وبيروت. ولقبه مبارك الدولة وسعدها، واستمر على حكم حلب من قبل الحاكم. وبذلك قضى الفاطميون على حكم الحمدانيين في حلب[٣].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) ...asil Ev., Cambridge Mediaeval History vol. IV p.149.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٥٦، ٥٨.

الدولة الطولونية

في مصر والشام

٢٥٤ - ٢٩٢/٨٦٨ - ٩٠٥

الطولونيون

	هجرية	ميلادية
١ ـ أحمد بن طولون	٢٥٤	٨٦٨
٢ ـ خمارويه بن أحمد	٢٧٠	٨٨٣
٣ ـ أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٨٩٥
٤ ـ هارون بن خمارويه	٢٨٣	٨٩٦
٥ ـ شيبان بن أحمد	٢٩٢	- ٩٠٤ -
	٢٩٢	٩٠٥

أحمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ):

ظلت مصر بعد قيام الدولة الأموية في حالة ضعف وجمود في كل ناحية من نواحي الحياة، إلا في فترات قليلة عمل فيها ولاة هذه البلاد على تقدمها ورقيها، كمسلمة بن مخلد (٤٧ ـ ٦٢ هـ)، وعبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ). وموسى بن عيسى الذي ولي مصر ثلاث مرات (في سني ١٧١، ١٧٥، ١٧٩ هـ) على أن هذه البلاد أخذت تنتعش منذ قامت الدولة الطولونية التي استقلت بحكمها استقلالاً يكاد يكون تاماً. وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة لم يزد على ثمان وثلاثين سنة، أخذت مصر بقسط موفور من التقدم والإصلاح.

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة تركياً، وكان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم الولاة من بلاد ما وراء النهر إلى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم. وقد كثر هؤلاء الأتراك منذ ولي المعتصم الخلافة (٢١٨ هـ)، إذ كانت أمه تركية؛ فاعتمد على العنصر التركي، واتخذ من الأتراك حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون من قبله من تولية الفرس مناصب الدولة: فولي المأمون عبد الله بن

طاهر بن الحسين مصر صلاتها وخراجها (٢١١ ـ ٢١٣ هـ)، وولى المعتصم آشناس التركي مصر (٢١٩ ـ ٢٢٩ هـ)، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٤ ـ ٢٣٥ هـ). وكان هؤلاء الولاة يستخلفون عنهم نواباً يحكمون البلاد باسمهم، ويدعون لهم على المنابر بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة وما فيها من نعيم وترف ويأتوا إلى مصر للإقامة فيها. ولما أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، انتشر العرب في ريف مصر، واحترفوا الزراعة وغيرها طلباً للرزق، وأخذ العنصر العربي يضعف شيئاً فشيئاً، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم. ولم يل مصر بعد ذلك عربي إلا عنبسة بن إسحق (٣٢٨ ـ ٣٤٢ هـ).

تقلد «باكباك» التركي مصر، فاستخلف عليها ابن طولون وجعله على حاضرتها، وضم إليه جيشاً فدخلها في شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ، وكان ولاة مصر في ذلك العصر لا ينيبون عنهم شخصاً واحداً في هذه البلاد، وإنما كانوا يقسمون أعمالها بين عدة أشخاص، ليكون كل واحد منهم عيناً على الآخر، فلا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بها في يده خشية اتفاق الآخرين عليه. وكان هؤلاء الأتراك يسندون القضاء والخراج لغير هؤلاء الولاة، وبذلك كانت أعمال مصر عندما دخلها أحمد بن طولون مقسمة بين عدة أشخاص، فكان على الإسكندرية إسحاق بن دينار، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدي، وعلى القضاء بكار بن قتيبة، وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم المعتز، وعلى الخراج أحمد بن المدبر.

ومن ذلك نرى أن ولاية مصر لم تصف لابن طولون، لأنه إنما تقلد قصبة هذه البلاد دون غيرها، إذ كان يحكمها باسم واليها باكباك، وفي استطاعته أن يعزله إذا لم يحز رضاه. هذا فضلاً عما كان من منافسة ابن المدبر عامل الخراج في مصر ومثابرته على الإيقاع به عند الخليفة[1]. ومن قيام الثورات التي أضرم نارها الخوارج في مصر ومن بينهم ابنه العباس، إلى ما كان من سخط أبي أحمد طلحة ولي العهد عليه وعمله على صرفه عن هذه البلاد.

---

(١) اتخذ ابن المدبر حرساً من مولدي الغور (وهي جبال وولاية بين هراة وغزنة) وكانوا طوال الأجسام ذوي بأس وإقدام: يتدرعون بالأقبية والمناطق ويحملون بأيديهم مقارع غليظة على طرف كل منها مقمعة من فضة (وهي عمود من الحديد). وكانوا يقفون بين يديه إذا جلس ويركبون بين يديه إذا ركب فتزيد هيبتهم في نفوس الناس. وقد عمل ابن طولون على إقصاء هذا الحرس الذي رآه بين بني يديه يوم خرج للقائه وطلب أن يستعيض الهدية التي بعث بها إليه ابن المدبر بهؤلاء الغلمان ليقضي بذلك على نفوذه وهيبته.

فلم يَكن بد من أن يعمل ابن طولون على التغلب على هذه الصعاب وتثبيت قدم أولاده من بعده.

قتل باكباك فتولى مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك». وبذلك أقره على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها. وزاد قلق ابن المدبر عامل الخراج الذي أثار سخط المصريين بزيادة الضرائب، واستعماله القسوة في جبايتها، وعمل على عزل ابن طولون، وخشي عاقبة أمره في مصر، فطلب صرفه عن خراجها. وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن في سنة ٢٥٧ هـ، وتقلد خراج مصر من بعده أحمد بن خالد.

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطدت قدمه في هذه البلاد وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرة. وفي سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فرد عليه:«لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري»، فقلده خراج مصر، وولاه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده.

بعد أن قضى ابن طولون على الصعاب التي قامت في وجهه في مصر، اعترضته صعوبة كادت تقضي على آماله، لولا ما أوتيه من حسن السياسة وعلو الهمة ورباطة الجأش. وكان مصدر هذا الشر أبو أحمد الموفق طلحة، الذي غلب على أخيه الخليفة حتى إنه لم يبق له من الخلافة إلا اسمها، كما أن ثورة الزنج الطاحنة أثارت عداء الموفق لابن طولون والي مصر، الذي وقف على مدى الخطر الذي هدد سلامة الدولة العباسية من ناحية الزنج، فبعث إلى الموفق بمليون ومائتي ألد دينار، استقبل هذا المال، وبعث إلى ابن طولون بكتاب ينطوي على الجفاء والشر، فرد عليه بكتاب شديد اللهجة.

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي كان يميل إلى ابن طولون، أرغم على عزله من ولاية الثغور الشامية، ولكنه لم يلبث أن ردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها، ووجد ابن طولون الفرصة سانحة لأخذ بلاد الشام بعد وفاة واليها ماجور لاشتغال الموفق بحرب صاحب الزنج، وخشي ضياع ولاية الثغور منه بسبب وقوع بلاد الشام بينها وبين مصر، وسار بجيشه

نحو بلاد الشام، فدانت له أمهات مدنها، ودعي له على منابرهـا(٢٦٤ ـ ٢٦٥ هـ)، ولكنه اضطر إلى العودة إلى مصر لقمع ثورة ابنه العباس. ثم خرج ابن طولون إلى الشام (جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ) بعد أن اتصل به نبأ خروج لؤلؤ والي الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق، واستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في طريقـه إليها، بلغه خروج أهل طرسوس عليه، فعول على المسير إليها. ولكنه لما وصل إلى دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه بالمسير إليه والاحتماء به. ورحب ابن طولون بهذه الفكرة لما تنطوي عليه من تقوية شأنه في مصر. ولكن ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة قبض على الخليفة المعتمـد وساقه إلى سامرا، وكوفىء بولاية مصر.

وقد فعلت سياسة الموفق فعلها في الناس، فقد كان من أثر لعن الخليفة ولعن ابنـه المفوض وأخيه الموفق لابن طولون، وانضمام لؤلؤ ومن معه من القواد ومنافسة ابن كنداج له وتوليته على مصـر والشام، أن ضعف نفـوذه الأدبي في البلاد التي دانت لسلطانـه، فحلت الهزيمة بجيشه في مكة، ولعن في المسجد الحرام[١]. وكان من أثر هذه الدعاية الـواسعة التي نشرها الموفق ضد عدوه ابن طولون، أن حلت به الهزيمة لأول مرة في طرسوس ومات أكثر جنده من البرد بسبب غرق أمتعتهم[٢].

وسار ابن طولون بعد ذلك إلى المصيصة وأقام بها ثلاثة أيام: وهنا عرضت له علتـه التي أودت بحياته.

قال الكندي[٣]: وتزايدت علة أحمد بن طولون، فأمر الناس بالدعاء له، فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم يوم الإثنين لست خلون من شوال سنـة سبعين ومائتين. وحضر معهم القصاص فدعـوا له، ثم غـدوا أيضاً بـالدعـاء له. وحضـرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين، وحضروا أيضاً اليوم الثالث مع النساء والصبيان، وأقاموا على ذلك أياماً. ثم توفي ليلـة الأحد لعشر خلت من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وله من العمر خمسون سنة وشهر وسبعة عشر يوماً؛ ودفن باليحموم بسفح المقطم بعد أن حكم نيفاً وستة عشر سنة، وترك من الأولاد ثلاثة وثلاثين، منهم سبعة عشر من الذكور وستة عشر من الإناث.

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٣٢٠.

(٢) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص ٧١.

(٣) كتاب الولاة ص ٢٣١.

كان ابن طولون بعيد النظر عالي الهمة قوي البأس شديد المراس. اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ومن النوبة إلى آسيا الصغرى، وخشي بأسه إمبراطور الروم، على ما بين بلاديهما من بعد الشقة ووعورة الطريق، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين.

وكان ابن طولون سياسياً محنكاً، وقائداً ماهراً، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش، كما كان إدارياً حازماً[١]، وقف على موارد الثروة على اختلافها، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته من غيرأن يرهق الأهلين بالمكوس والضرائب، وعمل على ترفيههم ونشر العدل بينهم، فاستتب الأمن واستقرت الأمور وسادت الطمأنينة بين الناس. وشمل الرخاء البلاد في عهده، حتى بيع عشرة الأرادب من القمح بدينار واحد. هذا إلى تحصينه الثغور والاحتفاظ بجيش كامل العدد والعدة. كما ضرب بسهم وافر في سبيل الإصلاح، فاهتم بالزراعة وعني بإقامة الجسور وحفر الترع.

أما أخلاقه وصفاته، فقد كان مضرب الأمثال في الكرم والجود، وفي الشجاعة والبسالة، وفي صدق الفراسة، وفي العدل والتواضع. وكان يقرب إليه العلماء، ويجزل لهم العطاء. كما كان يتصدق على الفقراء. فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار. وكان - إلى جانب ذلك - يبذل في أعمال الخير ألف دينار في كل يوم.

قال المقريزي (خطط جـ ١ ص ٣١٦): «كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة.. سوى مطابخه التي أقيمت كل يوم للصدقات في داره وغيرها، ويذبح فيها البقر والكباش. ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة. في اثنين منها فالوذج والإثنان الآخران على القدر. وكانت تعمل في داره وينادي: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس. وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته.

ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين. ولذلك كان من أكثر الولاة احتراماً لحفاظه[٢].

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٩.

خمارويه (٢٧٠ ـ ٢٨٢ هـ):

بعد وفاة ابن طولون. اجتمع الجند ـ على ما قضت به العادة في ذلك الوقت ـ وولوا مكانه ابنه خمارويه. ولم يستطع الخليفة العباسي إلا الموافقة على تعيين الوالي الجديد وله من العمر عشرون سنة. ولم تكن ولاية مصر قد توطدت أركانها لآل طولون. وأصبح خمارويه أمام عدة صعاب لا سبيل إلى التغلب عليها إلا بالقوة حيناً وبالدماء حيناً آخر.

ولا غرو، فقد ظلت مصر في عهد خمارويه كما كانت في عهد أبيه، محط أطماع المتنافسين من القواد الأتراك، ومثار حسد أبي أحمد الموفق؛ فواصل لعن الموفق على السنابر، وبعث الواسطي كاتب أبيه بجيش كثيف، وعززه من البحر بأسطول قوي. وخرج الموفق من بغداد، وانضم إليه ابن كنداج والي الموصل، ومحمد بن أبي الساج والي أرمينية والجبال، واستولوا على دمشق. فلم ير خمارويه بداً من الخروج بنفسه، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله، وتم الصلح بين والي مصر ودار الخلافة، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ـ ويتضمن تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة. هنا أمر خمارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر والدعاء له مع الخليفة[1].

وكان من أثر هذا الانتصار أن استولى خمارويه على الرقة، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، ودعي له على منابرها، كما أخضع ابن أبي الساج (٢٧٦/٨٨٨)، وطارد جيوشه إلى مدينة (بلد) على نهر دجلة، حيث بنى على شاطئه سريراً من الذهب ليجلس عليه، إشارة بما حازه من نصر مؤزر. كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه والي طرسوس (٢٧٦ هـ)، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠ هـ. ولم تقتصر أعمال خمارويه الحربية على ما تقدم، بل اتسع نفوذ مصر في عهده إلى ما وراء ولاية طرسوس، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٧ ـ ٢٧٩ هـ)[2].

وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (سنة ٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (سنة ٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه الذي استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة، وجعلها لأولاده من بعده. وكان من

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٠.
(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩. المقريزي خطط جـ ١ ص ٣١٩.

أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي، ولكن الخليفة اختارها لنفسه.

توفي خمارويه في سنة ٢٨٢ هـ. وكان محباً للترف يبذل الأموال الضخمة على أبهة بلاطه ومبانيه الضخمة ومنتزهاته وغير ذلك. وقد بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار في كل سنة؛ وكانت رواتبهم وأرزاقهم تدفع إليهم بانتظام. هذا إلى ما عرف من خمارويه من كثرة إنفاقه على مطابخه، حتى بلغت نفقاته في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار (٢٧٦٠٠٠ دينار في السنة). ولا شك أن كثرة هذا المبلغ وتسمية مطبخه مطبخ العامة يدلان على أنه نسج على منوال أبيه في حبه للجود والكرم، وشغفه بمد يد المساعدة إلى الفقراء والمعوزين. هذا إلى ما أطلقه من الأرزاق لجواريه وأولاده ومن يقوم بخدمتهم.

زوال الدولة الطولونية (٢٨٢ ـ ٢٩٢ هـ):

ولي مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشر سنين، لم تستفد البلاد فيها شيئاً غير انتشار الفوضى، وتألب الجند وتنازع السلطة بين المتنافسين، وانتصار الجند لفريق دون فريق. ذلك أنه لما توفي خمارويه بدمشق (ذي القعدة ٢٨٢ هـ) عاد ابنه أبو العساكر جيش إلى مصر، حيث أخذ الناس عليه أموراً أثارتهم عليه، فاستوحش من كبار الجند وتنكر لهم، فعملوا على الكيد له والخلاص منه، وفر بعضهم إلى الخليفة العباسي. وخلع طاعته طغج بن جف (أبو محمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر) عامل دمشق. وقد آلى جيش على نفسه ليشعلن نار الفتن والثورات، فقتل عمه مضر بن أحمد بن طولون، فوثب عليه الجند وخلعوه، ثم جمعوا الفقهاء والقضاة فتبرءوا من بيعته، وانضموا إلى الجند في خلعه (١٥ جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ). وذلك بعد نيف وستة أشهر من ولايته، فظل في سجنه إلى أن مات بعد أيام.

اجتمع الجند يوم خلع جيش وولوا ـ على ما جرت به العادة في ذلك الوقت ـ أبا موسى هارون بن خمارويه. وكان صغيراً لم تزد سنه على الرابعة عشرة، فلم يكن يصلح للولاية والحكم. وربما كان ذلك مما دفع بطائفة من الجند إلى عدم الرضا بتوليته، فكاتبوا رجلاً آخر من بني طولون، هو ربيعة بن أحمد بن طولون، وكان في الإسكندرية وطلبوا إليه أن يسير إلى مصر، ووعدوه أن يقوموا بنصرته. فليس من عجب إذا صادفت هذه الدعوة قبولاً في نفس ربيعة الذي جمع من أهل البحيرة ومن البربر وغيرهم جيشاً كثيفاً سار على رأسه

حتى نزل قريباً من الفسطاط. على أن حال هؤلاء القوم مع ربيعة كانت أشبه من بعض الوجوه بحال أهل الكوفة مع الحسين بن علي؛ فقد خذلوا ربيعة وقعدوا عن نصرته، ولم يحولوا على الأقل دون خروج جند هارون الذين قاتلوه وأسروه (شعبان سنة ٢٨٤ هـ) ثم أثخنوه بالسياط حتى إنه ضرب ألفاً ومائتي سوط، ومات تحت الضرب.

لم يفلح المناوئون لحكم هارون فيما دبروه، بل لم تعد نصرتهم لربيعة حد التدبير والكتابة. وفي عهد هارون خرج القرامطة بالشام (٢٩٠ هـ) وكانت تابعة لمصر، فأنفذ والي مصر جيشاً لمحاربتهم، ولم يستطع هذا الجيش إخراجهم من الشام، بل حلت به الهزيمة، وأدى هذا الضعف إلى تجديد رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى سلطانها المطلق، فبعث الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها من هارون[١]، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل هذه البلاد، ثم واصل السير إلى فلسطين. وخرج هارون بن خمارويه لدفع ابن سليمان عن دخول مصر، وسير المراكب الحربية لقتاله. وفي تنيس التقى الأسطولان العباسي والمصري، فحلت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط في يد محمد بن سليمان.

رأى هارون أنه لا طاقة له بهزيمة الجيش العباسي، فصمم على الفرار، ولجأ إلى العباسة[٢]، ومعه أهله وأعمامه ونفر يسير من جنده. وفي هذا المكان قتله عماه شيبان وعدي ابنا أحمد بن طولون، وهو منشغل باللهو ثمل بالخمر (صفر سنة ٢٩٢ هـ)، ولم يناهز حينذاك الثانية والعشرين من عمره.

هكذا انتهت ولاية هارون الذي قتل على يد عميه، فكان طبيعياً إذا أن يؤول أمر هذه الولاية إلى أحد قتلته. وقد آلت فعلاً إلى عمه شيبان الذي لم يلبث أن سار إلى الفسطاط

---

(١) الطبري ٢: ٢٢٥١ ـ ٢٢٥٢.

(٢) قال ياقوت في معجمه: هي بليدة أول ما يلقي القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، ذات نخل طوال وقد عمرت في أيامنا، لأن الملك الكامل بن العادل بن أيوب جعلها من متنزهاته وكان يكثر الخروج إليها للصيد، لأن إلى جانبها مما يلي البرية مستنقع ماء يأوى إليه طير كثير، فهو يخرج إليها للصيد، بينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً. سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون التي صحبت قطر الندى ابنة أخيها خمارويه في طريقها إلى بغداد لتزف إلى الخليفة المعتضد العباسي. وفي هذا الموضع عملت عباسة قصراً أحكمت بناءه، وفيه ودعت ابنة أخيها، ومن ثم عمر ذلك المكان المنفر، وصار بلداً فكان يقال له قصر عباسة، ثم أطلق عليه فيما بعد عباسة فقط، ويطلق الآن على بلدة بجوار الزقازيق.

ليتسلم مقاليد هذه الولاية. بيد أن هذا العمل لم يرض الجند، بل أغضبهم بمقدار ما أغضبهم قتل مضر بن أحمد بن طولون على يد ابن أخيه جيش بن خمارويه من قبل. وأنكر القواد والجند جميعاً ما أتاه شيبان وأخوه، ولم يعترفوا بولاية شيبان، وكاتبوا محمد بن سليمان وطلبوا منه المسير إلى مصر، فسار حتى نزل العباسة حيث لقيه طغج بن جف في جميع كثير من القواد، وصحبوه إلى الفسطاط. وهنا انضم إليهم أصحاب شيبان الذي لم يجد بداً من طلب الأمان من محمد بن سليمان. وفي شهر ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ خرج شيبان، ولم يكن قد مضى على ولايته غير اثني عشر يوماً، ودخل القائد العباسي مدينة القطائع، وألقى فيها النار، ونهبت رجاله الفسطاط وكسروا أبواب السجون وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد. وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت هذه البلاد ثماني وثلاثين سنة[١].

على أن الاضطرابات استمرت في هذه البلاد، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها، ثم لاستبداد الأتراك بالسلطة، وضعف مصر نفسها وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج. هذا إلى أن مصر قد تعرضت في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين. الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ. وحاولوا الاستيلاء على مصر مرات لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم. ومقراً لخلافتهم وبسط نفوذهم في الشرق، وظلت مصر على هذه الحال. إلى أن وليها محمد بن طغج الإخشيد. فدخلت في عهده في طور جديد من التقدم والإصلاح[٢].

---

(١) أنظر سقوط الدولة الطولونية في المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٣١٣ وما يليها، وأبا المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ ـ ١٤٣.

(٢) حسن إبراهيم حسن: أنظر كتاب المجمل في التاريخ المصري ص ١٥٢.

الدولة الإخشيدية

(في مصر والشام)

٣٢٣ ـ ٣٥٨/٩٣٥ ـ ٩٦٩

الإخشيديون[1]

	هجرية	ميلادية
١ محمد الإخشيد بن طغج	٣٢٣	٩٣٥
٢ أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	٢٣٤	٩٤٦
٣ أبو الحسن علي بن الإخشيد	٣٤٩	٩٦٠
٤ أبو المسك كافور	٣٥٥	٩٦٦
٥ أبو الفوارس أحمد بن علي	٣٥٧	٩٦٧
	٣٥٨	٩٦٩

الفاطميون

محمد بن طغج[2] الإخشيد (٣٣٢ ـ ٣٣٤ هـ):

كان أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة. وكان كل من ملوكهـ يلقب بالإخشيد. كما يلقب ملك الفرس بكسرى. وملك الروم بقيصر. وملك الحبشـ بالنجاشي.

سار جف جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم. فأكرمه، وأقام معه إلى أن توفي هـذ الخليفة؛ فاتصل بابنه الواثق ثم بأخيه المتوكل. وظل على ذلك إلى أن توفي في نفس الليلة التي قتل فيها المتوكل.

---

(١) Lane - Poole, Muhammdan Dynasties,p.69.

(٢) وتفسير طغج ـ على ما ذكره ابن خلكان ـ عبد الرحمن.

ولما سار جف إلى بغداد بمن بقي من الطولونيين وأنصارهم، سار معه ابنه طغج، فثقل على الوزير العباس بن الحسن، لأنه ترفع عن النزول له والترجل، فأوقع به الوزير عند الخليفة وحبسه مع ابنيه محمد وعبيد الله.

وقد ظل طغج وابناه في الحبس إلى أن توفي سنة ٢٩٤ هـ على ما تقدم؛ فأطلق الوزير ابنيه، فلزما خدمته، وكانا يركبان معه إذا ركب ويقفان بين يديه إذا جلس، وظلا على ذلك إلى اليوم الذي ضرب فيه الحسين بن حمدان الوزير العباس بن الحسن بالسيف على عاتقه. ولم يكن ولدا طغج نسيا الأخذ بثأر أبيهما كما لم يكن ابن حمدان يجهل ما فعله الوزير بطغج. فلما سقط الوزير عن جواده صاح ابن حمدان بولدي طغج ليثأرا لقتل أبيهما، فضربا العباس بالسيف. وهرب ابن حمدان إلى ديار ربيعة، وهرب عبيد الله بن طغج إلى شيراز حيث دخل في خدمة أميرها.

أما طغج بن جف فقد زودنا ابن زولاق بشيء ذي غناء عن سيرته، فذكر لنا أنه ولد له سبعة أولاد من الذكور، أحدهم محمد الإخشيد الذي ولد في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٨ هـ بشارع باب الكوفة ببغداد، ووصفه بالثراء، وسعة العيش[١]. اتصل محمد بن طغج بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام، وقد ذكر ابن سعيد[٢] نقلا عن ابن زولاق أن عبيد الله بن طغج عاد إلى بغداد في أيام الخليفة المقتدر، واتصل بخدمته، وحاز من علو المرتبة ما جعله يفتخر على أخيه الإخشيد، فكان يخرج معه للصيد. ولما ولي ابن بسطام مصر صحبه الإخشيد إليها وبقي معه إلى أن توفي سنة ٢٩٧ هـ، فاتصل بخدمة ابنه أبي القاسم علي، ثم حارب تحت قيادة تكين[٣]، في الموقعة التي دارت بين الجند المصريين وجند حباسة بن يوسف الكناني قائد عبيد الله المهدي الفاطمي في بلاد المغرب. وفي هذه الموقعة أبلى الإخشيد بلاء حسناً، وتوثقت الصلة بينه وبين تكين، فكان يتنقل معه بين الشام ومصر. وقد ولي عمان وجبل الشراة شمالي العقبة سنة ٣٠٦ هـ نيابة عن تكين الذي كان يلي بلاد الشام إذ ذاك، ثم ولاه الإسكندرية في ولايته الثانية على مصر (٣٠٧ - ٣٠٩ هـ)، واشترك في غزوة الفاطميين الثانية على مصر بقيادة القائم بن المهدي وولي عهده.

---

(١) تتجلى في وصفه له روح المبالغة، من ذلك قوله إن خزانة طيبة حملت في إحدى سفراته على أكثر من خمسين جملاً، وإنه كان له بدمشق قبة مشبكة يطيب فيها، فتصل رائحة الطيب إلى أكثر جهات المدينة.

(٢) المغرب في حلى المغرب ص ٧.

(٣) ولي تكين مصر ثلاث مرات هي: ٢٩٧ - ٣٠٢، ٣٠٧ - ٣٠٩، ٣١١ - ٣٢١ هـ.

اشتهر أمر محمد بن طغج في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ، حين ولي إقليم طبرية وجبل الشراة نيابة عن تكين، وذلك على أثر بلائه وإيقاعه بجماعة من لخم وجذام كانوا قد دهموا حاج الشام وجماعة من أهل العراق، منهم جارية أم الخليفة المقتدر. وقد سار الإخشيد بالأسرى إلى دمشق، فحمد له تكين هذا العمل، وكتب أهل العراق بما كان من خلاصهم على يد الإخشيد، فاشتهر أمره، وكتب إليه الناس يشكرون له فعله ويحمدون مروءته.

ولا غرو فقد كان من أثر انتصار محمد بن طغج على جند الفاطميين الذين غزوا مصر (٣٢١ ـ ٣٢٤ هـ)، أن أمر الخليفة العباسي بزيادة «الإخشيد» على اسمه، وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك فرغانة، ودعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ[١].

وقد أعاد الإخشيد النظام والسكينة، ووطد مركزه في مصر والشام، وصد غزوات الفاطميين الذين أرسلوا إلى مصر حملة استمرت ثلاث سنوات (٢٣١ ـ ٣٢٤ هـ) حدثت فيها مناوشات بين جند الفاطميين والمصريين، وانتهت بمعاهدة الصلح.

ويخبرنا الكندي[٢] أنه حدثت في عهد ولاية الإخشيد الثانية (رمضان سنة ٣٢٣ ـ جمادى الثانية سنة ٣٢٤) عدة مواقع انتهت بعقد الصلح بين الفريقين، وانضمام بعض الزعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية، فأرسل إليهم الإخشيد جيشاً هزمهم وأرغمهم على العودة إلى بلادهم.

وكتب القائم الفاطمي إلى الإخشيد بيده كتاباً دونه ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب»[٣]. وإنما فعل القائم ذلك رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لا تفعله سياسة العداوة والحرب التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل.

وقد سادت صلة الوفاق بين الإخشيد والخلافة العباسية إلى سنة ٣٢٨ هـ، حين تبدلت هذه الصلة بمسير محمد بن رائق الخزري إلى الشام يريد مصر بتقليد من الخليفة، مما حدا

---

(١) كتاب الولاة ص ٢٨٨.

(٢) كتاب الولاة ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥، ٢٨٧.

(٣) ص ٣٥ ـ ٣٦ أنظر أيضاً «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف (القاهرة ١٩٥٨) ص ٨٣ ـ ٨٤.

بالإخشيد إلى إلغاء الخطبة للخليفة العباسي وذكر اسم الخليفة الفاطمي محل اسمه في الخطبة، أو على الأقل إلى وقف الدعوة للخليفة العباسي ردحاً من الزمن.

وفي هذه السنة وقعت الحرب في العريش بين الإخشيد وابن رائق، الذي استولى على دمشق من قبل، فمضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة. وعلى الرغم من قتل عبيد الله بن طغج أخي الإخشيد، عقد الصلح على ما يحب ابن رائق، فتقلد ولاية الأراضي الشآمية الواقعة شمالي الرملة؛ وتعهد الإخشيد بأن يدفع إليه ١٤٠,٠٠٠ دينار جزية سنوية، مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعد عقد الإخشيد الصلح على هذه الصورة مع انتصاره على خصمه دليلاً على ضعف سياسته.

على أننا نرى في عمله هذا ما يبرره نظراً للأحوال التي كانت تربط به، لأنه كان يخشى أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، على الرغم من انتصاره في هذه المرة، ولأنه كان يخشى خصماً آخر يهدده من ناحية مصر الغربية، وهو الخليفة الفاطمي.

بيد أن وفاة ابن رائق بعد الصلح سنتين أعادت إلى حوزة الإخشيد كل بلاد الشام من غير حرب، ودخلت مكة والمدينة تحت سيادة مصر، وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور.

غير أن الأمر لم يكن قد استتب للإخشيد بعد، لخروج العلويين عليه في مصر؛ ومناوأة الحمدانيين الذين استولوا على قنسرين والعواصم سنة ٣٣٢ هـ؛ فولاها ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان[1]. ثم سار الإخشيد إلى الشام، فانتهز ابن السراج العلوي[2] هذه الفرصة وسار إلى الصعيد ونهب بعض بلاده. ولكن قوته لم تكن بالتي تديل دولاً وتقيم أخرى؛ فسرعان ما سار إلى برقة ودخل في سلطان الخليفة[3].

وقد ساءت العلاقة بين الإخشيدين وسيف الدولة الحمداني على أثر استيلائه على حلب. واضطر الإخشيد إلى عقد الصلح الذي يقضي بترك حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً للحمدانيين، وتعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق.

---

(١) أبو المحاسن ج ٣ ص ٢٨٠.

(٢) هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن موسى بن علي بن أبي طالب.

(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٩١.

وصاية كافور على أولاد الإخشيد:

ولما شعر الإخشيد بدنو أجله، عهد إلى كافور بالوصاية على ولده أبي القاسم أنوجور. وقد مات الإخشيد بدمشق في ٢٤ ذي القعدة سنة ٣٣٩ هـ (يولية سنة ٩٤٦ م)، وهو في السادسة والستين من عمره، ونقل إلى بيت المقدس، ودفن بها بعد أن ولي مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين. فخلفه ابناه أبو القاسم أنوجور ثم أبو الحسن علي ولا نستطيع الحكم عليها، إذ لم تترك لهما الفرصة الكافية لإظهار كفايتهما حتى ماتا في غموض تام لم يشعر بولايتهما أحد. وكان أنوجور في ذلك الحين لا يزال طفلاً لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره، فقام بتدبير أمره كافور الإخشيد، الذي بقيت علاقته بهذا الوالي الجديد على ما كانت عليه من قبل، وهي علاقة الأستاذ بالتلميذ؛ وأصبح كافور بذلك صاحب السلطان المطلق في إدارة الدولة الإخشيدية[١]، «وبقي الاسم لأبي القاسم والدست[٢] لكافور»[٣].

وقام في وجه كافور في مبدأ حكمه بعض المشاكل الداخلية والخارجية: فنجح في القضاء على ثورة قام بها أهل مصر، فارتفع شأنه عند الناس على اختلافهم[٤]. وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام واستيلاء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب على دمشق وبأنه عول على المسير إلى الرملة لغزو مصر، فحاربه كافور وانتصر عليه انتصاراً حاسماً بالقرب من مرج عذرا بجوار دمشق، ودخل الجيش المصري مدينة حلب، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح، بنفس الشروط التي عقدت بها في أواخر أيام الإخشيدي، ما عدا الجزية التي وقف دفعها.

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرسوس. وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية. وخاطبه علية القوم بالأستاذ، وذكر اسمه في

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٤. ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ص ١٤٥ تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٩٣.

(٢) معناه الديوان ومجلس الوزراء والرياسة. راجع كتاب شفاء الغليل.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢.

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢.

الخطبة، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين[١].

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته ظهرت الوحشة بينه وبين كافور. وانقسم الجند فريقين: الإخشيدية، وهم مماليك الأسرة الإخشيدية وأنصارها. والكافورية وهم أنصار كافور الذين رقاهم إلى المناصب العالية في الدولة. ومع ذلك ظل كافور على ما هو عليه يصرف لابن سيده راتباً سنوياً قدره أربعمائة ألف دينار.

ولا شك أن كافوراً كان مشغوفاً بالإمارة ولوعاً بالسلطة، فإنه لما تولى أبو الحسن علي بن الإخشيد بعد أخيه أنوجور، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه، على الرغم من أن الوالي الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، بل إنه حرمه كل عمل، ومنع الناس من الاجتماع به، فأصبح أبو الحسن أسيراً في قصره لا عمل له إلا الصلاة أو اللهو، وعين له كافور ـ كما عين لأخيه من قبل ـ أربعمائة ألف دينار في كل سنة، وبقي أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ بالعلة التي مات بها أخوه من قبل.

وكان الوارث للعرش ولداً صغيراً يدعى أحمد بن أبي الحسن علي، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه؛ وبقيت مصر بغير أمير نحواً من شهر. وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده على ولاية مصر، وأظهر الخلع التي وصلت إليه من الخليفة، فنودي به والياً على مصر وما يليها من البلاد، فلم يتغير لقبه «الأستاذ»، ودعي له بعد الخليفة على المنابر[٢].

ظل كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر ٣٥٥ هـ ـ ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ). ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسود، توالت فيه المصائب على مصر، فقد تعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تتألف من عشرين ألف رجل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج (سنة ٣٥٥ هـ)، ووقعت بمصر زلازل مروعة، وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة، وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٤٧.
(٢) المغرب في حلى المغرب ص ٤٦، ٤٩، نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن سعد القرطي.

الأول وأخميم، فأحرق بعض المدن وقتل أهليها بالسيف ونهب أموالهم. وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل.

وفي عهد كافور حاول المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين العودة لغزو مصر، وسار بجيشه إلى حدود هذه البلاد الغربية، ووصل إلى الواحات. فجهز إليه كافور جيشاً لوقف تيار تقدمه وطرده. ولكنه تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته والاعتراف بسيادته، ووعد كثير من رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي.

روى أبو المحاسن[١] عن الذهبي: «وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الحرمة، وله حجاب، وله جوارٍ مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف. زاد ملكه على مولاه الإخشيد. وكان كثير الخلع والهبات، خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً، جيد العقل داهية. كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخادع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الأمر».

وقد نبغ بمصر في عهد كافور الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين، ومن أشهرهم القاضي أبو بكر بن الحداد، وتلميذه محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري، وأبو عمر الكندي، والحسن بن زولاق.

توفي كافور بمصر في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ. وعاش بضعاً وستين سنة، وكانت إمارته على مصر ثلاثاً وعشرين سنة، استقل منها بالملك سنتين وأربعة شهور. خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به، وكتب على قبره:

ما لقبرِكَ يا كافورُ منفرداً ... بالصَّحْصَح المَرْتِ بعد العسكر اللَّجِب
يدرس قبرك آحاد الرجال وقد ... كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

ولما توفي كافور، اختار رجال البلاط أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد والياً على هذه البلاد؛ وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، فعينوا الحسن بن عبيد الله بن طغج -

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٦.

والي الشام ـ وصياً عليه. غير أنه لم يلبث أن استبد بالأمر وأساء معاملة الأهلين، فسخط عليه المصريون، واضطر أخيراً إلى العودة إلى بلاد الشام. وقد انتهز المعز لدين الله الفاطمي فرصة هذا الاضطراب الذي فشا في مصر، وضعف بغداد عن الدفاع عنها، لاشتغالها بصد غارات البيزنطيين الذين توغلوا في بلاد الدولة العباسية. فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ.

الدولة الفاطمية

(في بلاد المغرب ومصر)

٢٩٧ - ٥٦٧/٩٠٩ - ١١٧١

الخلفاء الفاطميون[١]

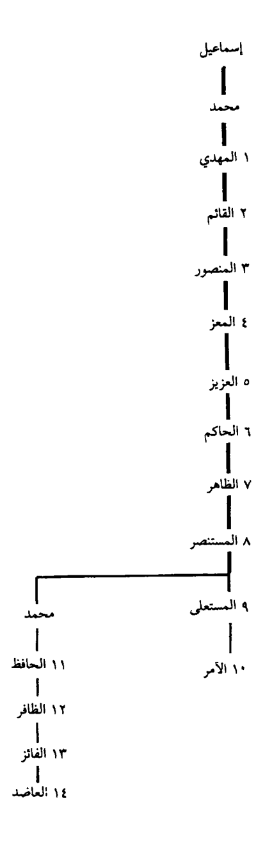
	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ المهدي أبو محمد عبيد الله	٢٩٧	٩٠٩	٨ المستنصر أبو تميم معد	٤٢٧	١٠٣٥
٢ القائم أبو القاسم محمد	٣٢٢	٩٣٤	٩ المستعلي أبو القاسم أحمد	٤٨٧	١٠٩٤
٣ المنصور أبو طاهر إسماعيل	٣٣٤	٩٤٥	١٠ الآمر أبو علي المنصور	٤٩٥	١١٠١
٤ المعز أبو تميم معد	٣٤١	٩٥٢	١١ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	٥٢٤	١١٣٠
٥ العزيز أبو منصور نزار	٣٦٥	٩٧٥	١٢ الظافر أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	١١٤٩
٦ الحاكم أبو علي المنصور	٣٨٦	٩٩٦	١٣ الفائز أبو القاسم عيسى	٥٤٩	١١٥٤
٧ الظاهر أبو الحسن علي	٤١١	١٠٣٠	١٤ العاضد أبو محمد عبد الله	٥٥٥	١١٦٠
				٥٦٧	١١٧١

(الأيوبيون)

---

(١) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties. pp.11 - 12.

جدول الخلفاء الفاطميين



عبيد الله المهدي (٢٩٦ ـ ٣٢٢ هـ):

ذهب المؤرخون في نسب الفاطميين مذاهب شتى: فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومن ثم سموا الإسماعيلية أيضاً؛ وبعضهم ينكر صحة نسبهم إلى إسماعيل، ويقول إنهم يرجعون في نسبهم إلى رجل فارسي هو عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي، الثنوي المذهب، الذي يقول بوجود إلهين إثنين: إله النور وإله الظلمة.

ولد سعيد بن محمد الحبيب في سنة ٢٥٩ هـ (وقيل سنة ٢٦٠)[١] في سلمية، التي اتخذها الإسماعيلية مركزاً لدعوتهم. وكان أبوه قد أرسل في سنة ٢٧٠ هـ أحد أشياعه، ويسمى رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي، إلى بلاد اليمن، لنشر الدعوة للفاطميين فيها. وسرعان ما اعتقد أهالي اليمن في المهدي من آل علي وانتظروا ظهوره، بفضل جهود ابن حوشب الذي ابتنى حصناً بجبل لاعة باليمن، وتغلب على معظم أرجائها. وبعث دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب. ولما اتصل بابن حوشب موت الحلواني وأبي سفيان داعي الإسماعيلية في بلاد المغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي، وكان من صنعاء، بنشر الدعوة في هذه البلاد. ولما استقر بأبي عبد الله الشيعي المقام وصادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح، أرسل إلى سلمية يدعو عبيد الله المهدي للحضور إلى إفريقية[٢]؛ فرحب بهذه الدعوة. ولكن الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) علم ذلك، فأمر بالقبض عليه.

من ذلك نقف على مدى الصعاب التي لقيها عبيد الله المهدي في طريقه إلى المغرب، وكيف أفلت من القبض عليه في مصر حيث ظهر في زي التجار، وكيف استغل الأموال الكثيرة التي حملها معه من سلمية في رشوة بعض الولاة في طريقه إلى المغرب ليأمن الوقوع في أيديهم، وكيف أفلت من أيدي عمال زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية الذي وضع الأرصاد والعيون للقبض عليه. ولكن اليسع بن مدرار أمين سجلماسة، سرعان ما قبض على عبيد الله المهدي وحبسه[٣]. ثم أخذ أبو عبد الله يواصل فتوحه، على الرغم من

---

(١) قال ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٢) وكانت ولادته في سنة ٢٥٩ هـ، وقيل سنة ٢٦٠ هـ بمدينة سلمية، قيل بالكوفة، ودعي له بالخلافة على منابر مدينة وقادة في شهر ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ.

(٢) غريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٥٢. هـ.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣ ـ ١٤.

وقوع المهدي في يد اليسع، ويمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب، واستطاع أخيراً أن يدخل رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) التي اتخذها إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) مقراً لإمارته، ويستقر في دار الإمارة، ويزيل نفوذ الأغالبة، ويبطل اسم الخليفة العباسي من الخطبة(١).

ظل عبيد الله المهدي في حبسه بسجلماسة حتى تمَّ لداعي الشيعة الفتح والنصر، فسار في قوة كبيرة إلى هذه المدينة. ولما سمع اليسع بن مدرار بوصول أبي عبد الله الشيعي إليها، هرب ليلاً، وحمل معه أقاربه وأمتعته، وأطلق داعي الشيعة عبيد الله المهدي من سجنه (٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ).

قرب المهدي من القيروان، حيث سلم عليه أهلها بالخلافة، وبايعوه على الطاعة، وذكر اسمه في الخطبة، وتلقب «المهدي أمير المؤمنين». ولم يلبث أن قسم على رؤساء كتامة الذين ساعدوا على إقامة دولته، أعمال هذه الدولة، ثم دوَّن الدواوين، وجبى الأموال، واستقرت قدمه في هذه البلاد.

ولم يكتف عبيد الله المهدي بما أحرزته جيوشه من نصر وظفر وما استولت عليه من بلاد، بل عمل على مد سلطانه إلى مصر، وعلى أثر تأسيس دولته في القيروان، وضع الخطط لتحقيق سياسته، وأعد في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيشاً من المغاربة تحت قيادة ولي عهده أبي القاسم، وحُباسة بن يوسف، أحد زعماء كتامة، واستولى هذا الجيش على برقة، ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وسار إلى الوجه البحري.

ولكن الخليفة المقتدر العباسي بعث مؤنساً الخادم(٢) على رأس جيش كبير، قيل إنه بلغ أربعين ألفاً، أحل الهزيمة بالجيش الفاطمي وأرغمه على العودة إلى المغرب(٣). وفي سنة ٣٠٧ هـ سار إلى مصر جيش آخر بقيادة أبي القاسم بن المهدي واستولى على الإسكندرية فأرسل الخليفة العباسي مؤنساً الخادم فألحق الهزيمة بالفاطميين، وأحرق كثيراً من مراكبهم، وأرغمهم على العودة إلى بلادهم (سنة ٣٠٩)(٤). ويقول الكندي(٥) عن

(١) حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣ - ٥٦.
(٢) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ٣٦.
(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٦٨ - ٢٧٣. المقريزي. إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ص ٤١.
(٤) غريب بن سعد. صلة تاريخ الطبري ص ٨٣ - ٨٦. الكندي. كتاب الولاة ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٥) كتاب الولاة ص ٢٨١ - ٢٨٧.

الحملة الفاطمية الثالثة على مصر، إنها ظلت ثلاث سنين (٣٢١ - ٣٢٤ هـ)، وإن معاهدة الصلح أبرمت بين الفريقين في سنة ٣٢٣ هـ، ولكن هذا الصلح لم يطل أمده. فقد انضم بعض زعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤ هـ، فبعث إليهم الإخشيد جيشاً أحل بهم الهزيمة وأرغمهم على العودة إلى بلادهم[١].

أقام عبيد الله المهدي بالقيروان التي اتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٤ هـ، حيث اختط مدينة المهدية على بعد مرحلتين جنوبي القيروان. وقد ظلت هذه المدينة آهلة بالسكان إلى سنة ٥٤٣ هـ. حين أرسل روجر النرمندي صاحب صقلية أحد قواده فاستولى عليها، وبقيت في أيدي الفرنجة إلى أن استولى عليها عبد المؤمن في سنة ٥٥٥ هـ. ومات عبيد الله المهدي في سنة ٣٢٢ هـ.

القائم والمنصور (٣٢٢ - ٣٤١ هـ):

ولي أبو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدي، وتلقب القائم. وكان كغيره من الخلفاء الفاطميين، ينقم على السنيين، حتى إنه أمر بلعن الصحابة، وقد أثار ذلك غضب المغاربة وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين، وكان أشد هذه الثورات خطراً وأشدها بلاء، تلك الثورة التي أشعل نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد، والتي استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد إلا في عهد ابنه المنصور.

توفي القائم في شهر رمضان سنة ٣٣٤ هـ، وخلفه ابنه أبو الظاهر إسماعيل الذي تلقب المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ وقد ولد بالقيروان سنة ٣٠٢ هـ وقيل ٣٠١ هـ)، وكان حين ولي الخلافة في الثانية والعشرين من عمره. وقد اشتهر الخليفة الجديد بالشجاعة ورباطة الجأش، كما استطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب[٢].

وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لا يؤثر ذلك في حماسة جيوشه التي كانت مشغولة بثورة أبي يزيد، وانقطعت العلاقات بين مصر وبلاد المغرب طوال عهد هذا الخليفة، لأنه

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٩٨. ابن خلدون. العبر جـ ٤ ص ٣٩.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٧.

قصر كل همه وأنفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التي شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية.

ولما ولي المنصور الخلافة قويت جيوشه بانضمام صنهاجة وغيرها إليه، واستطاع أن يهزم جيوش أبي يزيد، وطارده إلى الصحراء، وقبض عليه، وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً من جراحه (المحرم ٣٣٦ هـ)[1].

وقد قضى المنصور البقية الباقية من خلافته في إعادة تنظيم بلاده، فأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورية (٣٣٧ هـ) على مقربة من القيروان، واتخذها حاضرة لدولته، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين، إلى أن قدم ابنه المعز لدين الله مصر في سنة ٣٦٢ هـ، واتخذ القاهرة التي بناها جوهر (٣٥٨ هـ) حاضرة لدولته.

ويرجع الفضل فيما أحرزه المنصور من نصر على أبي يزيد إلى شجاعته وإقدامه، وإلى فصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب. وقد حكم سبع سنين وستة أيام، ومات في يوم الجمعة آخر شوال سنة ٣٤١ هـ، ودفن بالمهدية. وقد قيل في سبب موته إنه خرج من المنصورية حاضرة ملكه للتنزه، فاشتد هطول المطر وهبوب الريح، حتى فاجأه المرض وأوهن جسمه ومات أكثر من كان معه. ولما دخل المنصورية أراد أن يدخل الحمام، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، فاشتد عليه المرض ولازمه الأرق. فأعطاه منوماً فمات[2].

المعز لدين الله: (٣٤١ - ٣٦٥ هـ):

كان المعز مثقفاً يجيد عدة لغات: منها اللغة التليانية التي تعلمها في صباه بجزيرة صقلية، واللغة الصقلية التي كانت منتشرة في هذه الجزيرة، كما عرف اللغة السودانية. وكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب[3]، فضلاً عما عرف به حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل.

(١) راجع ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٠ - ١٥٨، والمقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٤٥ - ٥٥ و٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب: ج ٢ ص ٢٢٤ - ٣٢٦، وابن أبي دينار: المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩ - ٦١، حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٢.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧.

(٣) المقريزي. اتعاظ الحنفا ص ٦١، ٦٥.

وفي عهده دانت له قبائل البربر كافة، ولا سيما قبيلتا بني كملان وبني مليلة من قبائل هوارة، وقد ابتا أن تذعنا للخلفاء الفاطميين من قبله. ويرجع الفضل في امتداد نفوذه على كافة بلاد المغرب إلى جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي. وقد بعث هذا الخليفة جوهراً على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة لفتح ما بقي من بلاد المغرب. فوصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وأرسل إلى مولاه المعز هدية من سمك هذا المحيط إشعاراً ببلوغ نفوذه أقصى بلاد المغرب غرباً.

ولما دانت بلاد المغرب للمعز فكر في فتح مصر. ولا غرو فقد حاول الفاطميون فتح هذه البلاد من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها، وأهمية موقعها الجغرافي من الناحيتين السياسية والحربية، وقربها من بلاد الشام وفلسطين والحجاز، التي كانت تابعة لمصر منذ عهد الطولونيين. ذلك إلى أن نجاح الفاطميين في فتح مصر يسهل عليهم الاستيلاء على المراكز الإسلامية القديمة، وهي المدينة المنورة، ودمشق، وبغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين.

ومن العوامل التي شجعت المعز على فتح مصر، استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد ثورة أبي يزيد، وانتشار الاضطرابات والفوضى في مصر إثر وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ، وضعف الخلافة العباسية واشتغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها. أضف إلى ذلك تأييد الشيعيين في مصر للدعوة الفاطمية، حتى إنهم كتبوا إلى المعز يطلبون إليه إرسال جيش لفتح هذه البلاد. وكان ليعقوب بن كلس الذي استوزره كافور ثم هرب إلى بلاد المغرب واتصل بالمعز، أثر كبير في بيان حالة الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور؛ وحث الخليفة على المبادرة بإرسال جيوشه إليها.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ، سار جوهر نحو مصر[١]، ومر على برقة، ثم استأنف المسير إلى الإسكندرية، ففتحت له أبوابها من غير مقاومة، ومنع جنده من التعرض للأهلين، واستطاع أن يكبح جماح عساكره الذين وسعت لهم الأرزاق[٢].

ولما اتصل بأهل الفسطاط نبأ وصول جيوش الفاطميين إلى الإسكندرية واستيلائهم عليها، ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر في الصلح. فأجابه جوهر إلى ما طلب

---

(١) ابن خلكان: ج ١ ص ١٤٨.

(٢) يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا ص ١٣٢.

وكتب له عهداً تعهد فيه بأن يطلق للمصريين حرية العقيدة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس بحماية مصر من عدوان المغيرين عليها[١].

ولما اتصل بالخليفة المعز نبأ فتح مصر، سر سروراً عظيماً، وأنشده شاعره محمد بن هانىء الأندلسي قصيدة طويلة جاء في مطلعها:

تقول بنو العباسِ هَل فُتِحَتْ مصرُ ... فقلْ لبني العباس قد قضِيَ الأمْر[٢]

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين عن مصر، وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية، وتحقق حلم الخليفة المعز ومن جاء قبله من الخلفاء الفاطميين، في تحويل حاضرة خلافتهم إلى مصر واتخاذها مركز إمبراطوريتهم الشاسعة الأرجاء[٣].

وجه جوهر همه لمد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت تابعة لمصر منذ أيام الطولونيين. لذلك عهد إلى جعفر بن فلاح أحد قواد المغاربة من قبيلة كتامة بهذا الفتح، لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة، ولأن جوهراً أراد بذلك أن يبعده عن مصر حتى لا ينافسه في حكمها. ولما وصل جعفر إلى الرملة، لقيه جيش الحسن بن عبيد الله بن طغج والي الرملة ودمشق، ودارت الدائرة على الحسن، وأسر مع كثير من جنده. وسيق إلى الفسطاط، ثم أرسل إلى بلاد المغرب، فبقي بها إلى أن مات في سنة ٣٧١ هـ.

استأنف جعفر السير إلى طبرية واستولى عليها من يد واليها فاتك الذي كان يليها من قبل الإخشيديين، دون أن يلقى مقاومة تذكر. ثم دخل دمشق، وأشعل النار في أسواقها وأذكى الفتنة بين أهلها الذين لعنوا الفاطميين على المنابر، ولكنهم لم يجدوا بدًّا من طلب الأمان من جعفر الذي خطب للخليفة المعز الفاطمي على منابر دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ.

وقد أثار جعفر نفوس أهل الشام فلم يخلصوا له، واستمروا يدبرون الفتن والمؤامرات للخلاص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني، واستنجدوا بالقرامطة والأتراك الذين تفاقم خطرهم في عهد المعز، ولم يتم القضاء عليهم إلا في عهد ابنه العزيز.

(١) راجع هذا العهد في المقريزي. اتعاظ الحنفا ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) ديوان ابن هانىء ص ٨٦.
(٣) راجع حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وبعد أن فرغ جوهر من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر وإقامة الدعوة الفاطمية في فلسطين والشام والحجاز؛ بعث إلى مولاه المعز رسولاً ينبئه بذلك، فسر سروراً عظيماً، وخرج من المنصورية حاضرة خلافته، فوصل إلى سردانية التي دانت هي وصقلية لسيادة الفاطميين، واستخلف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية، «وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار»[1]، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله.

دخل المعز الإسكندرية في ٤ من شعبان ٣٦٢ هـ (٣٠ مايو ٩٧٣ م)، ثم دخل القاهرة في ٧ من رمضان ٣٦٢ هـ (١١ يونية ٩٧٣ م)، ودخل القصر الذي بناه له جوهر وخر ساجداً لله تعالى، وصلى ركعتين في إحدى ردهاته وصلى خلفه من كان معه.

وأقام أولاد المعز وحاشيته وخدمه وعبيده معه في القصر، وكان جوهر قد أعد به كل ما يحتاج إليه الملوك، ونزل جوهر بقصر الوزارة في القاهرة[2].

وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وغدت القاهرة، بدل المنصورية، مركز الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء.

على أن نقل المعز مقر خلافته من المنصورية إلى القاهرة أفقد الفاطميين إفريقية (تونس)؛ فاستقل بلكين بن زيري بن مناد شيخ صنهاجة، وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ، وحذا حذوه الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ وتقلص ظل الحكم الفاطمي عن كل بلاد المغرب في عهد المستنصر الفاطمي.

وقد تسلم المعز مقاليد الحكم من جوهر الذي حكم مصر أربع سنين؛ ثم أخذ يتوارى عن مسرح السياسة المصرية، ولم يعد إلى الظهور إلا في أواخر سنة ٣٦٤ هـ حين تفاقم خطر الأتراك بزعامة أفتكين، وخطر القرامطة بزعامة الحسن بن أحمد، واستعصى على المعز كبح جماحهما، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه.

قضى المعز الشطر الأكبر من خلافته في بلاد المغرب، ولم يبق في مصر أكثر من

---

(١) ابن خلكان: جـ ٢ ص ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

سنتين إلا قليلاً. وقد توفي المعز في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ بعد أن حكم أربعاً وعشرين سنة.

العزيز بالله: (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ):

يعتبر عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي عهد يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة، ولا غرو فهو أول من حول الجامع الأزهر إلى جامعة بمعناها المعروف الآن بعد أن كان معهداً خاصاً بدراسة الفقه الشيعي وإقامة الصلاة.

ولد أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله في يوم الخميس ١٤ المحرم سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهدية التي بناها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية، وقدم القاهرة مع أبيه المعز في سنة ٣٦٢ هـ، وخلفه في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو في الثانية والعشرين من عمره.

وقد ترامت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز من بلاد العرب شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً. وزادت مملكته ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ١٥٣) ـ على مملكة أبيه، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب أبوابها، وخطب له المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل بالموصل وأعمالها في سنة ٣٨٢ هـ، وضرب اسمه على السكة والبنود وخطب له باليمن.

وفي أيام العزيز تفاقم خطر القرامطة وأفتكين ببلاد الشام، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المعز من قبل. ولم يكد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين، وكانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين؛ فوجه جوهر الصقلي. ولكنه لم يستطع استردادهما، وعاد إلى مصر، وأشار على العزيز بحرب أفتكين والقرامطة بنفسه، فالتقى العزيز بجيوشهما في الرملة، ودارت الدائرة أخيراً على القرامطة وأفتكين (المحرم سنة ٣٦٨ هـ). وبذلك قضى الخليفة الفاطمي على هذه الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية الفتية، وفر أفتكين على فرس له فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل الخليفة الفاطمي لمن يأتي به مائة ألف دينار، ولكن العزيز عفا عنه وأغدق عليه.

وقد وجه الفاطميون في عهد العزيز اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي؛ وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين؛ أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار

الفاطميين، وعزل أبو الطاهر القاضي السني وعين مكانه عبد العزيز بن النعمان القاضي المغربي الفاطمي المذهب. وقلد العزيز يعقوب بن كلس الوزارة (رمضان سنة ٣٦٨ هـ) فأدار شئون الدولة الفاطمية بمهارة وحمية.

وقد بنى الخليفة العزيز كثيراً من المنشآت التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده منها القصر الغربي، واهتم ببناء المساجد، فأسس في سنة ٣٨٠ هـ مسجداً أتمه ابنه الحاكم فنسب إليه، وأسس قاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك، وبنت الملكة تغريد زوجة المعز في عهده مسجد القرافة وقصر القرافة.

وفي عهد العزيز نبغ طائفة من الشعراء والكتّاب والأطباء والمؤرخين: ومن الشعراء أبو حامد الأنطاكي الذي أقام بمصر زمناً طويلاً، ونظم معظم قصائده في مدح المعز والعزيز والحاكم، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس. ونبغ في الطب علي بن رضوان الذي ألف عدة كتب في الطب والفلسفة والمنطق، ونبغ في التاريخ الحسن بن إبراهيم بن زولاق الذي يعتبر حجة في تاريخ العصر الفاطمي الأول، وأبو الحسن علي الشابشتي الذي ولاه العزيز خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه.

وكان العزيز رجلاً ممتعاً يميل إلى الأبهة. كما كان خبيراً بالجواهر ابتدع نوعاً جديداً من العمائم محلاة بخيوط الذهب، وسروجاً معطرة بالعنبر، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده، وشغف ـ كخمارويه بن أحمد بن طولون ـ بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان. وكان مغرماً بالصيد، وخاصة السباع[1] وكان ذكياً أديباً مستنيراً، يجيد عدة لغات كأبيه المعز.

وكان العزيز فوق ذلك كريماً محباً للعفو، وصنيعه مع أفتكين التركي خير مثل لذلك واشتهر العزيز بالتسامح الديني، فكان يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه من قبله. وتزوج بنصرانية. وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية، وقلد عيسى بن نسطورس النصراني الوزارة، كما عين منشأ بن إبراهيم اليهودي بلاد الشام[2].

ومات العزيز ببلبيس سنة ٣٨٦ هـ. وهو في الرابعة والأربعين من عمره[3].

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٥٢.

(٢) أبو صالح الأرمني، كنائس وأديرة مصر ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) ذكر ابن القلانسي (ص ٤٢) أنه ولد في القيروان سنة ٥٤١ هـ، وأن مدة خلافته إحدى وعشرون سنة، وهو خطأ واضح.

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ):

ولد أبو علي المنصور في شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ، وعهد إليه أبوه بالخلافة من بعده في سنة ٣٨٣ هـ، ثم بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه، وذلك في رمضان ٣٨٦ هـ، وله إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم. ويمكن تقسيم عهد الحاكم أربعة أقسام:

الأول من سنة ٣٨٦ إلى سنة ٣٩٠؛ وكان الحاكم في هذه المدة لا يملك من أمور السلطان شيئاً، إذ كانت كل السلطة في يد ابن عمار ثم في يد برجوان.

الثاني من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٣٩٥ هـ، وفيها كان للحاكم على حداثة سنه سلطة كبيرة أظهر فيها تعصباً شديداً للمذهب الفاطمي؛ وبذلك اضطهد أهل الذمة من ناحية والمسلمين من غير الشيعيين من ناحية أخرى[1].

الثالث من سنة ٣٩٦ إلى سنة ٤٠١ هـ. وفي هذه الفترة بدل الحاكم سياسة التعصب مدفوعاً بعاملين هما تحديد حدود مصر من ناحية الغرب، حتى أغار عليها أبو ركوة، الذي ادعى النسب للأمويين في الأندلس، بجيش كبير من المغاربة، وأعلن أنه أحق بامتلاك مصر من الفاطميين. وقد لاقى الحاكم صعوبة كبيرة في القضاء على أبي ركوة، حتى أسر وصلب على أحد أبواب القاهرة. أما العامل الثاني فهو ما قامت به مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ ـ ٤٠١ هـ)[2].

الرابع من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤١١ هـ. وفيها كانت سياسة الحاكم تمتاز مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم بعنف كثير كما كانت تمتاز بشيء من التذبذب والاضطراب[3].

على أن سياسة الحاكم هذه، وإن كانت قد أثارت سخط المصريين عامة، ساعدت على إقرار الأمن والمحافظة على الآداب العامة، وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده. وفي عهده ظهرت طائفة الدرزية التي دعت إلى الاعتقاد بألوهيته، مما أثار بينه وبين السنيين ذلك النزاع الذي انتهى بقتله في سنة ٤١١ هـ.

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٥٦، ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) المقريزي. خطط ج ١ ص ٢٨٧.

(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان ص ١٢٦.

وقد أنشىء في عهد الحاكم دار الحكمة التي كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين، وألحق بها مكتبة أطلق عليها دار العلم، حوت كثيراً من أمهات الكتب مما ألف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية.

الظاهر والمستنصر (٤١١ ـ ٤٨٧ هـ):

ولد أبو الحسن الظاهر في شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ، وولي الخلافة بعد قتل أبيه بأيام (شوال ٤١١ هـ)، وقد قامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في الفترة الأولى من حكمه، فأظهرت كفاية ممتازة في إدارة شئون البلاد، وبذلت العطاء للجند، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت في سنة ٤١٥ هـ.

وكان الظاهر سمحاً، عاقلاً، لين العريكة استطاع بحسن سياسته أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فتمتعوا في عهده بالحرية الدينية. كما وجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد وتحسين حالة الزراعة[١].

ولم يتمتع الظاهر بالخلافة مدة طويلة، فقد مرض بالاستسقاء، وتوفي في منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ. ولما علم وزيره الجرجرائي بذلك، أخذ البيعة لابنه أبي تميم الذي تلقب المستنصر.

ولد أبو تميم محمد بن الظاهر في شهر جمادى الآخر سنة ٤٢٠ هـ، وبويع له بالخلافة في يوم وفاة أبيه، وكان في السابعة من عمره، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. وكان أطول الخلفاء عهداً، غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة. ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى تزعزع مركز الخلافة الفاطمية.

وقد امتد سلطان الفاطميين في القسم الأول من عهد المستنصر على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي إفريقية. وكان اسمه يذاع على جميع منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، وكذا في صقلية واليمن والحجاز والموصل، بل في بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة. ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج من سلطان الفاطميين؛ فقد أعلن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي استقلاله

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٥٢.

وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ، وحذا حذوه الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ، ولم تأت سنة ٤٤٣ هـ حتى تقلص الحكم الفاطمي من بلاد المغرب. وفي سنة ٤٧٥ هـ زالت سلطة الفاطميين من بلاد المغرب الأقصى، واستولى روجر النرمندي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم في سنة ٤٦٢ هـ.

وعلى الرغم من المنازعات التي قامت في أوائل عهد الخليفة المستنصر بين التستري والفلاحي، وتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء. فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت عليه القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء(١).

غير أن هذا الرخاء الذي كانت تتمتع به مصر في ذلك الحين لم يدم طويلاً، فقد انتشر الوباء والقحط في مصر، وانقطع ماء النيل، فأهملت الزراعة، وانتشرت المجاعة، وعمَّ الوباء الذي يعتبر أطول وباء عرفته هذه البلاد في العصور الوسطى، وامتد ثماني سنين (٤٤٦ ـ ٤٥٤ هـ). ونكبت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند، ودونت عنه قصص مروعة.

ويحسن بنا ألا نطيل الكلام على عهد المستنصر الفاطمي الذي حكم الدولة الفاطمية أكثر من ستين سنة كما تقدم، ولا سيما بعد أن تقلد بدر الجمال الوزارة، وحكم البلاد حكماً مطلقاً منذ سنة ٤٤٦. لأن هذا يخرج بنا عن نطاق هذا الجزء الذي خصصناه لدراسة العالم الإسلامي من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٤٤٧ هـ، أي قبل تقلد بدر الوزارة بنحو عشرين سنة، وقبل وفاة المستنصر بأربعين سنة (شوال ٤٨٧ هـ). لذلك رأينا أن نرجىء الكلام على القسم الثاني من عهد المستنصر إلى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

---

(١) Safar N'ameh, p. 127 et Seq.

دولة الأغالبة(١)

(في تونس وغيرها)

١٨٤ - ٢٩٦/٨٠٠ - ٩٠٩

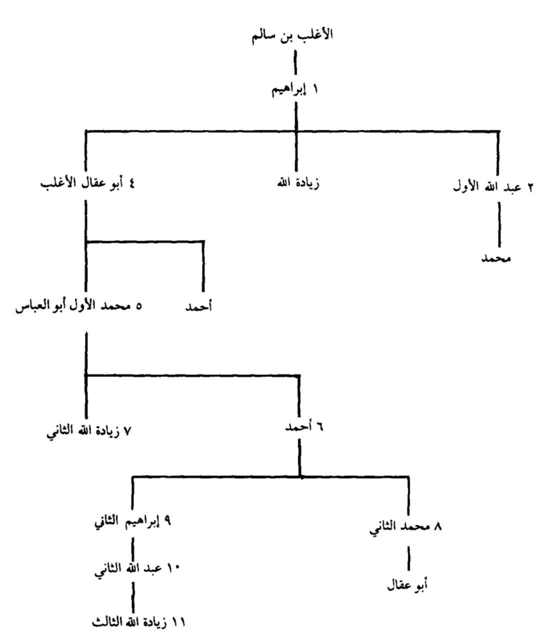
	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ إبراهيم الأول	١٨٤	٨٠٠	٧ زيادة الله الثاني	٢٤٩	٨٦٣
٢ عبد الله الأول	١٩٦	٨١١	٨ محمد الثاني	٢٥٠	٨٦٤
٣ زيادة الله الأول	٢٠١	٨١٦	٩ إبراهيم الثاني	٢٦١	٨٧٤
٤ أبو عقال الأغلب	٢٢٣	٨٣٧	١٠ عبد الله الثاني	٢٨٩	٩٠٢
٥ محمد الأول أبو العباس	٢٢٦	٨٤٠	١١ زيادة الله الثالث	٢٩٠	٩٠٣
٦ أحمد	٢٤٢	٨٥٦		٢٩٦	٩٠٩

(الفاطميون)

---

(١) Lane - Poole: Mohamman Dynasties, pp.37 - 38.

جدول يمثل تسلسل نسب الأغالبة



أبو الغرانيق محمد الثاني (٢٥٠ ـ ٢٦١ هـ):

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[١] أن أبا العباس محمد كان من أطول أمراء الأغالبة عهداً، وأنه قد تخللت عهده حوادث كثيرة كان أشدها خطراً اغتصاب أخيه أحمد الإمارة منه.

(١) راجع ما ذكرناه عن دولة الأغالبة إلى عهد محمد الأول في الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السادسة سنة١٩٦٢) ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

على أن محمداً الأول لم يكد ينتهي من ثورة أخيه أحمد عليه في سنة ٢٣٢ هـ، حتى فوجىء في السنة التالية بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب، الذي دارت الدائرة عليه وقتل. وفي سنة ٢٣٤ هـ خرج عمرو بن سليم التجيبي فقضى عليه محمد بن الأغلب في سنة ٢٣٦ هـ وقتله، ودخل مدينة تونس واستولى عليها من أنصار التجيبي.

ولما فرغ محمد الأول من هذه الثورات، تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية، واهتم بهذه الحرب اهتماماً جعله في مرتبة الجهاد ضد الروم. وقد تولى العباس بن الفضل الفزاري تتمة الفتح: ففتح بين سنتي ٢٣٧، ٢٤٧ هـ قصريانة[1] وقطانية وسرقوسة. ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة، كما يقولون، حرباً مائعة غير ثابتة[2].

وفي سنة ٢٤٢ هـ توفي محمد بن الأغلب بعد أن حكم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً، فخلفه ابنه أحمد (٢٤٢ ـ ٢٤٩ هـ) «وكان ـ كما يقول ابن عذارى[3] ـ حسن السيرة كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الناس وأسمحهم وأرفقهم بالرعية، مع دين واجتناب الظلم عن حداثة سنه وقلة عمره. وكان يركب في ليالي شعبان ورمضان، وبين يديه الشمع، فيخرج من القصر القديم فيمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع (أحد أبواب القيروان) ومعه دواب بالدراهم، فكان يعطي الضعفاء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس إليه يدعون له».

ولم يطل حكم أحمد حيث توفي سنة ٢٤٩ هـ، فخلفه أخوه زيادة الله الثاني بن محمد (٢٤٩ ـ ٢٥٠ هـ)، ولكنه لم يلبث أن توفي بعد سنة واحدة وستة أيام، وتولى بعده ابن أخيه محمد الثاني بن أحمد (٢٥٠ ـ ٢٦١ هـ)، ويلقب بأبي الغرانيق، لأنه كان مولعاً بصيد الغرانيق، حتى إنه بنى قصراً يخرج إليه ليصيدها، أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب.

---

(١) قال أبو الفدا (المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٨) إن قصريانة «هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك يسكن موقوسة «يقصد سرقوسة». فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها، ففتحها العباس في سنة ٢٣٧ هـ... وبنى بها مسجداً في الحال ونصب فيها منبراً، وخطب وصلى الجمعة.

(٢) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، المكتبة الصقلية جـ ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٣.

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٥.

وقد وصفه ابن عذارى[(١)] في هذه العبارة فقال إنه كان مسرفاً في العطاء مع حسن سيرته في الرعية، ثم غلبت عليه اللذات.

ولم يقع في عهد أبي الغرانيق ما يستحق الذكر، سوى متابعة فتح صقلية، مقتدياً في ذلك بأسلافه، وكثرة توليته الولاة على هذه الجزيرة، وقتل بعض هؤلاء الولاة، إما بسبب نشوب الحرب بينهم وبين الروم، أو نتيجة لعمله على إشعال نار العصبية القبلية بين العرب النازلين فيها. ويقول ابن عذارى إن الحرب وقعت بين المسلمين والروم في صقلية من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٩ هـ، وإن المسلمين حاولوا في خلال هذه الفترة فتح مدينة سرقوسة وغيرها من أمهات المدن في هذه الجزيرة وفي جنوبي إيطاليا.

وقد توفي أبو الغرانيق في شهر جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ بعد أن حكم إفريقية وما يليها عشر سنين وخمسة أشهر ونصف شهر، عاصر في خلالها من الخلفاء العباسيين المستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وأقره كل منهم على ولايته على ما جرت به العادة في ذلك العصر.

إبراهيم الثاني ـ زيادة الله الثالث:

يعتبر إبراهيم الثاني أطول أمراء الأغالبة في إفريقية عهداً بالإمارة. وقد وقعت في عهده أمور كثيرة، منها أنه اغتصب الولاية من ابن أخيه أبي عقال بن محمد الثاني ولما يمض عليه في الإمارة غير أيام، ثم بناء مدينة رقادة في سنة ٢٦٣ هـ، وفتح سرقوسة نهائياً وسقوطها في يد المسلمين في سنه ٢٧٤ هـ، وتنكيله بالموالي بالقصر القديم لأنهم ثاروا عليه، ثم هزيمته العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ.

وتعتبر الحرب التي دارت بين إبراهيم الثاني والعباس بن أحمد بن طولون، الذي خرج على أبيه كما تقدم، من أهم الأحداث التي وقعت في عهده. وقد ذكر ابن عذارى[(٢)] في إسهاب العوامل التي أدت إلى وقوع هذه الحرب، وما وقع فيها من معارك، وما انتهت إليه من نتائج، كما تناول الكلام عليها مؤرخو مصر كابن الداية والمقريزي.

ذلك أن العباس بن أحمد بن طولون سولت له نفسه الخروج على أبيه والتوجه إلى إفريقية، وصغر له أتباعه من شأن إبراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي أمير هذه البلاد، فأرسل

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٧ وما يليها. (٢) البيان المغرب: ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

إليه العباس كتاباً يقول فيه إن أمير المؤمنين قلده أمر إفريقية، ويأمره بالدعاء له على منابرها والاستعداد لاستقباله. ويخبره أنه قد أقره عليها على أن يحكمها نيابة عنه. ثم سار العباس حتى وصل إلى مدينة لبدة، فخرج إليه عاملها وأهلوها مرحبين، فازدادت نفسه غروراً، وقبض على عاملها وأباح المدينة لجنده، فنهبوا أموالها وقتلوا رجالها واستباحوا نساءها، فاستغاث أهلها بإلياس بن منصور صاحب نفوسة وزعيم الإباضية من الخوارج. وقد أرسل إليه العباس بن أحمد بن طولون رسولاً من قبله يأمره بالإذعان والخضوع، فقال إلياس للرسول: «قل لهذا الغلام: أما أنك أقرب الكفار مني وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعني التخلف معه عن جهادك. وأنا على إثر رسالتي إليك»[1]. وسرعان ما أرسل إليه جيشاً من ١٢,٠٠٠ مقاتل، وجرد ابن الأغلب لقتاله جيشاً آخر، فهزم العباس وعاد إلى برقة[2].

«كان إبراهيم ـ كما وصفه ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٠١ ـ ١٠٢) ـ عادلاً حازماً في أموره، آمن البلاد وقتل أهل البغي والفساد. وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم. . وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان، تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها. وكانت له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات[3].

توفي إبراهيم الثاني في شهر ذي القعدة سنة ٢٨٩ هـ، بعد أن حكم ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر واثني عشر يوماً.

بويع عبد الله أبو العباس بن إبراهيم الثاني بعد أبيه، ولكنه لم يبق في الإمارة سوى تسعة أشهر وأحد عشر يوماً، ثم قتل بيد غلمانه. وقد قيل إن ذلك حدث بإيحاء ابنه زيادة الله فخلفه ابنه زيادة الله الثالث، وكان أبوه قد قبض عليه وحبسه إذ بلغه أنه يريد الخروج عليه.

وكان زيادة الله آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب. وفي عهده بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي دعي الفاطميين، فوقع في يده كثير من المدن. وقضى زيادة الله أيامه في اللهو

---

(١) ابن الداية: سيرة أحمد بن طولون ص ٦١.

(٢) المقريزي: خطط ١ص ٣٢٠.

(٣) لعله يريد بالعملات جمع عملة يعني المكيدة كما يعبر عنها العوام وكما يفهم من سباق القصة التي ذكرها ابن الأثير.

والترف، وكان وزراؤه لا يبالون إلا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم، وساعدوا على إزالة سلطان الأغالبة ومد نفوذ الفاطميين إلى أكثر أجزاء هذه البلاد. وفي سنة ٢٩١ هـ غدا الفاطميون أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان أكبر مدن بلاد المغرب[١].

وقد ذكر ابن عذارى[٢] أن زيادة الله لما سمع بدخول أبي عبد الله الشيعي مدينة رقادة في سنة ٢٩٦ هـ وفرار أهلها منها، حمل معه بأخف وزنه وغلا ثمنه، ثم «ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الأحمال تمر بين يديه هارباً على عيون أهله وولده، فأخذت جارية من جواريه عوداً ووضعته على صدرها وغنته لتحرّكه على حملها معه فقالت:

لم أنْسَ يوم الوداع موقفها ... وجفنها في دموعها غرق
وقولها والركاب سائرة: ... تتركنا سيدي وتنطلق؟
أستودع الله ظبية جزعت ... للبين، والبين فيه لي حرق؟

فدمعت عينا زيادة الله، وشغله سوء الموقف عن حملها معه وخرج من مدينة رقادة مع وجوه رجاله وعبيده، ولحق بمدينة طرابلس.

وبذلك زال سلطان بني مدرار عن سجلماسة، وبني رستم عن تاهرت، وبني الأغلب عن تونس، وقامت الدولة الفاطمية في شمال إفريقية.

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٢ ـ ٢٧. حسن إبرهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠ وما يليها.

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

دولة الأدارسة

(في مراكش)

١٧٢ - ٣٧٥/٧٨٨ - ٩٨٥

أمراء الأدارسة[1]

	هجرية	ميلادية
إدريس	١٧٢	٧٨٨
إدريس الثاني	١٧٧	٧٩٣
محمد بن إدريس الثاني	٢١٣	٨٢٨
علي بن محمد	٢٢١	٨٣٦
يحيى الأول بن محمد	٢٣٤	٨٤٩
يحيى الثاني بن محمد		
علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	٢٩٢	٩٠٤
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	٣١٠	٩٢٢

(بربر مكناسة)

علي بن عمر بن إدريس الثاني (٢٢١ - ٢٣٤ هـ) :

لما توفي إدريس الثاني في شهر جمادى الآخرة سنة ٢١٣ هـ، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، لكنه لم يلبث أن توفي في شهر ربيع الثاني سنة ٢٢١ هـ، فخلفه ابنه علي بن محمد وكان في التاسعة من عمره، ولقب حيدرة، وهو لقب علي بن أبي طالب. ولم يحدث

---

(١) Lane - Poole: Muhammadan Dynasties.p.35.

في عهده ما يستحق الذكر حتى توفي في شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ، فخلفه أخـوه يحيى بن محمد الذي امتد سلطانه، وعظمت دولته، وحسنت أيامه، واستبحر عمران فاس، وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجارة، وبنيت خارجها الأرباض[١].

ولما توفي علي بن محمد خلفه ابنه يحيى بن علي بن محمد بن إدريس، وكان سيء السيرة فثارت عليه العامة. فاختفى بعدوة الأندلس[٢] ريثما تخمد الفتنة، ومات من ليلته. واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل، الـذي تزعم الثـورة على يحيى بن علي، على مدينـة فاس. وكتبت زوجة يحيى إلى أبيهـا علي بن عمر بن إدريس صـاحب الريف وطلبت إليـه الحضور لإخماد هذه الثورة، فجاء إلى فارس واستولى عليها، وانقطع الملك من عقب ابن محمد بن إدريس الثاني، وأصبح في عقب عمرو بن إدريس صاحب الريف تارة، وفي عقب القاسم بن إدريس الزاهد تارة أخرى[٣].

ولم يلبث أن دخل أهل فارس في طاعة علي بن عمر بن إدريس، وخطب له على منابر المغرب، واستقرت قدمه في هذه البلاد فترة من الزمن، حتى ثار عليه عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية، وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس التي دخلها، ففـر علي بن عمر إلى أورروبة.

على أن فريقاً من أهل فاس بعثوا إلى يحيى بن إدريس، ويعرف بالعوّام[٤]، يطلبون منه الحضور إلى بلدهم. ولما وصل إليهم بايعوه على الطاعة، ثم تفرغ لحرب عبد الرزاق الصفري وأرغمه على الخروج من عدوة الأندلس، فدخلها يحيى وبايعه أهلها وجميـع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين[٥]؛ وصرف وقته في قتال الخوارج الصفرية، ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة، وظل يحيى أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ.

---

(١) ابن خلدون. العبر: ص ١٥٤.

(٢) بضم العين هي الأرض المرتفعة على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسي من الأندلس، ويقـابلها عدوة المغرب.

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧٨.

(٤) ويسمى أيضاً الجوطي نسبة إلى جوطة وهي قرية على نهر سبو ببلاد المغرب وقد نزلها يحي فنسب إليها السلاوي جـ ١ ص ٧٨.

(٥) نسبة إلى ربض مدينة قرطبة.

وقد ذكر السلاوي[1] أنه بعد وفاة يحيى الأول سنة ٢٣٤ هـ إلى وفاة يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني سنة ٢٩٢ هـ وقعت ببلاد المغرب الأقصى حوادث جسام، بسبب انتشار الفوضى في هذه الفترة التي دارت فيها رحى الحروب الأهلية بين أبناء إدريس والخوارج الصفرية، مما أثر تأثيراً سيئاً في حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية. فقد انتشر القحط وعدمت الأقوات وغلت الأسعار، وفشا الموت لدرجة لم تعهد أهالي البلاد لها مثيلاً من قبل ففي سنة ٢٥٣ هـ انتشر القحط ببلاد العدوة، وقاسى الأهلون الشدائد والأهوال سبع سنين عجاف. وفي سنة ٢٦٧ هـ حدثت «زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها، تهدمت منها القصور، وانحطت منها الصخور من الجبال، وفر الناس من المدن، وتساقطت السقوف والحيطان، وفرت الطيور عن أوكارها، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس، سهلها وجبالها، وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب».

وفي سنة ٢٧٦ هـ انتشرت الفتن ببلاد المسجد الأقصى وإفريقية، وعم القحط بلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. وهلك خلق كثير من الوباء. وصفوة القول أن هذه الفترة قد سادها الاضطراب والفوضى، وانقسم الأدارسة على أنفسهم، حتى إن ابن خلدون الذي يعتبر شيخ مؤرخي المغرب، لم يستطع أن يحدد مبدأ ونهاية حكم أمراء الأدارسة في هذه الفترة الغامضة.

يحيى الرابع بن إدريس بن عمرو (٢٩٢ ـ ٣١٠ هـ):

لما قتل يحيى بن القاسم، ولي يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، فبايعه أهل فاس، وخطب له على منابرها، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى. وكان يحيى «واسطة عقد البيت الإدريسي، أعلاهم قدراً وأبعدهم ذكراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلاً. وأوسعهم ملكاً. وكان فقيهاً، حافظاً الحديث. ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حازماً، ذا صلاح ودين وورع»[2]. ولم يبلغ أحد من الأدارسة ما بلغه يحيى الرابع في سعة الملك وبسطة السلطان، حتى ظهر الفاطميون في إفريقيا في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم مدوا نفوذهم نحو بلاد المغرب الأقصى في عهد عبيد الله المهدي وخلفائه من بعده[3].

---

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) السلاوي: جـ ١ ص ٢٩.
(٣) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٩.

استقر ملك يحيى الرابع نحو خمس عشرة سنة؛ ففي سنة ٣٠٠ هـ غزا بلاده قائد عبيد الله المهدي مصالة بن حبوس صاحب تاهرت والمغرب الأوسط وفتح تاهرت(١) ثم التقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة وأحل به الهزيمة. ثم حاصر مدينة فاس واضطر يحيى إلى الصلح، على أن يؤدي إليه بعض الأموال، وأن يبايع للمهدي الفاطمي، وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس، كما ولى موسى بن أبي العافية ابن عم مصال بن يحيى سائر بلاد المغرب الأقصى لمساعدته إياه على غزو هذه البلاد. وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الأدارسة. ولما عاد مصالة إلى فاس سنة ٣٠٩ هـ أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه، واستصفى أمواله، ثم نفاه. فأقام عند بني عمه ببلاد الريف، فتصدى له موسى بن أبي العافية وحبسه، ثم أطلقه بعد عشرين سنة، فقصد إفريقية ومات في مدينة المهدية سنة ٣٣٢ هـ(٢).

الحسن بن محمد (٣١٠ ـ ٣١٢ هـ):

ولما قبض مصالة على يحيى بن إدريس ولى ريحان الكتامي على فاس، ولكن ولايته لم تطل، حيث ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام في سنة ٣١٠ هـ واستولى على فاس وقتل ريحان، فبايعه الناس ودخلوا في طاعته، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد، وتفرغ لقتال موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك قتل في إحداها ولد موسى، ومات الحسن في سنة ٣١٢ هـ، واستولى موسى على ملك الأدارسة ببلاد المغرب(٣)، فشايع الفاطميين بإفريقية. ولكن دولة الأدارسة، التي كادت تزول على يد موسى بن أبي العافية من ناحية، وعلى أيدي الفاطميين من ناحية أخرى، تحولت إلى بلاد الريف، واستقر الأمر لموسى بن أبي العافية في المغربين الأقصى والأوسط(٤).

على أن موسى بن أبي العافية لم يلبث أن خلع طاعة الفاطميين ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ)؛ وكان قد طمع في امتلاك المغرب الأقصى واستولى على سبتة، وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدي بذلك أرسل جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة حميد بن بصليت

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٢) السلاوي: الاستقصا ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢٢١ ـ ٢٣٢. (٤) السلاوي: الاستقصا جـ ١ ص ٨١.

صاحب تاهرت وابن أخي مصالة بن حبوس. وانتهت هذه الحرب بفرار موسى عن مدينة فاس، فولى عليها حميد أحد قواده؛ ولكنه لم يلبث أن قتل بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢ هـ بيد أحد الثوار الذي بعث برأسه وبابنه إلى موسى بن أبي العافية، فبعث به إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة، وخطب للأمويين في بلاد المغرب من جديد[١].

على أن الخليفة الفاطمي القائم أرسل قائده ميسوراً الخصي إلى المغرب الأقصى في سنة ٣٢٣ هـ فحاصر فاس واستولى عليها من يد أحمد بن بكر، وبعث به إلى المهدية، وخطب للقائم الفاطمي على منابرها، وضرب السكة باسمه، وولاها الحسن بن القاسم اللواتي الذي استمرت ولايته عليها حتى أطلق أحمد بن بكر من حبسه في المهدية سنة ٣٣٥ هـ، فسار إلى فاس وأقام بها متنكراً حتى تمكن من خلع الحسن بن القاسم وتولى إمرة فاس[٢]. واعتصم موسى بن أبي العافية بحصن ألبكاي، واستفحل خطره، وبدأ بنشر الدعوة للأمويين في شمال إفريقية؛ ثم خلفه ابنه إبراهيم بعد وفاته. ولما توفي إبراهيم سنة ٣٥٠ هـ خلفه ابنه عبد الرحمن، ثم ابنه محمد الذي انقرضت في أيامه دولة آل أبي العافية في بلاد المغرب الأقصى سنة ٣٦٣ هـ، بعد أن حكمت مائة وأربعين سنة (٣٠٥ ـ ٤٤٥ هـ)، ثم استمر نفوذهم في أطراف المغرب حتى قضى عليهم يوسف بن تاشفين.

تحولت دولة الأدارسة إلى بلاد الريف كما تقدم، ولم تتمتع هناك بالاستقلال الذي تمتعت به في فاس، حتى طردهم موسى بن أبي العافية، واستأثر بالنفوذ في المغربين الأقصى والأوسط. وهكذا أصبح الأدارسة ببلاد الريف «تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب، إما من الشيعة أصحاب إفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس».

ولما طارد ميسور الخصي، موسى بن أبي العافية إلى الصحراء، انتقلت السلطة في بلاد المغرب إلى القاسم وإبراهيم أخوي الحسن بن محمد بن إدريس آخر أمراء الأدارسة بفاس، وبايع أهالي هذه البلاد القاسم بن الحسن، الذي ملك أكثر بلاد المغرب عدا فاس، واتخذ قلعة حجر النسر مقراً لإمارته، وأخذ في نشر الدعوة الشيعية حتى توفي سنة ٣٣٧ هـ، فخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم، وكان ـ كما يصفه السلاوي (جـ ١ ص ٨٥) ـ . فقيهاً، ورعاً حافظاً للسير، عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر، شجاعاً، جوداً، وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل.

---

(١) السلاوي: الاستقصا: جـ ١ ص ٨٢. (٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

ولكن أبا العيش لم يلبث أن دعا إلى الأمويين بالأندلس وقطع دعوة الفاطميين، وانتشر نفوذه في بلاد المغرب الأقصى كافة إلى سجلماسة. ثم طمع عبد الرحمن الثالث الأموي في امتلاك طنجة من أبي العيش وضمها إلى سبتة، وكان قد استولى عليها من قبل فأبى أبو العيش، ولكنه اضطر إلى الإذعان بعد أن أرسل إليه الخليفة الأموي جيشاً وأسطولاً حاصراه وضيقا عليه، وزاد نفوذ الأمويين ببلاد المغرب الأقصى حتى مات أبو العيش سنة ٣٤٨[(١)].

خلف أبو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون (ويلقب بكنون) أخاه أبا العيش، الذي استخلفه على بلاد المغرب حين سار مع عبد الرحمن الناصر لجهاد الفرنجة في الأندلس. وكان أبو القاسم آخر أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى التي زالت في عهده على أيدي الفاطميين.

وقد امتد حكم الأدارسة ببلاد المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وكانت حاضرة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ببلاد المغرب الأقصى. وقد زال ملكهم بعد أن حكموا قرنين وثلاث سنين (١٧٢ ـ ٣٧٥)[(٢)]، لم تتمتع فيها البلاد بشيء من الاستقرار الذي يمكن القائمين بالحكم فيها من توجيه جهودهم إلى نشر العلوم والفنون والأخذ بأسباب الحضارة.

---

(١) السلاوي: الاستقصا ج ٦ ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) تأسست ببلاد المغرب في هذا العصر دول عدة، نذكر منها الدولة الحمادية ببلاد الجزائر (٣٩٨ ـ ٥٤٧ هـ) ودولة المرابطين بمراكش وبعض بلاد الجزائر وبلاد الأندلس (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ)، ودولة الموحدين في شمال إفريقية (٥٢٤ ـ ٦٦٧ هـ) والدولة الحفصية في تونس (٦٢٥ ـ ٩٤١ هـ)، والدولة الزيانية في بلاد الجزائر (٦٢٣ ـ ٧٩٦ هـ)، والدولة المرينية بمراكش (٥٩١ ـ ٨٧٥ هـ)، والدولة الشريفية بمراكش (٩٥١ ـ ١٣١١ هـ)، وسنرجىء الكلام عليها إلى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب إن شاء الله.
أنظر Lane - Pool: Muhammadan Dynasties pp.23 - 61

الأمويون في قرطبة(١)

(١٣٨ - ٤٢٢/٧٥٦ - ١٠٣١)

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ عبد الرحمن الأول	١٣٨	٧٥٦	١٣ محمد الثاني (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
٢ هشام الأول	١٨٢	٧٨٨	١٤ هشام الثاني (للمرة الثانية)	٤٠٠	١٠١٠
٣ الحكم الأول	١٨٠	٨٩٦	١٥ سليمان (للمرة الثانية)	٤٠٣	١٠١٣
٤ عبد الرحمن الثاني	٢٠٦	٨٢٢	١٦ علي بن حمودة(٢)	٤٠٧	١٠١٦
٥ محمد الأول	٢٣٨	٨٥٢	١٧ عبد الرحمن الرابع المرتضى	٤٠٨	١٠١٨
٦ المنذر	٢٧٣	٨٨٦	١٨ القاسم بن حمودة	٤٠٨	١٠١٨
٧ عبد الله	٢٧٥	٨٨٨	١٩ يحيى بن علي	٤١٢	١٠٢١
٨ عبد الرحمن الثالث			٢٠ القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢
(الخليفة الناصر)	٣٠٠	٩١٢	٢١ عبدالرحمن الخامس المستظهر	٤١٤	١٠٢٣
٩ الحكم الثاني المستنصر	٣٥٠	٩٩١	٢٢ محمد الثالث المستكفي	٤٢٤	١٠٢٤
١٠ هشام الثاني المؤيد	٣٦٦	٩٧٦	٢٣ يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥
١٢ محمد الثاني المؤيد	٣٩٩	١٠٠٩	٢٤ هشام الثالث المعتمد	٤١٨	١٠٢٧
١٢ سليمان المستعين	٤٠٠	١٠٠٩		٤٢٢	١٠٣١

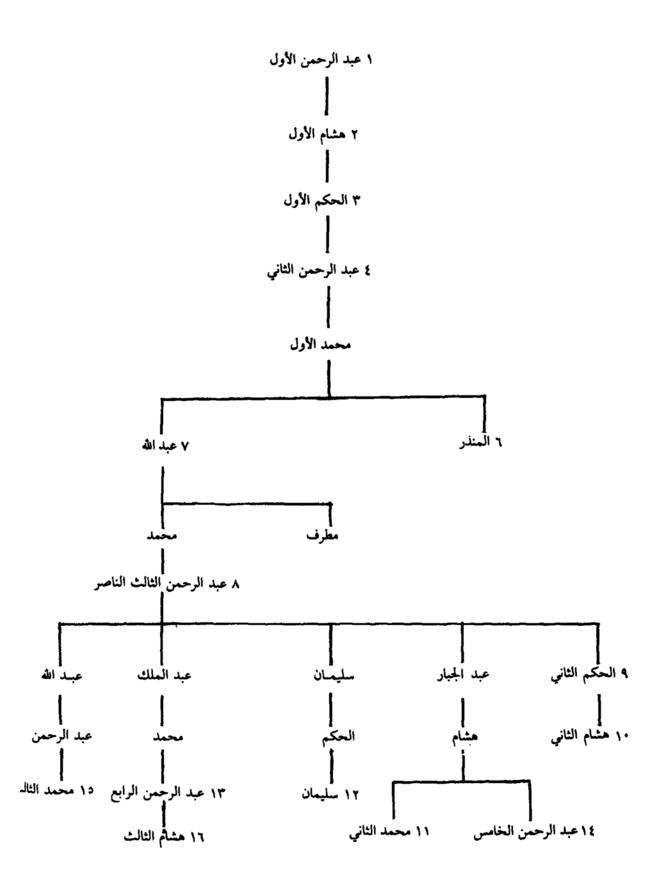
(دول صغيرة)

---

(١) راجع كتاب Lane - Poole: Muhmmadan Dynasties, pp. 21 - 22 - 23.

(٢) من أسرة الحموديين (في سبتة).

جدول يمثل نسب الأمويين في قرطبة



عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ):

لما مات عبد الرحمن الثاني سنة ٢٣٨ هـ خلفه ثلاثة من أمراء البيت الأموي هم: محمد الأول، والمنذر وعبد الله. وعلى الرغم من أن هؤلاء حكموا هذه البلاد اثنتين وسبعين سنة، لم يكن لهم أثر يذكر في تاريخ الأندلس، بل قاست هذه البلاد كثيراً في خلال هذا العصر الذي تميز بخروج عمال الأقاليم على الأمراء، وثورات مسيحيي الشمال؛ وانتشار روح العصيان، إلى أن اعتلى عرشها عبد الرحمن الثالث في سنة ٣٠٠ هـ.

خلف محمد الأول (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ) أباه عبد الرحمن الثاني. ولا يذكر عنه سوى إرسال هذه الحملات الموفقة في مستهل إمارته (٢٣٨ هـ) إلى شمال أسبانيا للقضاء على الثورات التي قامت في برشلونة وطليطلة وغيرهما، واستطاع بذلك أن يوطد الأمن في هذه الأرجاء. وقد دون المقري[1] حروب محمد الأول في سني ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٦٨، وهي تتلخص في إرسال حملات إلى بمبلونة وجليقية وماردة تكللت بالنصر، وأخضعت أهالي هذه الجهات. ثم توفي هذا الأمير في شهر صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد أن قضى في إمارته خمساً وثلاثين سنة؛ وولي بعده ابنه المنذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥)، ولكن إمارته لم تطل، وأقام سنتين إلا نصف شهر.

ثم ولي أخوه عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ)، وكان عهده كعهد أخيه المنذر وأبيه محمد مليئاً بهذه الثورات التي أعقبت ثورة المسيحيين بقرطبة، وانتشر العصيان في ولايات الأندلس فلما تولى عبد الله الذي دبر مقتل أخيه المنذر، كان أضعف من أن يقف على قدميه في وجه الخطر الذي كان يهدد ملكه، واشتهر بالقسوة وسوء التدبير مما أثار كراهية الناس له فنبذوا طاعته، حتى إن أكثر بلاد الأندلس قد استقلت ولما يمض على توليته ثلاث سنين. واتخذ زعماء العرب والبربر والأسبان من ضعفه وسوء حكمه فرصة للخروج عليه والاستقلال بالولايات التي تحت أيديهم، وانتشرت الفوضى؛ واستولى العرب، وكانوا أقلية في البلاد، على بعض الإمارات كإشبيلية التي أصبحت منافساً خطيراً لقرطبة، كما استقل حاكماً لورقة وسرقسطة استقلالاً تاماً، ولم يعد عبد الله يعتمد إلا على الجنود المرتزقة في إخضاع أهل قرطبة إخضاعاً صورياً.

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٥.

أما البربر فقد عادوا إلى النظام القبلي الذي يتفق وتقاليدهم وطبائعهم، فاستقلوا ببعض الولايات الغربية مثل استرامادور Stramdora وجنوبي البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في بلاد الأندلس كمدينة جيان. وتفاقم خطر أسرة ذي النون من البربر التي عاشت في جميع نواحي الأندلس. كما استولى الأسبان الذين دخلوا الإسلام، وكانوا يبغضون أمراءهم، على ولاية الجرف Algarave في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. واستقلوا بكثير من الولايات.

وقصارى القول أن هؤلاء جميعاً أجمعوا على كراهية عبد الله واستهانوا بسلطانه. وكان أكثر الزعماء قوة وأشدهم خطراً عمر بن حفصون، وكان يدين بالإسلام، ثم ارتد إلى المسيحية. وسمى نفسه صمويل، وأثار سكان الجبال في مقاطعة الفيرا Elvira بإمارة غرناطة، وأقام في معقله ببشتر Bobastro، وهزم جيوش الأمير عبد الله غير مرة. واضطر إلى مصالحته بعد أن ناوأ سلطان الأمير خمساً وعشرين سنة[١]، كما استقل حاكم مرسية Murcia الذي ولع بالشعر والأدب. واستولى نصارى الشمال على طليطلة. وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها. وخلت خزائن الدولة من المال، وغلا ثمن الخبز غلاء فاحشاً. وعد رجال الدين من المسلمين ذلك من سخط السماء وأخذوا ينشرون بين الناس تكهنات محزنة.

هكذا كانت حال الأندلس. وهذا ما آل إليه أمرها؛ فقد أصبحت ممزقة الأشلاء منبتة الأواصر، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التي تكون دولة قوية. وصارت أعجز من أن تقف في وجه فاتح قوي عزوم[٢]. على أن بعض هذه الولايات كانت تزدهر من حين إلى حين بطائفة من حكامها الذين اشتهروا بالأدب، كحاكم مرسية وقسطلونة، وابن حجاج حاكم إشبيلية الذي ذاعت شهرته وراسله الملوك وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة، وازدان قصره بأشهر المغنين من بغداد. وكانت جاريته «قمر» البغدادية شاعرة رائعة الحسن بديعة الصوت فصيحة اللسان مرهفة الحسن. وهي التي تقول فيه:

ما في المغارب من كريم يُرتَجَى ... إلاَّ حليفُ الجودِ إبراهيمُ
إني حللت إليه منزلَ نعمةٍ ... كلُّ المنازل ما عداه ذميمُ

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, pp. 291 - 296.

(٢) Lane - Poole: The Moors, in Spain, pp.97 - 107. ترجمة علي الجارم ص ٩٢ ـ ٩٨.

وقد قصده الشعراء وطمع شعراء قرطبة في كرمه، وقد قيل إن أحد شعرائها هجا في حضرته منافسيه من أشراف قرطبة فقال له عبد الله: كذبت نفسك يا هذا إن ظننت أن رجلاً مثلي يهش لسماع هذا الهجاء الدنيء.

ولكن عبد الله لم يستطع أن يتغلب على هذه المصائب التي حلت بالبلاد، ومات في سنة ٣٠٠ هـ وهو في الثامنة والستين من عمره بعد أن قضى في الحكم أربعاً وعشرين سنة وقد أشرفت دولة الأمويين بالأندلس في عهده على الزوال لولا أن قبض الله لها عبد الرحمن الثالث الناصر.

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ):

ولد عبد الرحمن الناصر في رمضان سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م). وكان أبوه محمد بن الأمير عبد الله بن محمد الأول، وأمه أم ولد سماها ابن الأثير (جـ٨ ص ٢٦)[1] مرنة، وقال: إن عبد الرحمن يوم قتل أبوه لم يزد عمره على واحد وعشرين يوماً. وكان قتله بسبب وشاية أخيه مطرف الأصغر عند أبيهما عبد الله طمعاً في اعتلاء العرش. وكان لقتل محمد أثر بالغ في نفس أبيه عبد الله الذي أمر بإدخال حفيده عبد الرحمن إلى قصره، وحاطه برعايته وقربه إليه، وآثره على أبنائه[2].

وقد شب عبد الرحمن في بيت الإمارة وأخذ بقسط وافر من الثقافة ومال إلى دراسة الفلسفة. وكان جده يخصه بعطفه دون أبنائه، حتى قيل إنه رمى إليه بخاتمه[3]، فاتخذ الناس من ذلك دليلاً على رضاه عنه وإيثاره على أبنائه بالإمارة من بعده، كما كان ينيبه عنه في الأعياد والمواسم والحفلات وعرض الجند. ولما مات عبد الله في ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) أجلس الأمراء والقواد عبد الرحمن على العرش وبايعوه ولقبوه الناصر، ولم يقم في وجهه أحد من أعمامه وأعمام أبيه[4] وأرسلت البيعة إلى سائر الولايات الأندلسية.

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, p.382'

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٢.

(٣) ابن الخطيب. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ج ٣ ص ٣٢.

(٤) Dozy, The Moslems in Spain,p. 382.

كان الناصر حين اعتلى عرش الأندلس شاباً في مقتبل العمر لم يجاوز الثانية والعشرين. واستبشر بإمارته رجال القصر وأهالي قرطبة لما اتصف به من سمو الأخلاق وقوة الإدراك وأنشد ابن عبد ربه هذه الأبيات يوم تولية الناصر الإمارة:

بدا الهلال جديداً والملك غضٌ جديد
يا نعمة الله زيدي إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد[1]

كانت بلاد الأندلس عند اعتلاء عبد الرحمن العرش - كما يقول المقري (جـ ١ ص ١٦٦) - «مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين؛ فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، واستقلت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه».

وقد أعلن الأمير الجديد عن سياسته التي عول على نهجها، ودعا الخارجين إلى الخضوع لسلطانه، واتجهت إليه أنظار الشعب لتخليصه من عصابات اللصوص والمجرمين الذين أتلفوا الزرع وأفقروا الأرض، فخضع أكثر الولايات وسلموا حين رأوا أميرهم الشاب يتقدم جيوشه في شجاعة وثقة واعتزاز بالنفس، وأعجبوا به لأنهم وجدوا فيه من الصفات ما لم يجدوه في جده عبد الله. وفتحت له مدن الأندلس أبوابها، فسلمت له الولايات التي في جنوبي قرطبة وتبعتها إشبيلية، وأرغم البر في الغرب على الطاعة، وحذا حذوه أمير الجرف.

وكان عبد الرحمن يخلع على كل من نزل من الثوار عن حصنه ويقربه ويدر عليه الأرزاق والهبات. وبذلك خضع له كثير من هؤلاء الثوار طائعين. ثم تفرغ لقتال من بقي من الثائرين. وكان أشد هؤلاء بأساً وأعظمهم خطراً عمر بن حفصون الذي لقي جده عبد الله في سبيل محاربته كثيراً من العنت والإرهاق. وظل عبد الرحمن يقاتل هو وأولاده في معاقلهم الجبلية في ببشتر إلى أن توفي سنة ٣٠٥[2]، وسلم إليه أولاده بعد حروب طويلة؛ ولم تأت سنة ٣٢٠ هـ حتى كانت بلاد الأندلس الإسلامية خاضعة لعبد الرحمن. ولما وقف على مشارف هذا الحصن المنيع ورأى قممه الشاهقة الشديدة الانحدار المحيطة به، سجد شكراً لله على ما أولاه من نعمة الفتح والنصر، وظل طول مدة إقامته في هذا الحصن صائماً وعفا عن أعدائه.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٧.

(٢) أنظر: Dozy, The Moslems in Spain, p 392

وكانت طليطلة آخر حصون الثائرين التي سقطت في يد عبد الرحمن، حيث سلمت إليه في سنة ٣٢٠ هـ، وكان أسلافه قد اضطروا إلى منحها نوعاً من الاستقلال الذاتي. وبذلك استرد عبد الرحمن ما فقده أسلافه من بلاد الأندلس في مدة لا تجاوز عشرين سنة، وغدا نفوذه قوياً بين العرب والبربر والأسبان والمولدين.

أما سياسة الناصر الداخلية إزاء مسيحيي الأندلس، فقد كانت راجعة إلى ما أظهره هؤلاء المسيحيون من الحماسة الدينية التي عبر عنها المؤرخون بالحرب المقدسة. وقد استعان عبد الرحمن في حروبه التي شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين بالصقالبة خاصة. وكان تجار الإغريق والبنادقة يجلبون له الأرقاء ويبيعونهم صغاراً ليهذبهم وينشئهم نشأة إسلامية. وكانت بلاد الأندلس في عهده مهددة بخطر الفاطميين في بلاد المغرب جنوباً وخطر المسيحيين وخاصة أهالي أستوريش شمالاً. وقد انتشر هؤلاء المسيحيون في مقاطعة ليون وبنوا قلاع زامورة وسان استبان St. Eatevano وأوسما Osma وسيمنقاس Simacacass. ولم ير العرب بداً من استرداد أراضيهم، ولكن المسيحيين هزموهم هزيمة منكرة وأغاروا على بلادهم، وشد أزرهم شانجة sancho ملك نافار Navarre الذي أصبح زعيم المسيحية في الشمال[١].

وقد أطنب ستانلي لينبول[٢] في وصف مناقب المسلمين وحسن معاملتهم لأعدائهم وندد بأخلاق المسيحيين التي كانت مطبوعة بطابع الغلظة والخشونة والقسوة فقال: «وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميتهم، وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين إلا التعصب والقسوة، فإنهم لم يؤمنوا مستجيراً، ولم يتركوا فاراً، ولم يبقوا على جريح. وهذا يذكرنا، والحزن ملء صدورنا، بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق، فكثيراً ما عفوا عن أعدائهم نبلاء متكرمين، بينا نرى اليوم أن رجال ليون وقشتالة العتاة، يذبحون جميع رجال الحاميات، ويستأصلون مدناً مليئة بالقطان، حتى إذا نجا أحد من سيفهم لم ينج من استعبادهم».

كذلك أغار أردون الثاني Ordon 11. على بلاد الأندلس الإسلامية، وصلت جيوشه إلى مارة Meirba، وقابل عبد الرحمن ذلك بإرسال جيش أغذ السير نحو الشمال وأغار على

(١) Dozy, The Moslems in Spain p.414.

(٢) The Moors Spain, p.119 ترجمة على الجارم ص ١٠٨.

مملكة المسيحيين في سنة ٣٠٤ هـ ثم أرسل في السنة التالية حملة أخرى، ولكن أردون أحل بها الهزيمة أمام أسوار استبان وغنم كثيراً من الغنائم. وقد أثار هذا الانتصار الحماسة في نفس ملكي ليون ونافار، فسارت جيوشهما صوب طليطلة، وعاثت في البلاد القريبة منها، وانتصرت عليهم جنود قرطبة في موقعتين.

وقد عول عبد الرحمن على الاستعداد لحرب المسيحيين، وقاد الجيوش بنفسه (٣٠٨ هـ) وهدم قلعة أوسما، ودمر سان استيبان، ثم سار صوب نافار ونازل شانجة واضطره إلى الفرار، وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التي منيت بها جيوش المسيحيين، أغار أردون ملك ليون على حدود المسلمين، وزحف شانجة ملك نافار واحتل حصون المسلمين سنة ٣١١ هـ فسار عبد الرحمن نحو الشمال واستولى على كل ما صادفه من المدن؛ ومزق جيش شانجة وهدم حاضرته بمبلونة.

وقد أتاحت هزيمة شانجة ملك نافار، وموت أردون ملك ليون، ووقوع النزاع وقيام الحروب الأهلية بين أبنائه، الفرصة لعبد الرحمن للتفرغ لإصلاح بلاده؛ وأحس بقوته في الداخل والخارج، حتى إنه لقب نفسه بلقب خليفة في سنة ٣١٦ هـ.

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن وجد نفسه أمام خطر ردمير (راميرو الثاني) Ramiro 11 الذي خلف أردون في حكم ليون، واستطاع أن يتحد مع مسيحيي الشمال، وأن يعقد الصلح مع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة، وكان قد خلع طاعة عبد الرحمن الناصر. وأسرع هذا إلى إخضاع سرقسطة، ثم زحف على نافار، وانتصر على المسيحيين في عدة مواقع. ولكن راميرو قتل من جيش المسلمين في موقعة «الخندق» أكثر من خمسين ألفاً، وقيل إن جيشهم بلغ مائة ألف، ونجا عبد الرحمن بنفسه في أقل من خمسين فارساً[١]. ولم يَنْسَ المسلمون هذه الكارثة، حتى إنهم أطلقوا على السنة التي حلت فيها بسنة الخندق[٢].

كانت بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر يحيط بها الأعداء من كل جانب: فكان الفرنجة في الشمال يطمعون في توسيع أملاكهم جنوباً. ولا سيما بعد استيلائهم على

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٧.

(٢) Lane - Poole, The Moors in Spain, pp. 122 - 123.

برشلونة، وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد بلاده. أضف إلى ذلك منافسة العباسيين والفاطميين، وكان الأخيرون أشدهم خطراً على بلاد الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر؛ حيث خلع موسى بن أبي العافية الذي استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط وخلع طاعة عبيد الله المهدي الفاطمي، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي، والذي استولى على سبتة وخطب له على منابر المغرب. ولكن هذه الخطبة لم تلبث أن قطعت بعد فرار موسى من مدينة فاس أمام جيوش الفاطمية، ثم أعيدت مرة أخرى في عهد القائم الفاطمي.

وقد عمل عبد الرحمن الثالث على تقوية دولته مادياً وأدبياً، فبنى أسطولاً من مائتي سفينة، وتلقب بلقب خليفة. ومن ثم أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، والخلافة الأموية في بلاد الأندلس. وساعده على ذلك ضعف الخلافة العباسية، وازدهار دولته؛ وارتفاع شأنها في الداخل والخارج. ويقول المقري[1] عن عبد الرحمن: «وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة[2]، فتلقب بألقاب الخلافة».

وقد أطنب مؤرخو العرب والفرنجة في مدح عبد الرحمن الناصر، فقال المقري[3]: «كان سلطانه أعظم ما كان، وأعز ما كان الإسلام بملكه». «وحكي أنه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير: يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من شهر كذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً. فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. هذا الخليفة الناصر خلف السدود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود؛ ملكها خمسين سنة، وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً. فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة، لا إله إلا هو»[4].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٦.
(٢) هذا خطأ لأن المقتدر امتدت خلافته إلى سنة ٣٢٠ هـ.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٧.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٩.

وقد وصف لينبول[١] عبد الرحمن فقال: «نعم إن عبد الرحمن أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها. ولم يكتف بإنقاذها من الدمار، بل خلق منها دولة عزيزة الجانب. ولم تكن قرطبة في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عهد الناصر، ولم تكن الأندلس قبل أيامه في تلك الحال من الخصب والإمراع والإنتاج وتوالي الخيرات، التي نماها ووصل بها إلى الكمال كد أهلها ومهارتهم في الصناعة. ولم يكن الحكم الأندلسي في يوم من أيامه أبهر انتصاراً على الفوضى، كما لم تكن قوة القانون أكثر نفوذاً إلى القلوب وأعظم هيبة مثلما كانت في أيام عبد الرحمن، فقد تسابق إلى أبوابه الرسل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ليقدموا إليه تحية الإجلال والتمجيد. وكانت قوته وحكمته وثروة مملكته مضرب المثل في أوروبا وإفريقيا، وبلغت شهرته أقصى حدود المملكة الإسلامية بآسيا. وكان مصدر كل هذا الانقلاب العجيب رجلاً واحداً، عانده كل شيء فقهره. ووقف في طريقه كل شيء فحطمه. بعث الأندلس من حضيَض البؤس إلى قمة القوة والازدهار، ولم تصل البلاد إلى كل هذا إلا بذكاء الخليفة عبد الرحمن الناصر وصدق عزيمته».

الحكم الثاني المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ):

كان عبد الرحمن الناصر آخر عظماء أمراء بني أمية في الأندلس. وقد خلفه الحكم المستنصر الذي أتاحت له فتوح أبيه وما حازه من نصر وظفر على أدائه فترة من الهدوء والطمأنينة، إذ شعر نصارى الشمال بقوة الدولة التي تركها الناصر، فلم تعترضه هذه الثورات الجامحة التي اعترضت أباه في العشرين السنة الأولى من عهده؛ كما وجد الحكم حكومة منظمة أقامدعائمهاأبوه، «فجرى على رسمه، ولم يفقده من ترتيبه إلا شخصه. وولى حجابته جعفراً الصقلي»، الذي أهدى له يوم ولايته هدية نفيسة تدل على ضخامة ثروة الأندلس وما كانت تتمتع به من يسر ورخاء[٢].

ولم يقف في وجه الحكم أحد من إخوته وأعمامه وغيرهم، وجلس المستنصر على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية في السطح الممرد[٣]. وقد بايعه إخوته. ثم بايعه الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرط وغيرهم[٤].

---

(١) The Moors in Spains 126 - 127 ترجمة علي الجارم ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٠.

(٣) مرد البناء: ملسه وسواه وصقله.

(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٣.

وكان الحكم الثاني ميالاً بطبعه إلى السلم والدعة، وكان الرعب الذي غرسه الناصر عظيماً في قلوب أهل الأندلس، وخاصة مسيحيي الشمال الذين كانوا لا يزالون يشعرون بقوة الخلافة. ولم يكن الحكم ضعيف القلب أو جباناً، حتى إنه كان يقود الجيوش بنفسه لمحاربة نصارى ليون إذا نقضوا عهودهم، وبلغ من قوة دولته أن استنجد به أردون ملك جليقية، فاحتفل الحكم بقدومه... ووصل إلى الحكم وأجلسه. ووعده بالنصر من عدوه (فريدلند قومس[1] قشتيلية)، وخلع عليه... وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فريد لند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه. ورهن ولده غرسيه، ودفعت الصلات والحملان له[2] ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة مع قمامسة[3] أهل جليقية وسمورة وأساقفهم، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبو الناصر معه، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها، كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين، ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما، يسألان الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه. وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين. ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة... في جماعة من الأساقفة والقمامسة يسألون الصلح[4].

كذلك بعث الحكم المستنصر جنده إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط، وخطب له على منابرها. وأبطلت الخطبة للفاطميين، كما قضى على نفوذ الأدارسة بالعُدوة بنواحي الريف[5].

وكان الحكم مشغوفاً بالاطلاع والقراءة، وجمع كثيراً من الكتب، وأرسل الرسل لابتياعها من دمشق وبغداد والقاهرة، حتى زخرت خزانة كتبه بقرطبة بأربعمائة ألف كتاب، في وقت لم تعرف فيه الطباعة. وامتاز الحكم بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها ولا غرو فقد كان غزير العلم واسع الاطلاع، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب[6]، «وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر». وبلغ من

---

(١) القومس بفتح القاف وتسكين الواو: الأمير وجمعها قمامسة.
(٢) في الأصل الحملات، والصواب الحملان.
(٣) في الأصل قواميس وهو تحريف، أنظر القاموس.
(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨١.
(٥) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٤٦.
(٦) Lane - Pool; The Moors in Spain pp. 155 - 156.

اهتمامه بجمع الكتب كان إذا ظهر كتاب جديد بعث إلى صاحبه في طلبه، من ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغاني طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه، وبعث له بألف دينار من الذهب، فبعث به إليه قبل أن يرسله إلى العراق(١).

تولى الحكم المستنصر في اليوم الثاني من شهر صفر سنة ٣٦٦هـ، بعد أن حكم ست عشرة سنة.

هشام الثاني المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩) - المنصور بن أبي عامر:

خلف الحكم ابنه هشام. ويكنى أبا الوليد، ويلقب المؤيد، وأمه أم ولد تسمى «صبح» وكان هشام في العاشرة من عمره حين ولي الخلافة، فتغلبت على أمره أمه صبح، وتولى تدبير مملكته ابن أبي عامر.

ولد أبو عامر عبد الله بن محمد بن أبي عامر في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس. ويرجع في أصله إلى قبيلة مُعافر القحطانية، وقد وفد قرطبة في حداثة سنة، والتحق بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس فيه، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي حتى تملكته الرغبة في النفوذ والسلطان.

ولما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد وأصبحت أمه «صبح» تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحد، قربت إليها ابن أبي عامر الذي عاش في مبدأ أمره من كتابة الرسائل في القصر. ولم يلبث أن اتصل بكبير الحجاب، وكان يتمتع بنفوذ كبير الوزراء إذ ذاك، فأسند إليه بعض الأعمال في القصر، واستطاع ابن أبي عامر أن يكتسب عطف السيدة صبح، لما كانت تتوسمه فيه من الذكاء وبعد الهمة، فأسندت إليه بعض المناصب الهامة، منها القضاء في بعض المدن، والنظر في الزكاة والمواريث والإشراف على أملاك ولي العهد الخاصة. كما اشتهر ابن أبي عامر بعلو الأدب والتواضع والكرم والعطف على البؤساء، واستطاع بذلك أن يستميل كبار رجال الدولة على اختلافهم.

ولما مات الحكم وآلت الخلافة إلى ابنه هشام، كان ابن أبي عامر ساعد صبح الأيمن، واستطاع أن يقضي على مؤامرة صقالبة القصر الذين كانوا يحولون دون استخلاف

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٤.

هشام؛ واكتسب محبة الناس بقضائه على هؤلاء الصقالبة[١]. ثم لم يلبث أن تخلص من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب ليصفو له الجو في حكم بلاد الأندلس، واتخذ لذلك الأمر عدته، فاستمال إليه الجند بعد أن غزا مملكة ليون وعاد منها محملاً بالغنائم، وعلت منزلته في قلوب الجند، واستطاع بما أوتيه من مكر ودهاء، أن يوقع الخلاف بين المصحفي وغالب قائد الجيش. واتهم المصحفي بالخيانة والسرقة، وزج به في غياهب السجن، وجلس مكانه على كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم الحقيقي للدولة الإسلامية في الأندلس، ودعي له على المنابر، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة الصغير، ولبس الملابس المنسوجة بالذهب، ونقش اسمه عليها كما كان ينسج اسم الخلفاء.

وقد مات المصحفي بعد خمس سنوات أشنع ميتة مسجي برداء ممزق. ويقال إن ابن أبي عامر دس له السم[٢]. كما استطاع ابن أبي عامر أن يحول دون سخط رجال الدين عليه، فأمر بإحراق كتب الفلسفة في ميادين قرطبة وأحرق بعضها بيده؛ وبذلك أرضى الفقهاء الذين عرفوا بتشددهم في الدين وكراهتهم للفلاسفة، وسمي حامي الإسلام. ولم تقف سعة أطلاعه وولوعه بالفلسفة عقبة في سبيل تحقيق مطامعه السياسية[٣].

وكان ابن أبي عامر واسع الحيلة بعيد النظر. ولكي يأمن جانب جنده من العرب والصقالبة والأسبان، اتخذ له جنداً من المرتزقة من المغرب ونصارى الشمال واصطنعهم وأدر الأرزاق عليهم، فأحبوه وأخلصوا له، حتى لقد قيل إنه غزا أكثر من خمسين غزوة. ولا غرو فقد استولى على ليون وهدم قلاعها، وقهر برشلونة وجعل كنيسة سانت جاكوب St. Jacob كعبة المسيحيين في غليسية في ذلك الحين أثراً بعد عين[٤].

ولم يلبث ابن أبي عامر أن كفي أمر غالب القائد بزواجه من ابنته، ومات غالب بعد ذلك في إحدى الغزوات. وقد صمم ابن أبي عامر على إنزال العقاب بأهالي ليون لمساعدة منافسه غالب، وحاصر زامورة (٣٧١ ـ ٩٨١)، وأشعل النار حولها، وقتل أربعة آلاف من النصارى، ودخل راميرو الثالث، ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره في حلف مع غرسية، وكونت قسطيلية، وملك نافار، ولكن الهزيمة حلت بهم.

---

(١) المراكش ص ١٨ Dozy. The Moslems in Spain.p. 138

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع من المجلد الأول (القاهرة ١٩٤٥) ص ٤٩.

(٣) Dozy pp.490 - 491

(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

ثم استأنف ابن أبي عامر السير إلى ليون. ولما رأى أن الهزيمة حلت بجنده، خلع عمامته وسار نحو العدو، ولحق به قواده وجنده الذين ثارت حماستهم، وطاردوا العدو إلى أسوار ليون، وكادوا يستولون على المدينة لولا أن حال بينهم سقوط الثلوج، وعاد ابن عامر إلى قرطبة محملاً بالغنائم والأسلاب، ولقب من ذلك الحين بذلك اللقب الذي عرف به فيما بعد وهو «المنصور بالله»، وأصبح صاحب السلطان المطلق والنفوذ الذي لا يحد[١].

يقول ستانلي لينبول[٢]: إن ليون والممالك التابعة لها خضعت للمنصور، وأدت الإتاوات إلى قرطبة، فقد تكررت هزائم قشتالة، وبرشلونة، ونافار، وسانت جاكوب، واستولى المنصور على ليون وبمبلونة وبرشلونة، وسانت جاكوب. وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلاً على ركبتيه، ولأن هذا الوزير، وهو لا يتجاوز عن شيء؛ علم أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة في مملكته، فأطلقت في الحال مع كثير من ضروب الذلة والاعتذار . . . .

وكان ابن أبي عامر محباً للعلوم مشغوفاً بالأدب مشجعاً للعلماء والأدباء. وقد زخرت بلاد الأندلس في الفترة التي تقلد فيها الحجابة بطائفة من مشهوري العلماء والأدباء والشعراء، نخص بالذكر منهم أبا العلاء صاعد بن الحسن الذي وفد على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ، فأكرمه ابن أبي عامر وأدر عليه الأرزاق، لما اشتهر به من التعمق في اللغة والنحو والأدب والشعر والسير، وما عرف به من التفكه والظرف. وقد ألف أبو العلاء هذا الحاجب المنصور كتباً أجازه عليها، كما أنشد للمظفر بن المنصور بن أبي عامر الذي ولي الحجابة بعد أبيه، قصائد رائعة. وكان لابن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه العلماء للمناظرة في حضرته[٣]. وقد قيل إنه كتب بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته ويتبرك به[٤]. وقد وضع أبو مروان بن حيان كتاباً سماه «المآثر العامرية» استقصى فيه غزوات ابن أبي عامر التي نيفت على الخمسين غزوة[٥].

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, pp. 497 - 498.

(٢) The Moors in Spain, pp. 163 - 165، ترجمة على الجارم ص ١٤٨.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٩ ـ ٢٤.

(٤) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع من المجلد الأول ص ٢ ـ ٤٠ حيث تجد ترجمة وافية لأبي العلاء صاعد.

(٥) المراكش ص ٢٤.

ومن آثار ابن أبي عامر بناء مدينة «الزاهرة» على نهر الوادي الكبير شرقي قرطبة والتي استغرق بناؤها سنتين، ولم تلبث أن أخذت في الاتساع حتى اتصلت أرباضها بمدينة قرطبة نفسها؛ كما بنى قرطبة. وبذل في سبيل بنائها ١٤٠ ألف دينار.

اشتهر المنصور بن أبي عامر بالذكاء والكرم والحزم والعدل والصبر على المكاره وغيرها من الصفات التي جعلته بحق أعظم حكام الأندلس في عهد هشام الثاني المؤيد.

وصفوة القول أن ابن أبي عامر كسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بعلمه وبعد نظره وحسن سياسته. ولم يكن للخليفة هشام المؤيد من الصفات ما يؤهله لأن يكون من عظماء الرجال؛ فقد انزوى في قصره، وقضى أوقاته في اللهو. وكانت لابن أبي عامر مطامع خفية كما تقدم، فحجر على هشام ومنع الناس من مقابلته حتى أصبح في الواقع سجيناً، ولم يبق له من مركز الخلافة إلا الاسم فقط[1]. وقتل ابن أبي عامر كل من وقف في سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد، مدعياً أنه إنما كان يفعل ذلك لحماية الخليفة، كما شرد حرس الخليفة من الصقالبة، وأنشأ جيشاً جديداً من المرتزقة من قبائل البربر ومن المسيحيين، وقدم البربر على العرب وأقصى هؤلاء من مناصب الدولة...

وقد تولى ابن أبي عامر الحجابة نحواً من سبع وعشرين سنة كانت حافلة بجلائل الأعمال مليئة بالغزوات، وتوفي في آخر غزواته ببلاد مسيحيي الشمال في سنة ٣٩٣ هـ، وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به إلى أن وصل إلى مدينة سالم. وقد أحس نصارى الشمال بقوة شكيمته وشدة بأسه، وفرحوا بموته فرحاً عظيماً إذا كانوا يعتبرونه حامي الإسلام.

الأندلس بعد وفاة المنصور الحاجب:

ولما مات المنصور بن أبي عامر سار ابنه أبو مروان عبد الملك الذي آلت إليه الحجابة وتلقب «المظفر» سيرة أبيه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة هشام الثاني المؤيد. «وكانت أيامه - كما يقول المراكشي[2] - أعياداً في الخصب والأمان؛ دامت سبع سنين إلى أن مات. ثم ثارت الفتن من بعده، وتقلد ما كان يتقلده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب الناصر، فخلط،

---

(١) Dozy: The Moslems in Spain, p. 492

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥ - ٢٦.

وتسمى ولي العهد. ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ، فخلع هشاماً المؤيد، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر، فقتل وصلب.

تلقب محمد بن هشام الذي استبد بالأمور بعد أن خلع الحاجب عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عمر بلقب «المهدي»، وتولى أمور قرطبة إلى أن ثار عليه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه أبو بكر بمساعدة البربر، فحاربهم، وأسر هذين الأخوين، وضرب أعناقهما. ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة، وتآمروا فبايعوه ولقبوه «المستعين بالله» ونهضوا به إلى ثغر طليطلة»[1].

وقد استنجد سليمان المستعين بالمسيحيين، وساروا مع البربر إلى قرطبة، والتفوا بجيوش محمد بن هشام المهدي الذي حلت به الهزيمة، ولحق بطليطلة، ودخل المستعين قرطبة سنة ٤٠٠ هـ. على أن المهدي استنجد بالمسيحيين أيضاً، وتوجه إلى قرطبة، وهزم المستعين. واضطره إلى الخروج منها مع جنده من البربر، فتفرقوا في البلاد وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء. ولم يكتف المهدي بذلك، بل تتبع المستعين مع أعوانه من المسيحيين. ولكن الهزيمة حلت به، وتتبعهم المستعين بدوره إلى قرطبة. وهنا لجأ المهدي إلى الحيلة، فأخرج هشاماً المؤيد من سجنه، وبايعه. وقام بحجابته، ولكن الأهالي لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه.

ثم دخل المستعين قرطبة في سنة ٤٠٣ هـ وقتل هشام المؤيد سراً. وجلس على ذلك العرش المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ ـ ٤٠٧ هـ)، استقل فيها بالأطراف كثير من الأمراء من أمثال باديس بن حبوس في غرناطة. والبرزالي في قرمونة. واليفرني في رنده، وهرزون في شريش. وافترق شمل الجماعة بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة وابن أبي عامر ببلنسية؛ وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية والجزائر.

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢.

بنو حمود(١)

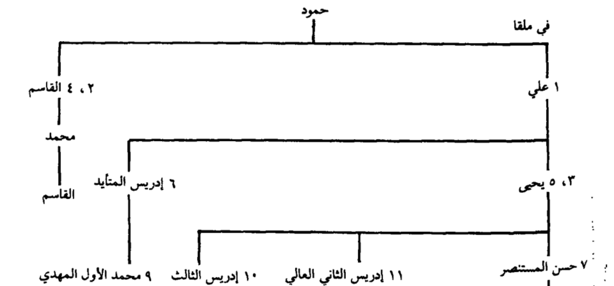
(في ملقا)

٤٠٧ - ٤٤٩ هـ

	هجرية	ميلادية		هجرية	ميلادية
١ علي الناصر بن حمود	٤٠٧	١٠١٦	٨ إدريس الثاني (العالي)	٤٣٤	١٠٤٠
٢ القاسم المأمون	٤٠٨	١٠١٨	٩ محمد الأول المهدي	٤٣٨	١٠٤٦
٣ يحيى المعتلي	٤١٢	١٠٢١	١٠ إدريس الثالث الموفق	٤٤٤	١٠٥٢
٤ القاسم (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢	١١ إدريس الثاني (العالي)	٤٤٥	١٠٥٣
٥ يحيى (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥	(للمرة الثانية)		
٦ إدريس المتأيد	٤٢٧	١٠٣٥	١٢ محمد الثاني المستعلي	٤٤٦	١٠٥٤
٧ حسن المنتصر	٤٣١	١٠٣٩			

(المرابطون)

تسلسل نسب بني حمود



(١) Lane - Poole: Mnhammdan Dynasties, pp. 23 - 24.

علي بن حمود:

ملك بنو حمود قرطبة سنة ٤٠٧، وقتلوا سليمان المستعين، وأزالوا ملك الأمويين بالأندلس، وحكموا هذه البلاد نحواً من أربعين سنة تخللها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي. ولكن كيف يقبض الأمويون على العرش بأيديهم الضعيفة، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان؟.

ففي سنة ٤٠٧ هـ ولي بلاد الأندلس علي بن حمود بن أبي العيش الذي ينتمي إلى إدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب. وكان علي بن حمود يلي مدينة سبتة، وأخوه القاسم بن حمود يلي الجزيرة الخضراء جنوبي الأندلس. وقد دعا خيران ـ وكان من البربر الذين يميلون إلى هشام المؤيد ـ الناس إلى الخروج على سليمان المستعين وبث الدعوة لعلي بن محمود، وأطمعه في ملك الأندلس. ولم يلبث أن قوي أمر خيران. سار ابن حمود نحو قرطبة ودخلها في سنة ٤٠٧، وبايعه الناس على طاعة هشام المؤيد ـ وكانوا يظنونه أنه لا يزال على قيد الحياة ـ وانهزم سليمان المستعين ومن معه من البربر وأسر، وسيق إلى ابن حمود مع أخيه وأبيه الحاكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وقتل سليمان، ودعي لابن حمود على منابر قرطبة، ولقب «المتوكل على الله»[1].

وقد بحث دوزي مصير هشام المؤيد فقال: إن علي بن حمود لما دخل مدينة قرطبة، كان أول ما اهتم به خيران والصقالبة الآخرون أن يبحثوا عن هشام. وارتاحت نفس ابن حمود لأنهم لم يعثروا له على أثر. وسأل سليمان المستعين في مجلس كان فيه الوزير ورجال الدين عما حدث لهشام، فأجاب بأنه قتل، فطلب إليه ابن حمود أن يدله على قبره. ولما عين مكان القبر، فتح، وسأل ابن حمود أحد خدام هشام: هل هذه الجثة التي وجدت في قبر مولاه جثة هشام؟ فأكد الخادم ـ الذي كان يعرف أن هشاماً لا يزال حياً ـ القول بوفاة هشام خوفاً من بطش ابن حمود، واستدل على أن الجثة التي في القبر جثته بسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة، وأقر بعضهم هذه الشهادة تقرباً إلى ابن حمود، أو خوفاً من إثارة حنقه عليهم وبطشه بهم.

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ـ ١٠١. المقري ج ١ ص ٢٠٣.

ومن ثم أصبح الصقالبة أمام الأمر الواقع، وهو الاعتراف بموت حاكمهم الشرعي وبخلافة علي بن حمود. ثم أمر علي بن حمود بقتل سليمان المستعين وأخيه وأبيه. وبينما اقتاد الجند الحاكم أبا سليمان ليقتلوه قال ابن حمود: إذاً لقد قتلت هشاماً؟ فأجاب ذلك الرجل التقي الذي قضى أيامه في العبادة ولم يشترك في الحوادث السياسية: لا! والله شهيد على ما أقول، إننا لم نقتل هشاماً، وإنه لا يزال حياً. وقبل أن يتم كلماته هذه أشار ابن حمود الذي خشي أن ينكشف أمره، إلى سيافه فهوى بالسيف على سليمان فقتله، ثم دفنت جثة هشام الثاني المؤيد من جديد بعد أن احتفل به الاحتفال اللائق بمثله من الملوك.

ويقول دوزي إن هشاماً لم يظهر أبداً رغم ظهور ذلك الدعي والذي كان يشبهه تمام الشبه وادعى ملك إشبيلية، واعترف به أميرها محمد بن عباد، لأغراض سياسية غايتها اتخاذ ذلك ذريعة لاستئثاره بالسلطان هناك ومناوأة خصومه.

ولكن لم يقم دليل على أن هشاماً قتل بيد سليمان المستعين أو أنه مات ميتة طبيعية في أثناء حكمه. وكان أشياع الأمويين في الأندلس الذين عرفوا هشاماً، يصرحون بأن هذه الجثة التي ووريت في التراب من جديد لم تكن جثة هشام، وقد يكون اعتراف سليمان المستعين لعلي بن حمود بأن هشاماً لا يزال حياً وسيلة لتخليصه من الموت، أو أن ابن حمود قد وعده أن يكون هذا الاعتراف مؤدياً إلى نجاته. أضف إلى ذلك أن سليمان لم يكن ميالاً بطبعه لسفك الدماء. ولو أن هشاماً مات حقيقة في عهده، لأمر بعرض جثته على أهل قرطبة كما جرت العادة بذلك، وكما كانت تقضي مصلحته الخاصة ليستميل إليه قلوب الصقالبة الذين بذل ابن حمود قصارى جهده في اعترافهم بسلطانه. ولم يكن ابن حمود يجد وسيلة أحسن من هذه ولو أنهم تحققوا موت هشام، أضف إلى ذلك شهادة الحاكم أبي سليمان، الذي لم يرض عن تصريح ابنه سليمان، وأشهد الله على أن هشاماً كان لا يزال على قيد الحياة. فهل كذب هذا الرجل الورع في آخر ساعاته من الدنيا وهو مقبل على الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين؟

ويميل دوزي إلى تصديق أقوال نساء قصر هشام وخصيانه، الذين أقروا بأنه جاهد للفرار من قصره في عهد سليمان؛ وأنه بعد أن استخفى في قرطبة وعاش كما يعيش الصناع العاديون، هرب إلى آسيا الصغرى، فهل تم له ما أراد من ذلك بإغضاء سليمان عنه؟ وهل أقسم هشام بأن لا يزعج سليمان بعد ذلك؟ وهل اتصل أحدهما بالآخر بالمراسلة؟ هذه أسئلة توحي بها إجابة الحاكم أبي القاسم المستعين ساعة قتله، ولكنها مجرد احتمالات لا

يقين معها. ولا يبعد أن يكون هشام، الذي قلق من سماع اسمه ترديده الإشاعات ويستغله ذوو الأطماع، فقد رأى أن يلجأ إلى مكان بعيد في إحدى جهات آسيا المجهولة، يقضي فيه البقية الباقية من حياته المليئة بالآلام والأحزان في دعة واطمئنان. وقيل أيضاً إنه آثر أن يقضي بقية أيامه في التعبد بالمدينة بعيداً عن ذلك العرش الذي التف حوله الطامعون وكثرت عنده الفتن والمنافسات(١).

وقد أفلت من هذه الفتنة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وترك قرطبة واستخفى بجبل جيان، فبايعه خيران ولقبه المرتضي، وكان قد خرج علي ابن حمود. وتبعه أمراء سرقسطة وشاطبة وبلنسية وغيرها ويمموا شطر غرناطة. ولما وصلوا إليها أرسل عبد الرحمن المرتضي إلى زاوي، وكان قد بلغ سليمان المستعين بالخلافة، كتاباً رقيقاً يدعوه فيه إلى مبايعته. ولما قرأ زاوي هذا الكتاب، أجاب بسورة الكافرون: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين**﴾(٢).

ولم يلبث علي بن حمود أن قتل في السنة التالية في أثناء محاربته أهل جيان المشايعين للأمويين. وقد قيل في سبب قتله إن ثلاثة من الصقالبة الذين تمتعوا بعطفه هم الذين قتلوه. ولما سئلوا عن الأسباب التي حملتهم على ارتكاب جريمتهم أجابوا بأنهم لا يحملون لعلي ضغينة أو حقداً، وإنما قتلوه غيرة للوطن وتخليصاً له من ذلك الحاكم الذي أصبح لا يحتمل طغيانه وظلمه وجبروته، كما أنهم لم يقوموا بهذا العمل بتحريض خيران أو أهالي قرطبة(٣).

خلفاء علي بن حمود:

ثم تولى القاسم بن حمود ملك قرطبة، ولقب «المأمون». ولكن ملكه لم يطل إذ خرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود أمير سبتة في سنة ٤١٣ هـ(٤)، وتلقب «المعتلي». وفر القاسم إلى إشبيلية حيث بايعه القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد وانضوى

(١) Dazy. The Moslems in Spain. pp. 565 - 566

(٢) ١٠٩ : ١ ـ ٦ Dozy Ibid.p.568

(٣) Dozy Ibid. p. 586 أنظر أيضاً المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤.

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

تحت لوائه عدد كثير من البربر، وسار بهم إلى قرطبة، فملكها في السنة التالية وبقي بها ست سنين. ولم يلبث يحيى أن سار إلى قرطبة، وأسر القاسم وحبسه إلى أن مات يحيى وملك أخوه إدريس، فقتله (٤٣١ هـ) وهو في الثمانين من عمره[١].

ولما انهزم القاسم بن حمود وأنصاره من البربر، أجمع أهل قرطبة على إعادة الخلافة إلى بني أمية، فبايعوا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر في ١٣ رمضان سنة ٤١٤ هـ، ولقب «المستظهر بالله»، ولكنه لم يبق في الخلافة أكثر من شهر وسبعة عشر يوماً، ثم قتل، فبايع الناس محمد بن عبد الرحمن الناصر، ويكنى أبا عبد الرحمن الأموي (ذو القعدة ٤١٤ هـ)، ولقبوه «المستكفي بالله». ولم يهتم الخليفة الجديد إلا بإشباع بطنه وشهواته، ولم يبق في الخلافة غير ستة عشر شهراً حيث ثار عليه أهل قرطبة في شهر ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ وخلعوه.

ولما توفي المستكفي عاد أهل قرطبة إلى دعوة الحموديين، وبايعوا يحيى بن علي بن حمود (المعتلي بالله) للمرة الثانية، وخطب له على منابر قرطبة سنة ٤١٦ هـ. ولكنه آثر البقاء في مالقة، وولى قرطبة عبد الرحمن بن عطاف اليفرني، وبقي يحيى بن حمود خليفة على قرطبة إلى أن أبطلت الخطبة للحموديين في سنة ٤١٧ هـ، وأعيدت إلى الأمويين. وبايع الناس أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه «المعتمد بالله» (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ودخل قرطبة في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ. ولكن عهده امتاز بكثرة الفتن والاضطرابات، ولم يلبث أن خلع في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن هذا الخليفة الأموي كان يساعد البربر ويحسن إليهم. «فنفر عنه أهل قرطبة فوضعوا عليه من خلعه».

وذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٤) أيضاً أنه بعد أن قطعت الخطبة ليحيى بن علي بن حمود للمرة الثانية، وبويع هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ ـ ٤٢٢ هـ) سار يحيى إلى قرمونة فأقام بها محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها فأتاه الخبر يوماً أن خيلاً لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباد إلى نواحي قرمونة، فركب إليها ولقيهم وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة».

---

(١) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤.

بويع بالخلافة بعد يحيى أخوه إدريس بن علي (٤١٧ ـ٤٣١ هـ) صاحب سبتة وطنجة، وسار إدريس إلى مالقة بعد أن أناب عنه ابن أخيه حسن بن يحيى في حكم سبتة. وتلقب إدريس «المتأيد بالله» وبقي في الخلافة إلى سنة ٤٣١ هـ (وقيل سنة ٤٣٠هـ).

ولكن القاضي أبا القاسم بن عباد ناوأ سلطان الحموديين، فأرسل ابنه إسماعيل لانتزاع هذه البلاد من أيديهم، فاستولى على قرمونة وأشبونة وأستجة. وقتل ابن عباد وأرسل رأسه إلى إدريس الذي لم يلبث أن مات بعد يومين، فملك بعده ابنه محمد الأول الجزيرة الخضراء ولم يلقب نفسه بلقب خليفة.

وآلت الخلافة بعد محمد إلى حسن بن يحيى بن علي بن حمود الذي تلقب «المستنصر بالله»، ولكنه لم يلبث أن مات في سنة ٤٣٤ هـ. وقيل إن زوجته ابنة عمه إدريس سمته انتقاماً لقتل أخيها يحيى. وأخرج البربر إدريس الثاني بن يحيى وبايعوه بالخلافة ولقبوه «العالي». وقد اشتهر بالتصدق على الفقراء حتى كان يتصدق بخمسمائة دينار في كل أسبوع وسمح للمبعدين بالعودة إلى بلادهم ورد إليهم مملكاتهم. كما اشتهر إدريس بالأدب وأجاد الشعر. غير أنه يؤخذ عليه مصاحبة الأشرار الذين أغدق عليهم ومنحهم كثيراً من الحصون وسلم إليهم وزيره موسى بن عفان فقتلوه، كما اعتقل محمد والحسن ابني عمه إدريس الأول بن علي. ولما ظهر سوء سياسته، خرج عليه أنصاره وبايعوا ابن عمه محمد الأول بن إدريس بن علي (٤٣٨ ـ ٤٤٤ هـ) ولقبوه «المهدي». وقد عرف بالشجاعة والإقدام، فهابه البربر وخافوه، وعملوا على التخلص منه، ولذلك كتبوا إلى إدريس بن يحيى (٤٤٤ ـ ٤٤٥ هـ)، ثم بايعوه بالخلافة ولقبوه «الموفق»، وخطب له بسبتة وطنجة.

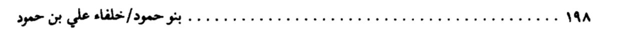
وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٠٥) أن الأمور اضطربت في أواخر أيام بني حمود حتى إنهم لقبوا أربعة من أفراد البيت الحمودي بالخلافة في وقت واحد وفي مكان ضيق من الأرض لا تجاوز مساحته ثلاثين فرسخاً، فولي الجزيرة ابنه القاسم ولم يتسم بالخلافة، وبقي محمد بن إدريس بمالقة إلى أن مات سنة ٤٥٥ هـ. فلما تولى إدريس (الأول المتأيد) ابن علي، قصد إدريس بن يحيى مالقة فملكها، ثم انتقلت إلى صنهاجة.

وبويع محمد بن إدريس الثاني العالي بالخلافة وتلقب «المستعلي» (٤٤٦ هـ)، غير أنه لم يكن له من الأمر شيء، بل امتازت الثلاث السنين التي قضاها في الحكم بقيام الفتن والثورات. وكان محمد آخر من ولي الحكم من بني حمود، فقد تغلب باديس بن حبوس

على مالقة في سنة ٤٤٩ هـ، وخلع محمداً الذي أرغم على المسير إلى المرية، ثم بـويع بالخلافة ببلاد المغرب سنة ٤٥٦ هـ حيث بقي بها إلى أن توفي سنة ٤٦٧ هـ.

ويقول المقري (جـ ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨): «وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الأندلس، بعد أن كانوا يدعون الخلافة. . . وانقـطعت الدولـة الأمويـة من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتثر الأمراء والرؤساء من البربر والعـرب والموالي بـالجهات، واقتسمـوا خطبتهـا، وتغلب بعض على بعض واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزي للطاغيـة أن يظاهـر عليهم أو يبتزهم ملكهم. وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قـطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، فخلعهم، وأخلى منهم الأرض. فمن أشهرهم بنو عامر ملوك أشبيلية في غربي الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير بسائر المغرب والمشرق. وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هـو كاف، ومنهم بنـو جهور. كانوا بقرطبة في صورة الـوزارة حتى استولى عليهـا المعتمد بن عبـاد وأخذ قـرطبة وجعل عليها ولده، ثم كانت لـه وعليه حـروب وخطوب، وفـرق أبناءه على قـواعد الملك وأنزلهم بها، واستفحل أمره بغرب الأندلس، وعلت على يده من هنالك من الملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن صمادح بالمرية وغيـرهـم. فكانـوا يخطبون سلمه ويغلون في مرضاته. وكلهم يدارون الطاغية ويتقونة بالجـزي، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين (سنة ٤٤٨/١٠٥٦ م)، واستفحل ملكه، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته، ضايقهم الطاغيـة في طلب الجزيـة، فقتل المعتمـد اليهودي الـذي جاء في طلب الجـزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها (آلمه). ثم أجاز البحر صريحاً إلى يوسف بن تاشفين، فأجاز معه البحر، والتقوا معه في الزلاقة، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، ونصر الله تعالى الإسلام نصر الأكفاء له».

وقـد أدى انقسـام بـلاد الأنـدلس إلى ضعف المسلمين، ومهـد السبيـل لـلإمـارات المسيحية في الشمال للقيام في وجه أمـراء العرب على أثـر ما قـام بينهم من التنافس على الخلافة، حتى بلغ من تنافسهم أن كان بعضهم يستعين بـالمسيحيين على منافسيـه. وبلغ القونس الرابع حاكم قشتالة من القوة بحيث أرغم أمراء المسلمين المجاورين له على دفـع الجزية.



وعلى الرغم من ذلك الانحلال الذي دب في جسم الدولة الأموية في الأندلس، كان عصر ملوك الطوائف من أزهى العصور في العلوم والفنون والآداب. ولا غرو، فقد نافس كل من إشبيلية وطليطلة ومالقة وبلنسية وغيرها من حواضر هذه الدويلات، قرطبة بعد أن كانت وحدها مركزاً للعلوم والفنون في بلاد الأندلس.

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

١ - الاثنا عشرية

زخر العصر العباسي الثاني بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر. فقد قام الشيعيون بحركات ثورية كان من أثرها في انتزاع كثير من بلاد الدولة العباسية، وانتشار المبادىء الشيعية، وخاصة مبادىء الإسماعيلية بين القرامطة في سواد الكوفة، وفي البحرين، وفي شمالي العراق، وفي بلاد اليمن على يد ابن حوشب وخلفائه من الصليبيين خاصة. ولم تخل بلاد الفرس من دعاة الإسماعيلية في هذا العصر، وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم في مصر، وامتداد رقعتها إلى فلسطين والشام، وإلى بلاد الحجاز وغيرها، وخطب للفاطميين في الموصل وبغداد حيناً من الدهر.

وظهر كذلك في هذا العصر كثير من الحركات السياسية والدينية على أيدي الخوارج والزنج. وعلى الرغم من أن العباسيين استطاعوا أن يقضوا على هذه الحركات، إلا أنها شغلت الدولة العباسية وكلفتها كثيراً من الدمار والأموال. أضف إلى ذلك حركات المعتزلة الذين انتعش مذهبهم حيناً من الدهر، وتأثروا بالفلسفة الإغريقية كما تأثر بها إخوان الصفا مؤلفو الرسائل الفلسفية المشهورة، وذاع مذهب السنة بظهور أبي الحسن الأشعري وحجة الإسلام الغزالي، وتطورت آراء المتصوفين، فظهر منهم المعتدلون والغلاة على ما سيأتي.

ففي أواخر الدولة الأموية انضم فريق كبير من الزيدية الذين كانوا قد اعتزلوا زيد بن علي بن زيد العابدين بن الحسين بن علي، إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. والإمام - على ما ذهب إليه الإمامية - يكتسب حقه في الإمامة بالوراثة عن علي بن أبي طالب باعتباره خليفة النبي شرعاً. ويكون الإمام وارثاً للنبي عن طريق ابنته فاطمة، ويغلب في

اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سناً، بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ قد أدى ـ على ما رأينا ـ إلى انقسام الشيعة الإمامية قسمين:

١ ـ الإمامية الموسوية:

وقد أطلق عليهم فيما بعد الإثنا عشرية، وكانوا يقولون بإمامة موسى الكاظم، الابن الأصغر لجعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع.

٢ ـ الإمامية الإسماعيلية:

ويقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه. ومع أن وفاته كانت في حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ، حول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد المستور؛ وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية، لتمييزهم عن طائفة الإثنا عشرية[١].

وفي شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكري[٢]، وهو الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية، ولد سماه محمداً من أم ولد اسمها صقيل. فلما توفي الحسن في سنة ٢٦٠ هـ كان ابنه محمد في الخامسة من عمره، فأصبح الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية الموسوية الذين عرفوا فيما بعد بطائفة الإمامية الاثني عشرية. ويقال إن محمداً دخل سرداباً في مدينة سامرا وأمه تنظر إليه؛ ولكنه لم يعد، ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين.

ومن هنا تنسب إلى محمد الإمام الثاني عشر غيبتان: الغيبة الصغرى، وتبدأ بمولده في سنة ٢٥٥ هـ وتنتهي بموت أبيه في سنة ٢٦٠ هـ، والغيبة الكبرى، وتبدأ من اختفائه أخيراً في سنة ٢٦٥ هـ إلى الآن، ولا يزال أنصاره ينتظرونه إلى اليوم. ولهذا يعتقد الإمامية الإثنا عشرية أن محمداً الإمام الثاني عشر سيظهر ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ومن ثم سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالأمر، والحجة.

وقد ذكر المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٥ هـ أن الحسن العسكري

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) نسبة إلى العسكر. والمراد هنا مدينة سامرا التي أسسها الخليفة المعتصم لتكون معسكراً لجنده الأتراك، ولكنها لم تلبث أن أصبحت حاضرة الخلافة العباسية نحو ستين سنة (٢٢١ ـ ٢٧٩ هـ)، ثم عادت بغداد حاضرة هذه الخلافة.

عهد بنشر دعوته إلى بعض رؤساء الشيعة: فكان أبو سعيد العمري رئيس الإمامية الإثني عشرية الوكيل الأول، والنميري الذي يعتبرونه أصل الطائفة النصيرية(١) الوكيل الثاني، وحسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل عليٍّ على يد رجال من بيته الوكيل الثالث.

وقد ظلت طائفة الإمامية الإثنا عشرية معيناً يمد طائفة الإمامية الإسماعيلية بمشهوري الدعاة الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الإسماعيلية مثل ابن حوشب، وابن فضل اليمني اللذين قامت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن بفضل جهودهما، وأبي عبد الله الشيعي المحتسب الذي يرجع إليه الفضل في نشر الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. ويظهر أن هؤلاء الدعاة الجريئين ملوا انتظار عودة الإمام الثاني عشر فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملأ الأرض عدلاً، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر، الذي طالت غيبته، وغدا ظهوره في نظرهم أمراً بعيد الوقوع(٢).

٢ ـ الإسماعيلية أو السبعية

(أ) دور الستر:

قام النزاع بين الموسوية أشياع موسى الكاظم وبين الإسماعيلية أشياع أخيه إسماعيل ومحمد بن إسماعيل من بعده. وهؤلاء يقولون ببطلان إمامة موسى، لأنه قد نص على إمامة إسماعيل، إلا أن المعتدلين من الإسماعيلية لم يعترضوا على إمامة موسى في حياة أبيه، وقالوا إنه إمام مستودع (acting or trustee Imam) كالحسن بن علي بن أبي طالب الذي لم يستطع أن يورث الإمامة لأبنائه، رغم أنه كان إماماً، على حين كان الإسماعيلية يرون أن إسماعيل إمام مستقر (Permanent or necessery Imam) يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه، فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب(٣). ويرى بعض آخر أن جعفر الصادق

---

(١) من أشهر الفرق الاثني عشرية وغلاتهم الذين يؤلهون علي بن أبي طالب، ولا يزال لهم بقايا في فارس والشام.

(٢) Dozy: Histoire des Musulmanes d'Espagne, vol. III, p.128.

(٣) Bernard Lewis: The Origins of Isma'ilism, pp. 49 - 52' Ivanow: Kalami pir.p. xlviii.

عهد بالإمامة إلى موسى الكاظم تقية (تظاهراً بغير ما يخفي ليتقي سطوة الحاكم)، حتى لا يتعرض أبناء إسماعيل، وهم الأئمة الحقيقيون، لاضطهاد العباسيين. ويرى بعض المؤرخين أن جعفر الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة لأنه رُمي بشرب الخمر وسوء السيرة، ويعتقد أنصاره عصمته زاعمين أن شرب الخمر قد يكون لحكمة قد لا يستطيع المرء فهمها.

ومن ذلك يتبين أن الإمام المستودع هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ولا يستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده، كالحسن بن علي في نظر الإمامية، وموسى الكاظم في نظر معتدلي الإسماعيلية، وأن الإمام المستقر هو الذي يتمتع بالإمامة في حياته ويستطيع أن يحولها إلى أبنائه من بعده، كالحسين بن علي وأبنائه من الأئمة، وكإسماعيل بن جعفر في نظر الإسماعيلية.

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعيين عامة، أن عمد أئمة الإسماعيلية إلى الاختفاء ونشر دعوتهم في طي الكتمان. ولا غرو فقد أوقع العباسيون بمحمد النفس الزكية في الحجاز وبأخيه إبراهيم في العراق سنة ١٤٥ هـ، وقتلوا الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ (سنة ١٦٩ هـ) التي هرب منها يحيى بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه إدريس بن عبد الله الذي أسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، وخرج في خلافة المأمون محمد الديباج بن جعفر الصادق بمكة، والقاسم بن إبراهيم بن الحسن الذي استتر في مصر نحواً من عشر سنين، وبث دعاته في مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وفي بلخ والطالقان ومرو، وظل على ذلك إلى أن انتقض عليه أمره في عهد المعتصم[١].

لذلك لا نعجب إذا رأينا أئمة الإسماعيلية يلجئون إلى نشر دعوتهم في الخفاء، وفي بلاد بعيدة عن مركز الدولة العباسية، ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة[٢]، وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم، وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية مدينة سَلَمْية من أعمال حماه ببلاد الشام مركزاً لنشر الدعوة، وكانوا يبعثون من هذه المدينة الدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية، ويعهدون في تنظيم الدعوة إلى كبار الدعاة الذين كان يطلق عليهم في هذا الدور، وهو دور الستر، نواب الأئمة أو الحجج، وهؤلاء يرسلون دعاة

(١) أنظر الجزء الثاني من هذا الكتاب (الطبعة السادسة) ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٤ ـ ٣٦.

من قبلهم لنشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي.

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين تصدوا لنشر هذا المذهب وكانت إليهم رياسة هذه الدعوة، ميمون القداح الذي وضع دعامة المذهب الإسماعيلي؛ حتى اعتقد البعض أنه هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق نفسه، واعتقد بعض آخر أنه كان يصدر في عمله عن ميول شعوبية ترمي إلى مقاومة الإسلام وإعادة النفوذ إلى الفرس، وأنه إنما اتخذ قداحة العيون أو تطبيبها (هي عملية استخراج ماء من العين) وسيلة لإخفاء أغراضه الأصلية، وهي نشر المذهب الإسماعيلي. ومهد بذلك السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية، وابتدع دعوة منظمة قسمها إلى سبع درجات أو مراتب زيدت بعده حتى أصبحت تسعاً في أيام الفاطميين، ولم يمت عبد الله حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد راجت في كثير من البلاد الإسلامية.

ولما مات عبد الله بن ميمون خلفه في رياسة الدعوة الإسماعيلية ابنه أحمد[1]. ويرمي ابن النديم (ص ٢٦٥) أن الذي خلف عبد الله ابنه محمد، وذكر غيرهم أن أحمد هو الذي خلف أباه عبد الله وأنه كان يلقب أبا الشلعلع، ويظهر أن عبد الله اتخذ من سلمية مركزاً رئيسياً لنشر الدعوة، وعين ابنه الحسين لرياسة الدعوة بها، كما عين ابنه أحمد أبا الشلعلع لرياسة الدعوة في بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة وبغداد؛ وعين أحد أولاده لرياسة الدعوة في فارس. ولما مات الحسين بن عبد الله حول سنة ٢٦٠ هـ، عهد عبد الله إلى ابنه أحمد أبي الشلعلع برياسة الدعوة في سلمية والعراق. ومن ثم انتقلت إليه رياسة الدعوة بعد موت أبيه حول سنة ٢٧٠ هـ، وأصبح وصياً على سعيد ابن أخيه الحسين الذي يزعم بعضهم أنه عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين. وقد بعث أحمد هذا ابن حوشب لنشر الدعوة في بلاد اليمن، كما بعث أبا عبد الله الشيعي إلى اليمن لتلقي أصول الدعوة عن ابن حوشب قبل رحيله إلى بلاد المغرب.

أرسل عبد الله بن ميمون وهو في الأهواز أحد دعاته؛ وهو الحسين الأهوازي، إلى سواد الكوفة، حيث لقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط. الذي لم يلبث أن دخل في الدعوة وساعد نشرها في سواد العراق. بعد أن ترك له الحسين الأهوازي أمر الدعوة، وصادفت الدعوة الإسماعيلية على يد حمدان رواجاً عظيماً بين العرب.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣٤٨. النويري: نهاية الأرب، مخطوط جـ ٢٦ ص ٢٤.

وكان من أكبر دعاة حمدان، صهره عبدان الذي صادفت الدعوة الإسماعيلية على يده كثيراً من النجاح، حتى أن أبا سعيد الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال، أي شمالي غربي بلاد العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام قد أخذا الدعوة عنه. ولم يلبث أن اختفى حمدان قرمط، وقتل عبدان على أثر انتقاضهما على أبناء القداح بعد سنة ٢٨٠ هـ، وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه ونحو الجنوب على يد أبي سعيد الجنابي.

بدأ زكرويه ينشر دعوته في الخلفاء وامتد نشاطه إلى بادية السماوة وبعض مدن الشام وتسمى هذه الحركة حركة الجزيرة العراقية والشام[١] The Syro Mesoptamian Movement وانتشرت دعوة القرامطة على يد أبناء زكرويه؛ فقد حاصر ابنه يحيى دمشق سنة ٢٨٩ هـ، ولكنه قتل على أبوابها، وانتقلت رياسة الدعوة إلى أخيه الحسين الذي أثار القلق في بلاد الشام حتى قضى عليه محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي سنة ٢٩١ هـ. وخرج زكرويه من مخبئه وحارب العباسيين انتقاماً لقتل ابنيه ورغبة في نشر الدعوة الإسماعيلية ولكنه قتل في سنة ٢٩٤ هـ.

أما الحسين بن بهرام، ويكنى أبا سعيد الجنابي، نسبة إلى جنابة، وهي بلدة على ساحل الخليج الفارسي شرقاً، فقد قام بنشر الدعوة الإسماعيلية في القطيف، وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة، وعمل على تكوين مجتمع إسماعيلي يدين له بالطاعة. ولكن الدولة العباسية لم تستطع القضاء عليه بسبب انشغالها بحرب قرامطة الشمال بزعامة زكرويه بن مهرويه وأبنائه.

وصفوة القول أن القرامطة في دور الستر أقلقوا العباسيين، فأذكوا الفتن في سواد الكوفة، وفي العراق العربي، وبادية الشام، وفي أكثر أرجاء سورية.

كذلك انتشرت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد ابن حوشب وابن فضل الجدني نسبة إلى جدن، وهي مفازة باليمن. وقد قيل إن أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي استمال ابن حوشب إليه وأرسله إلى بلاد اليمن، حيث استقر بقلعة لاعة جنوبي مدينة صنعاء، واتخذها مركزاً لنشر دعوته ومد نفوذه. ولم يلبث أن استمال إليه أهالي هذه البلاد

---

(١) Bernard Lewis. TheOrigins of Ismailism, pp. 73 - 74

وأقام الحصون والمعاقل، وانتصر على والي العباسيين وأمراء اليمن، وأرسل الدعاة إلى سائر بلاد اليمن والبحرين واليمامة والسند والهند ومصر والمغرب.

ولما اتصل بابن حوشب نبأ موت الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية في المغرب، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بنشر الدعوة في هذه البلاد. فسار إلى مكة، حيث التقى بحجاج كتامة وصحبهم إلى مصر، وجذبهم إليه ببلاغته، فطلبوا إليه المسير معهم إلى بلادهم. ولما وصل إلى بلاد كتامة وهي بلاد الجزائر اليوم (ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ)، نزل بفج الأخيار بجبل إيكجان من أرض كتامة على مقربة من قسنطينة، وأخذ ينشر دعوته بمساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة. وقد حاول إبراهيم الثاني الأغلبي م(٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ) أن يجذب أبا عبد الله إليه. ولما أخفق في محاولته أرسل إليه حملة (٢٨٧ هـ) انتهت بالإخفاق، كما أرسل إليه حملة أخرى حلت بها الهزيمة.

وفي سنة ٢٩١ هـ وقع في يد داعي الشيعة كثير من مدن المغرب، وساعد على انتصاره موت إبراهيم الثاني الأغلبي، ولحاق ابنه أبي العباس به في السنة التالية، وتولية ابنه زيادة الله (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ)، الذي انصرف إلى اللهو، وميل وزرائه إلى عقائد المذهب الشيعي الذي اعتقده كثير من أهالي هذه البلاد، وفي سنة ٢٩٦ هـ استولى أبو عبد الله على القيروان التي تبعد أربعة أميال عن مدينة رقادة، وفر زيادة الله من رقادة، وزالت دولة الأغالبة بإفريقية، وأطلق عبيد الله المهدي من سجنه في سجلماسة.

وقد استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يجهر بالدعوة لعلي وفاطمة، فأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى الحسين وفاطمة[1] وتكللت جهود الإسماعيلية في دور الستر بالنجاح، وقامت الدولة الفاطمية أو دولة الفواطم، التي عرفت أخيراً باسم دولة العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس هذه الدولة.

(ب) دور الظهور:

١ ـ نشر الدعوة الفاطمية في الدور المغربي:

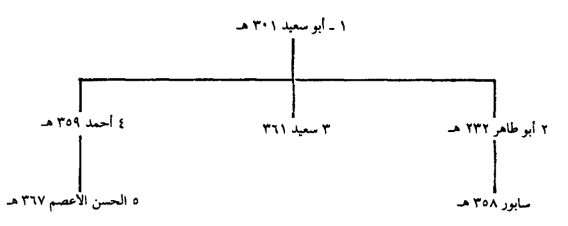
أخذت الدعوة الفاطمية تعمل على تنظيم دعوتها في جميع أنحاء العالم الإسلامي عن طريق دعاتهم. ففي بلاد اليمن تعرضت الدعوة الإسماعيلية للخطر بسبب قيام النزاع بين ابن

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٣٦.

حوشب (منصور اليمن) وعلي بن فضل الذي خرج على هذه الدعوة، وحارب ابن حوشب واستولى على عدن ولاعة. ولم يلبث ابن فضل أن مات مسموماً (٣٠٣ هـ). كذلك كان موت منصور اليمن (٣٠٢ هـ) من العوامل التي أضعفت الدعوة الإسماعيلية باليمن[١] واتخذ السنيون من هذه الحالة فرصة للقضاء على المذهب الإسماعيلي، واضطر أنصار الفاطميين إلى نشر دعوتهم في الخفاء، حتى ظهرت قوتهم حول منتصف القرن الخامس الهجري على يد علي بن محمد الصليحي في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي.

وفي البحرين عمل أبو سعيد الجنابي وابنه سعيد على التقرب إلى العباسيين مما أثار



حنق الفاطميين وأنصارهم من القرامطة. فأثاروا الفتن وخلعوا سعيداً وولوا أخاه أبا طاهر. وأقرهم عبيد الله المهدي على ذلك (٣٠٥ هـ). وقام أبو طاهر بحملات إرهابية ليشغل العباسيين، ويتيح الفرصة للفاطميين لامتلاك مصر. ولما مات أبا طاهر سنة ٣٣٢ هـ، أقر الخليفة الفاطمي القائم أخاه أحمد في رياسة الدعوة في هذه البلاد. وقد أدت هذه السياسة إلى قيام النزاع بين أنصار أبي طاهر وأنصار أخيه أحمد، وبين القرامطة والفاطميين حيناً من الدهر.

وفي فارس قام «خلف» بنشر الدعوة الإسماعيلية، وجمع حولها لفيفاً من العلماء من أمثال الداعي غياث الذي أصبح في عهد أحمد بن خلف نائباً لرياسة الإسماعيلية أو الخليفية كما كانت تسمى في فارس[٢]. وأصبغت الدعوة الإسماعيلية في هذه البلاد بالصبغة العلمية والفلسفية. ومن أكبر دعاة الإسماعيلية في فارس: أبو حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ،

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص ١٥١. (٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٦.

وكان له تأثير كبير على الأمراء، حتى أن يوسف بن أبي الساج أمير الري، فكر في خلع طاعة الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) والدخول في طاعة المهدي الفاطمي، كما جذب أسفار بن شيرويه أمير قزوين، وقائده مرداويج بن زياد الديلمي.

ومن أشهر دعاة الإسماعيلية في فارس محمد بن أحمد النسفي (٣٣١ هـ)، الذي عمل على جذب نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) أمير خراسان وما وراء النهر، وأدخله في الدعوة الإسماعيلية. ولكن قواده سخطوا عليه لاعتناقه عقائد هذه الدعوة ودبروا مؤامرة لاغتياله، فنزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي في بلاده[1].

وفي مصر كان الفاطميون يرسلون إليها مع جيوشهم دعاة لنشر مذهبهم فيها، فكانوا يندمجون في المصريين، ويلقنونهم عقائد هذا المذهب الذي اعتنقه كثير من المصريين. وكان للخلفاء الفاطميين، نصيب كبير في نشر هذه الدعوة. وليس أدل على ذلك من الكتاب الذي أرسله الخليفة الفاطمي القائم إلى محمد بن طغج الإخشيد يدعوه إلى قبول دعوته والدخول في طاعته[2].

وفي عهد المعز الفاطمي أصبح في مصر جماعة كبيرة تدين بعقائد المذهب الإسماعيلي، فأرسل إلى كافور الإخشيد وإلى أكابر قواده يدعوهم إلى طاعته. ويقول المقريزي (جـ٣ ص ٢٧): «قدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه لطاعته، فلاطفهم؛ وكان أكثر الإخشيدية والكافروية والكتاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز. وكان كافور نفسه يحسن إلى العلويين في مصر ويدر عليهم الهبات والأرزاق».

٢ ـ نشر الدعوة الفاطمية في الدور المصري:

انقسم القرامطة بسبب قيام المنافسة بين أولاد أبي سعيد فريقين: فريق بزعامة بني أبي طاهر ظل على ولائه للفاطميين. وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد وعلى رأسه الحسن الأعصم الذي أصبح يضمر العداء للفاطميين ويعمل على التقرب للعباسيين.

وقد اتخذ الحسن الأعصم من استيلاء الفاطميين على دمشق في سنة ٣٥٨ هـ، ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة، فرصة للانتقام من الفاطميين، فسار إلى بلاد

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٦ وما يليها.
(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ٢٦ وما يليها.

الشام واستولى على دمشق، ثم سار إلى الرملة ثم إلى الفرما وعسكر بجنده في عين شمس. وفي أوائل ربيع سنة ٣٦١ هـ دار القتال بين القرامطة والفاطميين عند باب مدينة القاهرة، ودارت الدائرة على القرامطة الذين ارتدوا إلى القلزم(١). وأرسل الخليفة المعز، وكان لا يزال في بلاد المغرب، مدداً لجوهر، الذي استطاع أن يرد الحسن القرمطي وجيشه إلى دمشق، وأخذ يعد العدة لغزو مصر من جديد، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الإحساء لإخماد ثورة أنصار أبي طاهر.

ولما قدم المعز إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٢ هـ أرسل إلى الحسن الأعصم القرمطي كتاباً طويلاً يهدده فيه ويتوعده(٢)، فرد الحسن على هذا الكتاب بكلمات قصيرة تدل على عدم مبالاته بتهديد المعز ووعيده، وعلى شدة رغبته في محاربة الفاطميين، فقال: «وصل كتابك الذي قل تحصيله، وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على إثره والسلام»(٣). ولم يلبث أن ظهر القرامطة في عين شمس (ربيع الثاني ٣٦٣ هـ)، وحميت الحرب بين الفريقين، وانتهت بتشتيت قوة الحسن القرمطي واسترداد الفاطميين دمشق.

وفي أواخر عهد المعز ثار أهل دمشق وأتاحوا الفرصة لدخول أفتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه وإعادة الخطبة للعباسيين. وقد عمل العزيز الفاطمي على استمالة أفتكين الذي أبى، واستعان بالقرامطة، وتمكن من الاستيلاء على الرملة، ويمم شطر عسقلان، وحاصر جوهر الصقلي، وحمله على طلب الصلح. ولكن العزيز خرج بنفسه، ودارت بين الفريقين على نهر الطواحين بالقرب من الرملة معركة انتهت بهزيمة القرامطة وأفتكين، وعادت دمشق إلى أيدي الفاطميين.

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة المناوئين لسلطان الفاطميين، واستطاع العزيز أن يجذبهم إليه ويعيدهم إلى الطاعة(٤).

أما من ناحية العباسيين فقد عملوا على القضاء على أعدائهم الفاطميين، وساعدهم في ذلك بنو بويه برغم تمسكهم بعقائد المذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين حتى لا

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٨٦. خطط جـ ٢ ص ١٣٨.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ ـ ١٤٣.
(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩.
(٤) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٩١.

يتعرض سلطانهم في بلاد العراق للخطر. وهذا يعلل مساعدة البويهيين للقرامطة في حروبهم مع الفاطميين، وقد حاول العزيز الفاطمي أن يجذب إليه البويهيين، فأرسل إلى عضد الدولة بن ركن الدولة رسولاً من قبله (٣٦٩ هـ)، ثم تتابعت رسائله إليه، «فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية»[١].

على أن سياسة المودة قد تبدلت في أواخر عهد عضد الدولة الذي توجس خيفة من ناحية الفاطميين، فجمع مجلساً حضره العلويون الذين أقروا بطلان نسب الفاطميين. ويعتبر هذا العمل بدء تدوين المحاضر العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري، وأنكر فيها نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة. وقد هال العباسيين إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل[٢].

على أننا نلاحظ تطوراً واضحاً في سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) الذي تقرب إلى الفاطميين لإلقاء الرعب في قلوب العباسيين، وذلك بتأثير المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي المستنصر الفاطمي في فارس الذي عمل على مساعدة البساسيري حين خرج على الخليفة العباسي القائم وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد نحواً من سنة.

وكان الحمدانيون، كبني بويه، يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين، على الرغم من أنهم كانوا يميلون إلى المذهب الإسماعيلي. ولذا نرى الحمدانيين يشجعون القرامطة على غزو بلاد الشام في عهد المعز وابنه العزيز الذي عمل على الاستيلاء على حلب من يد سعيد بن سيف الدولة (٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ)، ولم ينقذه سوى تدخل البيزنطيين بقيادة الإمبراطور باسيل الثاني، وموت العزيز في بلبيس وهو في طريقه لفتح حلب سنة ٣٨٦ هـ. ولم تخضع حلب لحكم الفاطميين إلا في عهد الخليفة الحاكم[٣].

وقد انتشرت الدعوة للفاطميين في الموصل بعد أن انتزعها المقلد بن المسيب العقيلي من أيدي الحمدانيين سنة ٣٨٦ هـ وأسس فيها دولة العقيليين، وخطب قرواش بن المقلد للفاطميين على منابر الموصل والأنبار والكوفة والمدائن في شهر المحرم سنة ٤٠١ هـ، مما

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٥٦، ٢٥٨.

أثار حنق العباسيين والبويهيين، حتى إنهم فكروا في السنة التالية في عقد مؤتمر كتب فيه محضر بالطعن في نسب الفاطميين[١].

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن على يد علي بن محمد الصليحي المتوفى سنة ٤٥٩ هـ. وقد استعان به الخليفة المستنصر على إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها. ثم خلف علي الصليحي في نشر الدعوة الفاطمية في هذه البلاد ابنه الملك المكرم، والسيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المكرم[٢].

أما علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس، فقد كانت تنطوي على الكراهية والبغضاء بسبب ذلك العداء التقليدي الذي استمر بين البيتين الهاشمي والأموي منذ أيام الجاهلية. ومما يدل على استمرار ذلك العداء تلك الرسائل التي تبودلت بين العزيز بالله الفاطمي والحكم المستنصر الأموي. ذكر ابن خلكان[٣] أن العزيز كتب إلى الحكم يسبه ويهجوه، فرد هذا عليه بقوله: أما بعد. قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك. ويقول العيني[٣]: إن الحكم كتب إلى العزيز صاحب مصر كتاباً هجاه فيه وفي أهله، وأنه دعي في نسبه، وأن جده القداح باطني، وكتب في أول كتابه:

ألسنا بني مروانَ كيف تقلَّبتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ

فلما وقف العزيز عليه رد عليه بكتاب كتب في أوله:

إذ وُلد المولودُ منّا تهلّلت ... له الأرضُ واهتزَّتْ إليه المنابرُ

عرفتنا فهَجوتنَا ولو عرفناك لأجبناك، والسلام.

ولم يقتصر هذا العداء على الأمويين في الأندلس وحده بل شمل المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية بفضل مساعدتهم، فإن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي ولاه المعز لدين الله الفاطمي بلاد المغرب قبل مسيره إلى مصر واتخاذه القاهرة حاضرة لدولته، لم يهتم هو وأبناؤه من بعده بنشر الدعوة للفاطميين في المغرب.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

(٢) الحمادي اليماني: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣. ابن خلدون: العبر جـ ٤ص ٢٥١.

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢.

(٤) عقد الجمان، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١٩ ص ٣٩٦.

وقد قامت الحرب بين المعز الصنهاجي وبين المستنصر الفاطمي الذي استعان بقبائل بني هلال، واستولى على القيروان سنة ٤٤٩ هـ، ففر المعز إلى المهدية، ثم قطع ابنه تميم الخطبة للمستنصر الفاطمي وخطب للقائم العباسي وخلفائه، حتى قامت دولة الموحدين على يد أبي عبد الله محمد بن تومرت الذي تلقب بلقب المهدي، ومات في سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م)، ثم قطع أحد أخصائه من القواد، وهو عبد المؤمن، الخطبة للخليفة العباسي، وتلقب بلقب أمير المؤمنين[١].

(جـ) تنظيم الدعوة الفاطمية:

كان الإسماعيلية يتظاهرون أمام الناس بأمور تحبب إليهم المذهب الإسماعيلي الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق.

وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المريد وطلبوا منه حل رموز الدعوة، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام. وكانت هذه الدرجات رائجة في دوري الستر والظهور، وقد أولاها الفاطميون كثيراً من العناية، فعقدوا لها المجالس في القصور، والمكتبات والمساجد.

وكانت هذه الدعوة الإسماعيلية تسند إلى «داعي الدعاة»؛ وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة، وكثيراً ما كانت الوظيفتان تسندان إلى رجل واحد، ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً، وله نواب ينوبون عنه في البلاد[٢].

وكان داعي الدعاة يقوم برياسة الدعوة الإسماعيلية ويأخذ العهد على المريدين، إما مباشرة، أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد فيها المذهب الإسماعيلي، والإشراف على محاضرات المجالس وتنقيحها وعرضها على الخليفة لإقرارها وتذييلها بإمضائه[٣]. ومن أشهر دعاة الدعاة، أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي.

وقد خصص لداعي الدعاة مكان خاص بقصر الخليفة، هو دار العلم، حيث كان يعقد المجالس ويقرأ من مصنفاته على الناس، فيحاضر للرجال، ويعقد للنساء مجلساً خاصاً

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٠ ـ ٥١.
(٢) المؤيد في الدين. السيرة المؤيدية ص ١٢١.
(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٩١.

يسمى «مجلس الدعوة» حيث يلقنهن أصول المذهب.

ويتسلم داعي الدعاة كتب الدعوة التي تقرأ على الناس في القصر من سلفه المباشر(١). أما هذه الكتب فهي من غير شك الكتب التي ألفها دعاة من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي(٢)، ويعقوب بن كلس(٣)، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي(٤) وغيرهم من دعاة الإسماعيلية.

وقد قامت في العصر الفاطمي طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية ألهوا الخليفة الحاكم، وخرجوا على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة. ومن أعظم هؤلاء الغلاة حمزة بن علي الزوزني، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخاري الدرزي.

ففي سنة ٤٠٨ هـ جهر حمزة بن علي بألوهية الحاكم، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام، ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز، ثم إلى ابنه الحاكم، الذي أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (incarnation).

ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية(٥)، وقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخاري الدرزي في نشر عقائد هذا المذهب وشجع الأخرم على الجهر بتأليه الحاكم في سنة ٤٠٩ هـ حيث قتل.

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة في مصر أولاً وفي الشام ثانياً، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله. وقد ادعى تجسم الإله في شخصه؛ وهو وإن لم يصرح بذلك، كان يوافق على آراء

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
(٢) ومن أشهر كتبه: كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وكتاب الهمة في معرفة الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات، وكتاب أساس التأويل، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة.
(٣) ومن أشهر كتبه: الرسالة الوزيرية، التي نهج فيها منهج أبي حنيفة النعمان في كتبه.
(٤) ومن أشهر كتبه السيرة المؤيدية.
(٥) الدرز (بالفتح): واحد درزة: الثوب ونحوه، وهو فارسي معرب. ويقال درز بالدال والذال، وأولاد درزة، السفلة والسقطاء والغوغاء من الناس والخياطون، وهم من أسفل الناس والدرزى (بالفتح): الخياط. والعامة تضم الدال فتقول درزى، وفي الجمع دورز، والصواب درزى في المفرد، ودرزية في الجمع، والشائع اليوم دروز وهو خطأ.

أنصاره، كحمزة بن علي، والدرزي اللذين نسبا إليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى. كما شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد، ولم يترددوا في أن ينسبوا إليه بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته، حتى لقد أرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية كأهل الذمة.

ومن أهم مميزات الدرزية اتخاذهم تقويماً جديداً يؤرخون به حوادثهم، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ وهي السنة التي ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن علي.

وكان الدرزية ينقسمون إلى طائفتين: الأولى طائفة الروحانيين وتكون الطبقة المستنيرة التي تلم بأصول المذهب الدرزي. والطائفة الثانية هي طائفة الجثمانيين، وتنقسم قسمين: الأمراء الجثمانيين والعامة أو الجهال، فالأمراء الجثمانيون يتولون شئون الحرب والزعامة الوطنية، والعامة أو الجهال وهم لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه(١).

ولا يسمح لأحد من طائفة الجثمانيين بالانتظام في طائفة الروحانيين إلا بعد اختيار طويل شاق يظهر فيه استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفقهاً في عقائده.

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غوامض هذا المذهب؛ ومنها نتبين أنهم من غلاة الإسماعيلية، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره. وقد بنيت هذه الرسائل على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة؛ لأن الفلسفة، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة. كما نقف من هذه الرسائل على أن داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعياً، بالإضافة إلى ما كان يقوم به المؤذنون خطباء المساجد من نشر المذهب الإسماعيلي.

---

(١) Hitt: The Origins of the Druze People and Religion, p.43.

٣ ـ الخوارج

إذا كان الخوارج قد شاركوا إلى حد كبير في سقوط الدولة الأموية، فقد أقلقوا خلفاء العصر العباسي الأول في المغرب خاصة، حيث مال أهلها إلى مبادىء الخوارج من الإصابة والصُفْرية وغيرهم الذين بلغت جيوشهم نحو مائة ألف، وخلعوا طاعة أبي جعفر المنصور وهزموا جيوشه واستولوا على مدينة القيروان في عهده أكثر من مرة.

على أن خطر الخوارج لم ينته في العصر العباسي الأول، بل إننا نقرأ عن ثوراتهم التي كانوا يذكونها من حين إلى حين. ففي سنة ٢٥٢ هـ خرج مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري البجلي الخارجي على والي الموصل في عهد الخليفة المستعين، وأخرج ابنه حوثرة من السجن، وحارب هذا الوالي، واستولى على أكثر أعمال الموصل وهزم الجيوش العباسية عدة هزائم، ولكنه لم يستطع البقاء بها فسار إلى الحديثة، وكان قد اتخذها دار هجرته(١).

وقد تعرض مساور لخطر جسيم بسبب انشقاق بعض الخوارج عليه بزعامة عبيدة الذي خالفه في قبول توبة الخاطىء. وكان مساور يرى كما كان يرى الخوارج المعتدلون في أواخر العصر الأموي، عدم تكفيره وقبول توبته، على حين تمسك عبيدة بمبادىء الخوارج الأول في تكفير العاصي، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الفريقين على مقربة من الموصل في شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٧ هـ. وعلى الرغم من انتصار مساور على خصمه وقتله، انتهز الخليفة العباسي المعتمد هذه الفرصة وأرسل الجيوش بقيادة مفلح، الذي استطاع أن ينتصر عليه في عدة مواقع، وأخرجه من الموصل والحديثة. ولكن مساوراً صمد لخصمه واتبع معه خطة الكر والفر والتوغل في الجبال والشعاب والمضايق، حتى نهك قوته وأرغمه على العودة إلى سامرا حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين، واستولى على هذه البلاد، وجبى خراجها، وقويت شوكته واشتد أمره(٢).

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٥٧ هـ أن علي بن مساور وطوقاً الزهيري الخارجين خرجا في الموصل في أربعة آلاف رجل وعاثا في هذه البلاد. وذكر الطبري

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٦١، ٦٦، ٧٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٨١.

(جـ ١١ ص ٢٣٢) في حوادث سنة ٢٦٠ هـ أن الأكراد انضموا إلى مساور الخارجي وقتلوا رجلاً من كبار ربيعة، وأن الحرب قامت بينهما، ولما مات مساور في سنة ٢٦٣ هـ خلفه في زعامة الخوارج أيوب بن حيان الوارقي البجلي، وقام النزاع بينه وبين محمد بن خرزاد الذي ادعى أن مساوراً عهد إليه قبل وفاته، وقتل أيوب، فآلت الزعامة إلى محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي، بالغلام، ولكنه قتل أيضاً. فبويع هارون بن عبد الله البجلي الذي كثر أتباعه وانتصر على ابن خرزاد، واستولى على أعمال الموصل وجبى خراجها. وبذلك استقر الخوارج في نواحي الموصل، وصدوا بني شيبان حين أغاروا عليها (٢٧٢ هـ)، وحاربوا جند يوسف بن أبي الساج قبل أن يستولي عليها في السنة التالية وأوقعوا به الهزيمة[١]. كما صدوا بني شيبان حين حاولوا الإغارة على مدينة نينوى من أعمال الموصل وانتصروا عليهم بمساعدة أهل هذه البلاد (٢٧٩ هـ).

على أن أمر الخوارج أخذ في الضعف بسبب وقوع النزاع بينهم، فقد انشق على هارون زعيم الخوارج محمد بن عبادة المعروف بأبي جوزة، وانضوى تحت لوائه كثير منهم، واستولى على بعض البلاد التي كانت في حوزة هارون، وأقام الحصون، والتقى الجيشان على مقربة من سنجار. وعلى الرغم مما أحرزه هارون من نصر وظفر أضعفت هذه الحروب من أمر الخوارج وأتاحت للعباسيين فرصة التغلب عليهم، واستطاع عامل الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) على آمد أن ينتصر على محمد بن عبادة الخارجي وأن يسوقه إلى دار الخلافة. كما أدى ذلك النزاع إلى انتصار عامل الخليفة العباسي على الموصل على هارون الخارجي (٢٨٢ هـ). وتمكن الحسين بن حمدان من الانتصار عليه في السنة التالية وساقه إلى حاضرة الخلافة، «وخلع المعتضد على الحسين بن حمدان، وطوقه وخلع على إخوته، وأدخل هارون على الفيل، وأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدان والتوسعة عليه والإحسان إليه، ووعد بإطلاقه. ولما أركبوا هارون على الفيل، وأرادوا أن يلبسوه ديباجاً مشهراً، فامتنع وقال: لا يحل، فألبسوه كارهاً، ولما صلب نادى بأعلى صوته: لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. وكان هارون صفروياً[٢]».

وبموت هارون بن عبد الله البجلي الشاري ضعف أمر الخوارج في الموصل، ولكنهم ظلوا يقلقون الفاطميين في المغرب والعباسيين في اليمن وعمان خاصة. ففي المغرب اشتد

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٢٩، ١٥١، ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ١٦٢، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠.

نفوذ الخوارج بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي راجت دعوته في أواخر عهد عبيد الله المهدي الفاطمي (٢٩٦ ـ ٣٢٢ هـ)، وتفاقم خطره في عهد ابنه القائم، وانتشرت جيوشه في كل أرجاء الدولة الفاطمية في سنة ٣٣٣ هـ، وكان يستولي على مدينة المهدية حاضرة الفاطميين في ذلك الحين. ولم يستطع الفاطميون الانتصار على جيوش أبي يزيد إلا في عهد الخليفة المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ)، وقبض عليه وسيق إلى المهدية حيث مات متأثراً من جراحه في شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ.

أما في اليمن وعمان خاصة، فقد انتشر مذهب الخوارج الذين استطاعوا في سنة ٤٤٢ هـ أن يستولوا على مدينة عمان حاضرة هذه البلاد وأقصوا عمال البويهيين عنها. ونشروا الأمن فيها. وأظهر ابن راشد الخال العدل «وأسقط المكوس، واقتصر على رفع عشر ما يرد إليهم، وخطب لنفسه، وتلقب بالراشد بالله، ولبس الصوف، وبنى موضعاً على شكل مسجد»[١].

٤ ـ ثورة صاحب الزنج

أثار الزنج (Ethiopians) وهم طائفة من عبيد إفريقية القلق والرعب في حاضرة الخلافة العباسية. وكان مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة، هذه المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط. وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم. وكانوا لا يتقاضون من الأجر شيئاً، بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم[٢].

وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي الطالقان، ادعى أنه من ولد علي زين العابدين بن الحسين بن علي[٣]، كما ادعى أن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى أيضاً العلم بالغيب وانتحل النبوة[٤]. ولكنه

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢١١.

(٢) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٦٧ ـ ٧٧.

(٣) زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٢) ان اسمه علي بن محمد بن الرحيم، واسمه بهبوذا.

(٤) الطبري جـ ١ ص ١٧٦. أنظر الدوري ص ٧٩.

لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي على الرغم من ادعائه النسب إلى علي وفاطمة، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج.

وقد علل نلدكه[١] هذه الدعوة الغريبة في هذه العبارة فقال: «لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه، أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة، لما ينطوي عليه المذهب الشيعي من التوريث الذي لا يلائم عقول مواطنيه».

«ومن ثم يتضح وضوحاً كافياً ـ كما يقول نلدكه (ص ١٥٤) ـ لماذا رفض قرمط المؤسس الحقيقي لمذهب القرامطة، وهو المذهب الشيعي المتطرف الذي قدر له أن يملأ العالم الإسلامي قاطبة خوفاً وهلعاً. أن يرتبط بزعيم العبيد، على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه في حركته، متأثراً بعوامل مذهبية».

ومهما يكن من شيء فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية، حتى إن أعداءه سموه دعي علي، كما سموه الخبيث[٢].

قدم صاحب الزنج بلاد العراق، واتصل ببعض بطانة الخليفة المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ). ثم سار في سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين، ودعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها، واستمال قلوبهم، حتى إنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه، فعظم شأنه وقويت شوكته. ولقيت دعوته قبولاً بين أهالي هجر والبحرين والعراق[٣]. ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ، وأقام هناك سنة، «فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه»[٤].

ويدل هذا النص الذي نقش على لواء صاحب الزنج أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت. ولهذا أول هذه الآيات التي نزلت في سورة التوبة (٩: ١١١) تأويلاً سياسياً قصد به تضليل أنصاره ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى

(١) Sketches from Eastern History, pp. 146 - 147.

أنظر Browne, Lit. Hist of Persia vol. I. p. 545. والدوري ص ٨٠.

(٢) Muir, The Caliphate, p.545.

(٣) الفخري ص ٢٢٧.

(٤) ابن الأثير جـ ٧ ص ٧٣.

بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾. وقد أول صاحب الزنج هذه الآية، بأن المؤمنين، وقد اشتروا أنفسهم، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية[١].

وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة في التخلص من الرق. ويقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ٤٧): «وأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده، فبطح أصحابهم، وأمر كل من عنده من العبيد، فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط، ثم أطلقهم».

وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر، فخطبهم وصلى بهم، وأعاد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومناهم الأماني الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التي يغنمونها في حروبهم. واتخذ مدينته التي بناها وسماها «المختارة» منبراً كان يصعد عليه ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة على الرغم من ادعائه الانتساب إلى علي.

انتشرت جيوش صاحب الزنج في العراق وخوزستان والبحرين، ونهبوا القادسية وهزموا أهالي البصرة، واستولوا على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة. وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهلين، حتى عجزوا عن مقاومتهم وشكوا إلى الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) ما حل بهم من بلاء، فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك[٢]. ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) سير «جعلان» أحد قواد الأتراك لمحاربة صاحب الزنج بالبصرة، ونشب القتال بين الفريقين، فانتصر صاحب الزنج. وقتل القائد التركي، واستولى على مدينة الأُبلة على مقربة من الخليج الفارسي وشط العرب حيث يتفرع دجلة والفرات. ثم استولى على الأهواز وخربها، واضطر أهالي البصرة وما جاورها إلى مغادرة بلادهم والانتقال إلى المدن البعيدة عن مطامع الزنج.

وقد أدخل الزنج الفزع والرعب في قلوب كثير من أهالي البلاد الإسلامية، فاستولوا على البصرة سنة ٢٥٧ هـ، وذبحوا كثيراً من أهلها، وخربوا مسجدها العظيم، وأشعلوا النار في المدينة، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة[٣].

(١) Muir, The Caliphate, p. 545

(٢) ابن الأثير: ج ٧ ص ٧٥ ـ ٧٦. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢.

(٣) ابن الأثير: ج ٧ ص ٨٦ ـ ٨٧.

وبعد ذلك دخلت جموع صاحب الزنج واسط ورامهرمز[١]، فسير إليهم الخليفة المعتمد كثيراً من مشهوري قواده، من أمثال موسى بن بغا الذي قتل عدداً كبيراً منهم. غير أن هذه الهزيمة لم تفل شوكتهم، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية تتوالى، فبعث الخليفة المعتمد في طلب أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، وكان الخليفة المهتدي قد نفاه إلى الحجاز. وعهد إليه بقتال الزنج. وعلى الرغم من أنه حاز هو وموسى بن بغا شيئاً من النجاح في بعض المواقع، انطلقت جيوش الزنج في غزو العراق وخوزستان والبحرين بشكل جماعات منظمة غايتها النهب والسلب، وألقوا الفزع والرعب في قلوب الأهلين.

ولما اطمأن الموفق من ناحية أعدائه الآخرين تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه وخرج من بغداد إلى واسط في شهر صفر سنة ٢٦٧ هـ. وهزم فريقاً كبيراً منهم وأسر بعضهم. وما زالت انتصارات الموفق تتوالى على الزنج حتى أجلاهم عن الأهواز، وحاصر مدينتهم «المختارة» وبنى بإزائها مدينة سماها «الموفقة» نسبة إليه[٢]. وقطع العباس بن الموفق الميرة عن صاحب الزنج. ثم استولى أبوه على الجزء الغربي من هذه المدينة[٣]. واضطر بعض زعمائهم إلى طلب الأمان بعد أن تضاءل أملهم في إحراز النصر وبدأ بقية الثائرين ينضمون إلى الموفق. فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم وأخيراً سقطت قلعتهم وعاد الناس بعد أن تخلصوا من الأسر والرق وقتل «الخبيث»[٤].

دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) كما تقدم. وقضى عليهم الموفق وقواده. وقتل «بهبوذا». وكان من قواد صاحب الزنج. وحمل رأسه إلى الموفق. فخر ساجداً، وعلت كلمة الجند بالتهليل والتكبير، على أن أحد أنصار صاحب الزنج رمى الموفق بسهم في صدره وهرب إلى رامهرمز. فبعث به عاملها إلى الموفق فقتله ابنه العباس الذي ولي الخلافة بعد المعتمد. وقد ذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٢) أن عدد القتلى في تلك المعارك بلغ ألف ألف وخمسمائة ألف. وذكر صاحب الفخري (ص ٢٢٧) أن عددهم بلغ ألفين وخمسمائة ألف. وقتل صاحب الزنج - على ما ذكره ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٤١) - في ٢ من صفر سنة ٢٧٠ هـ، بعد أن أقلق بال الدولة العباسية

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١١١، ١١٧.
(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٤، ١٢٥.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٤) Muir, The Caliphate, p. 546.

وكلفها كثيراً من الجهود والأموال والأرواح، وظل أتباعه يعيثون في البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وستة أيام، وعلق رأسه على رمح. وزينت بغداد بأبهى معالم الزينة، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح، واستطاع الناس العودة إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج، وأشاد الشعراء بذكر هذا الانتصار.

٥ ـ المعتزلة

(أ) انتعاش مذهب المعتزلة:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[١] أن تعاليم المعتزلة ازدهرت في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن واستخدم نفوذه في سبيل إقرار هذه العقيدة في أذهان الناس. وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن. واقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون في انتصاره للمعتزلة وتشدده في فرض آرائه الدينية على الناس. حتى جعل إطلاق أسرى المسلمين في بلاد الدولة البيزنطية مقصوراً على الذين يقولون بخلق القرآن واعتبار من سواهم خارجين على الإسلام.

وقد أوضح أبو الحسن الأشعري[٢] المتوفى سنة ٣٢٤ هـ آراء المعتزلة، فتكلم على آرائهم في التوحيد. وفي المكان والرؤية، وفي قدرة الله سبحانه وعلمه، وفي اختلاف المعتزلة في كون الله لم يزل سميعاً بصيراً. وفي سائر صفات الله، وفي القدر وغير ذلك من المسائل، ولخص الأشعري آراء المعتزلة في التوحيدوغيره في هذه العبارة[٣]:

«أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير؛ وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس

---

(١) الطبعة السابعة (١٩٦٤) ص ١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه ١٥٥ ـ ١٥٦.

بذي أبعاض وأجزاء وجوارح واعضاء؛ وليس بذي جهات، ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان، ولا يجري عليه زمان ولا يجوز عليه مراجعة ولا العزلة ولا الحول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، ولا تجري عليه الآفات، ولا تحل به العاهات؛ وكل ما يخطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له. ولم يزل أولاً سابقاً متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً، ولا يزال كذلك لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع؛ شيء لا كالأشياء، عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الأحياء؛ وإنه القديم وحده لا قديم غيره ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه ولا معين له على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه؛ لا يجوز عليه اجترار المنافع، ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذي غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء، وعن اتخاذ الصحابة والأبناء. فهذه حملة قولهم في التوحيد، وقد شاركهم في هذه الحملة الخوارج وطوائف من الشيع، وإن كانوا للجملة التي يظهرونها ناقصين ولها تاركين».

تطور مذهب المعتزلة في العصر العباسي الثاني. وقد أجاد دوزي[١] في تلخيص تطور هذا المذهب ونموه، فقال إنه اتخذ شكلاً جديداً، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو، كما انقسم، بطبيعة الحال، إلى أقسام تتفق جميعها في نقط معينة. فقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الإلهية، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله، ولكي ينزهوا الله عن الظلم. اعترفوا للإنسان بالحرية التامة في خلق أفعاله. وكان من تعاليمهم أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل، وأنه يمكن تمحيص هذه المسائل في ضوء العقل، سواء أكان ذلك قبل الوحي أم بعده؛ بمعنى أن الرجل يجب عليه

---

(١) Essai sur l'Histoire de L'Islamisme (trans. by Victor Chauvin) (Paris, 1879), pp. 105 - 107.

في جميع الأزمان والأمكنة أن يرجع إلى العقل في الفصل في تلك المسائل. وقد زادت الفرق الأخرى على هذه الآراء المتفق عليها آراء أخرى خاصة بها.

وقد عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسع كثير، بينما انساق آخرون وراء مناظراتهم وشغفهم بالجدل، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه. وكان بعضهم يعتقد بالتناسخ. ومما يدل على صحة هذا القول ما ذكره البغدادي[١] عن خروج الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدري، والحمارية من معتزلي عسكر مكرم، على جميع فرق المعتزلة وأهل السنة. فإن أحمد بن حائط القدري ـ وكان من أصحاب النظام في الاعتزال ـ كان يقول بالتناسخ، وزعم هو وفضل الجدني «أن للخلق ربين وخالقين، أحدهما قديم وهو الله سبحانه، والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم. وزعما أن المسيح ابن الله على معنى النبي دون الولاة، وزعما أيضاً أن المسيح هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة، وهو الذي عناه الله بقوله **﴿وجاء ربك والملك صفاً صفا﴾** (سورة الفجر ٨٩: ٢٢)، **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾**، (سورة البقرة ٢: ٢١٠)؛ وهو الذي خلق آدم على صورة نفسه. وذلك تأويل ما روي أن الله تعالى خلق إلهاً على صورته؛ وزعم أنه هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر». وهو الذي عناه بقوله إن الله تعالى خلق العقل فقال له أقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت أكرم منك وبك أعطي وبك آخذ، وقال إن المسيح تدرع جسداً وكان قبل التدرع عقلاً... وأضاف ابن حائط وفضل الجدني فعل الخيرات كلها إلى عيسى بن مريم، وأضافا إليه محاسبة الخلق في الآخرة، والعجب في قولهما أن عيسى خلق جده آدم عليهما السلام». كما كان يتخيل آخرون أن لكل جماعة من جماعات الحيوانات نبياً، وهو حيوان من أنفسهم. ومن الغريب أن نقول إنهم اعتمدوا في عقائدهم هذه على آيتين من القرآن **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون، والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في ظلمات. من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾**[٢].

ولكن ليس من العدل أن نرمي المعتزلة جميعهم بضلالات هؤلاء. وبالنظر إلى عقيدة

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) سورة الأنعام (٦: ٣٨ ـ ٣٩). الشهرستاني: أنظر الملل والنحل جـ ١ ص ٨٠ ـ ٨١.

المعتزلة في أوامر الدين ونواهيه، فإنهم يعتبرون من طائفة العقليين (Ralionalists) في الإسلام الذين يقولون بسلطان العقل وفهمه لطبائع الأشياء. من ذلك أنهم قالوا بخلق القرآن، في الوقت الذي ذهب فيه الرسول إلى القول بعكس ذلك، ويستدلون على صحة ذلك بقولهم «إن القرآن لو لم يكن مخلوقاً لأدى ذلك إلى القول بوجود أزليين أبديين. أما إذا اعتبر القرآن أو كلام الله مخلوقاً، كان محالاً أن نعتبره صفة من الصفات الإلهية، لما لتلك الصفات من الثبات وعدم التغيير لأنه يترتب عليه قيام الحادث بالقديم، وهو محال لما فيه من قلب حقائق الأشياء؛ إذ لو صح قيام الحادث القديم لأدى ذلك إلى إحدى نتيجتين لا مناص منهما: إما قلب الحادث قديماً لقيامه بالقديم، وإما قلب القديم حادثاً لقيام الحادث به». ومع ذلك فقد تزعزعت عقيدة الوحي على يد المعتزلة تزعزعاً شديداً، حتى أعلن كثير منهم صراحة، أنه ليس مستحيلاً أن يأتي إنسان بقرآن كهذا أو أحسن منه، مخالفين في ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ : ٨٨) **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**. ومعنى فكرة الوحي أن القرآن كلام الله، وأنه أوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وذهبوا إلى أن الاعتقاد بقدم القرآن إلى جانب قدم الله شرك[1].

وعلى ذلك عارض المعتزلة عقيدة أزلية القرآن، أي أنه كلام الله، كما عارضوا فكرة الوحي، بمعنى أن الله يتصل بالإنسان ويوحي إليه كما جاء في سورة الشورى (٤٢ : ٥١) **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾**. وكانوا لا يصغون إلى أية فكرة يشم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ترون ربكم (يوم القيامة) كما ترون القمر ليلة البدر». ويسمِّي المعتزلة هؤلاء المشبهة أو المجسمة. وكانت هذه الكلمات التي فهمها أهل السنة على ظاهرها حجر عثرة يرتطمون به أنى ساروا. ومع هذا فسر أهل السنة هذا الحديث بقولهم إن الإنسان بعد موته يرى الله بعين البصيرة. وكذلك رفض المعتزلة دعوى أن الله خلق الكافر[2]، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر لمنافاة ذلك العدل الإلهي، بمعنى أن الله كان يسوق الكفار إلى الكفر ويريد منهم ذلك، كان من الظلم مؤاخذتهم، إذ كانت إرادة الله

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام: ترجمة أبي ريدة ص ٥٦.

(٢) يقصدون طبعاً أن كل إنسان خلق قابلاً للإيمان، وأن الكفار صاروا كذلك بتمردهم وليس بإرادة الله، بمعنى أن الله لم يرد كفر الكفار، وإنما أصبحوا كفاراً بمحض إرادتهم دون إرادة الله سبحانه وتعالى.

تعالى لا تتخلف ولا يقع في ملكه إلا ما يـريد، فهم يقـررون اختيار الإنسـان في أفعاله بعكس مـا ذهب إليه الجبـرية الـذين يقولـون إن الإنسان مجبـر على أفعالـه. ولم يعترفوا بالمعجزات التي وردت في القـرآن، كما أنكـروا انشقاق البحـر لموسى ليشق طـريقاً لبني إسرائيل. وقد خرج بهم من مصر (إلى بلاد العرب) مخالفين في ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء (٢٦: ٦٣) **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضـرب بعصاك البحـر فانفلق فكـان كل فـرق كالطود العظيم﴾**، كما أنكروا أن عصا موسى قد تحولت أفعى **﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾** (سـورة طه ٢٠: ٢٠) وأن عيسى قـد أحيى المـوتى. ولم ينـج محمـد نفسـه من إنكـارهم لمعجزاته.

(ب) تأثر المعتزلة بالفلسفة الإغريقية:

تأثرت المعتزلة منذ عهد طويل تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية. وقد نقل براون[١] عن شتينر[٢] أن المعتزلة أول من قرأ تراجم الطبيعيين من الإغريق وفلاسفتهم التي ترجمت تحت رعاية أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ)، والمـأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ)، واقتبسـوا منها جميع المعارف النافعة، ولكنهم أجهدوا أنفسهم في أن يضيفوا إلى المعاني الإسلامية التي جاء بها القرآن، وكانت محصورة في دائرة ضيقة، في جميع ما احتوته الثقافة اليونـانية من فكر ومعان علمية وفلسفية. وأن يلائموا بينها ويخرجوا منها مزيجاً جـديداً يتفق مـع تعاليم الإسلام وأصوله.

ومن الفلاسفة الإسلاميين أبو نصـر الفارابي (١٠٣٧/٣٣٩) فيلسـوف المسلمين غير مدافع الذي يقول فيه ابن خلكان (جـ ٢ ص ٧٦): «هو أكبر فلاسفة المسلمين. ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه، والرئيس أبو علي بن سينا[٣] (١٠٣٧/٤٢٨) المقدم ذكره بكتبه تخـرج وبكـلامـه انتفـع في تصـانيفـه، وابن رشد (١١٨٩/٥٩٥) وقـد سبقهم الكنـدي (٨٧٣/٢٦٠) الذي وجه همته ـ على ما يظهر ـ إلى دراسة الآراء التي أثارها المعتزلة بوجه خاص. في الوقت الذي تجنب فيه أتباعه التعـرض لبحث المسائـل الدينيـة وتجنبوا إثارة النقاش فيها بقـدر الإمكان. وكـان يعتبر كـلا من التوحيـد والعلوم الطبيعيـة وما تحـويه من الفلسفة مناطق ذات حدود واضحة. ومن ثم لم تقم مشكلة من المشاكل في سبيل التوفيق

(١) Browne. vol.I.p.288.

(٢) Steiner: Die Mu'taziliten oder die Freidenker im Islam. p.5.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

بينها. بمعنى أن التوحيد والعلوم الطبيعية. بما في ذلك الفلسفة، كان كل منها على حدة مستقلاً عن الآخر. ويقول شتينر أيضاً إن الفلاسفة العرب من تلاميذ مدرسة أرسطو كانوا في الواقع علماء طبيعيين أكثر منهم فلاسفة، وإن أعمالهم الرئيسية كانت تنحصر في ملاحظة الظواهر الطبيعية عدا دراسة علم الطب والفلك(١).

وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال والفلسفة من ناحية وبين الدين من ناحية أخرى، وأفنى المعتزلة قواهم في تلك المناقشة المستمرة التي أثارتها مدرستا البصرة وبغداد. وكان أبو الحسن البصري أحد معاصري ابن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشيء من الحرية واستقلال الرأي. كما أكمل ما كان فيها من نقص في نواح كثيرة. واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده، واستمرت المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعري وصرعهم حجة الإسلام الغزالي.

٦ ـ انتعاش السنة

أخذ مذهب المعتزلة في الضعف منذ بداية العصر العباسي الثاني حيث بدأ المتوكل، أول خلفاء هذا العصر عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن، مخالفاً في ذلك المأمون والمعتصم والواثق. ثم ظهر جماعة من علماء الكلام عارضوا المعتزلة. ومن هذه المذاهب: مذهب الكرمية الذي بقي إلى ما بعد القرن الثالث الهجري.

أما انتصار مذهب أهل السنة فقد توج بظهور أبي الحسن الأشعري. ذلك أنه لم يكد يمضي اثنا عشر عاماً على موت المتوكل، حتى ولد (سنة ٢٦٠/٨٧٣) ذلك الرجل الذي تربى بين أحضان مذهب المعتزلة، ثم رفض تعاليمهم في الأربعين من عمره، بعد أن تسلح بالأسلحة المنطقية التي أمدوه بها وحاربهم بها بقية حياته، وحمل على آرائهم حملة كتب لها التوفيق والنجاح. ذلك هو أبو الحسن الأشعري، من أعقاب أبي موسى الأشعري الذي كان أحد الحكمين بين علي ومعاوية بدومة الجندل.

وقد ألف الأشعري بعد أن انفصل عن أستاذه الجبائي من المعتزلة مؤلفات كثيرة في علم التوحيد يربو عددها على المائتين أو الثلثمائة، وله من الكتب: كتاب اللمع، وكتاب

---

(١) أنظر: Browne, vol. I, p. 289, Pote I.

الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل. وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعين[١].

وقد عارض الأشعري المعتزلة ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا إليه. ويقول الشهرستاني[٢]. «ومذهبه في الوعد والوعيد والأسماء والأحكام والسمع والعقل مخالف للمعتزلة من كل وجه. قال: الإيمان هو التصديق بالقلب. أما القول باللسان والعمل على الأركان ففروعه. فمن صدق بالقلب، أي أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه، حتى لو مات في الحال كان مؤمناً ناجياً، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، يكون حكمه إلى الله تعالى؛ إما أن يغفر له برحمته، وإما أن يشفع فيه النبي ﷺ إذ قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وإما أن يعذبه بمقدار جرمه، يدخله الجنة برحمته. ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، لما ورد به السمع من إخراج من كان في قلبه ذرة من الإيمان، قال: ولو تاب، لا أقول بأنه يجب على الله قبول توبته بحكم العقل، إذ هو الموجب فلا يجب عليه شيء بل ورد السمع بقبول توبة التائبين وإجابة دعوة المضطرين؛ وهو المالك في خلقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف، أو وضع الشيء في غير موضعه، وهو المالك المطلق، فلا يتصور منه ظلم ولا ينسب إليه جور».

وكان لجهود أبي الحسن الأشعري أثر كبير في إحياء السنة. حتى إنه كاد أن يقضي على مذهب الاعتزال قضاء مبرماً، بدليل ما ذكره أبو بكر الصيرفي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم»[٣].

وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالي الذي وجهَ نشاطه إلى الإشادة بمذاهب السنة والحط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرهما.

---

(١) Dozy, Histoire de L'Islamisme, pp.252 - 256 ابن خلكان ج ١ ص ٢٧.

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) ابن خلكان: ج ١ ص ٣٢٧.

٧ ـ التصوف

المتصوفون المعتزلون:

ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر «التصوف». ذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بـالورع والتقـوى لم يجدوا في علم الكـلام ما يقنـع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقـربوا إليـه عن طريق الـزهد والتقشف وفنـاء الذات في حبه تعالى، ومن ثم سموا «المتصوفين». ويقول براون[١] إنه ليس ثمة علاقة بين اسم الصوفية وبين الكلمة اليونانية «سوفس» Sofis (وتكتب بالسين لا بالصاد ويقابلها بالعربية فيلسوف)، أو سفسطي «Sophist» أو بكلمة «صفاء» كما يدعي الصوفيون أنفسهم؛ أو «بأهل الصفة». وهم جماعة من الفقهاء ظهروا في صدر الإسلام وكانـوا يجلسون على صفـة في المسجد ويجمعون معاشهم من أهل الورع عن طريق الفتاوى[٢]، ولكنه مشتق من الكلمة العربية «صوف»، كما يتضح من قرائن أخرى، كاسمهم بالفارسية «بشنيابوش» pashnima — push ومعناها الملابس الصوفية. مما يتميز به المسلمون الأولون الذين عرفوا بالبساطة والتقشف، ويقول المسعودي إن عمر بن الخطاب كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة، على حين كان سلمان الفارسي يلبس الصوف[٣]. ويقال هذا أيضاً عن أبي عبيدة بن الجراح الذي «كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي»[٤].

ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ. حافظ بعض المسلمين على سنة الرسول والخلفاء في الملبس، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادية والتبذير اللذين انغمس فيهما معاصـروهم، فـأطلق عليهم «الصـوفيـون»، ولحق بهم مـا يلحق عـادة بالمحافظين. وقد تكلم القشيري[٥] المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) على المتصوفين الأول

---

(١) Lit Hist. of Persia, vol. p. 297.

(٢) وقد جاء في تاج العروس والنهاية لابن كثير أن أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام من فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مصلل في مسجد المدينة يسكنونه

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤١٨.

(٥) Browne, vol. I.pp.297 - 298. نقلاً عن جامع نفحات الأنس (طبعة نساوليز Nassau Lees، سنة ١٨٥٨ م).

فقال: فلما ظهرت البدع وتشاحنت الفرق. وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهاداً، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله. الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية. وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثاني الهجري بقليل».

وقد أوضح عبد الرحمن جامي الشاعر الفارسي المشهور، (نفحات الأنس ص ٣٤) أن أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة ومضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ ـ ٧٧٨ م). وأن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (٢٤٦/٨٦٠) تلميذ الإمام مالك. وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (٩١٠ م). ودعا إليها من فوق المنابر الشبلي المتوفي سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) (ص ٣٦). ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هي رابعة بنت إسماعيل العدوية التي اشتهرت بالصلاح والتقوى» وكان النساء يجلسن إليها ويسمعن وعظها. وقد أشار جامي إلى ذلك (ص ٧١) في هذين البيتين:

ولو كان النساءُ كما ذكَرْنا ... لفُضِّلَتِ النساءُ على الرجال
فلا التأنيثُ لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال(١)

وكانت رابعة تقول في مناجاتها: إلهي تحرق قلباً يحبك؟ ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. ومن قولها في حب الله سبحانه وتعالى:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحْتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي

وكانت رابعة تصلي الليل كله. فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر. ولما ماتت كفنت في جبتها. وهي خمار من صوف كانت تلبسه. وكانت وفاتها سنة ١٣٥ هـ (وقيل سنة ١٣٨ هـ)(٢)، وقبرها يزار بظاهر القدس من شرقيه.

---

(١) هذان البيتان لأبي الطيب المتنبي في قصيدته في رثاء أم سيف الدولة ومطلعها:
نعد المشرفية والعوالي ... وتقتلنا المنون بلا قتال

والرواية الصحيحة في البيت الأول هي: ولو كان النساء كمن فقدنا، وليس كمن ذكرنا.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين، وخاصة عند الفرس، في عصر متأخر وأصبحت فلسفة التصوفة - إن صح هذا التعبير - قائمة على الأفلاطونية الحديثة[١] وعلى عناصر فارسية وأخرى هندية.

وللمتصوف نفس المذهب في حب الله؛ فهم يحبونه حباً روحانياً خالياً من الرغبات والنزعات، أي أنهم يحبونه حباً أفلاطونياً. ولا شك أنهم اكتسبوا هذا الحب وصيغ التعبير عنه مما وصلهم من هذه الفلسفة، ويظهر هذا الشبه من قراءة أشعار المتصوفين، فاقرأ مثلاً قول عمر بن الفارض:

سقتني حُمَيَّا الحبِّ راحةَ مقلتي … وكأسي محب من عن الحسنِ جَلَّتِ
وبالي أبلى من ثياب تجلدي … به الذات في الإعدام نيطت بلذة
لما شاهدتْ مني بصائرُهم سوى … تخلل روح بين أثواب ميتِ
فلو كشف العُوَّارُ بي وتحققوا … من اللوح ما مني الصبابة أبقت
ومنك شقائي بل بلائي منة … وفيك لباسُ البؤس أسبغُ نعمة[٢]

وهكذا فإنك لا تجد إلا روحانية تنبعث في هدوء واستكانة كما ينبعث النفس من بين شفتي المريض. فانظر في هذه الأبيات فهل تجد إلا إنكار الذات وفناء الجسم وتيقظاً في الروح؟ في البيت الأول أحب بعينيه، وفي الثاني وجد لذة في انعدام ذاته أمام ما يفكر فيه من حمال المحبوب «قدرة الله»، وفي الثالث والرابع في جسمه وبقيت روحه المعذبة المدنفة التي تجد «في البيت الخامس» لذة في الألم واستمراء في البؤس.

وكما اتخذ بعض التصوف وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى، كذلك لم يتخذه بعض آخر إلا وسيلة لتحقيق مآربهم الشخصية، وفي ذلك يقول محمود الوراق:

تصوَّف كي يقالَ له أمينُ … وما يَعْني التصوفَ والأمانهْ
ولم يُرِد الإلهَ به ولكن … أراد به الطريقَ إلى الخيانهْ

(١) الأفلاطونية الحديثة هي الفلسفة التي ضمت فلسفة أفلاطون اليوناني بعد إعطائها صبغة شرقية اسمها أمونيس سكاس أحد فلاسفة الإسكندرية في القرن الثالث ونقحها أفلوطين وغيره من الفلاسفة. أما وجه الشبه بين مذهب المتصوفة وفلسفة أفلوطين فهو - فيما يظهر - أن لأفلوطين مذهباً في الحب سموه الحب الأفلاطوني، وهو حب روحاني لا تتطرق إليه الأغراض المادية ولا النزعات الحسيّة.

(٢) وهي قصيدة طويلة تسمى تائية السلوك الكبرى تقع في أكثر من سبعمائة بيت. راجع ديوان ابن الفارض (بيروت سنة ١٣٢٨).

وقال ابن السماك للصوفية: «والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم. لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم»[١].

ويقول فون كريمر[٢]: «يظهر من غير شك أن التصوف جمع بين عنصرين مختلفين: تقشف مسيحي قديم دخل بقوة حتى في فجر الإسلام. ثم دخل بعد ذلك بكثير من عنصر بوذي، هو عنصر التأمل والتفكير العميق؛ وذلك نتيجة لتأثير الفرس في الإسلام. وكانت لهذا العنصر الغلبة في تكوين التصوف الإسلامي الخالص: فالأول يعبر بجلاء عن تأثير ذلك العنصر في العقل العربي أكثر من غيره، والثاني يعبر عن تأثيره في الطبيعة الفارسية».

ويظهر أن التأثير الهندي في التصوف الإسلامي لم يكن كبيراً بالدرجة التي تصورها فون كريمر، فإن تأثير الأفلاطونية الحديثة والعناصر الإسلامية كان في الواقع أعظم منها بكثير. وقد أجاد دي بور[٣] في كلامه عن التصوف فقال: «وإذا تكلمنا عن التصوف الإسلامي، فنحن نتناول بالبحث نظاماً عملياً أساسه ديني أو روحي. غير أن الأنظمة العملية تتخذ من الفكر مرآة تتجلى فيها دائماً. وهي تتخذ من ذلك صبغة نظرية. ولم يكن بد من أفعال لها أسرارها، ومن أشخاص يقربون ما بين الإنسان وربه. ويحاول هؤلاء الأشخاص أن يطلعوا على أسرار تلك الأفعال ثم يظهروا خواص مريديهم عليها، وأن يتخذوا لأنفسهم في سلسلة مراتب الوجود مكاناً يصلون فيه بين الله والناس. ولا بد أن تكون نظريات المذهب الأفلاطوني الجديد خاصة قد أثرت تأثيرها في ذلك. . . ويظهر أنه كان لمذهب التنسك (اليرجا) الهندي تأثير عظيم في بلاد الفرس على الأقل. ولكن التصوف ظل في الجملة في داخل دائرة أهل السنة. وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجد المتحمسين. والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الاتفاق في القول بأنه لا فاعل في كل شيء إلا الله، غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا إنه لا موجود في شيء إلا الله.

---

(١) العقد الفريد جـ ٤ ص ٢٥١.

(٢) نقلاً عن Herrsch, Id.p.67, Browne: Lit. Hist. of Persia, vol. Iip.300.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٧٣، ترجمة، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(ب) المتصوفون الغلاة:

١ ـ الحسين بن منصور الحلاج:

غير أن هناك جماعة من المتصوفين غلوا في تصوفهم وقالوا إنه لا موجود في كل شيء إلا الله. ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين، وكان من شأنه أن جعل العالم خيالاً لا حقيقة. كما وحَّد بين ذات الإنسان وذات الله. وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية، قال الصوفية بوحدة شاملة لكل شيء. وبعد أن كان الأولون يقولون بفعل الله في كل شيء، قال الآخرون بوجوده في كل شيء[١]. وقد نظر السنيون إلى هؤلاء المتصوفين الغلاة نظرتهم إلى المشبهة الذين يشبهون الله بالإنسان، والمجسمة الذين يجسمون الله فيجعلون له جرماً واحداً. والحلوليين الذين يقولون بحلول الله في الأجسام.

ومن غلاة المتصوفين الحسين بن منصور الحلاج الذي ادعى الألوهية في عهد المقتدر العباسي (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)، ويكنى أبا مغيث. وهو مجوسي الأصل من أهل بلدة البيضاء بفارس، ونشأ بواسط ثم قدم بغداد واتخذها داراً له، واختلط بالصوفية وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره من المتصوفين[٢]. وقد «سمي الحلاج لأنه اطلع على سر القلوب، وكان يخرج لب الكلام كما يخرج الحلاج لب القطن بالحلج. وقيل كان يقعد بواسط بدكان حلاج. فمضى الحلاج في حاجة ورجع، فوجد القطن محلوجاً مع كثرته فسماه الحلاج»[٣].

اشتغل الحلاج في مبدأ أمره بالتصوف. وله في هذا شطحات كثيرة، بمعنى أن كلامه «يحتمل معنيين: أحدهما حسن محمود، والآخر قبيح مذموم»[٤]. واختلف الناس فيه، فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره[٥]. وكان ظاهره أنه ناسك صوفي، فإذا علم أن

---

(١) دبور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة ص، ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٤٧.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢٦.

أهل بلده يرون الاعتزال صار معتزلياً، أو يرون الإمامة صار إمامياً وأراهم أن عنده علماً بإمامهم، أو رأى أهل السنة صار سنياً[١].

وكان الحلاج مخلطاً يلبس الصوف والمسوح تارة، والثياب المصبغة تارة، والعمامة الكبيرة والدراعة، وتارة يلبس القباء وزي الجند. وقد طاف البلاد، وقصد الهند وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان وغيرها. وقال بعض أصحابه: «صحبته سنة إلى مكة، وأقام بمكة بعد رجوع الحجاج إلى العراق وقال: إن شئت أن تعود فعد، فإني قد عولت أن أمضي من هنا إلى بلاد الهند. وكان الحلاج كثير الأسفار. ثم إنه نزل في البحر يريد الهند فصحبته إلى بلاد الهند. فلما وصلنا إليها استدل على امرأة ومضى إليها وتحدث معها، ووعدته إلى غد ذلك اليوم. ثم خرجت معه إلى جانب البحر ومعها غزل ملفوف وفيه عقد شبه السلم، فقالت المرأة كلمات، وصعدت في ذلك الخيط، وكانت تضع رجلها في الخيط وتصعد حتى غابت عن أعيننا، ورجع الحلاج وقال لي: لأجل هذه المرأة كان قصدي إلى الهند»[٢].

وكان لهذه الشعبذة والنارنجيات التي تعلمها الحلاج في الهند خاصة أثر كبير في عقول العامة الذين التفوا حوله ومالوا إلى مذهبه المغرق في الغلو؛ حتى إن بعضهم رماه بأنه أحد دعاة مذهب القرامطة الذي ساد في أيامه على يد أبي طاهر الجنَّابي (٣٣٢ هـ). وقد قيل إن الحلاج كان يدعو في أول أمره إلى الرضا من آل محمد[٣]. واستطاع بمهارته أن يجذب إليه العامة، فكان يحفر في بعض الطرقات موضعاً يضع فيه زقاً فيه ماء، ثم يحفر موضعاً آخر يضع فيه طعاماً، ثم يسير مع أصحابه إلى الموضع الأول. فإذا ما احتاجوا إلى ماء يشربونه ويتوضئون منه، نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء فيشربون ويتوضئون، ثم يسير إلى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الأولياء ولم تقتصر أساليبه في اجتذاب الناس إليه على ذلك، بل كان يحفظ الفواكه ويخرجها في غير أوانها[٤].

وادعى البعض أن الحلاج أحيا طائراً لابن الخليفة المقتدر، فقد ذكر عريب بن سعد (ص ٩٣) أن المقتدر أرسل إلى الحلاج خادماً ومعه طائر ميت وقال: إن هذا الببغا لولدي

---

(١) عريب بن سعد ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٥.

(٣) الفخري ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٤) عريب بن سعد ص ٩٩.

أبي العباس، وكان يحبها، وقد ماتت. فإن كان ما تدعي صحيحاً، فأحيي هذه الببغا. فقام الحلاج إلى جانب البيت الذي هو فيه وبال، وقال: من تكن هذه حالته لا يحيي ميتاً؛ فعد إلى الخليفة وأخبره بما رأيت وبما سمعت مني ثم قال: بلى! لي من إذا أشرت إليه أدنى إشارة أعاد الطائر إلى حالته الأولى. فعاد الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى وسمع، فقال: عد إليه وقل له المقصود إعادة الطائر إلى الحياة، فأشر إلى من شئت. قال: فعلي بالطائر، فأحضره إليه وهو ميت، فوضعه على ركبتيه وغطاه بكمه، ثم تكلم بكلمات ثم رفع كمه وقد عاد الطائر حياً، فأعاده الخادم إلى المقتدر وأخبره بما رأى.

وقد ألف الحلاج كتباً ذكر فيها مبادىء تخالف المبادىء الإسلامية؛ فأباح الحج إلى غير مكة لكل من بنى في بيته بناء مربعاً وطاف حوله في أيام الحج وأدى فيه مناسك الحج، وأطعم ثلاثين يتيماً بيده، وكسا كل واحد منهم قميصاً، ومنحه سبعة دراهم، فإن ذلك كله يقوم مقام الحج (عريب ص ٩٣) كما أباح الحلاج الإفطار في شهر رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر، وأفطر في اليوم الرابع على ورقات من الهندب[١]، فإن ذلك يغنيه عن صوم رمضان. وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل إلى آخره، فإن ذلك في نظره يغنيه عن الصلاة طول حياته، وأعفى من الزكاة من تصدق بجميع ما يمتلكه في يوم واحد، كما أعفى من العبادة من زار قبور الشهداء بمقابر قريش،وأقام بها عشرة أيام يقضيها في الصلاة والصوم مع إفطاره على قليل من خبز الشعير والملح[٢].

وكان الحلاج مع ذلك خفيف الحركات شعوذياً، قد حاول الطب وجرب الكيمياء، فلم يزل يستعمل المخاريق (الحيل والتمويهات) حتى استهوى بها من لا تحصيل عنده ثم ادعى الربوبية وقال بالحلول، وعظم افتراؤه على الله عز وجل ورسله. ووجدت له كما يقول عريب (ص ٨٩، ٩٢) كتب فيها حماقات وكلام مقلوب وكفر عظيم، وقال في بعض كتبه: إني المغرق لقوم نوح والمهلك لعاد وثمود. وكان يقول لأصحابه: أنت نوح وأنت موسى، وأنت محمد قد أعدت أرواحهم إلى أجسادكم. ويزعم بعض الجهلة المتبعين له أنه كان يغيب عنهم ثم ينزل عليهم من الهواء.

---

(١) بكسر الهاء وفتح الدال، وقد تكسر جميع هندبة أو هندابة، وهي بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال أكلا، وللسعة العقرب ضماداً.

(٢) عريب بن سعد ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وقد راجت دعوة الحلاج بين كثير من الناس، وخاصة أهالي بغداد والطالقان (بخراسان) الذين افتتنوا به، حتى خشي أهل السنة أن يتفاقم خطره، وموه بالكفر والقول بالحيلولة. وقد أثر عنه أنه قال: من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية. فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى. وزعموا أنه ادعى لنفسه هذه الرتبة. وقيل إنهم ظفروا بكتب له إلى أتباعه عنوانها «مِن الهو هو رب الأرباب المتصور في كل صورة إلى عبده فلان»، فظفروا بكتب أتباعه إليه وفيها: «يا ذات الذات ومنتهى غاية الغايات[1]، نشهد بأنك المتصور في كل زمان بصورة، وفي زماننا هذا بصورة الحسين بن منصور، ونحن نستجير بك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب»[2].

ولم تقف دعوة الحلاج عند حد التأثير في العامة، بل لقد تأثر بها كثير من رجال البلاط والكتّاب وبعض كبار الهاشميين. ورمي نصر حاجب المقتدر وأنصاره باعتقاد مبادىء الحلاج. حتى إنهم اعتقدوا أنه يحيي الموتى، وأن الجن يخدمونه ويحضرون إليه ما يريد، وأن في استطاعته أن يأتي المعجزات التي أتى بها الرسل والأنبياء. كما اعتقدوا ألوهيته ونبوة أحد أتباعه[3].

انتشر دعاة الحلاج في كثير من الأمصار الإسلامية لبث مذهبه، واتبع في ذلك طريقة دعاة كبار الإسماعيلية. فقد روى مسكويه (جـ ١ ص ٧٩) أنه «كان في الكتب الموجودة له عجائب من مكاتبات أصحابه النافذين إلى النواحي، وبوصيته إياهم بما يدعون إليه الناس، وبما يأمرهم به من نقلهم من حال إلى حال أخرى ومرتبة إلى مرتبة، حتى يبلغوا الغاية القصوى، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم، وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ومن كتبت إليه». وقد ادعى الحلاج الألوهية، وكان يقول بحلول اللاهوت في الإنسان، ويكتب إلى أصحابه «من النور الشعشاني»[4]، وروي عنه أنه قال: ما في الجبة غير الله[5] يعني جبته، كما روي عنه أنه قال: أنا الحق، وكان يتغنى بقوله:

---

(١) في الأصل الشهوات، والصواب الغايات.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٤٨.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٧٦.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.

(٥) Massignon: La Passion D'al Hosayn Ibn - Mansour, tome i, oo. 61 - 62.

أنـا مَـن أهْـوَى ومن أهـوى أنـا ‏ ‏ نـحـنُ روحـان حـللنـا بـدنـا
فـإذا أبـصـرتـنـي أبـصـرتَـه ‏ ‏ وإذا أبـصـرتَـه أبـصـرتـنـا

كما نسب إليه قوله:

سـبحـان مَـنْ أظـهـر نـاسـوتَـه ‏ ‏ سـرٌّ سـنـا لاهـوتـه الـثـاقـب
ثـم بـدا فـي خـلقـه ظـاهـراً ‏ ‏ فـي صـورة الآكـل والـشـارب
حـتـى لـقـد عـايـنـه خـلقـه ‏ ‏ كلحـظة الحـاجب بـالحـاجب(١)

وكذلك اعتقد أنصار الحلاج أنه يعرف السر وسر السر وأنه ضحى من أهل الكشف، كما يبين ذلك من قوله:

مـواجيدُ أهـل الوَجْـد تصـدق عن وجـدي ‏ ‏ وأسـرار أهـل السـر مكشـوفـةٌ عنـدي

وقوله:

الله يـعلم مـا فـي الـنـفس جـارحـة ‏ ‏ إلا وذكـراك فـيهـا نَـيْـل مـا فـيهـا
ولا تـنـفـسْـتُ إلا كـنـت فـي نـفـسي ‏ ‏ تجري بك الـروح مني في مجاريهـا(٢)

ظهر خطر الحلاج منذ مستهل القرن الرابع الهجري، فقد قبض عليه ببغداد سنة ٣٠١ هـ وشهر به بدعوى ادعائه الربوبية وقوله بالحلول. وعلى الرغم من أن علي بن عيسى وزير المقتدر وقف على جهله بالقرآن وعلوم الدين، دافع عنه نصر الحاجب الذي أدخل في روعه أن الرافضة هم الذين رموا الحلاج بالكفر والمروق عن الإسلام. وكان علي بن عيسى يعتقد أن في الحلاج قدرة خارقة وأنه قادر على أذاه فتهيب من قتله.

وكان حامد بن العباس وزير المقتدر يكره الحلاج ويعمل على التخلص منه، فاتخذ من امرأة ابن الحلاج عيناً عليه واستشهد بها عليه، كما أحضر كتبه وقرأها ووقف على ما فيها من شعوذة وكفر، ثم عقد مجلساً ضم كبار القضاة الذين ناظروه فيما كتبه وبينوا له بطلان ما ذهب إليه وخروجه على الدين الإسلامي، ورموه بالكفر وأفشوا جميعاً بكفره وأحلوا دمه؛ فأمر الخليفة بضربه ألف سوط وإحراق جثته وإلقاء رمادها في دجلة.

وقد ادعى أصحاب الحلاج أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وأن المضروب كان عدواً للحلاج ألقى شبهه عليه. كما قال بعض آخر إنه رآه وخاطبه وحدثه؛ وادعى قوم

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٧.

(٢) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٨، ١٠٤.

من أصحابه أنهم رأوه يركب حماراً وأنه قال لهم: إنما حولت دابة، ولست المقتول كما ظن هؤلاء البقر. ولما زادت دجلة اعتقد أصحابه أن ذلك بسبب ما ألقي فيها من رماد جثته. وقال أبو عمرو بن حيوية: لما أخرج الحلاج ليقتل مضيت في جملة الناس، ولم أزل أزاحم حتى رأيته، فقال لأصحابه: لا يهولنكم هذا فإني عائد إليكم بعد ثلاثين يوماً[١].

ولكن خطر الحلاج لم يزل بموته. فقد افتتن به كثير من الدهماء لما رأوه من سحره وشعوذته وحاله وإشاراته، حتى إنهم ألهوه ودانوا بربوبيته. وقد دافع عنه حجة الإسلام الغزالي وحمل أقواله على محمل حسن. ومهما يكن من شيء فقد أقلقت مبادىء الحلاج الخلافة العباسية، ولذلك أحضر الوراقون وحرم عليهم أن لا يبيعوا من كتبه شيئاً ولا يشتروه. وقد قبض عليه ثم قتل في شهر ذي القعدة سنة ٣٠٩ هـ.

٢ ـ الشلمغاني:

ويظهر أن فكرة تأليه الحلاج لم تقتصر على غلاة المتصوفين؛ فقد رأينا السبئية يؤلهون علي بن أبي طالب، والراوندية يؤلهون أبا جعفر المنصور، والخطابية يؤلهون جعفراً الصادق، والمتصوفين الغلاة يؤلهون الحلاج، ويؤله العذاقرة أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني (بسكون اللام وفتح الميم)، وينسب إلى إحدى قرى واسط. وقد ادعى حلول روح الإله فيه وسمى نفسه روح القدس، ووضع لأتباعه كتاباً ينطوي على الخروج على الشريعة الإسلامية[٢].

وقال ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٠١): «وكان من مذهبه أنه إله الآلهة يحق الحق، وأنه الأول القديم، والظاهر الباطن، الرازق التام، المومأ إليه بكل معنى. وكان يقول إن الله سبحانه وتعالى يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود. فمن ذلك أنه حل في آدم لما خلقه، وفي إبليسه أيضاً، وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه في معناه، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق، وأن الضد أقرب الشيء من شبهه، وأن الله عز وجل إذا حل في جسد ناسوتي ظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٩٤، ٩٧. راجع محاكمة الحلاج في:
Massignon op. cit. tome I, pp.197 - 220.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٣٤٩.

هو». وهذا يشبه إلى حد كبير آراء الإمامية وخاصة الإسماعيلية منهم، في الحلول ومبدأ الضد في نظرية الإمامة.

وقد تأثر بآراء الشلمغاني بعض كبار رجال الدولة العباسية في هذا العصر. ومن هؤلاء المحسن بن أبي الحسن بن الفرات في عهد وزارة أبيه الثالثة، كما وجد صدراً رحيباً من ناصر الدولة (الحسن بن عبد الله) بن حمدان الذي أحسن وفادته وتستر عليه، وبقي عنده بالموصل إلى أن جاء بغداد حيث تبعه كبار رجالها. وممن تبعه أيضاً الحسين بن القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله، وأبو علي بن بسطام، وإبراهيم بن أبي عون، وابن شبيب الزيات، ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا حين كشف أمرهم في عهد وزارة ابن مقلة في خلافة المقتدر.

ولما تفاقم خطر الشلمغاني في عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) قبض عليه وعلى كثير من أنصاره، ووجدت عنده وثائق تثبت ادعاء الألوهية وإغراق أنصاره في ألوهيته، وفيها خط الحسين بن القاسم، فعرضت الخطوط فعرفها الناس، وعرضت على الشلمغاني فأقر أنها خطوطهم... وأخذ ابن أبي عون وابن عبدوس معه وأحضرا معه عند الخليفة وأمرا بصفعه فامتنعا. فلما أكرها مد ابن عبدوس يده وصفعه، وأما ابن أبي عون فإنه مد يده إلى لحيته ورأسه، فارتعدت يده، فقبل لحية الشلمغاني ورأسه ثم قال: إلهي وسيدي ورازقي، فقال له الراضي: قد زعمت أنك لا تدعي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما عليَّ من قول ابن أبي عون؟ والله يعلم أنني لا قلت له إنني إله قط. فقال ابن عبدوس إنه لم يدع الإلهية، وإنه ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر... وكنت أظن أنه يقول ذلك تقية. ثم أحضروه عدة مرات ومعهم الفقهاء والقضاة والكتاب والقواد، وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دمه. فصلب الشلمغاني وابن أبي عون في ذي القعدة سنة ٣٢٢ هـ، وأحرقا بالنار»[1].

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٠٠ ـ ١٠١.

الباب السادس

العلاقات الخارجية

١ ـ مع البيزنطيين

(أ) علاقة العباسيين بالبيزنطيين:

اتخذ البيزنطيون من سوء الحال التي سادت الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني لاستبداد الأتراك والبويهيين من بعدهم بالسلطة دون الخلفاء، فرصة سانحة للإغارة على بلاد هذه الدولة. ففي سنة ٢٣٨ هـ أغار البيزنطيون على سواحل مصر، واستولوا على دمياط وتنيس وعاثوا فيهما؛ ولم يتمكن عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ ـ ٢٤٢ هـ) الذي ولي هذه البلاد من قبل الخليفة المتوكل العباسي من أن يضرب على أيديهم، أو أن يمنعهم من نهب البلاد وسبي النساء والأطفال وأهل الذمة. وقد نظم يحيى بن فضل قصيدة بعث بها إلى الخليفة المتوكل، وعاب فيها على عنبسة تهاونه وقعوده عن مطاردة الروم فقال:

أترضَى بأن تُوطأ حرمتُك عَنْوةً　　وأن يُستباح المسلمون ويُخْرَبوا[١]

كذلك أغار الروم في عهد المتوكل على مدينة عين زربا[٢] على مقربة من المصيصة (سنة ٢٤١ هـ) وأسروا من كان فيها من الزط الذين كان المعتصم قد نقلهم إليها بعد ثورتهم في البطائح بين واسط والبصرة. وفي هذه السنة تبودلت الأسرى بين المسلمين والروم في عهد ميشيل الثالث (٢٢٨ ـ ٢٥٣/ ٨٢٤ ـ ٨٦٧)، الذي آلت الوصاية عليه إلى أمه تيودورا، وبلغ عدد أسرى المسلمين عشرين ألفاً كانوا يلاقون كل ألوان التعذيب، حتى إن كثيراً منهم اضطروا إلى الدخول في المسيحية. وقد قيل إن تيودورا عرضت على هؤلاء الأسرى الارتداد

---

(١) الكندي: كتاب الولاة ص: ٢٠١.

(٢) بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة. وقد أمر هارون الرشيد ببنائها سنة ١٨٠ هـ وأقطعها فريقاً من أهل خراسان وغيرهم، ثم نقل إليها المعتصم جماعة من الزط، ويسميها الفرنجة Anazarbus.

عن الإسلام، فتنصر بعضهم، وكانوا أكثر من سبعة آلاف، وأبى الآخرون، فقتلت منهم اثني عشر ألفاً، ولم يبق من المسلمين سوى تسعمائة بين رجل وامرأة[١].

كذلك أغار البيزنطيون على الأراضي الواقعة شمالي العراق حتى بلغوا آمد وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين. ولكن المتوكل عول على أخذ الثار من البيزنطيين، فاستولى على بعض بلادهم جنوبي آسيا الصغرى (٢٤٤ هـ)[٢]، كما أسر المسلمون في سنة ٢٤٥ هـ بقيادة علي بن يحيى الأرمني أحد بطارقة الروم (أي قوادهم)، واستولو على مدينة لؤلؤة. وكان البطريق الذي كان صاحب الروم وجهه إليهم يقال له لغيط... وقيل إن علي بن يحيى الأرمني حمله إلى المتوكل، فدفعه هذا الخليفة إلى الفتح بن خاقان، فعرض عليه الإسلام فأبى، فقالوا نقتلك، فقال: أنتم أعلم. وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين[٣].

وقد اتخذت الحروب مع البيزنطيين وسيلة لإبعاد بعض القواد المناوئين، فقد قامت العداوة والبغضاء بين أحمد بن الخصيب وزير المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ)، وبين وصيف التركي، فعمل هذا الوزير على التخلص من ذلك القائد، وأغرى الخليفة بإبعاده عن حاضرة الدولة لغزو بلاد الروم[٤].

دخل وصيف بلاد الروم وأوغل فيها، ومات المنتصر في ذلك الوقت وآلت الخلافة إلى المستعين. وفي عهده غزا جعفر بن دينار الصائفة، واستولى على بعض الحصون البيزنطية وقتل اثنان من أشد قواد المسلمين بأساً وأعظمهم خطراً وهما: عمر بن عبيد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني اللذان يقول فيهما الطبري (جـ ١١ ص ٨٥): «كانا نابين من أنياب المسلمين، شديداً بأسهما عظيماً غناؤهما عنهم، في الثغور التي هما بها». ويقول المسعودي[٥] إنهما كانا من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية، حتى إن الروم صوروا في كنائسهم عشرة من كبار قواد المسلمين، من بينهم عمرو بن عبيد الله، وعلي بن يحيى الأرمني.

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٦٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ١١ ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥.

وكان لقتل هذين القائدين أثر بعيد في إذكاء روح الجهاد بين أهالي بغداد وسامرا، وإلى هذا يشير ميور[١]: «وكانت كفة الحرب في الخمسين سنة الماضية في غير مصلحة الدولة البيزنطية بوجه عام. بيد أنه في السنة التالية (٢٤٩ هـ) منيت غارة المسلمين على المسيحيين بإخفاق ذريع، فقد تمزقت أوصال كتيبتين من كتائب المسلمين في أرمينية وآسيا الصغرى، وأثارت أنباء هذه الهزائم حماسة أهل بغداد، وتعالت تلك الصيحات القديمة في الطرقات معلنة الجهاد والنفير. وكان لهذه الصيحات أثرها في إثارة حماسة العامة، ففتحوا السجون وأحرقوا الجسور. ولكن بغداد، وإن لم تستطع بعد أن تملي شروطها على حكامها، استطاعت أن تثير الشغب والاضطراب. بيد أن روح الحرب الدينية كانت من القوة بحيث استطاعت أن تجذب جموعاً كثيفة من الأمصار القريبة، جاءوا زرافات ووحدانا بحرابهم باذلين نفوسهم في سبيل جهاد المسيحيين».

ولما ولي المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) الخلافة انكمشت الدولة العباسية إلى حدود الجزيرة والعراق، وتجدد النزاع بين المسلمين والروم، الذين جرءوا على العبث ببعض بلاد الدولة العباسية. ولا غرو فقد قويت شوكة الدولة البيزنطية وانتشر الأمن فيها منذ اعتلاء باسيل الأول (٢٥٣ ـ ٢٧٣ / ٧٦٧ ـ ٧٨٦) العرش، فتمكن من إحراز النصر على بعض أمراء المسلمين. وساعده على ذلك ضعف بعض الخلفاء واستبداد القواد بهم وثورة الجند عليهم.

وكان أحمد بن طولون الذي ولي الثغور الشامية من قبل الخليفة المعتمد، مصدر خوف البيزنطيين، حتى إنهم هادوه في سنة ٢٦٥ هـ. وفي ذلك يقول الطبري (جـ ١١ ص ٢٥٣): «بعث ملك الروم بعبد الله بن رشيد بن كاوس الذي كان عامل الثغور، فأسر إلى أحمد بن طولون مع عدة من أسراء المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه». على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن أغاروا في السنة التالية على ديار ربيعة، فتصدى لهم أهل الموصل ونصيبين، وردوهم على أعقابهم بعد أن عاثوا في هذه البلاد[٢]، فرد نائب أحمد بن طولون على الثغور الشامية على البيزنطيين، بإغارته على الأراضي القريبة من هرقلة وإيقاعه بأهلها[٣].

(١) The Caliphate, pp. 522 - 523.

(٢) ابن الأثير: ج ٧ ص ١١٨.

(٣) الطبري جـ ١١ ص ٢٥٨.

وقد أتاح اشتغال العباسيين بقتال صاحب الزنج الفرصة للبيزنطيين للإيغال في بلاد الدولة العباسية، فحاصروا قلمية (بفتح القاف واللام وسكون الميم) القريبة من طرسوس في جيش كثيف قيل إنه بلغ مائة ألف؛ ولكن المسلمين أوقعوا بهم وغنموا منهم غنائم لا تحصى[١].

كذلك أتاح اشتغال العباسيين بمحاربة قرامطة زكرويه في شمال العراق وبادية الشام وبعض المدن الشامية، الفرصة للبيزنطيين، فأغاروا في سنة ٢٩٢ هـ على الثغور الشامية في مائة ألف جندي، وعاثوا في كثير من المدن مثل الحدث (بفتح الحاء والدال). فخرج إليهم المسلمون من طرسوس، وفتحوا أنطاكية الحصينة التي يقول ابن الأثير (جـ ٧ ص ١٩٠) إنها تشبه القسطنطينية، وقتلوا خمسة آلاف من أهلها وأسروا مثلهم وأنقذوا أسرى المسلمين فيها، كما استولوا على ستين مركباً، وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق. وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم ألف دينار. كما بلغ المسلمون قونية في سنة ٢٩٤ هـ وخربوها، واضطر إمبراطور الروم إلى طلب الصلح وتبادل الأسرى بين الفريقين[٢].

وقد اتخذ البيزنطيون من ثورة الحسين بن حمدان على بني بويه فرصة للإغارة على الثغور الجزرية، فقصدوا حصن منصور سنة ٣٠٣ هـ وسبوا من كان فيه، كما أوقعوا بجند المسلمين في طرسوس وعاثوا فساداً بمرعش[٣]، وسار القائد مؤنس في السنة التالية إلى ملطية وفتح كثيراً من حصون الروم، وكان من أثرها هذا النصر المؤزر الذي أحرزه مؤنس على الروم أن خلع عليه الخليفة المقتدر لقب المظفر. وقد اضطر الروم إلى طلب المهادنة من المسلمين (سنة ٣٠٥ هـ). ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) إن إمبراطور الروم أرسل إلى المقتدر رسولين يطلبان المهادنة والفداء.

على أن البيزنطيين وقفوا على مبلغ الضعف الذي حل بالدولة العباسية في عهد المقتدر الذي عجز عن إمداد الثغور بالرجال والعتاد، حتى إن الإمبراطور قسطنطين السابع (٢٩٩ ـ ٣٤٨/ ٩١١ ـ ٩٥٩) أرسل إلى أهل الثغور يرسم لهم أداء الخراج إليه ويقول: «إن

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ ٧ ص ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٣٣.

فعلتم ذلك طائعين وإلا قصدتكم، فقد صح عندي ضعفكم»[١]. وكان من أثر ذلك أن دخل الروم ملطية بعد أن فر أهلها إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة (٣١٣ هـ).

ولم تكن حالة الدولة العباسية في عهد إمرة الأمراء (٣٢٤ ـ ٣٣٤) أقل سوءاً واضطراباً بسبب تنافس الأمراء على السلطة والنفوذ. وقد أدرك البيزنطيون هذا الضعف فطمعوا في الإغارة على بلاد الدولة العباسية المجاورة لهم. ففي سنة ٣٣٠ هـ أوغل البيزنطيون في هذه البلاد حتى وصلوا إلى حلب وعاثوا فيها، وقابل المسلمون في طرسوس هذا العمل بإغارتهم على البيزنطيين في آسيا الصغرى وأسر كثير من قوادهم[٢]. ووصلت جيوش الروم في السنة التالية إلى أرزن وميافارقين ونصيبين فنهبوها وأسروا أهلها وبلغوا داراً بين نصيبين وماردين[٣]، «وطلبوا منديلاً في كنيسة الرها يزعمون أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، على أن يطلقوا جميع من سبوا، فأرسل إليهم وأطلق الأسرى[٤] كما استولى البيزنطيون في السنة التالية على مدينة رأس عين، وأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها، ثم أحرقوها عند رحيلهم (الصولي ص ٢٥١).

وكان لأمراء العباسيين في مصر نصيب كبير في العلاقات التي قامت بين العباسيين والبيزنطيين. فقد كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه من بعده شجي في حلق هؤلاء البيزنطيين. ولم يكن محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ) أقل خطراً على البيزنطيين من الطولونيين. نعم! كان الإخشيد مصدر فزع للإمبراطورية البيزنطية، حتى إن الإمبراطور رومانوس تودد إليه ومدحه وكاتبه دون الخليفة على غير ما جرت به العادة في ذلك الوقت، وأرسل إليه كتاباً مع رسولين من قبله يطلب تبادل الأسرى، فرد عليه الإخشيد بكتاب طويل يدل على ثقته بنفسه وإقراره بالتبعية للخليفة العباسي، ثم على اتساع رقعة البلاد التي تدين له بالطاعة[٥].

وكذلك كانت بلاد الحمدانيين مسرحاً للنزاع بين البيزنطيين والمسلمين، فقد امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين، حتى إنه غزا بلادهم أربعين غزوة، انتصر في

(١) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٤٦.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٩.
(٣) للصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.
(٤) السيوطي: أخبار الخلفاء ص ٢٦٢.
(٥) راجع القلقشندي: ج ٧ ص ١٠ ـ ١٨.

بعض وهزم في بعض آخر. ففي سنة ٣٣٩ هـ غزا سيف الدولة بلاد الروم وبلغ قيسارية، ثم يمم شطر سمندو (بفتح السين والميم وسكون النون) في أواسط آسيا الصغرى، فهرب الدمستق فقال المتنبي:

رضينا والدمستق[١] غير راضٍ ... بما حَكَم القواضب والوشيجُ[٢]
فإن يُقْدِمْ فقد زرنا سَمَنْدو ... وإن يُحجم فموعدُنا الخليجُ[٣]

قصد سيف الدولة بعد ذلك مدينة «صارخة» على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية وأوقع بجيش الدمستق، وأقام المنابر وخطب له فيها. وكانت غزوة صارخة من أشهر الغزوات التي انعقد فيها لواء النصر لسيف الدولة على الروم[٤].

وفي ٣٤٢ هـ عادت الحرب بين سيف الدولة وبين الروم سيرتها الأولى، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذي ساقه سيف الدولة إلى حلب حيث بقي عنده حتى مات. وقد قابل الروم هذا العمل بغزو البلاد الإسلامية حتى بلغوا طرسوس في سنة ٣٤٨ هـ وخربوا حصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش، ثم توجهوا إلى ديار بكر ووصلوا إلى ميافارقين، وعاثوا في بلاد الحمدانيين والعباسيين، وأوقعوا الفزع في قلوب الأهلين، حتى إن الخطيب عبد الرحيم بن نباته أنشأ هذا النوع من الخطب التي أطلق عليها الخطب الجهادية لإثارة حماس المسلمين وحثهم على الجهاد[٥].

ولم تكن الدولة العباسية في عهد بني بويه أحسن حالاً منها في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء. فقد استبدوا بالسلطة دون الخلفاء، وقامت المنافسة بين أفراد البيت البويهي، مما أطمع البيزنطيين في الدولة العباسية، فاستولى القائد نقفور فوكاس على جزيرة كريت سنة ٣٥٠[٦]. ثم انتصر على سيف الدولة الحمداني، ثم على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودبيق. وبالقرب من مَنْبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور. ثم استولى على مدينة حلب حاضرة الحمدانيين[٧]. وقد قيل إن جيش الروم بلغ مائتي ألف مقاتل. وكان لسقوط حلب في يد الروم أثر بالغ في نفوس المسلمين عامة وفي

---

(١) الدمستق اسم لملك الروم.
(٢) الوشيج شجر الرماح أي بما حكمت به الرماح.
(٣) يقصد خليج القسطنطينية.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٣.
(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣١٩، ٣٢٢.
(٦) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٢، ٢٢٠.
(٧) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٥، ١٩٨.

نفوس أهل بغداد خاصة. حتى إنهم اجتمعوا «ووبخوا الخليفة المطيع لله بكائنة حلب»، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه إلى الغزو ويأخذ بثأر أهل حلب[١].

وبعد موت رومانوس رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل (٣٥٢/٩٦٣). تزوجت أرملته تيوفونيا من نقفور فوكاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩ م)، ثم من قاتله جون زيمسكيس ويسميه مؤرخو العرب ابن الشمشقيق (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) بطلّيْ ذلك العصر، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار، وامتدت غزوات هذين الإمبراطورين من تلال كبادوكيا إلى صحراء بغداد[٢].

وفي سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية، ووقعت في أيديهم مدينة المصيصة وطرسوس (٣٥٥ هـ)،وتبعتهما مدينة كيلكيا شمالي زاوية خليج إسكندرونة، وتعرف عند العرب بقاليقلا. كما انتزع جزء من بلاد سورية، واعترف قسم كبير من بلاد الدولة العباسية بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية[٣].

والواقع أن هذا الانتصار يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات في بلاد الشام، فإن الفاطميين استولوا على دمشق على أثر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ. وقامت الحرب بينهم وبين القرامطة بمساعدة البويهيين، ثم تجدد النزاع بين الفاطميين في عهد العزيز من جهة وبين القرامطة وأفتكين التركي من جهة أخرى، فاتخذ البيزنطيون من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن غاراتهم على هذه البلاد.

وكان عبور الفرات في الجهات الواقعة جنوبي جبال طوروس مستحيلاً على الإغريق منذ أيام هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م). ولكن زيمسكيس استطاع أن يكتسح كثيراً من المدن العريقة في الشهرة، مثل الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الإمبراطورية القديم على مقربة من نهر دجلة، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الاستيلاء على بيت المقدس، لولا أنه وجد أن قوته لا تكفي لتحقيق هذا الغرض، فسار نحو الشمال، واستولى على المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا وجبيل. ولكن الهزيمة حلت بجنده في طرابلس،

---

(١) أبو المحاسن جـ ٧ ص ٣٣٢، ٣٣٥.

(٢) Vasil. Ev. op. cit, vol. IV.p.145.

(٣) Ibid.pp.146 « 147.

ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية، وعاد الإمبراطور نفسه إلى حاضرة ملكه حيث مات في ١٠ يناير سنة ٩٧٦ م (٣٦٦ هـ)[١].

وقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الفالة عن زيمسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع. على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع في حربهم في الصحراء. وتبع ذلك قيام ورد بن منير السقلاروس Bardas Sclerus في الجهات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ابتغاء الجلوس على العرش ومسيره بعد إخفاقه إلى بغداد طالباً النجدة من الخليفة العباسي الذي رحب به، وما تبع ذلك توافد رسل الإمبراطور باسيل الثاني يطلبون تسليم برداس[٢].

كان لإغارة الفاطميين على حلب في سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ ـ ٩٩٥ م) أثره في علاقة البيزنطيين بالمسلمين. فقد طلب الحمدانيون النجدة من الإمبراطور باسيل الثاني، الذي رحب بهذا الطلب على الرغم من اشتغاله بحرب البلغار الذين عرضوا إمبراطوريته للخطر، وقرر الذهاب بنفسه إلى المشرق، ولا سيما أن أنطاكية قد تعرضت لحصار الفاطميين. ولهذا استطاع هذا الإمبراطور أن يخلص مدينة حلب حاضرة الحمدانيين، كما استولى على حمص، ولكنه اضطر بسبب عدم إحرازه النصر أمام أسوار طرابلس، إلى العودة إلى بلاده لمحاربة البلغار، ولم تلبث الهزيمة أن حلت بجيوش البيزنطيين على مقربة من فامية[٣].

ومن ثم نجد باسيل الثاني يظهر في سورية من جديد (٣٩٠/٩٩٩ م) في شيزر وحمص، ولكن الهزيمة حلت به في طرابلس ثانية واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية في سنة ٣٩٢ هـ[٤].

(ب) علاقة الفاطميين بالبيزنطيين:

أرسل الخليفة العزيز الفاطمي في سنة ٣٧٧ هـ حملة بحرية لغزو بلاد الروم. غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذي أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها. ثم قدم إلى مصر

(١) Ibid, pp.148. مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢.

(٢) مسكويه ج ٣ ص ١٣ ـ ١٤.

(٣) مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ويقال لها أفامية.

(٤) Vasil, Ev. op. cit., vol. iv,pp. 147 - 148.

رسل إمبراطور الروم يحملون الهدايا إلى العزيز وطلبوا منه عقد الصلح، فأجابهم إلى طلبهم واشترط عليهم عدة شروط أهمها:

١ ـ إطلاق سراح أسرى المسلمين في بلادهم.

٢ ـ الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة.

٣ ـ حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم.

٤ ـ عقد الهدنة بين الفريقين سبع سنين[١].

وكانت بلاد الشام التي كانت تابعة للفاطميين إذ ذاك مركزاً للصراع بينهم وبين البيزنطيين على ما تقدم. فقد عمل الحاكم على منع البيزنطيين من التقدم جنوباً في هذه البلاد، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداهما على البيزنطيين بحراً بالقرب من طبرية، وانتصرت الأخرى براً بالقرب من فامية.

ولما علم إمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولاً من قبله لمفاوضة الخليفة الفاطمي في الصلح، وتم الاتفاق بينهما على عقد صلح يقضي بوقف الحرب بين الفريقين عشر سنين[٢].

ولما ولي الخليفة الظاهر الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين. ففي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) عقدت الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن، وتقضي بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد بلاد الروم، وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس (وكان الحاكم قد هدمها)، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام في عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم[٣].

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء. ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة المستنصر والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ ـ ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم «خمسة آلاف أسير

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٢.

Lane - Poole, of Egypt in the Middle Ages, p. 136.

(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ٣٥٥.

لتعمير كنيسة القيامة التي كان قد خربها(١). كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤ م) في سنة ٤٦٦ هـ (١٠٥٤ م) الذي تعهد بأن يمد مصر بالغلال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بمصر في هذه السنة.

غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الاتفاق، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ ـ ١٠٥٦ م)، فاشترطت لمعونة مصر شروطاً أهمها أن يتعهد الخليفة الفاطمي بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها؛ فلم يوافق المستنصر على ذلك، واشتبك الفريقان في معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين. ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم، فرأى المستنصر وقف القتال وطلب المهادنة، وأرسل في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) إلى الإمبراطورة تيودورا القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف، بيد أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة.

(جـ) علاقة الأمويين في الأندلس بالبيزنطيين:

رأينا من قبل أن العباسيين عملوا في العصر العباسي الأول على مناوأة أعدائهم البيزنطيين والأمويين في الأندلس، فتقربوا إلى أعدائهم الفرنجة، وخطب شرلمان ود هارون الرشيد، فأرسل إليه وفداً لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ونشر التجارة بين البلدين وارتشاف العلوم من مواردها في الشرق. وقد رحب الرشيد بهذه الوفود وأرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان الذي أصبح حامي المسيحية، وتبودلت الهدايا بينهما.

بيد أنه في العصر العباسي الثاني، نرى البيزنطيين يعملون على محالفة الأمويين في الأندلس الذين اتسع نفوذهم وتفاقم خطرهم في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) للوقوف في وجه العباسيين أعداء البيزنطيين والأمويين جميعاً، ولذلك عمل الإمبراطور قسطنطين بورفيرو جنيتس Constantine Porphryogenitus (٩١١ ـ ٩٥٩ م) على التحالف مع الناصر، وأوفد في سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ ـ ٩٤٨ م) إلى البلاط الأموي بالأندلس سفارة تحمل كتاباً من الإمبراطور داخل صندوق من الفضة مغطى بالذهب(٢).

وقد اهتم عبد الرحمن الناصر باستقبال هذا الوفد استقبالاً عظيماً. وكان يرمي من وراء

---

(١) أبو الفدا: المختصر ج ص ٦٢.
(٢) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ١٧٣.

ذلك إلى «أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته»[١].

ولم تقف علاقة المودة بين الأمويين في الأندلس والبيزنطيين عند هذا الحد. فقد أمر الإمبراطور قسطنطين السابع بعمل قبلة للمسجد الجامع بقرطبة صنعت من الفسيفساء المذهب والملون. وقد وصفها الإدريسي الذي شاهدها بقوله «قبلة يعجز الواصفين وصفها وفيها إتقان يبهر العقول تنسيقها». كما أهدى إليه كثيراً من الأعمدة التي استعملت في بناء مدينة الزهراء. وأرسل إليه نيقولا Nicholas لترجمة الكتاب الطبي الذي كان قد أهداه إليه من اليونانيةإلى اللاتينية على أن يتولى ابن شبروط ترجمته إلى العربية.

٢ ـ مع الدول الغربية في أوربا

استقرت قدم العرب في أسبانيا وفي صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما تقدم، وحاولوا الاستقرار على سواحل هذا البحر في إيطاليا وفرنسا، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروڤانس الأسفل، وزادت قوتهم بما كان يصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وإفريقية وجزيرة صقلية، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غويمو جنوبي إقليم بروڤانس وفي غابة فراكسينت Fraxinet. ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الفراكسينية. ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراج، ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض.

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها، واستطاعوا في خلال القرن العاشر الميلادي أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا في نواحي مونت فرات وبيدمونت ويستقروا في سهول نهر البو. ثم تقدموا في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا Liguris، ودخلوا مدينة جنوة، ووقعت في أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة، وخاصة ممر سان برنار، وفرضوا الضرائب على المسافرين.

---

(١) المسرى: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٠.

ولم يقف نشاط العرب عند هذا الحد، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا، وامتد نفوذهم من شواطىء بحيرة كنستانس شمالاً إلى جنوة ومرسليا ونيس جنوباً، وعملوا على نشر الإسلام في هذه الجهات، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحي العربي Carton de Sarazins في أحد أحياء مدينة نيس.

على أن نفوذ هؤلاء العرب لم يلبث أن أخذ في الضعف حول منتصف القرن الرابع الهجري، بعد أن دانت هذه البلاد لسلطانهم زهاء سبعين سنة. وكان أهم هذه الحصون الحصن المسمى Fraxinatum بقرية جارد فرينيه Gard Frainct التي تقع الآن في سفح الجبل من الناحية الشرقية بمقاطعة بروڤانس جنوبي فرنسا. ويسمّي الإصطخري هذا الموقع جبل القلال. وقد وصفه في هذه العبارة فقال: «وأما جبل القلال فإنه كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض، فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم، ومقداره في الطول يومان»[1].

وقد عمل ملك بروڤانس على طرد عرب الفراكسينت من بلاده، فاستعان بأوتو الأكبر (٩٣٦ - ٩٧٣ م)، إمبراطور ألمانيا الذي أصبح في سنة ٩٦٢ م إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، على الحد من نفوذ عرب مملكة الفراكسينت بإمبراطور الدولة البيزنطية الذي أمده بأسطول، وكاد يقضي على نفوذ العرب في بلاده، لولا أن ثار عليه أحد خصومه في إيطاليا، وخشي أن يصل إليه عدوه عن طريق ممار الألب التي كانت في حوزة العرب. ولذلك هادن العرب على أن يسدوا هذه الممار في وجه عدوه.

واعتقد أوتو الأكبر أن عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس كان يساعد العرب في نشر فتوحهم؛ فأرسل إليه سفارة للعمل على وقف إغارات هؤلاء العرب. ويقول بعض المؤرخين إن عبد الرحمن كان قد أرسل إلى أوتو سفراء لإنشاء علاقات سياسية بين الدولتين، وإنه أرسل إليه كثيراً من الهدايا، وكانت هذه السفارة برياسة أحد الأساقفة المستعربين في الأندلس، وكان هذا الكتاب الذي دون باللغة العربية يحتوي على بعض عبارات فيها نقاش حول التثليث، ولكن المنية وافت هذا الأسقف وهو في طريقه إلى أوتو. وقد قيل إن أوتو اعتبر العبارات التي تدور حول فكرة التثليث إهانة لدينه، فأهان هؤلاء المبعوثين وأساء معاملتهم وأبقاهم ببلاده ثلاث سنين.

---

(١) أنظر شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤ - ١٦٥، ١٦٦ - ١٧٠.

وبعد قليل أرسل أوتو رسلاً إلى قرطبة لوصف إغارات الفراكسينت العرب من ناحية، ورد الإهانة التي وجهها المسلمون إليه من ناحية أخرى، وعهد أوتو في رياسة هؤلاء الرسل إلى جان دي جورتزا Jean de Gorza الذي وصل إلى قرطبة سنة٣٤٥هـ(٩٥٦م). علم الخليفة الناصر بما اشتمل عليه كتاب أوتو وتعريضه بمحمد عليه الصلاة والسلام، فأرسل إلى رئيس هؤلاء الرسل مطران قرطبة ينصح له بالعدول عن سب الرسول، فلم يزدد إلا عناداً، وأخذ يوبخه على تساهل مسيحيي الأندلس مع المسلمين، ومسايرتهم لهم في الختان والامتناع عن أكل لحم الخنزير. وصمم الخليفة الناصر على إبقاء أعضاء السفارة تسع سنوات لا ثلاث سنوات كما فعل أوتو برجال سفارته من قبل، وأرسل إلى إمبراطور ألمانيا كتاباً مع رجل مسيحي يسمى ريسمند يطلب فيه تغيير كتابه الأول.

وقد نجح هذا الرسول في مهمته، واستبدل أوتو كتابه بكتاب آخر وصل بعد ثمانية عشر شهراً من وصول كتابه الأول، وكوفىء هذا الرسول بتعيينه أسقفاً، وهنا مثل جورتزا بين يدي الخليفة الناصر. واصطفت الجند على جانبي الطريق التي مر فيها أعضاء هذه السفارة، ووقف الصقالبة شاكي السلاح. وفرشت ممرات قصر قرطبة بالبسط والديباج وجلس الخليفة في البهو الكبير، فتقدم الأسقف جورتزا وقبل يده وجلس بجانبه، وأخذ الناصر يثني على الإمبراطور أوتو وعلى سعة عقله وكفايته، لكنه تعرض لإحدى نقائص الحكم في دولته لاعترافه بنفوذ حكامه الإقطاعيين ومشاركتهم إياه في حكم البلاد مما يثير في نفوسهم الغرور والميل لشق عصا طاعته[١].

وعلى الرغم من عدم تصدي المؤرخين لما كان لهذه السفارة من أثر، لا يمنعنا ذلك من القول بأن بلاط الناصر كان محطاً لسفراء الدول، كسفارة أوتو ملك الصقالبة في سنة ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ)[٢]، وسفراء حكام فرنسا[٣]، كما دخل عبد الرحمن الناصر في حلف مع ملك إيطاليا الذي آلمه تخريب الفاطميين لمدينة جنوة، كما حالف البيزنطيين الذين تطلعوا إلى انتزاع جزيرة صقلية من الخليفة القائم الفاطمي[٤].

---

(١) Dozy, The Moslems in Spain, p. 429.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٣٤.

(٤) Dozy, op. Cit., p. 434.

٣ ـ مع الروس

وقد تعرضت البلاد الإسلامية في الشرق لهجوم الروس ففي سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ ـ ٩٤٤ م) أغار جماعة من الروس الذين كانوا يقيمون شمالي بلاد الخزر على أذربيجان واستولوا على قصبتها برذعة. وقد اشتهر الروس بقوة أبدانهم وشدة بأسهم ومهارتهم في الحرب. وقد وصفهم مسكويه[1] في هذه العبارة فقال: «هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام، ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل. ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة للسلاح، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها، ويقاتل بالحربة والترس، ويتقلد بالسيف، ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشني، ويقاتلون رجالة لا سيما هؤلاء الواردين».

وقد أوقع هؤلاء الروس الهزيمة بأمير أذربيجان، وحاولوا أن يستميلوا الناس إليهم. فلما أبوا أن يجيبوهم إلى طلبهم، عاثوا في بلادهم وقتلوا أهل برذعة عن آخرهم. ويقول ابن الأثير (جـ ٨ ص ١٤٦) إن الروس نزلوا برذعة ونادوا فيها بالأمان، فأحسنوا السيرة وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية. فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم. وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك، فلم ينتهِ سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم، وسائر العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه. وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقي أكثرهم بعد الأجل، فوضع الروسية فيهم السلاح، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس، وجمعوا من بقي بالجامع وقالوا: اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم. وسعى لهم إنسان نصراني فقرر عن كل رجل عشرين درهماً، فلم يقبل إلا عقلاؤهم. فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء، فقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا الشديد، وغنموا أموال أهلها، واستعبدوا السبي واختاروا من النساء من استحسنوها».

يمم الروس بعد ذلك صوب مراغة، وعاثوا في البلاد، فهال المسلمين ذلك ودعوا للجهاد. وأعد المرزبان بن محمد بن مسافر أمير أذربيجان جيشاً لمحاربة العدو واستطاع أن يوقع بهم[2]. وهكذا كانت علاقات المسلمين بالروس عدائية كعلاقتهم مع البيزنطيين والفرنجة وغيرهم.

(١) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٦٢.

(٢) مسكويه ص٦٤ ـ ٦٧ Muir, The Caliphate, p. 475

الباب السابع

نظم الحكم

١ ـ النظام السياسي

(أ) الخلافة

١ ـ الخلافة العباسية:

طبعت الخلافة في هذا العصر بطابع الوهن والضعف، لازدياد نفوذ الأتراك في الدولة العباسية، وتدخلهم في شئون الدولة وتنصيب من يشاءون وعزل من يشاءون أو قتله أو سمل عينيه حتى أصبح الخلفاء مسلوبي السلطة. كما تميزت الخلافة بطابع تدخل النساء في شئون الدولة، وكثرة تولية الوزراء وعزلهم، وتولية العهد أكثر من واحد، مما أدى إلى قيام المنافسة بين أمراء البيت الواحد.

وقد أدت تولية المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ)، الذي وصفه بعضهم بأنه ظل الله الممدود بينه وبين خلقه، أولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد العهد، وتقديم ابنه المعتز على المنتصر، إلى اغتيال هذا الخليفة بيد ابنه المنتصر بتحريض الأتراك. ولا غرو فقد حاول بعض هؤلاء الأتراك اغتيال هذا الخليفة في دمشق من قبل ولكنهم لم يفلحوا فانتهزوا فرصة حنق المنتصر على أبيه وانضموا إليه وقتلوه، فخلفه ابنه وقاتله على العرش. ولم يلبث المنتصر أن عمل بتدبير الأتراك على إقصاء أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، إذ كانوا يخشون أن ينتقم هذان الأميران، وخاصة المعتز، منهم لقتل أبيهما المتوكل[١].

وعلى الرغم من قصر عهد المنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) أدى خوف هؤلاء الأتراك من أبناء المتوكل إلى تحويل الخلافة إلى أحد أبناء المعتصم، وهو أحمد، ولقبوه المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ)[٢]. وفي عهد تفاقم نفوذ الأتراك، وعلى رأسهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وباغر. ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين أجلسوا هذا الخليفة على العرش أن

---

(١) الطبري ج ١١ ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٠.

انقلبوا عليه بسبب تواتر الإشاعات بأنه عزم على الفتك بهم، ومن ثم قامت الفتن والحروب الأهلية.

وقد بلغ من تفاقم نفوذ الأتراك وخوف الخلفاء من بطشهم أن كان المعتز لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من الأتراك وعلى رأسهم بغا الصغير[1]. وهذا يفسر لنا لماذا عمل المعتز على اصطناع المغاربة والفراغنة للتخلص من الأتراك الذين عملوا بدورهم على التخلص منه؛ وطالبوه برواتبهم وثاروا في وجهه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن مثلوا به.

ثم ولي المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) الخلافة. وكان، كغيره من الخلفاء العباسيين، ألعوبة في أيدي هؤلاء الأتراك وخاصة موسى بن بغا. وسرعان ما أسر وخلع وعذب حتى مات في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ[2]. وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويجلس للمظالم.

أما الخليفة الجديد وهو المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) فقد اعتلى العرش على أيدي الأتراك الذين أخرجوه من «الجوسَق» الذي حبسه فيه المهتدي، وكان - كما يقول السيوطي (ص ٢٤٣) - «أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به». ولا غرو فقد شل أخوه أبو أحمد الموفق طلحة يده عن مباشرة أمور الدولة حتى أصبح مسلوب السلطة.

ولم ير المعتمد بداً من مصانعة الأتراك، وخاصة قائدهم موسى بن بغا، الذي خلع عليه وضمه إلى ابنه المفوض، وقسم دولته بين ابنه جعفر، وسماه المفوض وخصه بالبلاد الغربية وضم إليه موسى بن بغا فحكمها باسمه، وولَّى أخاه أبا أحمد طلحة بعد ابنه المفوض، وسماه الموفق وخصه بالبلاد الشرقية. وبذلك ضعفت الخلافة في عهد المعتمد الذي أصبح مسلوب السلطة أمام أخيه الموفق والأتراك.

ولما توفي الموفق سنة ٢٧٨ هـ انتقل السلطان الفعلي إلى ابنه العباس أحمد الذي نجح في تنحية ابن عمه، ثم بويع بالخلافة بعد وفاة عمه سنة ٢٧٩ هـ. ولقب المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ). وكان يسمى السفاح الثاني لأنه أحيا ما درس من أطلال الخلافة حتى أصبحت قوية مهيبة وتخشاها الدول واهتم بإصلاح الحالة المالية في العراق، فعني بتحسين نظام الري ونظم الضرائب[3].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٢٨. (٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٣ - ٨٤.
(٣) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٨٨ - ١٨٩.

مات المعتضد، والمعتمد من قبله، ميتة طبيعية بعكس الخلفاء الذين فتك بهم الأتراك، وقد آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبي محمد بن المعتضد الذي تلقب «المكتفي بالله» (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ). وعلى الرغم مما اشتهر به هذا الخليفة من التبذير، نشر العدل بين الرعية، فهدم المطامير التي اتخذها أبوه المعتضد وجعلها مساجد، وأمر برد البساتين والحوانيت التي سلبها أبوه من الناس.

وقد خلف المكتفي أخوه أبو الفضل جعفر بن المعتضد الذي تلقب المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ). ويرجع السبب في اختياره إلى صغر سنه؛ إذا لم يجاوز الثالثة عشرة ليكون أسلس قياداً. ولكن المقتدر لم يلبث أن خلع وبويع عبد الله بن المعتز بالخلافة وتلقب «الغالب بالله». إلا أن أتباع الخليفة المخلوع أعادوه إلى العرش، وقد اشتهر المقتدر بعزل وزرائه والقبض عليهم، وتدخل الجند في أمور الدولة وخروج كبير أمرائه وهو مؤنس الخادم عليه وعزله مرتين. أضف إلى ذلك رجوعه إلى قول النساء والخدم والتصرف على مقتضى آرائهن، ولا غرو فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه التي يطلق عليها المؤرخون اسم «السيدة»[١].

زاد ضعف الخليفة العباسي منذ أوائل القرن الرابع الهجري، لازدياد شوكة القواد من الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة. فقد عظمت شوكة علي بن بويه في فارس، وأصبحت الري وأصبهان وبلاد الجبل في يد أخيه الحسن بن بويه؛ كما استقل الحمدانيون بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر. واستقل محمد بن طغج الإخشيد بمصر والشام، واستقل نصر بن أحمد الساماني بخراسان. وأعلن عبد الرحمن الثالث بالأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) نفسه خليفة، وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات[٢]. وانتهى الأمر بقتل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ.

ولم يكن حظ القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ) أقل سوءاً ممن سبقه من الخلفاء العباسيين: فقد سمل وحبس. وساءت حاله حتى إنه خرج يوماً يطلب الصدقة بجامع المنصور، فأعطاه بعض الهاشميين خمسمائة درهم، وأمر المستكفي بحبسه، فظل في الحبس حتى مات في عهد المطيع سنة ٣٣٩ هـ.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥.

(٢) هي الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المهدية، والخلافة الأموية في قرطبة.

لم يجد الخليفة الراضي (٣٣٢ ـ ٣٣٩ هـ) نفسه إزاء ضعف الوزراء وازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة بدأً من استمالة ابن رائق، وكان يلي واسط والبصرة. ووجد فيه الرجل الذي يستطيع أن يعتمد عليه؛ فأسند إليه كافة أمور الدولة، ولقبه «أمير الأمراء». وبعد أن كان الصراع بين الخلفاء العباسيين وكبار القواد والأمراء، أصبح بين الخلفاء وأمراء الأمراء. وكان من أثر تنازع القواد على منصب إمرة الأمراء أن استعان هؤلاء القواد بعضهم ببعض، وأدى هذا النزاع وما أعقبه من الفوضى والاضطراب إلى استنجاد الخليفة المستكفي ببني بويه، ودخول معز الدولة بن بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ.

ولم يكد معز الدولة يستقر في بغداد حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه، واستدعى الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة ولقبه المطيع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ). وكان بنو بويه شيعة غالية؛ لذلك لم يعترفوا بأحقية الخليفة العباسي السني في زعامة المسلمين[١]. ولذلك لم يكن للخليفة العباسي في عهدهم شيء من النفوذ سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة وذلك لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور وإعطاء حكمهم صيغة شرعية في البلاد. ولولا خوف بني بويه من ضياع نفوذهم السياسي لما تورعوا عن تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين. لذلك لم يدخروا وسعاً في تقوية نفوذهم وسلب السلطة من أيدي الخلفاء العباسيين[٢].

وقد وصف البيروني[٣] موقف الخلفاء العباسيين من سلاطين بني بويه في هذه العبارة فقال: «وإن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه. والذي بقي في أيدي الدولة العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي، لا ملك دنياوي. فالقائم من ولد العباس الآن يعني في عهد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ هو رئيس الإسلام لا ملك».

ولم يقف نفوذ البويهيين عند هذا الحد؛ فترى الخليفة المستكفي يلقب البويهيين بألقاب مختلفة، ويأمر بذكر أسمائهم في الخطبة ونقشها على السكة: فلقب أحمد معز الدولة، وعلياً عماد الدولة، والحسن ركن الدولة. وقد ذكر لينپول أنه خلع على معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) لقب «أمير الأمراء» الذي احتفظ به أمراء البيت البويهي فيما بعد، وقال:

(١) Arnold the Caliphale, p. 61

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١/ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٣) الآثار الباقية (طبعة لايبسك سنة ١٩٢٣) ص ١٣٢

«من الخطأ أن نقول إنهم تلقبوا بلقب سلطان لأنهم لم يتخذوا لأنفسهم هذا اللقب قط على السكة، وإنما استعملوا لقب أمير وملك فحسب. ومع ذلك فإن نفوذهم كان مطلقاً كنفوذ أي سلطان في بغداد».

وقد ذكر المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في كتابه «السيرة المؤيدية»، وكان معاصراً لجلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ) وأبي كاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) والملك الرحيم (٤٤٠ ـ ٤٤٧ هـ) آخر أمراء بني بويه في العراق، أن بني بويه كانوا يلقبون بألقاب متعددة منها «شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيي دين الله وغياث عباد الله، سلطان الدولة، معز أمير المؤمنين، ويمين خليفة الله؛ كما كانوا يلقبون أحياناً بلقب أمير الأمراء».

ونرى المطيع يخلع على عضد الدولة البويهي خلع السلطنة ويطوقه ويسوره ويعقد له لواءين: أحدهما مفضض على رسم ولاة العهود، ويلقبه بلقب «شاهنشاه الأعظم ملك الملوك». ويأمر بأن يضرب على بابه بالدبادب في أوقات الصلوات الخمس[1]. كما نرى الخليفة الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) يلقب صمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الدولة ويخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء. ويسوره ويطوقه ويتوجه ويعقد له اللواءين ويحمله على فرس، ويأمر بقراءة عهده بتقليده أمور الدولة العباسية وينقش اسمه على السكة[2]. ويفعل الخليفة مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة، فيلقبه بلقب شاهنشاه[3]، ثم يخلع على أبي نصر بن عضد الدولة ويقرأ عليه العهد[4]. إلا أن الخليفة أرغم في سنة ٣٨١ هـ على النزول عن الخلافة لأنه حبس رجلاً من خواص بهاء الدولة.

وقد أصبح الخلفاء في عهد بني بويه ـ كما يقول سير توماس أرنولد[5] ـ «لا قيمة لهم في الوقت الذي غدا غيرهم أكثر قوة ونفوذاً، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامي من غير أن يشيروا أو يحفلوا بمن يدعي أنه أمير المؤمنين، بل لقد أصبحوا ألعوبة في أيدي سلاطين بني بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم متى شاءوا وشاءت أهواؤهم».

ومع أن الخليفة أصبح مسلوب السلطة في عهد بني بويه كانوا يراعون مظاهر احترامه في الحفلات وينظرون إليه باعتباره زعيم المسلمين. فكان الخليفة يستقبل السفراء، ويلبس بردة الرسول، ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية. وقد امتد نفوذ بني بويه في

---

(١) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ هـ ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٦.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٧١.
(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٤١.
(٤) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٣.
(٥) The Caliphate, p.68.

عهد عضد الدولة في البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج العربي، ومن أصبهان إلى حدود سورية، وأصبح اسمه يذكر في الخطبة وينقش على السكة بعد اسم الخليفة العباسي. كما كان بنو بويه يزوجون بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة بذلك إلى أحفادهم. فقد تزوج الخليفة الطائع من بنت عز الدولة بختيار، وتزوج هذا الخليفة من ابنة عضد الدولة. وتجددت «وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة فتزوج الطائع ابنته. وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده، فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب»[١].

على أن ضعف الخلافة العباسية في عهد بني بويه لم يكن راجعاً إلى ضعف الخلفاء أنفسهم وصراعهم مع بني بويه الذين استبدوا بالسلطة دونهم، بل كان راجعاً أيضاً إلى تلقيب الخلفاء لهم بهذه الألقاب الضخمة التي رفعت من شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء أنفسهم مثل: تاج الملة وضياء الملك وغياث الأمة وشاهنشاه وغيرها. وقد أسرف الخلفاء العباسيون في تلقيب أمرائهم، فنرى الخليفة العباسي القادر بالله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ) يلقب محمود الغزنوي بن سبكتكين بألقاب سلطان ويمين الدولة وأمين الملة[٢]، ويلقب ابنه مسعود «سيد الملوك والسلاطين»[٣]، ويلقب جلال الدولة نفسه في سنة ٤٢٣ هـ بلقب السلطان المعظم مالك الأمم. فلما اعترض عليه رسول الخليفة، وهو أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الأحكام السلطانية بأن هذه الألقاب لا تكون إلا للخليفة نفسه، عدل عنها ولقب نفسه مالك الدولة. أضف إلى ذلك انقسام أفراد البيت البويهي على أنفسهم.

ظل الخلفاء العباسيون في هذا العصر يلقبون بلقب «أمير المؤمنين» الذي تلقب به الخلفاء منذ أيام عمر بن الخطاب، كما كان الناس يعتبرون الخلفاء العباسيين «ظل الله الممدود بينه وبين خلقه»[٤]، وكما لقب الخليفة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) نفسه بلقب «إمام الحق»، ونقش ذلك على السكة، منافساً في ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب «إمام»[٥]. وقد ذكر الصولي[٦] أن الأمير أبا العباس أحمد بن المقتدر طلب إليه قبل أن

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٧.
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣١.
(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥.
(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٣٠.
(٦) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٤٠٢.

يتلقب بلقب الراضي بالله، أن يُرسل إليه الألقاب التي يصحُّ أن ينعت بها الخلفاء وتكون أوصافاً لهم، فأرسل إليه رقعة تشتمل على ثلاثين لقباً ليختار منها ما يريد، وأشار عليه بأن يختار لنفسه لقب المرتضي بالله، ولكنه اختار لنفسه الراضي بالله وقال: «قد كنت عرفتني أن إبراهيم بن المهدي لما بويع أيام الفتنة بالخلافة أراد أن يكون له ولي عهد، فأحضروا منصور بن المهدي وسموه المرتضي. وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيري ولم يتم له أمره. وقد اخترت الراضي بالله».

وكانت ولاية العهد في أيام الخلفاء الراشدين تقوم على أساس الشورى، ولكنها أصبحت وراثية في عهد الأمويين والعباسيين، وأصبح انتخاب ولي العهد صورياً، بمعنى أن الخليفة أصبح يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته وعن طريق الولاة في الأقاليم. ولكن هذه الطريقة كانت محفوفة بالمخاطر، لإثارة الكراهة والبغضاء بين أبناء الخليفة وقيام المنافسة بين أفراد البيت المالك، وقد رأينا ما حدث على أثر تولية المتوكل العهد لأبنائه المنتصر والمعتز والمؤيد، وكيف أدى ذلك إلى قتل الخليفة نفسه.

وعلى الرغم من ضعف الخلافة في عصر إمرة الأمراء وبني بويه، استمر الخلفاء العباسيون يولون العهد أبناءهم. على أن الأتراك والبويهيين من بعدهم كانوا لا يحفلون بهذا النظام إذا كان لا يتفق مع مصالحهم. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون اهتماماً بالغاً بتولية أبنائهم العهد في احتفال رائع[1].

وسرعان ما استبد البساسيري بالسلطة ودعا للخليفة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد نحواً من سنة، فاستنجد الخليفة العباسي القائم بطغرلبك السلجوقي الذي انتصر على البساسيري وقتله، وتحول النفوذ إلى السلاجقة.

٢ ـ الخلافة الفاطمية:

كانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين. فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين، لأنهم أولاد علي ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة. وظل هؤلاء العلويون يناضلون

---

(١) أنظر تولية الخليفة القادر ابنه أبا الفضل العهد من بعده في كتاب تحفة الأمراء لهلال الصابي ص ٤٢٠.

في سبيل هذه الزعامة، بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى، حتى تُوجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته، ومن ثم نرى الشيعيين يخلعون على خلفائهم من صفات التقديس ما لم يتصف به خلفاء بني العباس. وقد قيل إن الخوارج في بلاد المغرب لم يرقهم بعض عقائد الشيعة الغالية، فثاروا في وجه الخلافة الفاطمية في عهد القائم والمنصور بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

ولكي يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، عمدوا إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذي يقوم على تقديس الأئمة. وكان من أثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي كمصر واليمن وفارس والهند، بل لقد توغلت هذه التعاليم في بلاد الأندلس نفسها التي كانت تحت نفوذ الأمويين السنيين(١).

ولقد لقيت نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد، قبولاً عند الفاطميين. وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض، كما أصبح شخصاً مقدساً، حتى لقد تعرض الناس للموت إذا أظهروا سخطاً أو تذمروا أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه، لأنها صادرة من الله الذي أملاها على الإمام المعلم، الذي تلقى علمه من الله عن طريق الوحي.

وقد استمرت فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين رائجة في مصر. فقد ادعى المعز لنفسه كثيراً من صفات التقديس، وادعى الحاكم الألوهية التي شغلت كل حياته تقريباً.

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمي أو الخليفة العلوي وأمير المؤمنين. ومن الألقاب المحببة إلى الإسماعيلية لقب إمام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضي، كما يظهر من مخاطبة قاضي القضاة للخليفة في صلاة الجمعة. السلام على أمير المؤمنين «الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته». وكان السنيون يطلقون عليهم «العبيديين» نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين، كما يطلق عليهم «العلويون» نسبة إلى علي بن أبي طالب، و«الفاطميون» نسبة إلى فاطمة الزهراء، كما كان يطلق عليهم «السلاطين». وكان الخلفاء الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه

---

(١) Dozy the Moslemsin Spain pp. 489, 413 - 415.

بأسمائهم: فنجد مثلاً المعز لدين الله، والعزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لدين الله، والمستنصر بالله، وهكذا.

وقد حذا الفاطميون حذو الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد. فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته. ولما تطرق الضعف إلى الدولة الفاطمية في عهد المستنصر، أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه، كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص حتى لا يخلو العالم من إمام. فجر ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى نزارية ومستعلية. ولا يزال أغا خان وأتباعه من الخوجات في الهند يمثلون النزارية، كما لا يزال البهرة من الإسماعيلية في الهند أيضاً يمثلون المستعلية.

٣ ـ إحياء الخلافة الأموية في الأندلس:

كان أمراء بني أمية في الأندلس يلقبون أنفسهم بألقاب منها: أمير وسلطان وابن الخلائف، حتى اعتلى عبد الرحمن الثالث العرش في سنة ٣٠٠ هـ. ولما استقرت قدمه في البلاد، ورأى ما وصلت إليه الخلافة العباسية في الشرق من ضعف، حتى إن سلطة الخليفة المقتدر لم تكد تتعدى مدينة بغداد مع أنه ما يزال يستعمل هذه الألقاب الضخمة(١)، وأدرك الخطر الذي يهدد بلاده من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب، ووجد أنه ليس أقل من العباسيين والفاطميين أثراً في الدفاع عن العالم الإسلامي ضد أوربا المسيحية، وفي شن الغارات ومطاردة المسيحيين في البلاد المتاخمة لبلاده(٢) ـ لما رأى عبد الرحمن ذلك كله فكر في إقامة الدعوة لنفسه وتلقب بأمير المؤمنين(٣).

لذلك أمر عبد الرحمن في سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) بإقامة الخطبة له على منابر بلاده وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله(٤).. وعلى ذلك أصبح في العالم الإسلامي في

---

(١) Arnold, The Caliphate, p 58.

(٢) Dozy, op cit, p.423.

(٣) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦.

(٤) أنظر: نص كتاب عبد الرحمن الناصر إلى ولاة الأقاليم في: ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١/ص ٢١٢.

ذلك الوقت ثلاث خلافات: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في المهدية، والخلافة الأموية في قرطبة، وأصبح الناصر لا يحفل بالنظرية القديمة وهي أن الخليفة لا تصح خلافته إلا إذا كانت له السيادة على الحرمين.

وقد أفاد عبد الرحمن الناصر من هذا التغيير الخطير في نظام الحكم، فظهر في نظر رعاياه بمظهر لا يقل عظمة عن الخلفاء العباسيين والفاطميين. أما في الخارج فقد تمتع بمركز ممتاز بين أمراء المسلمين في ذلك الحين بما أحرزه من انتصارات على الأوربيين، حتى إن هؤلاء الأوربيين، وعلى رأسهم أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا الذي أصبح فيما بعد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة، لجئوا إليه لوقف غارات عرب الفراكسينت كما تقدم.

وقد قرن عبد الرحمن اسم الله باسمه، متشبهاً في ذلك بالعباسيين والفاطميين، فتلقب الناصر لدين الله، وسن بعلمه هذا السنة التي سار على نهجها أبناؤه من بعده؛ فتسمى ابنه الحكم المستنصر بالله، وتسمى حفيده هشام المؤيد بالله وهكذا.

احتفظت الخلافة الأموية في الأندلس بقوتها في عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الذي شعر نصارى الشمال في عهده بقوة الخلافة، وخطب له على منابر المغرب، وقضى على نفوذ الأدارسة في بلاد الريف. ولكن هذه الخلافة قد تطرق إليها الضعف في عهد هشام المؤيد بن الحكم، الذي أصبحت أمه صبح تتمتع بالنفوذ المطلق في الدولة، ثم تولى ابن أبي عامر الحجابة[1] وأصبح الحاكم الحقيقي للدولة الأموية في الأندلس، وحجر على الخليفة هشام، الذي انزوى في قصره، وقضى أوقاته في اللهو، ولم يبق للخليفة معه إلا اسم الخلافة.

ولما مات ابن أبي عامر سنة ٣٩٣ هـ سار ابنه أبو مروان عبد الملك المظفر على نهجه في الاستئثار بالسلطة دون الخليفة، ثم تقلد الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الذي تلقب الناصر، ولكنه لم يلبث أن خلع وقتل وصلب، واستبد بالأمور محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٩٩ هـ) الذي تلقب «المهدي»، ولكن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر تلقب «المستعين»، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ، ثم طرد منها بيد المهدي الذي لم يلبث أن طرد بدوره وقتل، ودخل المستعين قرطبة ثانية، وقتل هشام المؤيد سراً وجلس على عرش الخلافة المتداعي نحو أربع سنين (٤٠٣ ـ ٤٠٧ هـ)، استقل

---

(١) وهي الوزارة كما كانت تسمى في الشرق.

فيها كثير من أمراء الأطراف، ثم ملك قرطبة بنو حمود الذين ينتسبون إلى إدريس بن عبد الله وقتلوا سليمان المستعين الأموي، وأزالوا الخلافة الأموية بالأندلس، وحكموا هذه البلاد نحواً من أربعين سنة تخللتها صحوات عاد فيها الملك إلى بعض أفراد البيت الأموي. ولكن كيف يقبض هؤلاء الأمويين على العرش بأيديهم الضعيفة، في ذلك الوقت الذي قامت فيه الفتن والثورات، واشتدت منافسة الزعماء من البربر والصقالبة والعرب والأسبان؟».

(ب) الوزارة

١ ـ الوزارة في الدولة العباسية:

قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس، وتقلد الوزارة في العصر العباسي الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبني سهل، كما اشتهر في العصر العباسي الثاني بنو الفرات وبنو وهب وبنو الجراح الذين اشتهر منهم علي بن عيسى وزير المقتدر، وعبد الرحمن بن عيسى وزير الراضي. وكان من أثر ضعف الخلافة العباسية أن زاد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة عن طريق الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة.

ومن وزراء المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) محمد بن عبد الملك الزيات. وقد تقلد الوزارة للواثق وابنه المعتصم. وكان ابن الزيات ـ كما وصفه صاحب الفخري (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ـ: «نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك. ولكنه كان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق، حتى كان ذلك سبب قتله على يد المتوكل بعد أن استوزره أياماً»، وذكر الطبري أن ابن الزيات كان يرى استخلاف أحد أبناء الواثق بن المعتصم بدل المتوكل. فلما آلت الخلافة إلى المتوكل حنق عليه وعمل على قتله، وقد قيل في قتله إنه عمل تنوراً من حديد وضع فيه مسامير ليعذب به من يريد تعذيبه، فكان هو أول من عذب به، وقيل له ذق ما كنت تذيق الناس. ومن وزراء المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وقد اشتهر بالتعفف وكرم الأخلاق.

ولم يكن للوزارة في عهد المنتصر بن المتوكل شأن يذكر لقصر عهده واستبداد الأتراك بأمور الدولة. فلما ولي المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) أقر أحمد بن الخصيب وزير المنتصر،

---

(١) جـ ١١ ص ٢٨، ٦٧ ـ ٦٨.

ولكنه لم ينعم بالوزارة أكثر من شهرين. ثم خلفه أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وكان من أشهر كتّاب عصره وأقدرهم في إدارة أمور الدولة، فاستطاع أن يضبط الأموال ويضيق على الأمراء، فتهددوه بالقتل وأرغموه على الهرب، فلم يستوزر المستعين بعده أحداً وإنما كان يعين كتاباً يقومون بأعمال الوزراء (الفخري ص ٢٢٤). وكانت منزلة الكتاب في هذا العصر كمنزلة أصحاب الوساطة في العصر الفاطمي.

ثم اتخذ المهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) أبا الفضل جعفر بن محمود الإسكافي وكان قد وزر للمعتز، وزيراً له، فلم يلبث أن عزله، واستوزر سليمان بن وهب. وكان بنو وهب كما كان البرامكة وبنو سهل من قبلهم ـ يتمتعون بنفوذ كبير في الدولة حتى «كانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة، والأدب في زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم»[١].

ولما ولي المعتمد الخلافة (٢٥٦ ـ ٢٧٩) ضعف شأن الوزارة لاستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة. وفي عهده تقلد الوزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان على كره منه. ولما مات استوزر المعتمد الحسن بن مخلد كاتب أخيه الموفق، فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وكان ابن مخلد من أشهر كتّاب عصره وأكثرهم دراية بأمور الدولة. ومن أشهر وزراء المعتمد عبيد الله بن سليمان بن وهب[٢].

ولما مات ابن وهب عمل المعتمد على استصفاء أموال أهل بيته واستئصال شأفتهم. إلا أن ابنه القاسم بن عبيد الله عرض على الخليفة أن يدفع ألفي ألف دينار، فقلده الوزارة. وهكذا استطاع أن يشتري هذا الكرسي كما احتفظ بهيبة أسرته الفارسية العريقة.

ولما ولي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) الخلافة استوزر أبا الحسن علي بن الفرات سنة ٢٩٦ هـ. وقد تقلد الوزارة ثلاث مرات، ثم قبض عليه سنة ٣١٢ هـ. وكان لبني الفرات ما كان للبرامكة وبني سهل وبني وهب من الشهرة في العصر العباسي[٣].

ومن أشهر وزراء المقتدر الوزير المصلح علي بن عيسى الذي استطاع أن يقرب بين العباسيين وأبي سعيد الجنابي زعيم قرامطة البحرين، وأثار بذلك حنق عبيد الله المهدي على أبي سعيد. وكان هذا الوزير من كبار الكتّاب، اشتهر بالورع والزهد، وفيه يقول

---

(١) الفخري ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢، ٢٤، ٤٧، ٥١.

الصولي «ما أعلم أنه وَزَرَ لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته، وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه، وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته».

كما ضبط علي بن عيسى الدواوين ونظم شئون الدولة الداخلية، فاستتب الأمن في عهده بحسن سياسته ومهارته الإدارية وحرصه على نشر العدل بين الرعية، حتى كان يجلس بنفسه للمظالم. على أن بقاء هذا الوزير المصلح في الحكم لم يطل، بسبب إسراف الخليفة المقتدر وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في أمور الدولة. وقد قيل في سبب عزله إن أم موسى قهرمانة «السيدة» أم الخليفة أرسلت إليه تطلب تقديم المال اللازم لعيد الأضحى، ولكنه اعتذر؛ فغضبت وأوغرت صدر «السيدة» عليه، فقبض عليه غداة يوم الإثنين ٨ ذي الحجة سنة ٣٠٤ هـ[١].

خلف علي بن عيسى في الوزارة حامدُ بن العباس. وقد تم على يديه قتل الحسين بن منصور الحلاج. غير أن هذا الوزير كان قليل الخبرة بأمور الوزارة، فضم إليه الخليفة المقتدر وزيره السابق علي بن عيسى، وجعله نائباً له. فاستطاع بفضل خبرته الإدارية وإلمامه بشئون الدولة أن يقبض على زمام الأمور، وأصبحت كلمته نافذة على جميع الولاة. أما الوزير حامد بن العباس، فقد أصبح مسلوب السلطة، وكان يلبس السواد شعار الدولة العباسية ويجلس في دست الوزارة، ويجلس علي بن عيسى بين يديه كالنائب بملابسه المعتادة. فسخر بعض الشعراء من شأن هذا الوزير فقال:

أعْجَبُ من كلِّ ما رأينا ... أنَّ وزيرين في بلادِ
هذا سوادٌ بلا وزيرٍ ... وذا وزيرٌ بلا سواد[٢]

وهكذا ساءت حالة الوزارة في عهد خلافة المقتدر، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم، حتى تقلد الوزارة اثنا عشر وزيراً عزل بعضهم مراراً، كأبي الحسن علي بن الفرات وعلي بن عيسى. أضف إلى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كأبي علي بن محمد بن مقلة الذي عزله الراضي لوشاية أعدائه به وحبسه بعد أن قطعت يده اليمنى. وكان يبكي على يده ويقول: «قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات

---

(١) هلال الصابي تاريخ الوزراء ص ٢٨٦. ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦
(٢) الفخري ص ٢٤٢

لثلاثة من الخلفاء[١]، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع، كما تقطع أيدي اللصوص[٢]».

على أن بعض وزراء المقتدر، وإن كانوا قد احتفظوا بشيء من النفوذ في عهد الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) فقد عجزوا عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد، واضطر هذا الخليفة إلى تقليد ابن رائق شئون الدولة كافة ولقبه بلقب «أمير الأمراء». ولم يبق للوزراء شيء من النفوذ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة في المواكب مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء[٣].

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ استبدوا بالسلطة دون الخلفاء العباسيين وقضوا على نفوذ الوزراء وحلوا محلهم، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم وزراء اشتهر بعضهم كأبي الفضل محمد بن العميد[٤] وزير ركن الدولة بن بويه (٣٣٠ ـ ٣٦٥ هـ) صاحب الري وهمذان وأصبهان وسائر بلاد العراق العجمي. وقد عرف له ركن الدولة فضله بعد أن ساعده على الخروج من وجه مرداويج والمسير إلى بلاد الكرج التي آل إليه حكمها. وكان لابن العميد أثر كبير في إدارة شئون الدولة في عهد ركن الدولة. فاستوزره في سنة ٣٣٨ هـ[٥]. كما كان له أثر كبير في تنشئة عضد الدولة[٦] وتعليمه أصلح الطرق لتدبير ملكه حتى كان يشيد بفضله ويدعوه «الأستاذ الرئيس»[٧].

وقد بلغ أبو الفضل بن العميد ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ٥٧) درجة عالية في الأدب حتى إنه كان يسمى الجاحظ الثاني. وهو الذي قيل فيه: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. كما كان هذا الوزير قائداً ماهراً، فقد أثر عنه أنه انتصر على «ابن ماكان» في الري وأصبهان وأسره في سنة ٣٤٤ هـ، ومات وهو في طريقه لحرب حَسنويه زعيم الأكراد سنة ٣٦٠ هـ (وقيل سنة ٣٥٩ هـ)[٨].

---

(١) هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم المقتدر والقاهر والراضي.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ٣٣٨.

(٣) النظم الإسلامية للمؤلف: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٤) كان أبوه الحسين بن محمد الكاتب وزير مرداويج ابن زيار الديلمي يلقب بالعميد.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٦) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٨١.

(٧) المصدر نفسه: ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٨) أنظر «أبو الفضل بن العميد» في دائرة المعارف الإسلامية.

ورث أبو الفتح علي بن محمد بن العميد أباه أبا الفضل بن العميد في مواهبه الأدبية والحربية. وقد استوزره ركن الدولة بن بويه في الري بعد أبيه، فبقي في الوزارة إلى أن مات ركن الدولة. ولأبي الفتح بن العميد أثر كبير في فض النزاع الذي قام بين ركن الدولة وابنه عضد الدولة الذي عمل على أخذ بلاد العراق من يد ابن عمه بختيار[1]. وقد عرف ركن الدولة لأبي الفتح حسن بلائه في إقرار سلطته بالعراق، فأبقاه في بغداد، وخلع عليه (٣٦٦ هـ)، ولقبه ذا الكفايتين لمهارته الحربية وعلو كعبه في العلم وحذقه في السياسة. وكان يركب مع ابن بقية وزير بختيار، كما اتفق مع بختيار سراً على أن يتقلد الوزارة في العراق بعد وفاة عضد الدولة، فلما علم هذا أضمر له العداء. ولما مات ركن الدولة صاحب الري وهمذان وأصبهان سنة ٣٦٦ هـ، استوزره ابنه مؤيد الدولة، ولكن النزاع لم يلبث أن قام بين أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد وألقى عضد الدولة بابن العميد في السجن وصودرت أملاكه، وعذب حتى وافته منيته في هذه السنة[2].

ومن أشهر وزراء بني بويه الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٨٣٥ هـ) الذي قلده مؤيد الدولة بن ركن الدولة الوزارة بعد أبي الفتح بن العميد (٣٦٦ ـ ٣٧٣ هـ)، ثم أقره فخر الدولة في الوزارة سنة ٣٧٣ هـ، وقد تقلد أبوه الصاحب بن عباد الوزارة في عهد ركن الدولة. ووصفه ابن خلكان[3] فقال إن الصاحب نشأ «من الوزارة في حجرها، ودرج من وكرها، ورضع أفاويق درها، وورثها عن آبائه كما قال فيه أبو سعيد الرستمي:

ورِثَ الوزارة كابراً عن كابرٍ ... موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ

وهو أول من لقب من الوزراء بالصاحب لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة وبقي علماً عليه. وقيل إنه لقب بذلك لأنه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة الذي أطلق عليه «الصاحب»، ثم سمي بهذا الاسم كل من تقلد الوزارة بعده.

وكان الصاحب بن عباد فوق ذلك قائداً. فقد قام في سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ ـ ٩٨٨ م) على رأس جيش لغزو طبرستان، واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها. كما كان شاعراً مجيداً. حتى قيل إنه اجتمع عنده ما لم يجتمع عند غيره من الشعراء الذين مدحوه بغرر

---

(١) مسكويه: جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٣٣٧.
(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥.

القصائد، وظل على ذلك حتى مات في شهر صفر ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ودفن بأصبهان[١] وقد نصح الصاحب لفخر الدولة الذي زاره في مرضه الأخير بقوله: «قد خدمتك أيها الأمير خدمة استفرغت قدر الوسع وسَرَتْ في دولتك سيرة جلبت لك حسن الذكر بها، فإن أجريت الأمور بعدي على نظامها وقررت القواعد على أحكامها، نسب ذلك الجيل السابق إليك. ونسبت أنا في أثناء ما يثنى به عليك، ودامت الأحدوثة الطيبة لك. وإن غيرت ذلك وعدلت، كنت أنا المشكور على السيرة السابقة، وكنت أنت المذكور بالطريقة الآنفة، وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك، فأظهر فخر الدولة قبول رأيه[٢].

٢ ـ الوزارة في مصر:

لم تعرف الوزارة في مصر في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، لأن هؤلاء الخلفاء لم يكونوا قد استحدثوا نظام الوزارة بعد، بل كانوا يرسلون إلى هذه البلاد ولاة يديرونها باسمهم. أما في العصر العباسي، فنرى أحمد بن طولون يتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له، وكان يضطلع بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب الوزير[٣]. وقد استوزر خمارويه ابن أحمد بن طولون أبا بكر محمد بن رستم المادرائي الكاتب[٤].

فقد تقلد الوزارة بمصر في عهد الدولة الإخشيدية الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بابن حنزابة[٥]، وكان تقليده الوزارة من قبل الخليفة الراضي. ولم يلبث هذا الوزير أن ارتبط بالإخشيد برباط المصاهرة بزواج ابنه جعفر من ابنة الإخشيد[٦]، وأدى ذلك إلى توطيد صلة المودة بينه وبين ولي هذه البلاد الذي كان يخرج لوداعه إذا غادر البلاد أو لاستقباله إذا عاد إليها.

وكان ابن الفرات يتمتع بمركز ممتاز في الدولة العباسية حتى إنه تقلد الوزارة في بغداد سنة ٣٢٦ هـ. وقد آثر العودة إلى مصر لاستبداد أمير الأمراء بالسلطة، ولكن المنية عاجلته

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٩. المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٧٠.

(٥) نسبة إلى أمه حنزابة وكانت جارية رومية، والحنزابة المرأة القصيرة الغليظة (ابن دقماق: كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٧).

(٦) أن سعيد: كتاب المغرب ص ١١.

وهو في الرملة في ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ[١]، فقلد الخليفة الراضي ابنه أبا الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة أيضاً نسبة إلى جدته، على ما كان بيد أبيه، فبقي في الوزارة إلى أن جاء المعز الفاطمي إلى مصر، فعزله لأنه كان سنياً.

وكانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨ ـ ٣٦٥ هـ) وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء كانوا من القوة بحيث يستطيعون أن يديروا أمور الدولة بأنفسهم، ومن أشهر وزراء هذا العصر يعقوب بن كلس.

وقد وصف ابن منجب الصيرفي[٢] علاقة يعقوب بن كلس بالخليفة الفاطمي المعز وابنه العزيز وكيفية تقليده الوزارة وما خلع عليه من الألقاب وما أسبغ عليه من المنح، كما وصف أثره في العلم والأدب.

وبوفاة يعقوب بن كلس ضعفت الوزارة ثم تحولت إلى ما يسمى «الوساطة» خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء. ففي أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) عزل عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين «الوساطة» وتلقب بلقب «أمين الدولة»[٣] (٣ شوال سنة ٣٨٦ هـ)، ولكنه حابى الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك، ونفذت أوامره في الخزائن والأموال إطلاقاً وعطاء، حتى على جواري القصر هبة وعتقاً».

وبعد ابن عمار تقلد الوساطة «برجوان» أستاذ الحاكم ومستشاره (رمضان سنة ٣٨٧ هـ). وكان يستعين في إدارة شئون الدولة بكاتبه أبي العلاء فهد بن إبراهيم وكان نصرانياً. وظل برجوان يدير شئون الدولة الفاطمية ويشرف على الخليفة الذي ضاق بأستاذه ذرعاً، فأمر بقتله في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ، فحل محله الحسين بن جوهر القائد الذي استعان بفهد بن إبراهيم، وكان يلقب «الرئيس»[٤]. وإن من يستقصي تاريخ الوزارة في عهد الخليفة الحاكم يرى أن كثيراً من الوزراء كانوا من أهل الذمة، وأنهم كانوا لا يستقرون في الحكم طويلاً لمحاباتهم أبناء جلدتهم.

ومن أشهر وزراء العصر الفاطمي الأول أبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح، الذي تلقب بلقب «وزير الوزراء ذي الرياستين الأمر المظفر قطب الدولة»[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦ ـ ١٨، ٢٤.
(٢) الإشارة إلى من نال الوزارة ٢١ ـ ٢٢.
(٣) أبو شجاع ص ٢٢٢.
(٤) ابن منجب: الإشارة ص ٢٧ : ٢٨.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٠ ـ ٣٢.

وممن تقلد الوساطة والوزارة أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي[١]. وقد تقلد بعض المناصب العالية في عهد الحاكم، ثم تقلد الوساطة مع جليل الدولة أبي عبد الله محمد بن العداس في أوائل خلافة الظاهر الفاطمي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ)، وبقيا معاً سبعة أشهر. ولكن الجرجرائي لم يتقلد «الوزارة» إلا في سنة ٤١٨ هـ، حيث بقي فيها حتى مات الظاهر، فأقره ابنه المستنصر في منصبه فظل فيه حتى مات سنة ٤٣٦ هـ[٢].

وقد تلقب بعض الوزراء الذين تقلدوا الوزارة بعد المعز بألقاب منسوبة إلى الدولة، كأبي محمد الحسن بن عمار الكتامي الذي تلقب بلقب أمين الدولة، وتلقب الحسن بن صالح بن علي الروذباري بلقب عميد الدولة، وتلقب زرعة أخو عيسى بن نسطورس الشافي، والحسين بن طاهر أمين الأمناء، وأبو الحسن علي بن جعفر بن فلاح وزير الوزراء ذا الرياستين الآمر المظفر قلب الدولة، وأبو القاسم الجرجرائي الوزير الأجل صفي أمير المؤمنين وخالصته، وأبو منصور صدقة الفلاحي بتاج الملة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين.

وسنرى في الجزء الرابع من هذا الكتاب أن الوزراء في عهد المستنصر أصبحت وزارة تعويض، وأن من تقلدوها كانوا من أرباب السيوف، بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من يتقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه.

٣ ـ الوزارة في الأندلس:

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس شائعاً كما كان في المشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير أو ذي الوزارتين تارة أخرى.

يقول المقري[٣]: «وأما قاعدة الوزارة بالأندلس فإنها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير، فيسميه بالحاجب. وكذلك هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك، إلى أن كانت ملوك الطوائف. فكان الملك

(١) ينسب إلى جرجرايا (بفتح الجيمين وسكون الراء) إحدى قرى سواد العراق.

(٢) ابن منجب: الإشارة ص ٣٥ ـ ٣٧.

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢.

منهم، لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية، وإنه كان نائباً عن خليفتهم يسمى بالحاجب، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به. وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزير عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم، وصار للوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة».

وقد ألقى ابن خلدون[1] ضوءاً على نظام الوزارة في الدولة الأموية بالأندلس. فبين أن الحاجب كان يقوم بعمل الوزير في الدولتين العباسية والفاطمية، ويشرف على أعمال أصحاب الدواوين الذين يطلق على كل منهم اسم الوزير. وكان الحاجب يقوم بعمل رئيس الوزارة اليوم ويتولى رياسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة.

ولم يكن مجلس الحاجب، أو بالأحرى مجلس الوزارة، هو وحده الذي يدبر شئون الدولة، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى «مجلس الشورى» يرأسه الأمير أو الخليفة، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموي.

وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذي الوزارتين مقتدياً في ذلك بالعباسيين، لجمعه بين خطتي السيف والقلم. ففي سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين وضاعف له راتبه. وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه. وقد أسند الأمويون الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسَداي بن شبروط الذي بعث به سفيراً إلى أوتو إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحاجب حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء. وقد رأينا كيف تخلص ابن أبي عامر من جعفر بن عثمان المصحفي الحاجب في عهد هشام المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو في بلاد الأندلس وكيف جلس مكانه على كرسي الحجابة، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في هذه البلاد، حتى دعي له على المنابر وضربت السكة باسمه بعد الخليفة، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء.

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨.

(جـ) الكتابة

ولما تعددت الدواوين في الدولة العباسية أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين للإشراف على هذه الدواوين. ويسمى كل من هؤلاء الموظفين «الكاتب». ومن أشهر الكتّاب في العصر العباسي الثاني: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي. ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية إلى الملوك والولاة وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، كما يقوم بمراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه. كما كان يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان في مجلس القضاء، للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة. وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة.

وقد ذكر ابن خلدون[١] الصفات التي يجب أن تتوافر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة في هذه العبارة فقال: «واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة. فإنه معرض للنظر في أمور العلم لما يعرض في مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها». ولم يقل مركز الكاتب عن مركز الوزير في كثير من الأحيان حتى إن الكتابة كانت ترشح صاحبها لتقلد الوزارة.

ومن أشهر الكتّاب في ذلك العصر محمد بن عبد الملك الزيات. وكان يلي ديوان الرسائل في عهد الواثق، وهو الذي كتب البيعة بولاية المتوكل العهد. ولما ولي المتوكل الخلافة نكبه بعد قليل[٢]. وكان الخلفاء يستعيضون الوزارة بالكتاب أحياناً، فنرى المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً له بعد ابن الزيات دون أن يلقبه بالوزير، ونرى الخليفة المقتدر يتخذ ابن الفرات الذي تقلد الكتابة وزيراً له. وكثيراً ما نرى بعض الخلفاء يتخذون من الكتّاب قواداً يعتمدون عليهم في الغزوات. وأحسن مثل لذلك محمد بن سليمان الكاتب الذي قضى على الحسين بن زكرويه القرمطي وأزال خطره عن بلاد الشام في سنة ٢٩١ هـ، كما قضى على الدولة الطولونية في مصر في السنة التالية.

---

(١) مقدمة ص ٢١٥.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٢٦.

ولم يكن اتخاذ الكتّاب مقصوراً على الخلفاء وحدهم، بل كان عمال الأقاليم وأمراء الأمراء وسلاطين بني بويه يتخذون كتّاباً يعاونونهم في إدارة الدولة. فقد اتخذ بَجْكم الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد الراضي والمتقي «الكوفي» كاتباً له. وكان لهذا الكاتب أثر في تولية المتقي الخلافة. وكذلك اتخذ توزون الذي تقلد إمرة الأمراء في عهد المتقي أبا جعفر بن شيرزاد كاتباً له[١]. كما نرى ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه في الري وهمذان وأصبهان يتخذ ابن عباد كاتباً له، ويعهد إليه بتنشئة مؤيد الدولة بن ركن الدولة. ولم يلبث هذا الكاتب أن ارتقى إلى رتبة الوزارة في عهد مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة.

ولم تعرف الوزارة في مصر قبل عهد الإخشيديين كما تقدم، فإن أحمد بن طولون اتخذ أحمد بن محمد الواسطي كاتباً له، ثم اتخذ جعفر بن عبد الغفار المصري. «على أنه يظهر أنه لم يكن من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد بن خاقان على ابن طولون بصرفه، فقال له: أنا أحتمله لأنه مصري. فقال له ابن خاقان: أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي، قال: لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه، وأن يكون شمل الكاتب فيه، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة منها: أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد فيعود مرفقه على فريق من أهله، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به فيكون صفاقاً (ضماناً) لجناياته. وهو مع هذا وشمله ظاهرون مستقلون في خدمتي. والكاتب العراقي ليس كذلك، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعني، ويستبطن الرقاع. ومن يشير عليه أن يعمر بلده الذي يعمل فيه، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده. فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى، مع علمي بتقدمهم في الكتابة والرجاحة، فصوبت رأيه ورأيت عذره[٢]».

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلي الوزارة في الرتبة، وكان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، فإذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة في أي وقت. وكان الكاتب في عهد الفاطميين يسمى صاحب الوساطة أحياناً ويقوم بعمل الوزير إذا استغنى الخليفة عن وزيره.

---

(١) أنظر ما ذكرناه في ص ٣٢.

(٢) سيرة أحمد بن طولون لابن الداية ص ١٥. حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص ١٤٢

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة وهي الوزارة في الرتبة، وتنقسم قسمين: كتابة الرسائل، ويسمى صاحبها «الكاتب»، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة؛ وكاتب الزمام، ويعرف بكاتب الجهبذة، ويشترط فيه أن لا يكون من أهل الذمة، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير، وفيه يقول المقري[١]: «أعظم من الوزير وأكثر أتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة. فإليه تميل الأعناق ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار». وكثيراً ما كان هذا الكاتب معرضاً للاضطهاد والعزل والمصادرة، ولا سيما حين ضعفت الدولة وتزعزع الأمن فيها.

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين والموحدين يجمع بين الكتابة والاستشارة. وكان أكثر الكتّاب من رجال الأدب في الأندلس الذين يعملون في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال أو النواب المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين المرابطي أو في خدمة أمير المؤمنين الموحدي.

(د) الحجابة:

كان معاوية أول من اتخذ الحجاب من الخلفاء بعد مؤامرة الخوارج عليه وعلى عليٍّ بن أبي طالب وعمرو بن العاص، وذلك خوفاً على حياتهم، ومنعاً لازدحام الناس على أبوابهم حتى لا ينشغلوا عن مهام الدولة. وقد حذا العباسيون حذو الأمويين، فاتخذوا الحجاب وزادوا في منع الناس من لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة. ومن ثم أصبح بين الخليفة وبين الناس داران: دار الخاصة ودار العامة حبث يقابل كل طائفة من مكان معين حسبما يرسمه الحجاب. ثم تطور نظام الحجابة في العصر العباسي الثاني، فاتخذ الخلفاء حجاباً ثالثاً أشد من الأولين[٢].

ولم تقتصر مهمة الحاجب في ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به. بل تعداه إلى التدخل في أهم شئون الدولة، حتى إن بعضهم استبد بهذه الشئون دون الوزراء. وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم في المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم. وكثيراً ما كان الحاجب يصبح غرضاً لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة. ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣.

(٢) ابن خلدون: مقدمة ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

صحة هذا الرأي تدبير الوزير أبي علي بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب[١].

ولم يتمتع الحاجب في الدولة الفاطمية بما كان يتمتع به من النفوذ في العصر العباسي الثاني. ويقول ابن خلدون إنه لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم. وربما يوجد في دولة العبيديين عند استعظامها وحضارتها إلا أنه لقليل. بل إن اختيار الحاجب لم يقتصر على الخلفاء، فقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم.

وكانت الحجابة في الأندلس تختلف اختلافاً كبيراً عنها عند العباسيين والفاطميين كما تقدم، لاستبداد الحاجب بشئون الدولة. وأحسن مثل لذلك الحاجب المنصور بن أبي عامر. وأصبح الحاجب يطلق عليه اسم «ذي الوزارتين يعنون بذلك السيف والقلم».

٢ ـ النظام الإداري

(أ) الإمارة على البلدان:

كانت الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع الهجري تتألف من عدة ولايات هي: مصر، وفارس، والبصرة، والأهواز، والري، والشام، وأصبهان، والثغور[٢]. وكان يساعد الوالي أو الأمير في ولايته موظف كبير يسمى العامل أو صاحب الخراج، لأن عمله مقصور على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال بحاضرة الدولة والإنفاق على ما تتطلبه الولاية من ضروب الإصلاح. وكان هذا الموظف لا يقل في المنزلة عن الوالي أو الأمير، فيخاطب في المراسلات الخاصة به بما يخاطب به الوالي، كما ترسل إليه المنشورات في الوقت الذي ترسل فيه إلى الوالي الذي لا يمتاز عنه إلا بالصلاة بالناس في المسجد، مما يجعل ولايته أعم من العامل أو صاحب الخراج.

وإذا اتفق كل من الوالي والعامل، كان هذا الاتفاق مصدر خير للولاية، وكثيراً ما أدى اتفاقهما إلى إثارة المتاعب على الدولة نفسها. ففي سنة ٣١٩ هـ استطاع والي فارس وكرمان

---

(١) مسكويه: جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٢) هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٦.

وعامل الخراج فيهما أن يمنعا وصول الأموال إلى بغداد. وإذا اجتمع هذان المنصبان لرجل واحد أصبح أشد خطراً على الخلافة، كما حدث حين امتنع بَجْكم التركي عن تولي أمور الأهواز مع بقاء عامل الخراج بجانبه، وحمل الخليفة العباسي على أن تكون له الولاية والخراج، فأجيب إلى ذلك (٣٢٥ هـ)[١].

ولما أخذت الدولة العباسية في الضعف، أصبح الولاة يؤثرون البقاء في بغداد أو في سامرا وينيبون عنهم من يدبر شئون الولايات باسمهم. وكان من أثر هذه السياسة أن جنح بعض النواب والولاة إلى الاستقلال. كما كان لضعف السلطة المركزية أثر في استقلال ولاة الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة: فنرى أحمد بن طولون يعمل على الجمع بين وظيفتي الوالي (الحرب والصلاة) والعامل (الخراج) والاستقلال بمصر، ويحذو حذوه في ذلك محمد بن طغج الإخشيد.

وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذي استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة على الاعتراف بنفوذه فيها، وأسس الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠)[٢]. واستطاع السامانيون أن يستقلوا ببلاد ما وراء النهر ويستحوذوا على ما كان في أيدي الصفارية ويؤسسوا الدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ). وهذه الحالة السيئة تعلل قيام الدول المستقلة في ذلك العصر: فقد ظهرت في مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية اللتان قامت على أنقاضهما الدولة الفاطمية، وظهر في المشرق دول الصفارية والسامانية والغزنوية والبويهية في فارس وفي الري وهمذان وأصبهان.

وكان يساعد الوالي والعامل في المدن جماعة من الموظفين أهمهم القاضي، والبندار ويعرف بكاتب السلعة، ومهنته المطالبة بالخراج ووجوه المال، وصاحب الجند، وصاحب البريد، ومتولي السواقي أو الضياع السلطانية، وصاحب المعونة، وكان يساعد صاحب الجند. وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير ويعزلون بعزله، ثم يعودون إلى الحكم بعودة الوزير مما أدى إلى إشاعة الاضطراب وكثرة التعطل[٣].

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) أنظر الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١١٣ ـ ١١٥
(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ٧٧.

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة في الدولة الإسلامية. فقد ذكر القلقشندي[١] كيفية تقليد الخلفاء العباسيين ولاة الأقاليم في هذه العبارة فقال: «وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة، كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جبة أطلس أسود بطراز مذهب وطوق من ذهب يجعل في عنقه، وسواران من ذهب يجعلان في يديه، وسيف قرابه ملبس بالذهب، وفرس بمركب من ذهب، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل، فإذا وصل ذلك السلطان تلك الناحية، لبس الخلعة والعمامة وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتى يصل إلى محل ملكه، وربما جهز مع خلعة السلطان خلع أخرى لولده أو لوزيره أو أحد من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ.

ومن وصف ابن الأثير[٢] لحالة الدولة العباسية في عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ). نقف على أسماء الولايات التي كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية، واستبداد كثير من الولاة واستقلالهم عن الدولة: «ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم. وأما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي العلوي وهو الثاني منهم ويلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي».

وقد ذكر ابن الأثير[٣] الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يرشح لولاية الأقاليم وتدبير شئونها والعمل على إسعاد أهلها، فقال: إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا «رجل قد تكاملت فيه حصال أربع: حزم يتقي به عند موارد الأمور حقائق مصدرها، وحلم يحجزه عن التهور

(١) صبح الأعشي جـ ٢ ص ٢٧٦.
(٢) الكامل جـ ٨ ص ١١٢ - ١١٣.
(٣) الكامل جـ ٧ ص ٦٩.

والتغرير في الأشياء إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تفضها الملمات مع تواتر حوائجها، وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها، وشرعة مكافأة الإحسان إلى صالح الأعوان، وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث إذ لا تؤمن حوادث الزمان»[1].

ولم يغير العرب نظم الحكم في مصر تغييراً يذكر بعد الفتح، حتى جاءت الدولة الفاطمية، فأدخلت عليه كثيراً من التغيير، فقد عمل جوهر الصقلي على إحلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة ليفتح المجال أمام هؤلاء المغاربة، ومن أهم الأعمال الإدارية التي أسندت إلى الشيعيين: الوزارة، وجباية الخراج، والقضاء والحسبة، وفي عهد الفاطميين كانت مصر مقسمة إلى أربع ولايات كبرى هي: ولاية قوص وولاية الشرقية، وولاية الغربية، وولاية الإسكندرية[2]. ولم يختلف نظام الولاية على الأقاليم عند الفاطميين والأمويين في الأندلس اختلافاً يذكر عنه في عهد العباسيين.

(ب) الدواوين:

كانت الدولة العباسية أشبه باتحاد يتألف من ولايات كثيرة، لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها. وينقسم كل ديوان قسمين: الأول، ويسمى الأصل، ويختص بسن الضرائب وحملها إلى بيت المال، والثاني: الزمام أو ديوان المال. واستمر هذا النظام إلى أن ولي المعتضد الخلافة (سنة ٢٧٩ هـ)، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديواناً واحداً أطلق عليه «ديوان الدار»، ويسمى أحياناً «ديوان الدار الكبير».

وقد أثنى هلال بن الصابىء[3] على نظام الدولة العباسية في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) في هذه العبارة فقال: «وسمعت مشايخ الكتاب يقولون إنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله، وأبي القاسم عبيد الله بن سليمان، وأبي العباس بن الفرات وبدر».

وقد قسم المعتضد الديوان أقساماً ثلاثة: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد (يعني العراق)، وأسند «الأصل» لشخص واحد و «الزمام» لشخص آخر.

وفي القرن الرابع الهجري كانت إدارة الدولة «تنقسم إلى ما يشبه وزارتين، إحداهما للداخلية، وهي ديوان الأصول، والأخرى للمالية، وهي ديوان الأزمة، وكان كل ديوان كبير

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٧٨
(٢) راجع ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين ص ٨٥ - ١٠٨.
(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٨٩.

ينقسم أقساماً تسمى دواوين أيضاً، لأنه كان لكل ناحية ديوانها، ولكن لما كان الوزير، وهو رئيس السلطة المركزية، هو الذي يتولى إدارة ديـوان السواد بنفسـه، فإن كثيـراً من دواوين الولايات ببغداد كانت تقوم مقام دواوين الدولة.

ولم تصل الإدارة في الدولة الإسلامية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة، ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وديوان النفقـات في بغداد وينـظر في كل مـا ينفق من أمـوال الـدولـة. ويـظهـر أنـه كـان يتصـل ببيت المـال، وقـد أنشىء في عهـد هشـام بن عبد الملك[١]. وديوان بيت المال، وهو في بغداد ويشرف على ما يرد على بيت المال من الأمـوال وما يخـرج من وجوه النفقـات والإطلاقـات، وديوان زمـام النفقـات ويشبـه ديـوان المحاسبة اليوم، وديوان الأحداث والشرطة وديوان العطاء وديوان الأكرة ويشرف صاحبه على الترع والجسور وكل ما يتعلق بشئـون الري وديـوان الزمـام أو الأزمة ويقـوم صاحبـه بجمع ضـرائب العـراق والأقـاليم الأخـرى والضـرائب النـوعيـة المسمـاة بـالمعـاون[٢]. وديـوان المصـادرين، وديوان الـرسـائـل (وكان يسمى في مصـر في عهد الفـاطميين ديوان الإنشـاء والمراسلات)، وديوان البريد، وديوان التوقيع وتقدم إليه رقـاع أصحاب الحـاجات وديـوان الخاتم، وديوان الفض حيث تفض الكتب الواردة من الأمراء والعمـال إلى الخليفة وديـوان الجهبذة، ويجري فيه من الأموال مال الكسور والكفاية والوقاية وما يجري مجرى ذلك من توابع أصول الأموال، وديوان الصدقة[٣]، وينظر في موارد الزكاة والصدقات وتوزيعها على مستحقيها على ما ورد في القرآن الكريم.

ومن هذه الدواوين: ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة، ولعل صاحبه كان ينظر في أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وحوانيت وحمامات، وديوان النفقات وينظر صاحبه في كل ما ينفق من أموال الدولة. ويظهر أنه كان يتصل ببيت المال.

وفي عهد الفاطميين بمصر كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير. ومن هذه الدواوين: ديوان الجيش، وديوان الكسوة والطراز، وديوان الأحباس ويشبـه وزارة الأوقاف اليوم، وديوان الرواتب، ويشرف على ميزانية الدولة ورواتب الموظفين[٤] ومن هذه الدواوين ديوان الشام وديوان الحجاز.

---

(١) الدورى: النظم الإسلامية ص ١٩٦ وما يليها.

(٢) حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي جـ ٢ ص ٢٦٩.

(٣) متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٢٥ ـ ١٣١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٥.

وكان عدد الموظفين في أيام الفاطميين كبيراً، نذكر منهم صاحب الباب، وحامل مظلة الخليفة وصاحب الرسالة ويحمل كتاب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين، وصاحب بيت المال وهو أشبه بوزير المالية الآن، وقاضي القضاة، وينظر في الأحكام الشرعية وعلى دور السكة وضبط عيارها. ويلي قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة، ويقوم بنشر الدعوة الفاطمية في المساجد ودار العلم، والمحتسب، وله النظر في الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة. ومن كبار الموظفين في العهد الفاطمي وكيل بيت المال، ونائب صاحب الباب ويستقبل سفراء الدول وينزلهم في الأماكن اللائقة بهم، ويرتب القراء الذين يقرؤون القرآن بحضرة الخليفة ويعرفون بقراء الحضرة[١].

(جـ) البريد:

كان البريد في العصر العباسي الثاني من مصالح الدولة الخاصة. وكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس على الأعداء، ويقوم بالأعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن. وكانت مهمته أول الأمر توصيل أخبار الولاة والعمال إلى الخليفة. ثم توسعوا في هذا العمل حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته وعماله كما ينقل أخبار هؤلاء إليه[٢].

وقد ذكر قدامة بن جعفر[٣] الشروط التي يجب أن تتوافر في صاحب البريد فقال: «يجب أن يكون ثقة، إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح[٤]، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ (المحترز). ولا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه[٥] ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره، وغير

---

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩٥.

(٢) Von Koemer: Orient Under the Caliphs, p. 233 seq.

(٣) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤) تصفح الكلام: بحث فيه وتأمله، والكافي هو الخبير بالشيء الحسن التقدير له، ثم أطلق على ما نسميه الآن «الموظف».

(٥) أي من المعرفة مجال الطرق.

ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه، وجد عتيداً[١] عنده ومضبوطاً قبله، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمساءلة عنه».

وكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عند توليته عهداً يرسمون له فيه الطريقة التي يجب أن يسير عليها. فقد ذكر قدامة بن جعفر[٢] أنه يجب على صاحب البريد «أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليهم أمرهم، ويتبع ذلك شافياً ويستشفه استشفافاً[٣]، وينهيه[٤] على حقه وصدقه، وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجري من أمور الرعية، فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف، فيكتب به مشروحاً. . . وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم. . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق وما يلزمه الموردون من الكلف (ما يكلفون) والمؤن، ويكتب بذلك على حقه وصدقه، وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه، ويكتب مما تقف عليه الحال من وقته، وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته. . . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله[٥]. ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم، وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها، ويوعز إلى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم، وإلى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها[٦]، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً بأعيانها، فيفرد لأخبار القضاء وعمال المعاون والأحداث والخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً يجري كل كتاب في موضعه[٧].

---

(١) أي حاضراً من غير بحث وسؤال.

(٢) راجع آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة أبي ريدة جـ ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) أي يبذل أقصى الجهد للوقوف على حقيقة أمره.

(٤) يوصله إلى دار الخلافة.

(٥) أي حمل الخريطة وهي الحقيبة التي تحوي الرسائل.

(٦) أي التي يجب عليه أو يجاوزها.

(٧) متز: «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري» ترجمة أبي ريدة، ج ١ ص ١٢٩، نقلاً عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، مخطوط باريس، ورقة ١٨ ب ـ ١٩ ب. ويرجع تاريخ هذا العهد إلى سنة ٣١٥ هـ أي إلى عهد الخليفة المقتدر.

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل إلى قصور السلاطين طرية سليمة. وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد، كما كانت المراسلات البريدية تفض في حضرة السلطان، فيأخذ منها الرسائل الهامة، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد فيوزع على أربابها. وقد ذكر أبو شجاع[١] أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها. ثم تعرض هذه الردود عليه، فربما زاد فيها أو نقص منها، ثم تصلح وتختم وتجعل في أسكدارها[٢] وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتها.

وبلغ من عناية عضد الدولة بالّبريد أنه «إذا ترحل النهار، سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب. ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار، فإن اتفق أن تأخر، قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم. وذكر بعض الطراد[٣] أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبخنا أرزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي، فتوقف بقدر ما أكل وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاث آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام، وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة»[٤].

وكان العباسيون يستعملون البغال في بلاد الديلم، ويقيسون المسافات في البلاد الواقعة غربي الفرات بالأميال[٥]، وفي البلاد الواقعة شرقي هذا النهر بالفراسخ[٦].

وللبريد محطات تسمى السكك، وكانت تزود بالخيل وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة، وكانت طرق البريد منتشرة في الشرق والغرب، ومن أهمها:

---

(١) ذيل تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠ ـ ٤١.
(٢) الأسكدار، مثلث الهمزة مضموم الكاف: لفظه فارسية معناها المدرج (القائمة) الذي يكتب فيه عدد خرائط البريد والكتب الواردة والنافذة وأسامي أربابها ـ أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي، ومعجم الألفاظ الفارسية لإستينجاس.
(٣) هم أشباه المفتشين على حامل البريد.
(٤) أبو شجاع ج ٣ ص ٤٠.
(٥) هذا اللفظ مأخوذ من اليونانية التي كان لها تأثير كبر في البلاد الواقعة غربي الفرات.
(٦) الفرسخ ثلاثة أميال، ويظهر أن الفرس لم يستعملوا الأميال.

١ ـ من بغداد إلى القيروان بحذاء دجلة، ويمر بالموصل وسنجار وبلد بحذاء دجلة، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان[١].

٢ ـ من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق.

٣ ـ من بغداد إلى المشرق ويمر بحلوان وهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند، إلى أن يصل إلى الصين. ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط بلاد خراسان حتى يصل إلى مرو الروذ والطالقان، ثم يخترق نهر جيحون بالقرب من ترمذ حتى يصل إلى فرغانة[٢].

وكانت الحكومة العباسية تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات[٣] والجمازة شبه محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة. فلما عزم الفاطميون على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ استعمل علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر الجمازات من بغداد إلى مصر ليقف على حقيقة الحال في كل يوم. وفي ذلك يقول عريب بن سعد القرطبي[٤]: وخلع على مؤنس في شهر ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ، وخرج متوجهاً إلى مصر، وتقدم علي بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد ليروح عليه الأخبار في كل يوم. فورد الخبر بأن جيش عبيد الله الخارج مع ابنه ومع قائده حباسة انهزموا، وبشر علي بن عيسى بذلك المقتدر، فتصدق في يومه بمائة ألف درهم، ووصل علي بن عيسى بمال عظيم».

وكذلك كان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد. فقد أدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج، وهم طائفة من موظفي البريد يتخصصون في نقل البريد السريع من مكان إلى آخر. واستمال معز الدولة هؤلاء السعاة بالأرزاق والجرايات الكثيرة حتى رغب الشبان في هذه الحرفة، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم إلى معز الدولة لتدريبهم.

وكان يقام على رأس كل فرسخ حصن. وقد عدل الأمراء فيما بعد عن اتخاذ الخيل

(١) قدامة بن جعفر: كتاب الخراج ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣.
(٣) جمز الإنسان يجمز: عدا مسرعاً، وبعير جماز: وثاب. والجمازة هنا من المحامل، وهي أشبه بالعربة التي تجرها الخيل السريعة في زماننا، وكان يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة (أنظر تاج العروس).
(٤) صلة تاريخ الطبري: ذيل كتاب الطبري ج ١٢ ص ٢٨.

في البريد واستعملوا الجمازات بدلاً عنها، حتى إننا نجد ابن العميد يتخذ الجمازات عندما أراد اللحاق بركن الدولة في فارس سنة ٣٦٤ هـ[١].

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة، فلم يكن معروفاً عند المسلمين في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية التي كانت تستعملها من قبل. وأما في سائر بلاد الإسلام فإنها لم تستعمل، وإنما استخدمت استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي، حتى كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة. ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات. ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ حينما أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين، الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو[٢].

وكذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل، وراج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية. فقد استعان عبد الله بن ميمون بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره[٣]. كما استعان بحمام الزاجل حمدان قرمط مؤسس مذهب القرامطة في العراق، وابن حوشب في بلاد اليمن، وأبو عبد الله الشيعي في المغرب، وكذلك عامة دعاة الإسماعيلية في فارس.

وذكر عريب بن سعد[٤] أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام مستعينين في ذلك بالحمام الذي أتاهم بهذا الخبر من وقته. وذكر مسكويه[٥] عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٨ هـ أن البريديين كانوا يستخدمون الحمام في البريد، وكذلك كان بجكم، وإن طائراً سقط «فصاده غلمان بجكم وجاءوا به إلى مولاهم، فوجد على ذنبه كتاباً فقرىء، فإذا هو «كتاب من كاتبه هذا إلى أخيه بخطه يعرفه فيه انحدار بجكم,ومن أنفذ على الظهر من الجيش[٦]، وسائر أسراره وعزائمه. فلما وقف عليه بجكم عجب واغتاظ، وأحضر هذا الكاتب ورمى إليه بالكتاب، فسقط في يده، ولم يمكنه جحده لأنه بخطه المعروف، فاعترف به، فأمر به فرمي بالزوبينات بحضرته إلى أن قتله ورمى به في الماء».

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣٥.
(٢) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٣) ابن النديم: الفهرست ص ٢٣٤.
(٤) صلة تاريخ الطبري ص ٥٧.
(٥) تجارب الأمم جـ ١ ص ٤١٢ ـ ٤١٤.
(٦) الظهر ما يحمل عليه الجنود من خيل وغيرها.

وكان البريد من الوسائل التي تذرع بها أحمد بن طولون في مناوأة الخلافة العباسية، فقد استطاع أن يعين أحد المقربين إليه عاملاً للبريد في حاضرة الدولة العباسية ليكون عيناً له، يوافيه بما يجري في العراق وبما يحيكه له أعداؤه من مؤامرات في هذه البلاد، واستطاع ابن طولون بفضل هذا العامل أن يكشف عن نيات منافسيه في مصر الذين يشون به عند الخليفة ويطهر البلاد منهم، واطمأن بفضل هذه الجاسوسية التي أقامها في بغداد على مركزه في مصر.

ولما وقع الخلاف بين أحمد بن طولون وأبي أحمد الموفق طلحة أخي الخليفة العباسي المعتمد، وعمل هذا على صرف ابن طولون عن مصر وألب القواد عليه، أخبر عامل البريد ابن طولون بهذا فاحتاط لنفسه وأحبط المؤامرة[١].

وكان لطرق البريد أثر كبير في تيسير انتقال قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد. وقد أمر خمارويه عمال بريد مصر بإعداد الطريق بين القطائع وبغداد، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصراً تنزل فيه.

ومما ذكره أبو المحاسن[٢] نرى أنه كان يضطلع بأعباء البريد سنة ٢٩٢ هـ شخص يدعى شفيعاً اللؤلؤي، ويلقبه هذا المؤرخ بصاحب البريد، ولا نعرف كثيراً عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين ولا في عهد الفاطميين، اللهم إلا ما كان من اعتمادهم على حمام الزاجل. فقد ذكر القلقشندي[٣] أن الفاطميين اهتموا بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام.

(د) الشرطة:

ذكرنا من قبل[٤] أن نظام الشرطة من النظم الإدارية الهامة، وأن صاحبها كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وأنه أشبه بالمحافظ. ويعتمد الخليفة على صاحب الشرطة لحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين. وقد حدد ابن خلدون المهام التي يضطلع بها صاحب الشرطة في هذه العبارة فقال:

---

(١) المقريزي: خطط جـ ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٨.
(٣) صبح الأعشي ج ١ ص ٣٩٠.
(٤) ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبرائها[١] أولاً، ثم الحدود بعد استيفائها، فإن التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع إلا في استيفاء حدودها، وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة في ذلك. فكان الذي يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة. وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والدماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم. ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس. إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الرتب والضرب على أيدي الدُّعَّار[٢] والفَجَرة... وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة.

وكانت الدولة العباسية تتخذ في كل مدينة من المدن جماعة من الجند تخضع لرئيس منهم ينوب عن صاحب الشرطة الذي كان يتخذ مقره في حاضرة الدولة أو الولاية. ويضطلع هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين، ويقومون بالعكس في الليل تحت إشراف رؤسائهم. وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة، فتمنحهم الرواتب الكبيرة، حتى كان منصب صاحب شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالي[٣]. كما كانت الحكومة المركزية في حاضرة الدولة أو الولاية تعتمد على صاحب الشرطة في إقرار الأمن وحفظ النظام[٤]. وكانت الشرطة تابعة للقضاء في أول الأمر، يتولى صاحبها إقامة الحدود من القبض على المجرمين، وتنفيذ أحكام القضاة. إلا أنها لم تلبث أن انفصلت عن

---

(١) كذا في مخطوطة المكتبة الزكية رقم ١٠١٦ المحفوظة بدار الكتب المصرية، وعليها خط المؤلف، وكذا في المخطوطتين رقمي جـ ٨٠٤٥ و٢١٠٦ المحفوظتين بالدار أيضاً: استبرائها، وهو الصواب ومعناه استقصاء الأمر وطلب آخره دفعاً للشبهة، كما في تاج العروس. والمراد بذلك التحقيقات الأولى التي يجريها ضابط البوليس بمنتهى الدقة ويدونها في المحاضر الخاصة، ثم يسلمها بعد ذلك إلى السلطة القضائية وفي النسخة المقدمة طبع بيروت ص ٢١٨ ـ ٢١٩ وكذا في جميع طبعات القاهرة: «استبدائها» وهو تحريف لما أثبتناه.

(٢) كذا في المخطوطات الثلاث المشار إليها في الحاشية قبل هذه وفي جميع النسخ المطبوعة ببيروت والقاهرة «الرعاع» وهو تحريف لما أثبتناه.

(٣) أمير علي: مختصر تاريخ العرب. التمدن الإسلامي ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٣٣.

القضاء واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم. وكانت تولية صاحب الشرطة في الولايات الإسلامية وعزله من خصائص الوالي.

ولما فتح العرب مصر كانت الشرطة في مدينة الفسطاط. ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أطلق على دار الشرطة في الفسطاط دار الشرطة السفلى، وبذلك انقسمت الشرطة قسمين:

١ ـ الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

٢ ـ والشرطة العليا ومقرها العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر (جبل يشكر وطولون) يقع شمال الفسطاط. ومن ثم سميت الشرطة العليا[١]. ولما فتح جوهر الصقلي مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة. وذكر ابن دقماق[٢] أن صاحب الشرطة توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر إلى مصر، فأسند عمله إلى جبر، وبقيت دار الشرطة في الفسطاط وتقلدها عروبة بن إبراهيم وشبل المعرضي[٣].

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين: شرطة كبرى، وشرطة صغرى، ويقول ابن خلدون[٤] في بيان اختصاص كل من الشرطتين ما نصه:

«ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء. وجعل له[٥] الحكم على أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسي

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٥.

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٩٥. أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ١٩٦.

(٤) أنظر ص ٢٤٩ من مقدمة ابن خلدون المخطوطة بالمكتبة الزكية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف.

(٥) كذا في نسخ المقدمة المطبوعة في بيروت ومصر ومخطوطة المكتبة الزكية التي سبقت الإشارة إليها. وليس في الكلام مرجع للضمير في (له). ويظهر أنه يعود على صاحب الشرطة الكبرى وهو مفهوم من السياق، ومن هذا أو ما بعده يظهر أن صاحب الشرطة الكبرى أوسع اختصاصاً من صاحب الشرطة الصغرى، فللأول:

(أ) الحكم على الخاصة والدهماء (ب) الحكم على أهل المراتب السلطانية وأقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه. أما صاحب الشرطة الصغرى فليس له حكم إلا على العامة، وهم الدهماء.

بباب دار السلطان، رجل[١] يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه».

ولما اعتلى عبد الرحمن الناصر العرش استحدث نوعاً ثالثاً للشرطة أطلق عليه الشرطة الوسطى. ويظهر أن صاحبها اختص بالنظر في جرائم الطبقة الوسطى، وهم أعيان التجار وأصحاب المصانع وأرباب المهن الراقية كالأساتذة والأطباء ومَن في طبقتهم. وأسند هذا المنصب إلى سعيد بن جدير[٢]. ويقول المقري[٣] عن الشرطة في الأندلس: «وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن معروفة بهذه السمة. ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل. وإذا كان عظيم القدر عند السلطان الأعظم، وهو الذي يحدُّ (أي يقيم الحدود) على الزنا وشرب الخمر. وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه، قد صارت تلك عادة تقرر عليها القاضي. وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك»[٤].

ولا يختلف نظام العسس في الأندلس عنه في المشرق إلا في التسمية، حيث عرف العسس في الأندلس بالداربين، لأن مدن الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد صلاة العشاء. ولكل زقاق بواب يعرف أهل الزقاق ويفتح لهم الباب، «وله سراج معلق وكلب يسهر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتهم» أي خبثهم وكثرة شرهم[٥].

---

(١) كذا في المخطوطات الثلاث المحفوظة بدار الكتب المصرية من مقدمة ابن خلدون. والرجل: اسم جمع لراجل، وهم الرجالة أيضاً: وفي النسخ المطبوعة «رجال».

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢١٢.

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

(٤) كان صاحب الشرطة: الدولة العباسية وفي الأندلس وفي عهد الفاطميين في المغرب ومصر ينظر في الجرائم ويقيم الحدود (راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٩٣).

(٥) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ـ

٣ ـ النظام الحربي

(أ) الجيش

١ ـ في الدولة العباسية:

كان الجيش في عهد الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربي. وقد اعتمد العباسيون على الفرس في إقامة دولتهم؛ ومن ثم أصبح للعنصر الفارسي أثر ملحوظ في الجيش. ولما ولي المعتصم الخلافة اعتمد على الأتراك، لأن أمه كانت تركية، فولاهم حراسة قصره، وآثارهم على الفرس والعرب، ومحا أسماء العرب من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً. ومن ثم زاد نفوذ هذا العنصر التركي حتى أصبح خطراً يهدد حياة الخلفاء أنفسهم، وأصبح بيد القواد من الأتراك تولية الخليفة وعزله وسمل عينيه وقتله. فنجد المتوكل يذهب ضحية تآمر الأتراك عليه ويتبعه ابنه المنتصر الذي دس له الأتراك السم على يد طبيبه. وقد عبث هؤلاء الأتراك بهيبة الخلافة بقتلهم الخليفة المعتز وتمثيلهم به وتعذيبهم الخليفة المهتدي حتى مات.

ولم يلبث أن اندمج في الجيش العباسي عناصر أخرى من غير الأتراك. وكان جميع هؤلاء الجند من المرتزقة، لا هم لهم إلا جمع المال وإثارة الفوضى والقلاقل إذا تأخر دفع رواتبهم. كما كانوا ينضمون إلى كبار القواد إذا أجزلوا لهم العطاء. وكان الجيش في عهد المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ)، يتألف من الأتراك والمغاربة[١] والفراغنة[٢]، كما يظهر من هذه الأبيات التي نظمها أحمد بن الحارث اليمامي في وصف ثورة القواد على هذا الخليفة حيث يقول:

وأقبلت الترك والمغربونَ ... وجاء الفراغنةُ الدار عونا
تسير كراديسهم[٣] في السلاح ... يروحون خيلا ورَجْلا تَبينا
فقام بحربهم عالم ... بأمر الحروب تولاه حينا
فجدد سوراً على الجانبـ ... ـين حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات ... ألوف ألوف إذ تحسبونا[٤]

---

(١) يقصد بذلك المصريين.

(٢) يقصد أهل فرغانة ببلاد ما وراء النهر.

(٣) جمع كردوسة وهي قطعة عظيمة من الخيل.

(٤) الطبري ج ١١ ص ٩٧.

وقد عمل بعض الخلفاء على التخلص من قواد الأتراك، فاستعانوا ببعض فرق المرتزقة[1] من العناصر الأخرى. فنرى المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) يصطنع المغاربة والفراغنة دون الأتراك. وكان ذلك سبباً في قتله على أيدي الأتراك، وكذلك كان الخلفاء العباسيون وبعض القواد يستعينون بالعناصر الأجنبية المعادية للدولة نفسها. من ذلك أن الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) استعان بالقرامطة وأدخلهم في صفوف جيشه ولم يسلم هو من أذاهم، إذ ثاروا عليه وانضموا إلى ابن رائق الذي عمل على الاستئثار بالنفوذ دونه. «واستجاش بألف من القرامطة وجاء بهم إلى بغداد فأكثروا فيها الفساد»[2]. وكان هؤلاء المرتزقة من القرامطة ينضمون إلى ابن رائق تارة وإلى أعدائه تارة أخرى، ويصبحون شراً مستطيراً على الدولة. ولا غرو، فقد حارب هؤلاء القرامطة في صفوف ابن رائق ضد البريدي تارة[3]، وفي صفوف أبي عبد الله البريدي تارة أخرى. فأمد أبو طاهر الجنائي القرمطي أبا عبد الله البريدي بجيش للاستيلاء على البصرة، وعاونه على الخليفة المتقي سنة ٣٣٠ هـ، ولم يكتف البريدي بالقرامطة بل «كان معه الأكراد والديلم»[4].

ولما استبد بنو بويه بالنفوذ في الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ. قامت المنافسة بين الأتراك الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الجند ويتمتعون بنفوذ كبير منذ عهد المعتصم، وبين الديلم الذين ينتسب إليهم البويهيون، والذين اعتمدوا عليهم في إقرار سلطانهم في البلاد. وقد شعر معز الدولة بذلك فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك[5]، وأخذ سلاطين بني بويه يتقربون إلى الأتراك تارة وإلى الديلم أخرى: فنرى بختيار يخشى الأتراك، فيتقرب إليهم ويعتصم بهم ويثير بذلك حنق الديلم عليه. على أن هؤلاء الأتراك لم يلبثوا أن عزلوا بختيار سنة ٣٦٤ هـ بإيعاز ابن عمه عضد الدولة. ولولا تدخل ركن الدولة لآلت سلطنة العراق إلى عضد الدولة منذ ذلك الحين[6]. وكان الجيش

---

(١) كان الجيش يتألف من قسمين: مرتزقة وهم الذين يتناولون الرواتب من الدولة، ومتطوعة وهم الذين ينتظمون في الجيش كلما دعا داعي الجهاد، ويتناولون أرزاقهم في مدة تطوعهم فقط، وتمنح أسراتهم مخصصات عينية أو نقدية.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ١٨٩.

(٣) أبو بكر الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٢٣.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، مخطوط ج ٣ ورقة ١٣٦.

(٥) أنظر هذا الكتاب ص ٤٥.

(٦) ابن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

في عهد بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراغنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة. وقد ذكر أبو شجاع[١] أنه كان للجيش في عصر عضد الدولة عارضان قائدان للجيش. أحدهما للديلم والآخر للأتراك والأعراب والأكراد. ويظهر أن المغاربة والفراغنة كانوا هم وغيرهم من المرتزقة تحت إمرة القائد الثاني.

وكان للجيش مجلسان هما: مجلس التقرير وينظر في تقدير رواتب الجند وأوقات دفعها إليهم، ومجلس المقابلة ويختص بالإشراف على سجلات الجند ومراجعة أسمائهم. وينقسم كل من هذين المجلسين إلى أقسام معينة من الجند كجند الخاصة وجند الخدمة العسكرية وجند الولايات[٢].

وكان الجيش العباسي يتكون من عدة فرق، تضم النظامية أو المرتزقة والمتطوعة: وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الرجالة أو الحربية ويتسلحون بالرماح والسيوف والحراب والتروس، والرماة ويتسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب، ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والدروع لتقي صدورهم، ولها أجزاء للساعدين والساقين. كما كان يتألف من النشابين وهم الذين يرمون بالنشاب، والدبابون. وقد اقتبس العرب هذا النظام عن الفرس، والعيارون وهم الذين يرمون الحجارة من القالع، والمنجنيقيون والنفاطون وهم الذين يقذفون النفط، ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاقتحام الحصون المشتعلة، والهندسة ويطلق عليهم الفعلة والأطباء والبياطرة.

وكان على كل عشرة آلاف جندي «أمير»، وعلى كل ألف «قائد»، وعلى كل مائة «نقيب»، وعلى كل عشرة «عريف». ويختلف لباس الجند باختلاف الفرق والأسلحة. ولما ولي المتوكل الخلافة أمر الجند بتغيير زيهم القديم، وألبسهم أكسية رمادية، وأمرهم بألا يجعلوا السيوف على أعناقهم، بل يتمنطقون بما حول وسطهم مقلدين في ذلك الفرس.

وهناك حرس الخليفة «وجنود المنزل» ويعهد إليهم بأعمال أقل أهمية مما يقوم به حرس الخليفة. وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم «الجاندار». وهناك أيضاً جماعة من الغلمان يتلقون علومهم في البلاط ويتدربون على الفنون الحربية، ثم يعينون «مرافقين» إذا بلغوا سن

---

(١) ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٤٠.

(٢) متز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ٢ ص ١٢٥، نقلاً عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٧ ورقة ١٢ ـ ب.

الرشد، ويعيشون في حجرات منفصلة عن ثكنات فرق الجيش. ومن ثم أطلق عليهم الحجرية (بضم الحاء وفتح الجيم وكسر الراء)، لتمييزهم عن الفرق الأخرى كالباجية الذين ينتسبون إلى ابن أبي الساج وغيرها.

وكان العباسيون يستخدمون جماعة من المهندسين يعرفون بالمنجنيقيين، ويعرف رئيسهم باسم أمير المنجنيقيين. ومن أشهر هؤلاء يعقوب بن صابر الذي وضع في الهندسة الحربية كتاباً سماه «عمدة المسالك في سياسة الممالك» عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب، كالتعبئة والاستيلاء على الحصون، وتشييد القلاع والفروسية والهندسة والحصار، وتركيب الآلات الحربية، وصفات الخيل والفرسان وأنواعهم. وكذلك كان الجيش يزود بمستشفيات الميدان، فتحمل الجرحى والمرضى على محفات تحملها الجمال[١].

وقد عني العباسيون بالجاسوسية في الجيش، واستخدموا في ذلك كلًّا من الجنسين الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم. ولم تكن الجاسوسية الحربية أكثر نشاطاً ولا أعم انتشاراً في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية، التي كانت لا تزال تنافس الدولة العربية والتي كان أهلها في الماضي أساتذة العرب في الفنون الحربية.

ولكي يحمي العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم، وتسمى الثغور[٢]. وهذا ضرب من التدابير الحربية التي تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب وسيوفهم فيها. وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة إلى العرب. وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة، فكانت كفة النصر ترجح مرة في جانب

---

(١) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) لما استولى أبو جعفر المنصور على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى، مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية، حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم «الثغور». ولما ولي هارون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سماها «ولاية الثغور» وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً، وأقام بها المعاقل وأمدها بحاميات دائمة، ومنح، فوق أرزاقهم، أرضاً أقاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة، وأصبحت أحوالها في يسر ورخاء إلى أيام الواثق، ثم أخذت بعد ذلك في الأفول.
انظر كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ص ٢٥٢ - ٢٦٩.

العرب وأخرى في جانب الروم. ولذلك كانت هذه الثغور تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي البيزنطيين.

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية، تقرر بعد اختيار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد. فقد ذكر هلال بن الصابي[١] طريقة هذا الاختيار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب في هذه العبارة فقال:

«ويقف القواد والغلمان بين يديه (يعني المعتضد) في الميدان، ويجلس كتاب العطاء أسفل بحيث لا يراهم. ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه ويصعد بها إلى المعتضد بالله، ويدعو عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان، ويمتحن على البرجاص[٢]. فإن كان يرمي رمياً جيداً وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب أو مقارب في رميه، علم على اسمه «ج» وهي علامة الجيد، ومن كان دون ذلك علم على اسمه «ط»، وهي علامة «المتوسط»، ومن كان متخلفاً لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمي هدفه علم على اسمه «د» وهي علامة الدون. ثم يحمل بعض العرض والامتحان إلى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ما عندهم من صفاته لئلا يكون دخيلاً أو بديلاً».

وكان الجيش في وقت القتال يتألف من خمسة أقسام: هي القلب، وهو مركز القائد العام، والميمنة، والميسرة، والطليعة، والساقة، وكانت تتقدم الجيش الطليعة وهي سرية من الفرسان يلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرماح. يقول سيد أمير علي[٣]:

«ومما لا شك فيه أن منظر الجيش العربي وهو يشق طريقه في صفوف لا نهاية لها في بلاد الأعداء، قد بلغ حد العظمة والبهاء، فكان الفرسان يسيرون في المقدمة، وعلى جانبيهم حملة النبال. ثم يأتي بعدهم الرجال الذين كانوا يسيرون في صفوف متراصة بنظام عجيب، ويليهم صفوف الحمال المحملة والعدد والخيم والعتاد. ثم تأتي بعدهم المستوصفات الصحية والنقالات لحمل المرضى والجرحى، ثم آلات الحرب كالمنجنيقات

---

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٣ ـ ١٤.
(٢) الهدف يعلق ويرى فيه.
(٣) مختصر تاريخ العرب ص ٣٧٧.

والعرادات محملة على ظهور الجمال والخيول والبغال وهي تسير في المؤخرة. أما إذا سار الخليفة أو أحد أفراد الأسرة المالكة على رأس الجيش فلا شك في أن المنظر كان يبدو أكثر روعة وبهاء، إذ كان جنود الحرس الخلافي يتشحون بالملابس الزاهية ويحملون الأعلام ذات الشعار الملكي المنقوش بالذهب، كما كان القواد والأمراء يرتدون الملابس الفخمة. وعلى الجملة كان هذا المنظر يبدو فخماً رائعاً. وكانت الطليعة حين تصل إلى الموضع المقصود في حفر الخنادق، إذ كان نظام الجيش يقضي بألا يعسكر الجند قبل أن يتخذوا الحيطة من الهجوم المفاجىء. فإذا وصل الجيش الرئيسي نصبت الخيم في نظام بديع، وأقيمت الشوارع والأسواق والميادين كما لو كان المعسكر مدينة عامرة. وكانت توزع الأرزاق، فتوقد المطابخ وتنصب عليها القدور. وبعد تناول العشاء يؤم الخليفة أو قاضي القضاة الجند في الصلاة. ثم يجلسْ الجميع في حلقات يستمعون إلى أقاصيص الحروب والمخاطرات أو إلى القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي. وكانوا لا ينامون إلا بعد الهزيع الأول من الليل».

ويتبين لنا نظام التعبئة مما ذكره محمد بن سليمان الكاتب عن الموقعة التي دارت بينه وبين الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة في بلاد الشام سنة ٢٩٢ هـ. ومنها نتبين كيف كانت الجيوش تستخدم الكمين كخدعة من خدع الحرب، وكيف كانوا يعتمدون على السياط كآلة من آلات الحرب الهامة، وإلى أي حد بلغ اهتمامهم بفرق الفرسان والرجالة[١].

٢ ـ في مصر:

وفي مصر اتخذ أحمد بن طولون جنداً كثيفاً من السودان والنوبيين والروم. وكان بقصره مكان يشرف منه في يوم عرض الجيش، ويخرج من الباب الأوسط، ويخرج عسكره من البابين الآخرين في عدد عظيم وفي أتم نظام. وقد قيل إن جيش مصر في عهد ابن طولون بلغ مائة ألف.

ويتبين مبلغ اهتمام الطولونيين بالجيش من وصف موكب خمارويه عند خروجه للصيد أو التنزه أو الاحتفال بأعياد الدولة ومواسمها. وقد بلغ موكب هذا الأمير حد الروعة والبهاء. ويسير فيه أولاد الحوف وشناترة الضياع، وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام معروفين

---

(١) أنظر الملحق الرابع ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

بالشجاعة والبأس، فأدخلهم خمارويه في خدمته، وأدر عليهم الأرزاق والعطايا، ومنع عن الناس أذاهم، واتخذهم حرساً له. وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج؛ ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة، ويتقلدون بالسيوف المحلاة. وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان، لهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم الأقبية والعمائم السود، فيخالهم الناظر بحراً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم. ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم، والبيض[١] التي تلمع من تحت العمائم. فإذا مضى السودانيون، قدم خمارويه وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة (رمية) سهم. ويحف به حرسه المختار، وهو ممتط فرساً، تكسوه الهيبة، ويدل مظهره على السطوة وشدة البأس. فإذا سار الناس جميعاً وبينهم الجند في صمت عميق كأن على رءوسهم الطير.

وفي عهد الإخشيد كانت مصر آمنة مطمئنة بجيشها الذي بلغ أربعمائة ألف مقاتل، عدا حرسه الخاص وعبيده ومماليكه الذين كان قصره يزخر بهم، وكانوا إذ ذاك ثمانية آلاف رجل. وأصبح الإخشيد من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بتولية ابنه أنوجور العهد[٢]. ولما تولى كافور زمام مصر وما يليها من البلاد بعد وفاة الإخشيد انضم إلى الجيش عدد كبير من السودان[٣].

وكان الجيش الفاطمي يتألف من الأمراء وطوائف الجند. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تجاوزها إلى غيرها. فالأمراء يطوقون بأطواق الذهب حول أعناقهم، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقصب الفضية. أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر كالمغاربة والأتراك والأكراد والغز والديلم والسودان. وينسب بعض هذه العناصر إلى الخلفاء: كالحافظية نسبة إلى الحافظ، والآمرية نسبة إلى الآمر، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء: كالجيوشية والأفضلية[٤].

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بعرض الجيش وتوزيع الحملات الحربية، وخاصة إلى بلاد الشام وفلسطين[١].

---

(١) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية.

(٢) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٥٢. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٢.

(٣) المقريزي: خطط ج ١ ص ١٥٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٠.

(ب) الأسطول

اهتم المسلمون على أثر فتح بلاد الشام ومصر بإنشاء أسطول لحماية سواحل هذه البلاد من غارات البيزنطيين ومحاولة فتح القسطنطينية. وقد ظهر ذلك واضحاً منذ عهد عثمان بن عفان وفي عهد الدولة الأموية التي استقرت في بلاد الشام. وعلى أن انتقال الخلافة إلى العراق أدى إلى جعل مهمة الدفاع عن هذه البلاد من اختصاص ولاتها أنفسهم. وبلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين. وكان للمسلمين في كل مرفأ منار لهداية السفن أطلق عليه اسم «الخشب»، كما كان لكل سفينة حربية قائد أو «مقدم» يقوم بتدريب الجند ويعد العدة للحملات البحرية. وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الملاحة فقط. أما القائد العام للأسطول فيدعى «أمير الماء» أو «أمير البحر» الذي اشتق عنه الأوربيون لفظ Admiral.

وقد اشتهرت مصر في العصر الإسلامي بصناعة المراكب النيلية لنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر كما اشتهرت بصناعة السفن الحربية التي تألف منها الأسطول المصري وكانت سفن الأسطول تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة البيزنطية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس شمالي بحيرة المنزلة والفرما شرقي هذه البحيرة.

ويرجع إنشاء «الصناعة» في مصر إلى الغزوة التي شنها البيزنطيون على البرلس وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة، وما تبع ذلك من استيلائهم على تنيس في سنة ١٠١ هـ (٧٢٠ م) وعلى دمياط سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣ م). وكان من أثر هذه الحملة الأخيرة أن قام عنبسة بن إسحاق (٢٣٨ - ٢٤٢ هـ) والي مصر في ذلك الوقت بتحصين سائر الموانىء المصرية. كما قام في الوقت نفسه بإنشاء هذه «الصناعة» التي ظلت موضع عناية ولاة مصر إلى أن قامت الدولة الطولونية، وأنشأ فيها أحمد بن طولون أسطولاً كبيراً من السفن الحربية، ولكن بقاء «الصناعة» في هذا المكان أصبح مصدر خطر للبلاد بعد أن أحرقها الثوار في سنة ٣٢٣ هـ، ثم استولوا على الأسطول المصري في الفيوم واستخدموه في الهرب إلى

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف ص ١٩٠. وسنقف على ترتيب الجند في عهد الفاطميين من الوصف الذي أورده ناصرخسرو عن الاحتفال بجبر الخليج في عهد المستنصر في الباب العاشر من هذا الكتاب.

الإسكندرية ثم إلى برقة. ومن ثم أمر الإخشيد بنقل دار الصناعة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون (شعبان سنة ٣٢٥ هـ). ثم أقام في موضعها بستانه المعروف «بالمختار»[١].

ولم تقف جهود الفاطميين عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام التي كانت تابعة لمصر واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوي؛ فأنشأ المعز لدين الله الفاطمي داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة سفينة[٢]، وكان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد عليهم رئيس هو «قائد القواد»، ويسمى في عصر الفاطميين «أمير الجيش»، وفي عهد المماليك «ناظر الجيش». ويتناول كل من هؤلاء القواد رواتب تصل إلى عشرين ديناراً في الشهر، وأصبح للأسطول المصري ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين، فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو، كما أحرق مراكب الأسطول[٣].

٤ ـ النظام المالي

(أ) في الدولة العباسية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن سياسة العباسيين المالية كانت ترمي إلى تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها، ومن ثم كانت الميزانية العامة تقسم قسمين: قسم الاستخراج ويعرف بموارد الدولة، وقسم النفقات ويعرف بمصارف الدولة.

وقد بلغ النظام المالي في العصر العباسي الثاني مبلغاً عظيماً من الدقة والنظام، فكانت لكل ولاية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسي في بغداد أو في سامرا، وينقسم كل منهما قسمين: يشرف أحدهما على النفقات ويحمل ما تبقى إلى دار الخلافة، ويشرف الثاني على الموارد. وكان بيت المال بدار الخلافة يعني بشئون الدواوين وما يتعلق بالجزء الشرقي لمدينة بغداد، لأن هذا الجزء كان تابعاً لدار الخلافة، على حين كان الجانب الغربي لهذه المدينة تابعاً لإقليم بادرايا (بضم الدال).

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٩.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ١٣٣.
(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤.

وقد بين الخوارزمي[1] القوانين والدفاتر والأعمال التي كانت مستعملة في الدواوين بخراسان في ذلك العصر فقال:

قانون[2] الخراج: أصله الذي يرجع إليه وتبنى الجباية عليه، وهي كلمة يونانية معربة.

الأوارج: إعراب أواره، ومعناها بالفارسية المنقول، لأنه ينقل إليه من القانون ما على الإنسان، ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفي ما عليه.

الرزنامج: تفسيره كتاب اليوم، لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك.

الختمة: كتاب يرفعه الجهبذ[3] في كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به ـ الختمة الجامعة تعمل كل سنة لذلك.

التأريج: قيل لفظة فارسية ومعناها النظام، لأنه كسواد يعمل كالعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها، وأنا أظن أنه تفعيل من الأوارج. تقول: أرجت تأريجاً لأن التأريج يعمل للعقد شبيهاً بالأوارج، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده بالحساب، وهكذا يعمل التأريج.

العريضة: شبيه بالتأريج، إلا أنها تعمل لأبواب يحتاج إلى أن يعلم فضل ما بينها، فينقص الأقل من الأكثر من بابين منها، ويوضع ما يفضل في باب ثالث، وهو الباب المقصود الذي تعمل العريضة لأجله، كأن تعمل عريضة للأصل والاستخراج. ففي أكثر الأحوال ينقص الاستخراج عن الأصل فيوضع السطر الأول من سطوره العريضة ثلاثة أبواب: أحدها للأصل، والثاني للاستخراج، والثالث لفصل ما بينها. ثم يوضع في السطر الثاني والثالث والرابع إلى حيث تنتهي تفصيلات الأصل، والاستخراج فصل ما بينهما، ويثبت كل واحد منهما بإزاء بابه، وتثبت جملة كل باب تحته.

البراءة: حجة يبذلها الجهبذ أو الخازن للمؤدي بما يؤديه إليه.

---

(١) مفاتيح العلوم (القاهرة ١٣٤٢ هـ) ص ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) كانت لفظة Kanon في العصر التالي لعصر دقلديانوس هي الاصطلاح العام للضرائب العادية.

(٣) الجهبذ بالكسر: النقاد الخبير بغوامض الأمور البارع العارف بطرق النقد، وهو معرب.

الموافقة والجماعة: حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل، ولا يسمى موافقة ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه، فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسبة.

ومن دفاتر ديوان الجيش **الجريدة السوداء**، وهي تكسر لقيادة قيادة في كل سنة بأسامي الرجال وأنسابهم وأجناسهم وحلاهم ومبالغ أرزاقهم وقبوضهم وسائر أحوالهم، وهو الأصل الذي يرجع إليه هذا الديوان في كل شيء.

الرجعة: حساب يرفعه المعطي في بعض العساكر لطمع[1] واحد إذا رجع إلى الديوان، والرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الإنفاق.

الصك: يعمل لكل طمع يجمع فيه أسامي المستحقين وعدتهم ومبلغ مالهم ويوقع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم.

والمؤامرة: عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع، ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك. وقد تعمل المؤامرة في كل ديوان تجمع جميع ما يحتاج إليه من استثمار واستدعاء توقيع، والصك أيضاً يعمل لأجور الساربانيين والجمالين ونحوهم.

والاستقرار: عمل يعمل لما يستقر عليه من الطمع بعد الإثبات والفك والوضع والزيادة والحط والنقل والتحويل ونحو ذلك.

المواصفة: عمل يعمل، توصف فيه أحوال تقع وأسبابها ودواعيها وما تعود بثباتها أو زوالها.

الجريدة المسجلة: هي المختومة، فأما السجل فكتاب يكتب للرسول أو المخبر أو الرجال أو غيرهم بإطلاق نفقته حيث بلغ، فيقيمها له كل عامل يجتاز به. والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء، يقال سجل الحاكم لفلان بكذا تسجيلاً.

الفهرست: ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان، وقد يكون لسائر الأشياء.

الدستور: نسخة الجماعة المنقولة من السواد.

الترقين: خط يخط في التأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكي يكون الترتيب

---

(١) الطمع محركة رزق الجهبذ، وجمعها أطماع، وأطماعهم أوقات قبض أرزاقهم.

محفوظاً به، وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل، واشتقاقه من رقان. وهو بالنبطية الفارغ.

الجائزة: علامة المقابلة.

ومن الدفاتر التي يستعملها كتاب العراق، **الإنجيذج** تفسيره الملفوظ لفظة فارسية معربة.

الأوشنج: تفسيره المطوي والجموع لفظة فارسية أيضاً.

والدروزن: ذكر الماسح وسواده الذي يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين.

ومن أهم موارد بيت المال في هذا العصر: **الخراج، والجزية، والزكاة، والفيء، والغنيمة، والعشور**.

وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التي قررها أسلافهم. بل جاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها. وسنَّ الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الأموال. ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية. وكان للتحقيق مع هؤلاء مكان خاص يسمى «دار الاستخراج».

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج.

١ ـ **المحاسبة**: وهي إما أن تكون نقداً أو نوعاً أو هما معاً.

٢ ـ **المقاسمة**: وهي ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول.

٣ ـ **المقاطعة**: وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة. ويدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج. وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب. مثال ذلك أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) تجاوز عن ربع الضريبة بإرجائه السنة المالية من مارس إلى ١٧ يونية، ثم بإرجائها مرة أخرى إلى ٣١ يونية[١].

وقد أورد قدامة بن جعفر[٢] بياناً ذكر فيه أقاليم الدولة العباسية ومقدار الجباية في أواخر القرن الثالث الهجري في كل سنة. ومن هذا البيان يتضح أن الجباية كانت بالدرهم

---

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٤٩ ـ ٢٥١.

في أقاليم المشرق وبالدينار في أقاليم المغرب. كذلك يتضح أن صافي ما حمل إلى بيت المال بلغ من العين ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار من الورق، وأن الدينار يساوي خمسة عشر درهماً، وأن مجموع الجباية بلغ ٧٣,٨٠٠,٠٠٠ درهم، وهو رقم يدل بلا ريب على سوء حالة الدولة واستئثار بعض عمال الأقاليم بالنفوذ. على أنه ينبغي ألا يعزب عن أذهاننا أنه كانت هناك ضرائب أخرى تُجبى من أهل الذمة ومن أرباب الحرف والصناعات وعلى التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب. وإليك بيان قدامة:

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	
السواد	١٣٠,٠٠٠,٠٠٠	درهم
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	درهم
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	درهم
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	درهم
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	درهم
الإيغارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	درهم
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	درهم
الري ودماوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠	درهم
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٠,٠٠٠	درهم
قومس	١,١٥٠,٠٠٠	درهم
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
طبرستان	٤,٢٨٠,٠٠٠	درهم
تكريت والطيرهان والسن والبوازيخ	٠,٩٠٠,٠٠٠	درهم
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠	درهم

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية	
كورة الموصل	٦,٣٠٠,٠٠٠	درهم
قردي وبزبدي	٣,٢٠٠,٠٠٠	درهم
ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠	درهم
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	درهم
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	درهم
حلوان	٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ماء الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ماء البصرة	٤,٨٠٠,٠٠٠	درهم
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	درهم
أرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠	درهم
مقاطعة طرون	١٠٠,٠٠٠	درهم
أرمينية	٤,٠٠٠,٠٠٠	درهم
آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠	درهم
ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠	درهم
أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠	درهم
قنسرين	٣٦٠,٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	دينار
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	دينار
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	دينار
جند فلسطين	٢٥٩,٠٠٠	دينار
مصر والإسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	دينار
الحرمين	١٠٠,٠٠٠	دينار
اليمن	٦٠٠,٠٠٠	دينار
اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠	دينار
عمان	٣٠٠,٠٠٠	دينار

ومما يدخل في شيء من الارتفاع جزية رءوس أهل الذمة بحضرة مدينة السلام وهي ٢٠٠,٠٠٠ درهم.

نظام الإقطاع:

لم يأت الخراج عن طريق الأرض الخراجية وحدها بل كان يأتي أيضاً عن طريق الأرض المقطعة. ويرجع نظام الإقطاع إلى عهد الفتوح الإسلامية الأولى، فكانت أراضي الأكاسرة وأفراد البيت المالك والمرازبة، وهم كبار أصحاب الأراضي، ملكاً للدولة تقطعها من تشاء. وقد ذكر الماوردي[١] أن الإقطاع ضربان: إقطاع استغلال، وإقطاع تمليك، والثاني ينقسم إلى موات وعامر. والثاني وهو ضربان. «أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض في حق لبيت المال إذا كانت في دار الإسلام. فإن كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فإنه يجوز».

وكان الخراج الذي يؤدى عن الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء. وتعود هذه الأرض المقطعة إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها. وكثيراً ما كان الخراج عبئاً ثقيلاً على صغار ملاك الأراضي، حتى إن بعضهم كان يلحق أرضه بالأقوياء، فراراً من كثرة الخراج المفروض عليهم. ومن ثم كانوا لا يدفعون عن هذه الأراضي إلا العشر فقط[٢]، وتسمى هذه الطريقة التلجئة، وهي «أن يطلق الضعيف ضيعة إلى أقوى ليحامي عليها»[٣].

على أن نظام الإقطاع لم يخل من بعض العيوب، إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإبراء وجمع المال، ولا يتردد في إرهاق الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة، حتى يستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك، والأهالي في ذلك مغلوبون على أمرهم قلما تصل شكاياهم إلى السلطة المركزية، فضلاً عما كان يسلكه معهم بعض الجباة من وسائل التعذيب[٤].

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٨٨.
(٢) هلال بن الصابي: تاريخ الوزراء ص ١٣٤، ٢٢٠.
(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٤١.
(٤) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ١٨، ٦١، ٧٠ ـ ٧١

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة، بل قد يشمل ولاية برمتها، وقد ساد هذا النظام في العصر العباسي الأول حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية، وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ساد أوربا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين)[١].

وقد اهتم الخلفاء بمواعيد الخراج. وكان ميعاده عيد النيروز عادة. ولما حاول الأمويون تقديم ميعاد الخراج نحواً من شهر، طلب أصحاب الأراضي العدول عن تنفيذ هذا القرار. ولكن هشام بن عبد الملك أبى ذلك عليهم، واستمر هذا النظام إلى أيام هارون الرشيد حيث طلب أصحاب الأراضي من يحيى بن خالد البرمكي تأجيل ميعاد الخراج شهرين، وكاد يجيب طلبهم، ولكنه عدل عن ذلك لأنه رمي بالتعصب للمجوسية، ولم تحل هذه المسألة إلا في عهد الخليفة المتوكل. ولما جاء ابنه المنتصر أعاد ميعاد الخراج إلى ما كان عليه من قبل. ثم جاء المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) فقدم ميعاد الخراج عما كان عليه في عهد المتوكل بستة عشر يوماً، فأصبح في ٢٠ يونية من كل سنة.

وكانت الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال، وقد فرضت أول الأمر على النصارى واليهود مقابل حمايتهم والدفاع عنهم. ومن ثم كانت هذه الضريبة أشبه بضريبة الدفاع الوطني أو البدل العسكري، لذلك لم تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح، وكانت هذه الضريبة التي عرفت باسم الجزية أو جزية الرءوس أو الضريبة الشخصية تؤدى على قدر طاقة الشخص. ولذلك قسم أهل الذمة طبقات ثلاث: دنيا ويدفع الشخص ١٢ درهماً في السنة، ووسطى ويدفع ٢٤ درهماً، وعليا ويدفع ٤٨ درهماً. وفي البلاد التي استعملت فيها العملة الذهبية كانت الضريبة ديناراً ودينارين وأربعة دنانير على التوالي. وكانت الجزية تؤخذ على أقساط تبلغ أحياناً ستة أو خمسة وأحياناً أربعة أو ثلاثة أو اثنين، وفرضت في العراق أول الأمر في كل شهر. وفي سنة ٣٦٦ هـ صدر أمر الخليفة بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في شهر المحرم من كل سنة، وألا تؤخذ من النساء ولا ممن بلغ الحلم، ولا من ذي سن عالية، ولا ذي عاهة بادية، ولا من فقير معدم، ولا من راهب متبتل، ويعطى لمن يدفع الجزية براءة تثبت أداءه لها[٢].

---

(١) النظم الإسلامية للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) راجع متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٧٤ ـ ٧٨.

وقد بلغ المتحصل من ضريبة الجزية في أواخر القرن الثالث الهجري بمدينة بغداد ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة.

ومن مصادر بيت المال ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً له، حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال، وكان هذا مقصوراً على المسلمين. ولذلك نرى الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) يصدر في سنة ٣١١ هـ كتاباً يأمر فيه برد تركة من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال، وذلك لما «روي عن رسول الله ﷺ من أن المسلم لا يرث الكافر، وأن الكافر لا يرث المسلم وأنه لا يتوارث أهل ملتين»، وأن السنة التي جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذي رحمه»[١]. ونظراً لما كان لهذه التركة من أهمية باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر بيت المال، أنشيء لها في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ديوان خاص أطلق عليه «ديوان المواريث».

وكان هذا الديوان مصدر كثير من العنت والإرهاق والشكوى لأخذ المواريث على غير ما تجري به السنة[٢].

ومن مصادر بيت المال أخماس المعادن والركاز[٣] وخمس ما يقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ والعنبر، وأثمان الأباق من العبيد[٤]، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يظهر له صاحب[٥]. ومن مصادر بيت المال أيضاً الرسوم الجمركية كما سيأتي في الباب الثامن.

وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة مصدراً من مصادر بيت المال؛ فترى مثلاً الخليفة القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ) يصادر أموال سلفه المقتدر وأنصاره ويستولي على «ثياب وشي وديباج رومي وتستري[٦] مثقلة بالذهب، وفرش أدمي وخز وقم وديباج وصناديق

---

(١) هلال بن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٤٤٨.

(٢) راجع كتاب الخليفة المقتدر إلى عماله في صدد تعديل قانون المواريث في ابن الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

(٣) الركاز المال المدفون في الأرض.

(٤) من أبق العبد أبقا إذا هرب من سيده من غير خوف لا كد عمل، والجمع أباق مثل كافر وكفار.

(٥) متز: الحضارة الإسلامية ص ١٨٩.

(٦) نسبة إلى تستر (بضم التاء وسكون السين وفتح التاء)، وهي معربة عن ششتر أشهر مدن خوزستان.

فيها ثياب فاخرة وصياغات يسيرة ذهب، وصياغات كثيرة فضة، وطيب كثير من عود هندي وعنبر مسك وكافور وتماثيل كافور، قيمة ذلك نحو مائة وثلاثين ألف دينار، وقيمة التماثيل نحو ثلثمائة ألف درهم، فتسلم أكثر ذلك مؤنس المظفر ليباع، فتركوا بعضه ليخدم به القاهر»[١].

ولما قتل بجكم صودرت أمواله، وكانت مدفونة في مواضع كثيرة من بستانه، وقد قيل إن الخليفة المتقي استولى على ألفي ألف دينار من العين والورق، كما استولى من ابن شيرزاد، وكان من أنصار بجكم، على مائتي ألف دينار[٢]. وكذلك نرى بختيار بن معز الدولة ينفي كبار الديلم ويصادر إقطاعاتهم ويستولي على أموالهم وأموال المتصلين بهم[٣].

وقد سن بنو بويه طرقاً لابتزاز الأموال من أصحابها، فزاد عضد الدولة في مساحة الأراضي «واحداً في عشرة بالقلم، وأضافه إلى الأصول، وجعله رسماً جارياً[٤]، استمر إلى هذه الغاية في جميع السواد، وأحدث جنايات لم تكن، ورسوم معاملات لم تعهد، وأدخل يده في جميع الأرجاء[٥] وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه. . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . . فأزاله صمصام الدولة بعده، وأطلق الارتفاع[٦] للملاك. وجعل للمراعي وفرائض الصدمات ديواناً، وأقر له عمالاً وكتاباً وجهابذة، فارتع من أعمال السواد ما زاد على ألف ألف درهم في السنة، وأدخل يده في وقوف السواد، ورتب لها ناظرين متصرفين، وقرر لأربابها إجازة تطلق لهم عنها، فتحصل منها جملة كثيرة فصارت في المقبوض[٧]، وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك[٨]، وقرر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذاك، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه على الرسوم القديمة، وحظر عمل الثلج والقز وجعلهما متجراً

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٤.

(٢) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٩٧، ١٩٨.

(٣) مسكويه جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٤) أي نظاماً متبعاً.

(٥) في الأصل أرحاء جمع رحى وهو الطاحون، ويظهر أنها الأرجاء كما يقتضيه سياق الكلام.

(٦) الارتفاع هو صافي دخل الأرض ونحوها، يريد أنه اكتفى بأخذ الخراج للدولة من الملاك ويترك لهم ما بقي.

(٧) يعني أن الأموال قد حصلت من الذين كانت عليهم وصارت في قبضة أصحاب الأوقاف.

(٨) يعني أن ما عدا أراضي الأوقاف يجعل إقطاعاً ويوزع على الملتزمين على أساس نظام الإقطاع.

للخاص[١] وكانا من قبل مطلقين لمن يريد عملهما والمتجر فيهما»[٢].

وقد كثرت موارد الدولة العباسية في ذلك العصر على الرغم مما أصابها من ضعف ووهن. يدل على ذلك هذا البيان الطويل الذي أورده هلال بن الصابي[٣] عن النفقات اليومية للدولة العباسية في أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) ومنه نرى أنها بلغت نحو سبعة آلاف دينار، أي ما يزيد على مليونين ونصف مليون دينار في السنة. وإذا علمنا أن صافي ما يصل إلى حاضرة الدولة بلغ ٤,٩٢٠,٠٠٠ دينار في السنة، أمكن توفير ما يقرب من ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، حتى إننا نجد في أواخر عهد هذا الخليفة أن «بالحضرة تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن جميع النفقات، وكان المعتضد - رحمه الله - قد اعتقد أنه يتممها عشرة آلاف ألف دينار، يسبكها ويجعلها نُقْرة واحدة، ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار، وهو مستغن عنها. فاخترمته المنية قبل بلوغ الأمنية»[٤]. وإليك بعض ما ورد في بيان ابن الصابي عن نفقات الدولة العباسية اليومية في أول أيام المعتضد، أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وكلواذي ونهربين والرذانين وطريق خراسان مما شرط عليه أداؤه مياه ما في بيت المال من العين:

ألفي ألف وخمسمائة ألف وعشرين ألف دينار.

قسط كل شهر من ذلك	= مائتي ألف وعشرة آلاف دينار
وكل يوم	= سبعة آلاف دينار

تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله رحمة الله عليه منه:

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجالة ومن يرسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم[٥].

(١) يقصد أنهما جعلا احتكاراً للديوان.
(٢) مسكويه جـ ٢ ص ٧١.
(٣) تاريخ الوزراء ص ١١ - ٢٢.
(٤) هلال بن الصابي ص ١٨٩.
(٥) ومن هؤلاء البصريون والديالمة والطبرية والمغاربة والسودان.

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان المعروفين بالغلمان الخاصة، ومنهم حاجب المعتضد وخلفاء الحجاب وعدتهم ٢٥ رجلاً كانوا يلازمون الخليفة في أسفاره.

١٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين، وكانت أيام شهرهم خمسين، فلما جعلت تسعين سموا التسعينية. هذا عدا ما خصص للدواب، فقد جعل «للدابة، في كل خمسة وثلاثين يوماً أربعة دنانير، والبغل ثلاثة دنانير ونصف، وللحمار برسم الرجالة دينارين».

٦٠٠ دينار أرزاق المختارين الذين انتخبوا من كل قيادة وعرفوا بالشهامة والشجاعة من المماليك الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتيكينية والكيغلغية والكنداجية[١].

٥٠٠ دينار أرزاق الفرسان المثبتين، وأيام شهرهم ١٢٠ يوماً على ما أوجبه ابن أبي دُلف[٢].

١١٠ دينار أرزاق سبعة عشر صنفاً من المختصين بخدمة دار الخلافة كالفراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين وأصحاب الأعلام والبوقيين والممخرقين[٣] والمضحكين والطبالين.

٥٠ دينار المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطواف ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمترفين والرحالة الموكلون بأبواب المدينة.

٣٠٠ دينار أثمان أنزال الغلمان المماليك الستينية مما كان يطلق للقواد ليقيم كل منهم الخبز واللحم لمن في ناحيته ويوكل عليه من يستجيد[٤] الإقامة لهم.

---

(١) هذه الطوائف تنسب إلى مشهوري قواد الجيش في ذلك الوقت.

(٢) هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وقد حاول الاستقلال ببلاد الكرج وحارب العباسيين في الوقت الذي ثار فيه صاحب الزنج. وكان كاتبه محمد بن الحسين المعروف بدندان من أكبر أصحاب عبد الله ابن ميمون القداح. أنظر ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٢٦٧.

(٣) وردت في الأصل المخرفين وهم الذين يلعبون الألعاب السحرية ونحوها كالحوائين والسحرة ومن يشبهونهم.

(٤) يعني من يحسن التأديب لهم.

٣٣٣ ١/٣ دينار لنفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وأنزال الحرم والحشم ومخابز السودان، منها ٨٠ ديناراً للخاصة و ٢٥٣ ١/٣ دينار للعامة.

١٠٠ دينار ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء والحمام ونفقات خزائن السلاح، ومما يرم من الجواشن والدروع ويتخذ من النشاب والأعلام والمطارد، ونفقات خزانة السروج وخزائن الفرش.

٤ دنانير أرزاق السقائين بالقرب في القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور والحجر والخدم ولوضوء الخاص ومن يعمل بالروايا على البغال من الاصطبلات للحرم والبوابين في دار العامة.

١٦٧ ديناراً أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء.

١٠٠ دينار أرزاق المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والعطارين والمشهرين (الدلالين) والنجارين والخراطين وغيرهم، ومن في خزانة السلاح والسروج من الخزان والصناع.

١٠٠ دينار أرزاق الحرم، وقد خصص لها ثلاثة آلاف دينار في الشهر.

٤٠٠ دينار ثمن علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة[١].

٦٦ ١/٣ دينار ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل الموصوفة في أحياء العرب ويستبدل به إذا عطب في العمل.

---

(١) ذكر هلال بن الصابي (تاريخ الوزراء ص ١٧ ـ ١٨)، أنه كان هناك خمسة اصطبلات هي:

١ ـ اصطبل الخاص، ويشتمل على الخيل والحجورة (إناث الخيل) وللشهاري والبراذين (نوع من الخيل) وبغال السروج والقباب والهوادج والقردات والحمير.

٢ ـ واصطبل العامة وفيه دواب الخدم والغلمان والتفاريق والبازياريين.

٣ ـ واصطبل الدواب والحمليات وما يزاد من المروج من المهاري المحرمة، ويبتاع ويهدى، وفيه يرتبط ما يحتاج إليه العلاج والراواة وما يراد من الأسفار. وفيه عقر (جرح) وعمر (عرج).

٤ ـ واصطبل لبغال الأثقال وحمل العلوفات.

٥ ـ واصطبل بقصر الطين في الشماسية لمبارك الإبل والحمارات.

٣٠ ديناراً أرزاق المطبخين.

٣٠ ديناراً أرزاق الفراشين والمجلسين وخزائن الفرش وخزان الشمع وأجرة الأعوان والحمالين فيهما.

٦٢ ٢/٣ دينار ثمن الشمع والزيت.

٥ دنانير أرزاق أصحاب الرِّكاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد.

٤٤ ١/٣ دينار أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.

٢٣ ١/٣ دينار أرزاق جماعة من المتطببين وتلامذتهم الملازمين مع ٣٠ ديناراً لثمن الأدوية في خزانة القصر.

٧٠ ديناراً أصحاب الصيد من البازياريين والفهادين والكلابزين والصقارين والصيادين وثمن الطعم والعلاج للجوارح وأصحاب الحراب والسباعين وأصحاب الشباك واللبابيد والفحالين ومن معهم من الأعوان والحمالين وأصحاب المرور.

١٦ ٣/٤ دينار أرزاق الملاحين في الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزلالات وزواريق المعابر(١).

٤ دنانير ثمن النفط للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال في خدمتها.

١٥ ديناراً الصدقة وكانت تفرق على من في قصر الرصافة من الحرم المحتاجات.

٣٣ ١/٣ دينار وتجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالاً ونساء.

١٦ ٢/٣ دينار وتجري على أولاد الواثق والمهتدي بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.

٣٦ ١/٣ دينار أولاد الناصر ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد بمدينة السلام.

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق جمهور بني هاشم من العباسيين والطالبين.

٣٣ ١/٣ دينار أرزاق عبيد الله بن سليمان وابنه القاسم.

١٥٦ ١/٣ دينار أرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والأعوان وسائر من في الدواوين، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد، سوى كتاب دواوين

---

(١) من أنواع من السفن.

الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم وأعوانهم، وخزان بيت المال، فإنهم يأخذون أرزاقهم بما يوفوونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم.

٣/١٦٢ دينار جاري إسحاق بن إبراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب، وأولادهما وعشرة من نفر من الفقهاء.

٣/٣٢ دينار جاري المؤذنين في المسجدين الجامعين والمكبرين والقوام والأئمة والبوابين وثمن الزيت للمصابيح والحصر والماء، وثمن الستائر في الصيف، والطريق والعمارة في شهر رمضان.

٥ دنانير نفقات السجون وثمن أقوات المسجونين وشربهم.

١٠ دنانير نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما وأرزاق الجسارين.

١٥ ديناراً نفقات البيمارستان الصاعدي، وأرزاق المتطببين والكحالين ومن يخدم المغلوبين على عقولهم والبوابين والخبازين وغيرهم وثمان الطعام والأدوية والأشربة.

وليس أدله على ضخامة الثروة في هذا العصر من هذا البيان الطويل الذي ذكره مسكويه[1] عن نفقات الخليفة المقتدر الذي عرف بالتبذير. ومن هذا البيان نقف على أنه «أتلف نيفاً وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه في موضعه وأخرجه في وجوهه. وهذا أكبر مما جمعه الرشيد وخلفه. ولم يكن في ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد: فإن القاسم بن عبيد الله قال للمعتضد وقد سأله عن مقدار ما خلفه واحد واحد من ولد العباس من المال، «إنه لم يكن فيهم من خلف أكثر مما خلفه هارون الرشيد، فإنه خلف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار».

ومن أهم نفقات الدولة العباسية النفقات المخصصة للحج ونفقات الغزوات لمحاربة الأعداء من القرامطة والفاطميين والبيزنطيين وغيرهم مما يبذل لفداء أسرى المسلمين. وما يصرف على سفراء الملوك والأمراء عند استقبالهم وتوديعهم وتزويدهم بالهدايا والتحف أحياناً، وكل ما يتعلق بنفقات دار الخلافة»[2].

---

(١) تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٣٨.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ص ٢٠٢.

(ب) في مصر:

قلد الخليفة المتوكل خراج مصر أحمد بن المدبر الذي لجأ إلى القسوة في جباية الخراج، فزاد الضرائب وحجر على النطرون بعد أن كان مباحاً، وفرض على الكلأ المباح ضريبة سميت «مال المراعي»، كما قرر على ما يصاد في البحر والنيل والبحيرات والبرك ضريبة أسماها (مال المصايد). وكان مال الضرائب ينقسم في ذلك الوقت قسمين: خراجي وهلالي.

١ ـ **فالخراجي**: ما يؤخذ على الأرض التي تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج.

٢ ـ **والهلالي**: ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصاد من السمك. وكان الهلالي يعرف في زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون.

وكان ابن المدبر يجمع الخراج ويرسل منه الجزية إلى دار الخلافة، ويتصرف فيما بقي تصرُّفاً لا يتفق ومصلحة البلاد، مما أدى إلى تأخرها، ونقص خراجها إلى ٨٠٠,٠٠٠ دينار، مع أنه بلغ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد عمرو بن العاص، و ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبلغ في عهد ابن طولون ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار.

وقد تولى جباية الخراج في مصر طوال عهد الدولة الإخشيدية أسرة المادرائيين الذين اتسعت سلطتهم في هذه البلاد. ومن مشهوري هذه الأسرة أبو بكر محمد بن علي المادرائي الذي قدم مصر في سنة ٢٧٢ هـ، وبقي فيها إلى أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ. فعاد معه إلى بغداد، ثم عاد إلى مصر بصحبة الجند الذين بعث بهم الخليفة العباسي المقتدر لقتال الفاطميين حين غزوا هذه البلاد بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي وأبي القاسم بن عبيد الله المهدي.

وقد ذكر المقريزي[1] أن خراج مصر بلغ في عهد الإخشيد ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار، سوى ضياعه التي كانت ملكاً له، وأن هذا الوالي كان أول من عين رواتب لمستحقي الصدقة. وبلغت هذه الرواتب في عهد كافور الإخشيد ٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، لأرباب

---

(١) خطط جـ ١ ص ٩٩.

النعم والمستورين وأجناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين في الأعمال».

وقد بذل كافور الإخشيد جهده في تنمية موارد الدولة، حتى زاد خراج مصر في عهده على ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة. ولم ينقش اسمه على السكة. بل اكتفى بنقش اسم الخليفة العباسي وحده.

ولما فتح الفاطميون مصر، أقر جوهر علي بن يحيى بن العرمرم على جباية الخراج، ولكنه لم يلبث أن أشرك معه رجاء بن صولاب، وحل محلهما في الإشراف على جباية الخراج يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن. وجعلت جباية الخراج قسمين: أسند أحدهما إلى علي بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله، وأسند الثاني إلى الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري.

وقد ذكر المقريزي[1] أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية جوهر ٣,٤٠٠,٠٠٠ دينار بعد أن انحط كثيراً في أواخر عهد كافور الإخشيد.

ولما جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٢ هـ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد، وعمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها. فزادت الضرائب بفضل هذه السياسة المالية الرشيدة التي قضت بفحص الشكايات، وبفضل ما سلكته الدولة من حزم في تنفيذ هذا النظام الجديد. وقد ذكر ابن ميسر[2] أن الضرائب التي تجمع من الفسطاط كانت تتراوح بين ٥٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم، ومن تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم. ويغلب على الظن أن ابن ميسر أخطأ في بيان هذه الضرائب، فذكر لفظ دنانير بدل دراهم. وقد بلغ خراج الدولة الفاطمية في عهد وزارة الحسن بن علي اليازوري ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة.

وكان النظام المالي في الأندلس يدور حول هذه الأمور الثلاثة وهي: الخزانة العامة، وإدارة بيت المال، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) تاريخ مصر ص ٤٦.

أما الخزانة العامة فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى «خازن المال». ومقر هذه الخزانة القصر، وفيها تودع الأموال التي تجبى من المدن والقرى. ومن أهمها: أموال التركات التي يموت عنها أصحابها دون أن يتركوا وارثاً، والضرائب المفروضة على الأسواق، والرسوم الجمركية التي تفرض على السفن، والخراج، والجزية، والأعشار. وقد قيل إن عبدالرحمن الناصر خلف في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف. ولا ندري إذا كان هذا الرقم بالدينار أو بالدرهم. ويغلب على الظن أنه بالدراهم لأنه إذا حسب دنانير لتجاوز ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وفي هذا شيء كثير من المبالغة. وقد ذكر المقري[١] الذي عزا ذلك إلى ابن خلدون، أن الناصر «كان يقسم الجباية أثلاثاً: ثلثاً للجند، وثلثاً للبناء، وثلثاً مدخراً. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار. ومن السوق والمستخلص[٢] سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الأموال العظيمة فلا يحصيها ديوان».

وذكر ابن حوقل[٣] أن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يوفر حتى سنة ٣٤٠ هـ ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع أن يتوفر عنده مثل هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ)[٤]:

أما ما يطلق عليه اسم بيت المال في الأندلس فكان يقتصر على ما يرد من الأحباس أو الأوقاف. وكان مقره المسجد الكبير بقرطبة، ويقوم هذا الديوان على حفظ المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد، وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة، كما يقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن ينوبون عنه تحت إشراف الخليفة. ويشبه من هذه الناحية بعض دواوين وزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية الآن.

وأما موارد الخليفة الخاصة، فكان يشرف عليها موظف يعرف «بصاحب الدية» كما

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٩.
(٢) الضرائب التي تجبى على التجارة.
(٣) المسالك والممالك ص ٧٧.
(٤) راجع ما ذكرناه عن عمدة الدولة أبي تغلب الغضنفر في هذا الكتاب ص ١١٨ - ١١٩.

يشرف هذا الموظف على أراضي الأمير أو الخليفة، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين على أن يأخذوا جزءاً قليلاً من المحاصيل لأنفسهم.

٥ ـ النظام القضائي

(أ) القضاء:

١ ـ في الدولة العباسية:

تطور القضاء في العصر العباسي الثاني، فتأثر بالسياسة، وأصبح الخلفاء يتدخلون في القضاء، حتى حملوا القضاة في كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم.

وكثيراً ما اعتذر القضاة عن قبول ذلك المنصب خشية تدخل الخلفاء في أحكامهم القضائية. فقد قيل إن أبا بكر الرازي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ اعتذر عن قبول منصب قاضي القضاة بعد أن طلب منه ذلك مراراً. وقال ابن الأثير[1] في حوادث سنة ٣٩٩ هـ. «وفيها صرف أبو عمر بن عبد الواحد الهاشمي عن قضاء البصرة، وكان قد علا إسناده في رواية السنن لأبي داود السجستاني، ومن طريقه سمعناه. وولي القضاء بعده أبو الحسن بن أبي الشوارب، فقال العصفري الشاعر:

عندي حديثٌ طريفٌ بمثله يُتَغنَّى
من قاضِيَين يُعَزَّى هذا وهذا يُهنَّا
فذا يقول كرهنا وذا يقول استرحنا
ويكذبان ونَهْذي فمن يُصَدِّقُ منا؟»

كما ضعفت روح الاجتهاد في هذا العصر بسبب ظهور المذاهب الأربعة، وأصبح لزاماً على القاضي أن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب واختلف القضاء في الولايات باختلاف هذه المذاهب، وأصبح المذهب القضائي الشائع في العراق مذهب أبي حنيفة النعمان، وفي الشام والمغرب والأندلس كان القضاة يصدرون أحكامهم وفق مذهب الإمام مالك، وفي مصر وفق مذهب الإمام الشافعي[2].

(١) جـ ٩ ص ٧٩.
(٢) المقريزي: خطط ج ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤

وإذا تنازع متخاصمان على غير المذهب السائد في بلد من البلاد، أناب القاضي عنه من القضاة من يدين بعقائد مذهب المتخاصمين. واستمرت هذه المذاهب الأربعة حتى اليوم مصدر التشريع الإسلامي، ومن ثم أطلق على العصر العباسي «عصر أئمة المذاهب»، لأنه وضعت فيه أصول الفقه الإسلامي.

وهناك مذاهب أخرى: كمذهب الزيدية في اليمن، وهم أصحاب زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي، ويقولون بضرورة توافر الاجتهاد في الأئمة، ومذهب الإمامية الاثني عشرية في فارس والعراق، ومذهب الإمامية السبعية أو الإسماعيلية الذين ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويقولون بضرورة اجتهاد أئمتهم في الفقه، كما يستمدون مذهبهم من الكتاب والسنة وفتاوى أئمتهم. ومن المذاهب التي انقرضت: مذهب الخوارج ومذهب المرجئة، ومذهب الاعتزال، ومذهب محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠، وقد أخذ عن مذهب الإمام الشافعي، وكان يقول بالرأي، فكرهه الحنابلة.

وقد جمع الحديث النبوي في ستة مصنفات، أجمع المسلمون على أنها أصح كتب السنة وأصحابها هم، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ، وأبو عبد الله محمد بن عيسى السلمي الترمذي المتوفى سنة ٢٧٣ هـ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ.

على أن رغبة الناس في التقليد ظهرت بظهور أبي الحسن الأشعري وتفكيره في الرجوع إلى مذهب أهل السنة. ويجب أن لا يعرف عن أذهاننا أن مذاهب السنة الأربعة كانت مصدر التشريع في هذا العصر، وأنه لم يتقلد القضاء إلا السنيون، بدليل ما ذكره السيوطي[1] أن بهاء الدولة البويهي (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) لما قلد الشريف أبا الحسين بن موسى العلوي قضاء القضاة والحج والمظالم، لم يوافق الخليفة القادر على هذا التقليد، لأن هذا الشريف كان إمامياً اثنَيْ عشرياً.

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٤.

وكان القضاة في الدولة العباسية ينوبون عن قاضي القضاة[١] وهو أشبه بوزير العدل الآن، ويقيم في حاضرة الدولة. وكان القاضي أبو يوسف صاحب كتاب «الخراج» أول من تلقب بهذا اللقب في عهد هارون الرشيد، واستمر هذا في العصر العباسي الثاني. ويقول السيوطي إن سلطة القاضي اتسعت حتى أصبح ينظر في القضايا المدنية وفي الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء، وكثيراً ما تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال[٢].

وكان لكل ولاية من الولايات الإسلامية في بادىء الأمر قاض، وباتساع الدولة العباسية أصبح لكل من هذه الولايات قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وينظر كل منهم فيما يقوم من النزاع بين من يدينون بعقائد مذهبه.

وكان القاضي يجلس في أول الأمر في المسجد، ثم وجد المسلمون أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله، فمنع الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) القضاة من الجلوس في المساجد. وكان بعض القضاة يقضي بين الناس في داره.

وكان لقاضي قضاة بغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة. ومن أشهر موظفي هذا الديوان الكاتب ويتقاضى ٣٠٠ درهماً في الشهر، والحاجب ويتقاضى ١٥٠ درهماً، وعارض الأحكام ويتقاضى ١٠٠ درهم، وخازن ديوان الحكم وأعوانه ويتقاضون ٦٠٠ درهم[٣]. كما اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود، فإن كان الشاهد معروفاً بالسلامة ولم يعرف عنه ما يجرحه قبل القاضي شهادته، وإن كان غير معروف بها لم تقبل شهادته، وإن كان مجهولاً سئل عنه جيرانه، ومن ثم وجدت جماعة من الشهود عرفوا بالشهود الدائمين أو المعدلين. وكان القاضي يمتاز باستقلال الرأي، ولا يقبل الشفاعات أو الوساطات، حتى إن قاضي جيش عضد الدولة شفع في بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله، فقال له عضد الدولة هذه العبارة التي تبين لنا مدى احترام رأي القاضي وعدم تدخل أولي الأمر في أعماله: «ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم. وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضي، وليس لنا ولا لك الكلام فيه».

---

(١) كان قاضي القضاة يسمى أيضاً «أقضى القضاة». راجع هذا الكتاب ص ٨٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

وكان القاضي يرتدي السواد شعار العباسيين «ويعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة»[١]. وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثالث الهجري خاصة هي التي تميز القضاة وتلبس مع الطيلسان[٢].

ويحدثنا السيوطي[٣] عند كلامه عن حوادث سنة ٣٥٩ هـ عن تولية ابن أبي الشوارب منصب القضاء فيقول: «وركب بالخلع من دار معز الدولة، وبين يديه الدبادب والبوقات وفي خدمته الجيش».

وعلى أن القضاء قد تطرق إليه بعض الفساد، وأصبح من يرشحون أنفسهم لتقلد هذا المنصب الخطير يتعهدون بتقديم مبلغ معين من المال يؤدونه في كل سنة، حتى إن ابن أبي الشوارب «شرط على نفسه أن يحمل في كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك سجلاً»[٤]. ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضي وأمر بعدم دخوله عليه. ويقول ابن الأثير[٥] في ابن أبي الشوارب: «وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيام معز الدولة، ولم يسمع بذلك قبله، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء. ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد».

بيد أن هذا النقص لم يكن شائعاً، فإننا نجد كثيراً من القضاة ينزهون أنفسهم عن هذه العيوب، حتى إنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد، وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم. ويحدثنا السيوطي[٦] أن الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) وجه «إلى القاضي أبي حازم كتاباً يقول فيه: إن لي على فلان مالاً، وقد بلغني أن غرماءه أثبتوا عندك، وقد قسطت لهم من ماله، فاجعلنا كأحدهم، فقال أبو حازم: قل له: يا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ذاكر لما قال لي وقت قلدني، إنه أخرج الأمر من عنقه وجعله في عنقي، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لمدع إلا ببينة. فرجع إليه فأخبره فقال: قل له فلان وفلان يشهدان ـ يعني رجلين جليلين، فقال: يشهدان عندي وأسأل عنهما، فإن زكيا قبلت شهادتهما، وإلا أمضيت ما قد ثبت عندي، فامتنع أولئك من الشهادة فزعاً، ولم يدفع إلى المعتضد شيئاً».

---

(١) الكندي: كتاب القضاة ص ٣٧٨.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٧٣.
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦.
(٥) جـ ٨ ص ١٩٣.
(٦) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

وكـذلك ذكـر السيوطي[١] أن الخليفـة المطيـع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ). «قلد القضاء أبـا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمنع، وشرط لنفسـه شروطـاً منها: ألا يـرتزق على القضاء، ولا يخلع عليه، ولا يشفع إليه فما يخالف الشرع، وقرر لكاتبه في كل شهر ثلثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسين، وللعارض على بابه مائة، ولخازن ديـوان الحكم والأعوان ستمائة، وكتب له عهد صورته: هذا ما عهد عبد الله الفضل المطيـع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي. حين دعاه إلى ما يتولاه من القضاء بين أهل مدينة السلام مدينة المنصور، والمدينة الشرقية من الجانب الشرقي والجانب الغربي، والكوفـة وسقي الفرات وواسط وكرخي، وطريق الفرات ودجلة، وطريق خـراسان وحلوان وقـرميسين، وديار مضـر وديـار ربيعة وديـار بكـر، والمـوصـل والحـرمين واليمن ودمشق وحمص، وجنـد قنسـرين والعواصم، ومصر والإسكندرية، وجند فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها، وما يجري من ذلك من الإشراف على من يختاره من العباسيين بالكوفة وسقي الفرات وأعمال ذلك وما قلده إياه من قضاء القضاة، وتصفح أعمال الحكام، والاستشراف على ما يجري عليه أمر الأحكام من سائر النواحي والأمصار التي تشتمل عليه المملكة وتنتهي إليها الدعوة، وإقرار من يجد هديه وطريقه. والاستبدال بمن يذم شيمته وسجيته احتياطاً للخاصة والعامة وجنوا على الملة والذمة عن علم بأنه المقـدم في بيته وشـرفه المبـرز في عفافتـه، الزكي في دينـه وأمانتـه، الموصوف في ورعـه ونزاهته، المشار إليه بالعلم والحجا، المجمع عليه في العلم والنهي، البعيد من الأدناس، اللابس من التقى أجمل اللباس، التقي الحبيب المحبور بصفاء الغيب، العالم بمصالح الدنيـا، العارف بمـا يفسد سـلامة العقبي، أمـره بتقوى الله، فـإنها الجنـة الواقية، وليجعل كتاب الله في كل ما يعمل فيه رويته، ويرتب عليه حكمه وقضيتـه، إمامـه الذي يفزع إليه، وعماده الذي يعتمد عليه، وأن يتخذ سنة رسول الله ﷺ مناراً يقصده ومثالاً يتبعه، وأن يراعي بالإجماع، وأن يقتدي بالأئمة الراشدين، وأن يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع، وأن يحضر مجلسه من يستظهر بعلمه ورأيه وأن يسـوي بين الخصمين إذا تقدما إليه في لحظه ولفظه[٢]، ويوفي كل منهما من إنصافه وعدله، حتى يأمن الضعيف حيفه وييأس القوي من ميله. وأمر أن يشرف على أعوانه وأصحابه ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه، إشرافاً يمنع من التخطي إلى السيرة المحظورة، ويدفع عن الإشفاق إلى المكاسب المحجورة».

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .
(٢) المراد أن يعدل القاضي بين الخصمين حتى في النظرة واللفظة، يفضل أحدهما على الآخر.

٢ ـ في مصر:

اكتسب قضاة مصر في العصر العباسي الأول خبرة واسعة بسبب اشتغالهم بالفقه الإسلامي واشتهروا بالاستقامة. وكان القاضي في ذلك العصر غير قابل للعزل كغيره من موظفي الدولة. وقد بلغ من محبة الناس للقاضي أن أصبح الولاة في مصر يخشون عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور. ولا غرو فإنه لم يعد للوالي في العصر العباسي سلطة عزل القضاة بل صارت تصدر المراسيم بتعيينهم من بغداد مباشرة. وكان تحديد رواتبهم ودفعها من اختصاص الخليفة نفسه.

ولم يكن القضاة في عهد الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ) والإخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) تابعين لمذهب واحد، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي إليه، واشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة.

وقد نبغ في عهد الطولونيين القاضي بكار بن قتيبة، وكان من أعلم القضاة بالفقه الإسلامي.

وكان أبو الطاهر قاضي القضاة في مصر وقت الفتح الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ. وقد تولى هذا المنصب منذ شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ، فرأى جوهر الصقلي أن عزله وإحلال قاض من الشيعة محله قد يثير غضب المصريين، فأقره في منصبه لغرض سياسي فحسب، وعمل في الوقت نفسه على الحد من نفوذه.

وفي سنة ٣٦٢ هـ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة، هو علي بن أبي حنيفة النعمان المغربي، فقاسم أبا الطاهر القضاء. فكان ابن النعمان يجلس للقضاء بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ويجلس أبو الطاهر بالجامع الأزهر في القاهرة. واستمرت الحال على ذلك حتى استقل علي بن النعمان بالقضاء في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه كما قيل. وقرىء على منبر جامع عمرو وسجل تقليد علي بن النعمان منصب القضاء في عهد الخليفة العزيز. وظل أولاد النعمان يتقلدون القضاء حتى سنة ٣٩٨ هـ، فتقلد الحسين بن علي بن النعمان هذا المنصب في مصر وما كان يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ، وأسندت مقاليد الدعوة الفاطمية إلى قاضي القضاة للمرة الأولى: فغدا يطلق عليه قاضي القضاة وداعي الدعاة».

على أن بعض السنيين كانوا يتقلدون القضاء أحياناً، إذ أن الفاطميين لم يسيروا دائماً

على قاعدة إسناد القضاء للمتشيعين خاصة. فقد أسند الحاكم القضاء لرجل من أهل السنة، وهو أبو العباس بن العوام الحنبلي المذهب، الذي بقي في منصبه حتى مات في عهد الخليفة الظاهر. وقد تقلد ابن العوام وخلع عليه «وأضيف إليه في الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان، ما عدا فلسطين، فإن الحاكم كان ولاها أبا طالب ابن بنت الزيدي الحسيني، وجعل لأبي العباس النظر في المعيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع».

٣ ـ في الأندلس:

كان للقضاء مركز ممتاز في الأندلس كما كان في غيرها من البلاد الإسلامية، وكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء لتعلق هذه الوظيفة بالدين[١]. وكان قاضي القضاة يسمى «قاضي الجماعة» لأنه يكون في حاضرة الدولة. ويشترط في القاضي أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة، ولا يشترط فيه أن يكون عربياً خالصاً. وطالما تقلد هذا المنصب الموالي والمولدون والبربر. وأحسن مثل لذلك يحيى بن يحيى الليثي وكان من أصل بربري. ويختار القاضي غالباً من قضاة الأقاليم المشهود لهم بالتفوق في القضاء، أو ممن تولوا بعض مناصب الدولة الهامة[٢].

وكان قاضي الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية في الأندلس ويعين من قبل الأمير أو الخليفة، وينوب عنه في الأقاليم قضاة يسمى كل منهم «مسدد خاصة».

وكان القرآن والسنة مصدر التشريع في الأندلس، ويسير القضاة في المغرب والأندلس حتى اليوم على وفق مذهب الإمام مالك، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة.

وقد سار الأمويون في الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الجيوش نيابة عنهم. وكانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الصوائف. وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وكذلك منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر.

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه.

ومن اختصاصات القاضي الإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية[١]، والإشراف على الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء، والدعاء في صلاة الاستسقاء[٢]. وكان قاضي القضاة يسمى «صاحب الصلاة» حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً للصلاة وشخصاً آخر للقضاء. وكان قضاة الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم[٣].

(ب) المظالم:

كان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر، ويسمى رئيس هذا الديوان «صاحب المظالم»، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي. يقول ابن خلدون[٤] عن المظالم: «وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه. ويكون نظره في البينات (الحجج) والتقرير[٥] واعتماد الأمارات والقرائن[٦] وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي».

وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما. ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم، نظر فيها طوال أيام الأسبوع. وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد.

---

(١) أنشىء هذا السجل في سنة ٢٩١، وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه، وجعل من هذه القضايا سجلاً علماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس.

(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً: ولذلك كان يسمى «صاحب الصلاة»، واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد الناصر للصلاة شخصاً معيناً، ولقضاة القضاة شخصاً آخر.

(٣) الخشني: كتاب القضاة بقرطبة (مدريد١٩٤٤) ص ٩٦، ١٣٨.

(٤) مقدمة ص ١٩٣.

(٥) التقرير استقصاء البحث من الخصوم في المسائل حتى يقروا بما يوضح وجهة نظر القاضي.

(٦) يعني الأخذ بدلالة القرائن والعلامات التي يتبينها القاضي من حال الخصمين عند فقد الأدلة أو الشهود.

وقد حرض بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر في المظالم. فقد ذكر المسعودي[١] أن الخليفة المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) بنى قبة لها أربعة أبواب وسماها «قبة المظالم»، كان يجلس فيها للعام والخاص. ويقول المسعودي[٢] في مكان آخر: «وذكر صالح بن علي الهاشمي قال: حضرت يوماً من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته».

وقد تطور نظام النظر في المظالم، فأصبح الوزراء يجلسون للنظر فيها، ويجلس أكثر الكتّاب في مجالسهم، بل تعدى الأمر إلى جلوس بعض النساء للنظر في المظالم. فقد تمتعت «السيدة» أم الخليفة المقتدر بنفوذ كبير، واتسعت سلطاتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم في سنة ٣٠٦ هـ، فكانت تجلس في مكان بنته «السيدة» في الرصافة «وتنظر في رقاع الناس كل جمعة. فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان، وتبرز التواقيع وعليها خطها»[٣].

ولم تكن محكمة المظالم تَنظر في قضايا الأفراد وحدها، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل في شكاوى الشعب عامة.

وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضي في أحكامه. وقد بين الماوردي[٤] الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء. ومن أهم هذه الفروق أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة، يكف الخصوم عن التجاحد[٥]، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا أعضلوا[٦] إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحاً عن تراض[٧]. وليس للقاضي ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وأنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم. ومن عادة القضاء تكليف المدعي أن يحضر بينة، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله.

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣١.
(٢) المسعودي جـ ٢ ص ٤٣٦.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.
(٤) الأحكام السلطانية ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٥) المبالغة في إنكار الحق من كلا الخصمين.
(٦) استعصى التوفيق بينهم.
(٧) يعني أن القاضي إذا لم يتبين رجاحة حجج أحد الخصمين وأشكل الأمر عليه أحال الخصمين على لجنة من ديوان المظالم أو نحوها للتوفيق بينهما صلحاً.

(جـ) الحسبة:

كانت سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم. فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب. وكان القضاء والحسبة يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين العملين من التباين. فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل[١].

وكان عمر بن الخطاب أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب بنفسه[٢]، ولو أن هذا اللفظ لم يستعمل إلا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ). وقد أجمل ابن خلدون[٣] أعمال المحتسب في هذه العبارة فقال:

«ويبحث عن المنكرات، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين[٤]. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء[٥]، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه. وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكايل والموازين.

---

(١) راجع الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦١ ـ ٧٢.

(٢) روى ابن تيمية «الحسبة في الإسلام» (القاهرة ١٣٥٩، ص ٣٣) أن عمر بن الخطاب عين عبد الملك بن عتبة عاملاً على السوق، وأن عمر منع الشعراء من التشبيب بالنساء (الأغاني جـ ٤ ص ٣٥٦) وكان يؤدب من تعرض لهن بعشرين سوطاً، ومنع أن يجتمع الصبيان بمن يتهم بالفاحشة (ابن تيمية، المصدر نفسه ص ٩٣).

(٣) مقدمة ص ١٩٦.

(٤) لم يقتصر زجر المحتسب هنا على المعلمين إذا ضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً، بل كان له أن يزجر العالم إذا خالف ما أجمع عليه الفقهاء في تفسير القرآن أو انفرد برواية حديث ينطوي على الابتداع بقصد افساد العقول، فإذا لم يكف عن ذلك فله أن ينكر عليه ويحول دون تكرار ما حدث إذا ما أجمع علماء هذا العصر على إفكاره وابتداعه (الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٠).

(٥) أي طلب رد عدوان الغير.

وله أيضاً حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنقاذ حكم. وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء. وقد كان في كثير من الدول الإسلامية مثال العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره».

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين، وكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع. ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة، ويمنعون معلمي الكتاتيب من ضرب الصغار ضرباً مبرحاً. وكذلك كان المحتسب يجلس للفصل بين الخصوم في جامعي عمرو والأزهر واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة بتنفيذ أحكامه، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً[١].

أما في الأندلس فكان يتولى الحسبة في كل مدينة موظف يسمى المحتسب أو صاحب السوق، لأن معظم عمله متعلق بالإشراف على أهل الأسواق. وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من المشهود لهم بالعلم والمعرفة والفطنة، ويختار من بين القضاة، لأن عمله مرتبط بالقضاء. وقد حدد المقري[٢] سلطة المحتسب في الأندلس، ومنه يتبين أن هذا النظام بلغ شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن أثمان الحاجيات كانت محددة، وإن الإشراف على الباعة بلغ مبلغاً كبيراً، وإن المحتسبين كان «لهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما نتدارس أحكام الفقه، لأنها عندهم تدخل في جميع البياعات»[٣].

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقضي به الضرورة في المعاملات هناك، بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر طوال العصور الوسطى. وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً ـ أقروا المحتسب في عمله وأصبحوا يُطلقون عليه Almotacen، وهو الوالي الذي

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣.

(٣) ورد في الأصل المتاعات، ولعلها محرفة عما أثبتناه.

يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمكاييل، أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة من استمرارها في المدن المغربية حتى اليوم(١).

رواتب القضاة:

كان القضاء من أهم مناصب الدولة في هذا العصر، ولذلك رفع العباسيون رواتب القضاة حتى لا يتطلعوا إلى الرشوة التي يجب أن يتنزه عنها القاضي. فلما تولى قضاء مصر عبد الله بن طاهر، قلد عيسى بن المنكدر القضاء في سنة ٢١٢ هـ وأجرى عليه سبعة دنانير في كل يوم. وفي عهد أحمد بن طولون كان القاضي بكار بن قتيبة يتقاضى ألف دينار في الشهر. وذكر القلقشندي(٢) أن راتب قاضي القضاة بلغ مائة دينار في الشهر عدا المخصصات الأخرى. وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق، فأمر بأن يضاعف رزق الحسين بن علي بن النعمان وصلاته وإقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية.

وقد تقلد علي بن المحسن التنوخي المتوفى سنة ٤٤٧ هـ القضاء في عدة نواح، وبلغ دخله من القضاء ودار الضرب التي كان يتولاها مع القضاء ستين ديناراً في الشهر، مما يدلنا على أن راتب القاضي أخذ في العصر العباسي الثاني يقل شيئاً فشيئاً، حتى لقد اشترط على بعض القضاة أحياناً أن لا يأخذوا راتباً عن قيامهم بأعمال هذا المنصب.

وبعد أن كان الالتزام مقصوراً على الخراج، بمعنى أن تعهد الدولة إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغاً معيناً، تعدى هذا النظام إلى القضاء فأصبح القاضي يلتزم القضاء على أن يؤدي لبيت المال مبلغاً من المال مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠,٠٠٠ درهم في السنة عن قضاء بغداد(٣).

---

(١) Provencal, L'Espagne musulmane, tome III, pp. 148 - 150.

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٦.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٦.

الباب الثامن

الحالة الاقتصادية

١ ـ الزراعة

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب[١] أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها أثر كبير في إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا في البحث النظري، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات.

ولما كانت الزراعة تعتمد على الري، عني العباسيون بتنظيم أساليبه، وجعل الماء مباحاً للجميع. ولذلك عملوا على تنظيمه في مصر والعراق واليمن وشمال شرقي فارس وبلاد ما وراء النهر. وبلغ هذا النظام شأواً بعيداً من الدقة، حتى إن الأوربيين أدخلوا كثيراً من هذه النظم في بلادهم. وقد عنيت الدولة العباسية بصيانة السدود والترع، وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين، ومهمتهم المحافظة على هذه السدود خشية انبثاق الماء منها، إذ يكفيه (عمران الخارج على بختيار بن معز الدولة)، «إيقاع ثلمة يسيرة في أحد نواحي السد ثم يحمل الماء فيتولى كفايته[٢] في الهدم والتخريب. فربما أفسد في ساعة أو نهار تعب سنة أو نحوها. وذلك أن هذه السدود تكون من قصب وتراب يقام في وجوه المياه الجارية عند ضعف جريانها وغاية نقصانها. فإذا وردت المياه القوية، ومنعت من حدودها[٣]، كفي معها[٤] اليسير من المعونة[٥] حتى تنبعث ويدفع بعضها بعضاً.

(١) الطبعة السابعة ص ٣٠٥.

(٢) أن يبلغ مداه.

(٣) أي من أنصابها وجريها.

(٤) في الأصل منها ولعلها تحريف عما أثبتناه.

(٥) يعني المعاونة في فتح ثلمة يسيرة يندفع منها الماء.

وربمـا كان سبب انبثـاق ثقب الماء فـأرة، يوسعـه الماء وينتهي فيـه إلى حيث لا حيلة في سده»[١].

وقد جعل العباسيون لماء الري بمرو ديوانـاً أطلقوا عليـه «ديوان المـاء»[٢]، ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل، وتودع في سجلاته مقـادير خراج الأراضي على حسب نوع ريها. فيؤخذ العشر «إذا كان يسقي سيحاً أي تسقيه السماء وإن كان يسقي بغرب[٣] أو دالية أو سانية، ففيه نصف العشر[٤]، كما كانوا يعنون بإقامة مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك في فرض الضرائب.

وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض ويستخدمون لذلك الأبقار، وقد بلغ عدة أبقار الحرث في أدربيل ثمانية لكل محراث، ولكل اثنتين منها قائد. كما كانوا يعنون بتسميد الأرض والمحافظة على ثمارها، حتى جعلوا كثيراً من الأطفال لنظارتها أي حراستهـا وطرد الطيور عنها. وعنوا كذلك بتربية الحيوانات، وخاصة البقر، ثم بتربية الجاموس الذي جلبوه من الهند بعد أن كثرت البطائح والمستنقعات في القرن الرابع الهجري. ثم انتشر استعماله في سائر البلاد الإسلامية. وكانوا يربون البقر لاستعمـال ألبانـه، ويعتقدون أن لحمـه يضر بالصحة، ويفضلون عليه لحم الجاموس. وكانت مصر تجلب كثيراً من حيوانات الذبح من برقة التي تكثر فيها المراعي، ولا تزال كذلك حتى اليـوم. واشتهرت جـزيرة العـرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد، كما اشتهرت بلخ بالجمال ذات السنامين التي تسمى البخاتي. وكانت الخيل تجلب من بلاد العرب، وخاصة إقليم الحسا، إلى بغداد، كما اشتهرت نجد وفارس بتربية الخيل ومصـر بتفريـخ الدجـاج وتربيتـه وحفظ الحمام في أبـراج لوقـايته من الأفاعي[٥].

---

(١) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٤٥.
(٣) الغرب هو الدلو العظيمة يستقي بها على السانية، والسانية البعير يسنى عليه أي يستقي من البئر.
(٤) أبو يوسف كتاب الخراج ص ٦٣.
(٥) آدم متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٩٤.

ومن الطريف أن بعض البلاد كان يعنى بتربية الكلاب وذبحها، فكان القرامطة يربون الكلاب ويسمنونها ثم يذبحونها ويأكلونها(١).

ومن أشهر الحاصلات الزراعية الحنطة، وتزرع في البلاد الكثيرة المياه كالعراق وخوزستان ومصر، والذرة وتكثر في جنوب البلاد الإسلامية كجنوبي بلاد العرب وكرمان والنوبة، والأرز وتكثر زراعته في خوزستان ومازندران. والقلقاس في فلسطين ومصر وآسيا الصغرى، وتكثر زراعة الكروم في العراق واليمن ومصر وبلخ والشام (٢).

ومن الحاصلات الزراعية أيضاً النارنج والأترج الذي يقول المسعودي(٣) إنه حمل من أرض الهند بعد الثلثمائة «للهجرة»، فزرع بعمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية، وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر، وما كان يعهد ولا يعرف، فعدمت منه الروائح الخمرية الطيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند، لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصية البلد». واشتهرت مصر بزراعة الليمون، «وكان من جملة أصناف الليمون بأرض مصر ليمون يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه»(٤). كما اشتهرت مصر بزراعة البطيخ الذي كانت له سوق نافقة، واشتهر فيها نوع من البطيخ يقال له العبدلاوي نسبة إلى عبد الله بن طاهر الذي حكم مصر في عهد الخليفة المأمون العباسي، وهو الذي جلبه من خراسان إليها عند قدومه. وكان تفاح الشام مضرب المثل في الجودة، كما كانت العراق، وخاصة البصرة وكرمان وشمالي إفريقية، تنتج مقادير كبيرة من التمر الذي كان يجفف ويرسل إلى البلاد الأخرى. واشتهرت بلاد الشام وشمالي إفريقية بزراعة الزيتون، واشتهرت نابلس وحلب بصناعة الزيت المستخرج منه(٥). وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والأندلس، ويزرع في بلاد الهند القرنفل والفلفل والصندل والدار صيني وأشجار التوت لتربية دود القز. ويزرع في

---

(١) Nasir - Khusran: Safar Namèh, pp. 22 - 28.

(٢) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة ص ٣٩.

(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ١٧٣.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٩٣.

(٥) راجع الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة ص ٢٦ ـ ٣٢.

أصبهان السفرجل والكمثري والتفاح[١]. ومن أشهر محاصيل مصر في عهد الفاطميين خاصة القمح والشعير والفول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه.

وقد حاول مسلمو المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة: كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت، ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت في بعض جهات الأندلس وصقلية[٢].

واشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة، وبزراعة الفواكه كالبرتقال والكمثري والتفاح والتين والعنب والرمان، والخوخ الذي كانت تكثر زراعته في السهول، والموز وتكثر زراعته في وديان البحر الأبيض المتوسط، كما اشتهرت بزراعة الأرز وقصب السكر والزيتون. واهتم أهل الأندلس بزراعة الكتان والقطن لصناعة الملابس، والتوت لتربية دود القز. وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهر تاجه والوادي الكبير والوادي اليانع وإبرو، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول، واستخدموا هذه المياه في الزراعة التي أحرزوا قصب السبق فيها. ووضع الأمويون تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي. أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها. وأخذه عنهم غيرهم من الأمم.

٢ ـ الصناعة

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها. ومن الصناعات التي ازدهرت في هذا العصر صناعة النسيج: فقد اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته في الفيوم. ومن أشهر مراكز هذه الصناعة في القرن الرابع الهجري إقليم الفيوم ونواحي بحيرة تنيس، وخاصة مدن دمياط وشطا ودبيق التي تنسب إليها الثياب الدبيقية. وتنيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠، ٣٠,٠٠٠ دينار سنوياً.

---

(١) Heyd: Histoire de Commerce, tome I, p.50.

وفي دبيق كانت تصنع الثياب المثقلة والدبيقي المعلم المذهب والعمائم التي يبلغ طول كل عمامة منها مائة ذراع، وفيها رقمات منسوجة بالذهب، وقد بلغت قيمة العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل[١].

واشتهرت مدينة كازرون بفارس بصناعة النسيج حتى سميت دمياط الأعاجم، كما كان لصناعة القطن في شرق البلاد الإسلامية مركز ممتاز في صناعة الكتان، حتى قال الثعالبي إن القطن لخراسان والكتان لمصر. وانتقلت زراعة القطن وصناعته من الهند إلى خراسان وفارس أولاً، ثم انتقلت بعد ذلك بزمن طويل إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية. واشتهرت مدينة كابل في هذا العصر بنسيج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين، كما اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته. وأدخل الحمدانيون هذه الزراعة في بلاد بين النهرين في المغرب والأندلس. ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور حيث رخصت أسعاره عن أسعار نسيج الكتان، حتى إن إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩ ـ ٢٩٥ هـ) منح كل قائد من قواده ثوباً من الكتان هدية قيمة[٢].

وكانت القاهرة في عهد الفاطميين من أهم مراكز الصناعة، فقد بلغ نظام الطراز[٣] مبلغاً كبيراً من الرقي، كما ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية. وتتبين لنا مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات، من وصف الكسوة (بضم الكاف وكسرها) التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة[٤].

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٢٢٦.
ذكر ناصر خسرو Safar Nameh, 139 عند كلامه على الاحتفال بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر الفاطمي أن ثوب الخليفة كان من صنع دبيق، وأن قيمته ألف دينار. كما ذكر أيضاً أن عمامة صاحب المظلة الذي كان يسير إلى جانب الخليفة ويحمل له المظلة كانت مزينة بالأحجار الكريمة، وأن ثوبه من جنس ثوب الخليفة.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) فارسي الأصل معناه التطريز، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشي. ولا يرتدي هذا النوع من الثياب إلا الملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية. وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة، أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط، وعلى النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أي نوع، سواء أكان من الحجارة أم الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار، أو كان محفوراً بالخشب.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٤.

وقد بنى المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، وعني خلفاؤه بصناعة النسيج حيث كانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم.

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر. من ذلك الثياب العتّابية المصنوعة من الحرير، وتنسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد[١]، والخسرواني (أو الخسرواني بفتح الراء)، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس[٢]، والقلموني، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس. وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى حيث أصبح يصنع في دمياط وتنيس خاصة[٣]، والتستري، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر[٤] أشهر مدن خوزستان، والقرقُبي وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ثم أدخلت صناعته إلى مصر، وأصبح يصنع في دمياط وتنيس. واشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً لا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس[٥]، والنصفية وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن.

وقد ذكر المقريزي[٦] أن الخليفة المعز الفاطمي أمر في سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التستري والقوقوبي المنسوج بالذهب، كان مبيناً عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة [٧]. كما ذكر المقريزي[٨] أن الخليفة المستنصر ترك فيما تركه من الكنوز خمسين ألف مقطع من الحرير الخسرواني كان أكثره مذهباً، كما ترك حشية قلمونية بيعت بألفين وأربعمائة دينار[٩].

---

(١) كتاب عتاب ابن حفيد عميرة وإليه ينسب هذا الحي الذي اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب أنظر Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabs.

(٢) Lane: Arabic - English Lexicon.

(٣) ياقوت. معجم البلدان Dozy, Supplément.

(٤) وهي معربة عن ششتر.

(٥) القرقب طائر يرى في الغدر والمستنقعات. أنظر معجم البلدان لياقوت.

(٦) خطط جـ ١ ص ٤١٧.

(٧) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢٢.

(٨) خطط جـ ١ ص ١٦.

(٩) أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

وقد اشتهرت مرو بإقليم خراسان بصناعة الإبريسم، وتفوق أهل أرمينية في صناعة التكك الإبريسمية التي كان ثمن الواحدة منها يتراوح بين دينار وعشرة دنانير.

واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية. وكان للبسط الفارسية التي تصنع في أصبهان خاصة[١] المكانة الأولى منذ عهد بعيد. . . كما اشتهرت صناعة البسط الأرمينية في القرن الرابع الهجري، ومنها انتشرت هذه الصناعة في آسيا الصغرى، حيث أصبح للبسط الأزميرية مكانة ممتازة في أوربا، كما اشتهرت غرناطة بهذه الصناعة وكادت تبذ مدن المشرق في ذلك[٢].

ومما ذكره الجاحظ نرى أن «خير الأكسية من الصوف، المصرية ثم الخوزية (نسبة إلى خوزستان) الفارسية». واشتهرت سابور والكوفة وجور جنوبي فارس بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والنرجس والوسن والزمبق والنارنج. واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والأندلس[٣].

وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني؛ وكان ورق البردي الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني، ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري، واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر. وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس والشام (وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة). وقد قال ابن الفقيه الهمذاني عن شهرة فارس في صناعة الحديد وغيره: لقد ألان الله عز وجل لهؤلاء القوم الحديد وسخره لهم حتى عملوا منه ما أرادوا، فهم أحذق الأمة بالجوامع والأقفال والمرايا وتطبيع السيوف والدروع والجواشن، ولهم الثياب الجبائية والسلينيزية، ولهم الماورد الجوري، والطين السيرافي والأكسية الفسوية، والأدهان السابورية والثياب الكازرونية»[٤].

(١) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٢٢.
(٢) المقري: نفح الطيب ج ١ ص ٩٥.
(٣) ابن حوقل. المسالك والممالك ص ٣١٣.
(٤) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة، ملحق ص ٤١. انظر أيضاً «باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري والأحجار وغير ذلك» (ص ٢٥ ـ ٣٤).

واشتهرت بلاد الأندلس باستخراج المعادن من مناجمها المختلفة، وعلى الأخص الذهب من انمناجم الواقعة على نهر تاجه، والفضة ببعض جهات قرطبة، والحديد من جبال طليطلة، والرصاص من غربي قرطبة، والنحاس بنواحي طليطلة وشمالي الأندلس. وقال المقري إنه كان بالأندلس عدة مقاطع للرخام الأبيض والخمري والأحمر والمجزع. وقد وصفها وصفاً شائقاً وذكر أماكنها. وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الجلود، كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وآلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدروع. وكذلك اشتهرت الأندلس باستخراج الزيت من الزيتون والنبيذ من الكروم. كما مهر أهل هذه البلاد في استخراج العقاقير من النباتات المختلفة التي أخذها عنهم الأوربيون فيما بعد(١).

٣ ـ التجارة

(أ) طرق التجارة:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن عناية خلفاء العصر العباسي الأول لم تقتصر على الزراعة والصناعة، بل إنهم اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة: فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار. وكان لذلك أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية والداخلية، فأصبحت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب البلاد وتمخر عباب البحار، واحتلت تجارة المسلمين في العصر العباسي الثاني المكانة الأولى في التجارة العالمية. وكانت الإسكندرية وبغداد مقياساً لأسعار البضائع العالمية في ذلك الحين. ومن أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب.

أولاً: من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر، ويقوم به غالباً اليهود الذين كانوا من أكبر المنافسين لتجار المسلمين من فارس والعراق. وكان لهم بمدينة أصبهان حي يسمى اليهودية. كما كان معظم تجار مدينة تستر بخوزستان من اليهود الذين كانوا يشرفون أيضاً على تجارة اللؤلؤ الذي يستخرج من خليج فارس(٢). وكان هؤلاء التجار يفدون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسميهم المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٥٦. متز الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٣.

نهر الرون: ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلية، ويجلبون من الغرب الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[١] والفراء والسمور والسيوف. ويبدءون رحلاتهم التجارية من بروفانس التي يسميها العرب «فرنجة». وترسو سفنهم إما عند الفرما ـ وكانت تعد من أهم الموانىء التجارية في ذلك الحين ـ ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم، وهي مدينة السويس الحالية[٢]، أو إلى الإسكندرية التي كانت ملتقى التجارة العالمية، ومنها تنقل إلى الفسطاط أو إلى القاهرة عن طريق النيل. ويقول «هيد»[٣] إن شهرة بغداد طغت على الإسكندرية حيناً من الدهر. إلا أن هذه المدينة ازدهرت من جديد منذ أيام الطولونيين. وكانت هذه السلع تنقل من الفسطاط براً على الدواب إلى القلزم، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين. ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور والدارصيني فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية، ومنها إلى بروفانس. وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية[٤].

ثانياً: ومن أوربا إلى المشرق عن طريق أنطاكية، ويبدأ تجار اليهود الراذانية من بروفانس بحراً إلى أنطاكية، ومنها ينقلون السلع على الدواب إلى الفرات إلى أن يبلغوا بغداد عن طريق هذا النهر وجداوله، ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة[٥] ثم إلى عمان والهند والصين.

ثالثاً: من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين، ثم إلى مرو فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين. ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخز وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعمل. وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ويأخذون منهم الجزية باعتبارهم مسيحيين[٦].

---

(١) الخز اسم دابة ثم أطلق على الثوب المأخوذ من وبرها: والخز الذكر من الأرانب.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٣) Heyd. Histoire de Commerce, tome I.p.41.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٥) بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج العربي ـ أنظر معجم البلدان لياقوت.

(٦) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٤.

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية إعتناق أهل الفلجا الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجري، وجهود السامانيين الذي عملوا على إقرار الأمن في خراسان وبلاد ما وراء النهر، حتى إن قوافل التجار كانت تسير في أمن ودعة. أضف إلى ذلك زواج ولد نصر بن أحمد الساماني من ابنة ملك الصين وما كان لذلك من أثر في رواج التجارة بين الصين وبلاد السامانيين[١].

وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوي (٣٨٨ ـ ٤٢٢ هـ) في بلاد الهند وما كان لها من أثر في رواج التجارة. ويرجع معظم النقود الإسلامية التي اكتشفت في شمالي أوربا إلى القرن الرابع الهجري، وكان أكثرها من نقود السامانيين. ولا غرو فقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالي أوربا وبلاد الشرق.

رابعاً: الطريق البري من أوربا إلى المشرق، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق، مجتازاً بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى عن طريق إفريقية (تونس) حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم يتجه إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز، ثم إلى كرمان والهند والصين[٢].

وكان لهذه الطرق التجارية ورواج التجارة فضل كبير في انتشار الجاليات الإسلامية في البلاد الممتدة إلى الصين وكوريا. فنرى في بلاد الخزر والصين وكوريا وغيرها جاليات إسلامية كبيرة لا تقبل غير حكم المسلمين[٣].

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، أنهم كانوا يلاقون شيئاً كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند، وأن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في هذه البلاد. وفي الوقت الذي أنشأ فيه العرب جاليات عربية على سواحل الهند وفي بعض مدنها، كانت جيوشهم قد جاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) واستولت على بلاد السند. وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت

---

(١) أنظر لفظ الصين في معجم البلدان لياقوت.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

في الملتان والديبل. وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد في ذهابها إلى بلاد الهند والصين، وفي عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد(١).

(ب) أشهر مراكز التجارة:

كان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر وعلى المغرب ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير في رواج التجارة. ومن ثم أصبح العرب وسطاء لنقل التجارة بين الشرق والغرب، وأصبح بعض المدن الساحلية على هذا البحر ذا أهمية خاصة للتجارة. فقد رأينا أهمية أنطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية(٢)، كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب. وغدت الفرما والإسكندرية من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب حيث تنقل منهما التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوربا. وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة التي كانت تكثر فيها السلع الشرقية والغربية في القرن الرابع الهجري، ومن طرابلس نرى سلسلة من المواني التجارية الهامة تمتد حتى المغرب الأقصى. وكانت المهدية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المهدي أكثر هذه المواني عمراناً وازدهاراً لقربها من مدينة القيروان، حتى كانت السفن تفد إليها تباعاً من مصر وسورية محملة ببضائع آسيا(٣). كما قامت علاقات تجارية بين الأندلس وغيرها من البلاد الشرقية حاملة منتجات هذه البلاد.

وكانت أيلة والقلزم وجدة من أهم المواني التجارية على البحر الأحمر. ولا غرو فقد كانت أيلة والقلزم المنفذين الرئيسيين في شمالي البحر الأحمر، وعن طريقهما تنقل السلع من الغرب إلى الشرق وبالعكس. وترجع أهمية جدة إلى أنها محطة الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون إليها عن طريق أيلة والقلزم أو عن طريق عيذاب. كذلك اشتهرت عدن بالتجارة، لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوباً، حتى إن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب ترسو عليها. كذلك كانت البصرة من أهم مراكز التجارة، لأنها «تعد باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من

---

(١) Heyd, tome Ipp. 32 - 33 Arnold, the Preaching of Islam, d. 363 et seq.

(٢) Heyd, tome I. pp.43 - 44.

(٣) Ibid. p.49.

أطراف الدنيا. . . ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى»[١]. وأصبحت بغداد مركز التجارة في العالم الإسلامي حتى كانت هي والإسكندرية ـ كما رأينا ـ يتنافسان الزعامة التجارية ويقرران أسعار السلع في ذلك الحين. وزاد من أهمية بغداد التجارية أنها كانت حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر وملتقى كثير من الطرق التجارية. وترجع شهرة دمشق باعتبارها مركزاً من أهم المراكز التجارية إلى وقوعها على طريق قوافل الحجاج الرئيسي، حتى إن الحجاج كانوا يجتمعون فيها عند ذهابهم إلى مكة لأداء فريضة الحج، وعند عودتهم إليها بعد أداء فريضة، مما ساعد على تدفق السلع إلى أسواقها[٢]. وكان كثير من حجاج المسلمين يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة، فيتقابلون مع المسيحيين وبذلك أصبحت هذه المدينة سوقاً نافقة للتجارة بين الشرق والغرب.

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في أوقات معينة في المدن التجارية الهامة. ومن المدن التي اشتهرت بأسواقها: أصبهان، التي يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين مائتا صراف يجلسون في سوق عرفت بسوق الصرافين[٣]، والبصرة التي يقول فيها ابن الفقيه: «أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري. ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى[٤]، فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً»[٥].

وكانت التجارة تعتمد على إقامة الأسواق، وتقيم كل طائفة من التجار في قسم من أقسام هذه الأسواق، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا في المساء. أما أسواق المدن فكانت تقام في أيام معينة من الأسبوع. وكانت الحوانيت في مصر والشام وفلسطين تمتد على طول الشارع من الجانبين، وخصصت فنادق للتجار الغرباء كانت أشبه بالأسواق الكبيرة. «وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن الفنادق أو القياصر[٦]. وهناك خانات أو مخازن كبرى، كدار البطيخ بالبصرة، حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[٧]. وأما في بلاد المشرق فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد.

---

(١) الجاحظ: كتاب التبصر بالتجارة مقدمة ص ٣.

(٢) Heyd, tome I, p.42.

(٣) Safar Nameh, p. 253

(٤) يقصد أقصى حدود المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً.

(٥) ابن الفقيه: كتاب البلدان ص ٥١.

(٦) من الكلمة اليونانية paodokeion.

(٧) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٧.

ولنأت بمثل عن أسواق المغرب الإسلامي فنذكر أسواق مدينة فاس التي كانت تحيط بجامع القرويين، منها: سوق العدول. وكانت محلاتهم ملاصقة لسوق الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السوق. وبجانب الجامع كثير من المكتبات وفي غربيه دكاكين الأحذية وفي شرقيه سوق النحاسين. وفي مقابل الباب الرئيسي للجامع من ناحية سوق الغرب سوق الفاكهة، ويليه سوق الشماعين فسوق الزهور فسوق الألبان، وإلى الشمال سوق الشراطين الذين يبيعون الحبال الغليظة والرفيعة، فسوق المناطق الجلدية والأحزمة واللجم، فسوق الفخار وسوق المحافظ والحقائب المصنوعة من الجلد الفاخر. ويلي هذا السوق سوق الأمناء أو النقباء، والمحتسب وأعوانه ومحلات الخضر والفواكه والأسماك واللحوم المطبوخة والمشوية والفطائر. وكانت مدينة فاس وغيرها من المدن المغربية ـ ولا تزال ـ تزخر بأسواق الزياتين حيث يباع الزيت والزبد الطازج والزيتون والليمون، وبأسواق الدجاج والصابون والدقيق والدلاء الجلدية وسروج الخيل والرماح والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة والأغطية الصوفية والثياب وغيرها[١].

وكانت العملة المستعملة في الأسواق، العملة الذهبية وهي الدينار، والفضية وهي الدرهم. وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل استيلاء العرب عليها. أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس. إلا أن استعمال الدنانير لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق. ومع ذاك ظل سائر البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم. وكان الدينار يساوي أربعة عشر درهماً في ذلك العصر. ولكن الدينار كان يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد، فتارة يساوي ١٠ دراهم وتارة ١٣ درهماً وتارة أخرى ١٥ درهماً. ومن وسائل التعامل الصك، وهو أشبه بالشيك الآن، والمقايضة، وقد حرم الإسلام التعامل بالربا، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان[٢].

---

(١) Léon L'Africain, Description de L'Afrique, tome I, pp. 193 - 199.

(٢) متز جـ ٢ ص ٣١٦ ـ ٣٢١، ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

الباب التاسع

الثقافة

مراكز الثقافة:

انتشرت الثقافة الإسلامية في هذا العصر انتشاراً يدعو إلى الإعجاب، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية، إلى العربية، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. ولا غرو فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية، وراجت الثقافة، وزخر بلاط هذه الدولة بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم: ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة في بلاط كل من السامانيين والغزنونيين والبويهيين والحمدانيين في الشرق، وفي بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر، وفي بلاط الأمويين في الأندلس.

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية. وخير مثل لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلفها المعتزلة ودعاة الإسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم. وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية، وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر، وخاصة في القرن الرابع الهجري، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن. ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار الدول نتيجة لذلك.

يقول ابن خلدون[١] في الفصل الذي تكلم فيه على «أن العلوم إنما تكثر بحيث يكثر العمران وتعظم الحضارة». «إن تعليم العلم من جملة الصنائع... وإن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت (زادت) أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع. ومن تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي، لفقدان الصنايع في أهل البدو كما قدمناه، ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها. واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في إصلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (زادوا) على المتقدمين وفاقوا المتأخرين. ولما تناقص عمرانها وابذعرّ (تفرق) سكانها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام».

كانت هناك في هذا العصر عدة مراكز للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها:

١ ـ أصبهان أو الري حيث أقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بعد أبي الفتح بن العميد. وكان بلاط بني بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب.

٢ ـ البلاط الساماني في بخارى التي وصفها الثعالبي[٢] في هذه العبارة فقال:

«كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر، حدثني أبو جعفر محمد بن موسى الموسوي قال: اتخذ والدي أبو الحسن دعوة ببخارى في أيام الأمير السعيد (نصر الثاني بن أحمد ٣٠١ ـ ٣٣٠ هـ)، جمع فيها أفاضل غربائها: كأبي الحسن اللحام، وأبي محمد بن مطران، وأبي جعفر بن العباس بن الحسن، وأبي محمد بن أبي الثياب، وأبي النصر الهرثمي، وأبي نصر الظريفي، ورجاء بن الوليد الأصبهاني، وعلي بن هارون الشيباني،

---

(١) مقدمة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٩٥.

وأبي إسحاق الفارسي، وأبي القاسم الدينوري، وأبي علي الزوزني ومن ينخرط في سلكهم. فلما استقر بهم مجلس الأنس، أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة، ويتهادون ريحان المحاضرة، ويفتقون نوافق الأدب[١]، ويتساقطون عقود الدر[٢]، وينفثون في عقد السحر[٣]. فقال لي أبي: يا ابني! هذا يوم مشهود مشهور، فاجعله تاريخاً لاجتماع أعلام الفضل وأفراد الوقت، واذكره بعدي في أعياد الدهر وأعيان العمر، فما أراك ترى على السنين أمثال هؤلاء مجتمعين. فكان الأمر على ما قال ولم تكتحل عيني بمثل ذلك المجتمع».

وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني ـ كما يقول ابن خلكان[٤] عديمة المثل، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته».

٣ ـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين، وقد وصفه الثعالبي (جـ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧) في هذه العبارة فقال: «خاتم الملوك وغرة الزمان، ينبوع العدل والإحسان، ومن جمع الله له إلى غرة الملك بسطة العلم، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم. فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولا تدخل تحت العرف والعادات. وآن لي أن أعمل كتاباً في أخباره وسيره، وذكر خصائصه ومآثره، التي تفرد بها عن ملوك عصره، فإني أتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التي هي أقل محاسنه ومآثره، وأكتب فصولاً من عالي نثره مختتمة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه مما يجري مجرى الأمثال من كلامه».

كان شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت قارين القديم العريق في الشرف، وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان في بلاد فارس. ويطلق مؤرخو العرب على أفراد هذه الأسرة «أهل البيوتات». ويرجع نسبه، على ما ذكره البيروني[٥] إلى قباذ والد أنوشروان أحد ملوك الساسانيين. ويقول ابن اسفنديار في كتابه «تاريخ طبرستان» إن من

---

(١) أي يفتحمون أوعية الأدب التي تشبه نوافح المسك.
(٢) يشبه ما يجري في المجالس من حديث بمنثور الدر يتساقط من العقود.
(٣) يشبه الكلام الجيد في قوة تأثيره بالعقد التي يعقد الساحر وينفث فيها من فمه.
(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٥) الآثار الباقية ص ٣٩.

يرغب في تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ما قاله عنه أبو منصور الثعالبي[١] والعتبي[٢]. وقد جمع اليزدادي أقواله في كتاب أسماه «قرائن شمس المعالي وكلام البلاغة»، وهي تدل على بلاغة قابوس في اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم، حتى إنه كتب في الإسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحاق الصابي. وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مراسلات، كما راسل أبا نصر العتبي مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوي[٣].

٤ ـ بلاط خوارزم في خيوة وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني بن مأمون الذي آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوي.

٥ ـ بلاط السلطان محمود الغزنوي في غزنة، وقد تمتع بشهرة واسعة ونقل كثيراً من المؤلفات إلى غزنة، وكان من أحسن السلاطين ميلاً إلى الأدب، على الرغم من إساءته لرجاله. وقد أرسل إلى مأمون بن مأمون كتاباً مع أحد أشراف دولته، واسمه حسين بن علي بن ميكائيل، يقول فيه: قد علمت أن ببلاط خوارزم شاه كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم في فنه مثل فلان وفلان، وعليك أن ترسلهم إلى بلاطي ليكون لهم شرف المثول بين يدي، ونقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم، وأرجو من أمير خوارزم أن يسدي إلينا هذا الجميل. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد أخرج في قالب الود، انطوى في الوقت نفسه على الترهيب والتحذير، وصيغ في صيغة الأمر كما فهمه مأمون، الذي لم ير بداً من أن يبعث في طلب هؤلاء العلماء وينقل إليهم أوامر السلطان الغزنوي في هذه الكلمات: السلطان قوي، ويملك جيشاً من رجال الهند وخراسان إلى بلاد العراق، ولا أستطيع أن أرد له طلباً أو أخالف له أمراً، فما قولكم؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء إلى هذا الطلب، إلا أن ابن سينا ومسيحي لم يميلا إلى تحقيق هذه الرغبة وعولا على الهرب بعلم مأمون. وهلك مسيحي تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة، ووصل ابن سينا إلى أبيورد بعد أن صادف صعاباً جمة، ثم تابع السير إلى طوس، ثم إلى نيسابور حتى وصل أخيراً إلى جرجان، ونزل ببلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير[٤].

ولكن في العشرين سنة التي تخللت سنتي ٣٨٨ هـ (٩٩٧ م)، ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) تاريخ اليميني جـ ٢ ص ١٤ ـ ١٧، ١٧٢ ـ ١٧٨.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧ ـ ٣٦.

(٤) Browne, vol. II.pp.96 - 97.

مات الصاحب بن عباد سنة ٣٩٨ هـ، وزالت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)، واغتيل شمس المعالي على أيدي الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)؛ كما قتل مأمون الثاني على أيدي الثوار. وضم السلطان محمود الغزنوي بلاده إلى أملاكه في سنة ٤٠٨ (١٠١٧ م) واستحوذ على رجال الأدب في بلاد منافسيه.

٦ ـ بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب خاصة. فقد كانت حضرة سيف الدولة «مقصد الوفود وموسم الأدباء وحلبة الشعراء. ويقال إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر. وكان أديباً شاعراً محبّاً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به. فلو أدرك ابن الرومي زمانه لما احتاج إلى أن يقول:

ذهبَ الذين تَهزهم مُدَّاحهم ... هَزَّ الكُماة عَوَاليَ المُرَّان[1]

٧ ـ بلاد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر: اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين. نذكر منهم على سبيل المثال: القاضي بكار بن قتيبة، وأبا الفيض ذا النون المصري المتصوف، والربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وأول مؤرخي مصر الإسلامية. وبلغ الأدب بمصر في عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم. فقد روى المقريزي (خطط جـ ١ ص ٣٢٦) عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي، الذي قال في كتابه «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة» إنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثني عشر كراسة، يحوي فهرسة شعراء ميدان ابن طولون. فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة، فكم يكون عددهم؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال[2]؟.

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء. وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين

---

(١) المران الرماح والكماة جمع كميّ، وهو البطل اللابس درعه، وعالية الرمح ما يركب فيه السنان، وهي ضد سافلته، والجمع العوالي.
يقول: ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهزّ البطل عالية الرمح حين يختبره، أي من الأريحية. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١.

(٢) حسن إبراهيم حسن. المجمل في التاريخ المصري ص ١٥٢.

والإخشيديين. وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية.

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات. وروى المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٠٧) أنه كان في القصر أربعون خزانة، منها خزانة تحتوي على ٨٠,٠٠٠ مجلد في العلوم القديمة.

وقد أسس الخليفة الحاكم في سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) «دار الحكمة» على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة، وألحق بها مكتبة أطلق عليها «دار العلم»، حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات، «وأجرى هذا الخليفة (ومن جاء بعده من الخلفاء) على موظفيها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية، وجعل فيها ما يحتاج إليه المطالعون والنساخ من الحبر والمحابر والأقلام والورق[1]».

٨ ـ بلاط الأمويين في قرطبة: وكما نافس أمويو الأندلس العباسيين في العراق والفاطميين في المغرب ومصر، نافست قرطبة بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية. ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم.

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات في مختلف العلوم والفنون. فقد بذل الحكم المستنصر، حتى قبل أن يجلس على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ، جهوداً بعيدة الأثر في توجيه الدراسة الأندلسية في ميدان العلوم والطب وكانت المكتبة التي أنشأها في قصره بقرطبة ذات ثراء لا يقارن، إذ كانت تضم بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد في وقت .

---

(١) المقريزي خطط جـ ١ ص ٤٥٨ جـ ٢ ص ٣٤٢. ذكر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن الوزير أبا نصر شابور أردشير ابتاع في سنة ٣٨٢ هـ داراً بالكرخ وعمرها، وسماها دار العلم ووقفها على العلماء وأودع بها كثيراً من الكتب.

لم تعرف فيه الطباعة، وكانت الفهارس التي وضعت لها في غاية الاختصار حتى إنها اكتفت بذكر أسماء الكتب ومؤلفيها فحسب.

وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة وأربعين سجلاً، كل منها يقع في خمسين ورقة.

وكانت هناك شبكة محكمة من الباحثين والسماسرة والناسخين يعملون لحساب ذلك الخليفة الأموي في الأندلس. وقد انتشروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي سعياً وراء المؤلفات.

وكان في قرطبة نفسها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين يعملون على إنماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها.

وقد امتاز الحكم المستنصر بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها[١].

ولا عجب في ذلك، فقد كان الحكم، كما يقول المقري[٢]، غزير العلم واسع الاطلاع ذا معرفة بالأخبار والأنساب، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب[٣].

ولم يكن اقتناء الكتب في الأندلس مقصوراً على الأمراء والخلفاء، بل لقد قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها خليفتهم وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة، واعتبروا ذلك العمل مظهراً من مظاهر المباهاة والافتخار.

كان طلاب العلم في هذا العصر يجوبون البلاد سعياً إلى موارد العلم والعرفان، ثم يصنفون المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف. وقد قيل إن أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الذي ولد بطبرية في سنة ٣٦٠ هـ، اختلف إلى كثير من البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ. كما أثر عن القاضي عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
ذكرنا قول المقري هذا بما رأيناه عياناً في مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية، وكلما رأينا كتاباً نفيساً أو مخطوطاً نادراً منها وجدنا له عليه تعليقاً ممتعاً وإضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء، هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على جلدها وورقها محافظة نادرة.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨.

(٣) بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٠) ص ٣٥ ـ ٣٦.

الناصر الأندلسي أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز واليمن ومصر والشام وأخذ العلم على مائتين وثلاثين شيخاً، ثم عاد إلى الأندلس في سنة ٣٤٥ هـ واتصل بالحكم المستنصر الذي ولاه قضاء استجة ثم قضاء ألمرية، فبقي فيه حتى مات. ومن هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد الإسلامية وتحملوا ألوان المشاق والحرمان في سبيل اكتساب العلم، أبو القاسم بن الدباغ الذي نشأ بقرطبة وتلقى العلم على شيوخها ثم رحل إلى بلاد الشرق الإسلامي سنة ٣٤٥ هـ وتنقل بين مصر والشام يأخذ العلم على كبار علمائها زهاء خمس عشرة سنة، وقيل إن عدد شيوخه بلغ مائتين وستة وثلاثين شيخاً.

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها، وميز علماؤهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم، والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة، أو العلوم الدخيلة.

وتشمل العلوم النقلية: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة، والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم، والموسيقى، والطب، والسحر، والكيمياء، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا.

(أ) العلوم النقلية

١ ـ التفسير:

كان القرآن الكريم، ولا يزال، المصدر الأساسي والمنهل الذي يأخذ عنه المسلمون العلوم المختلفة. وقد اتجه المفسرون في تفسير القرآن اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير المأثور، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة. ومن أشهر مفسري هذا النوع ابن جرير الطبري وابن عطية الأندلسي[1] والقرطبي (ت ٦٧١ هـ)، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل. ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية. ولم يتخذ التفسير هذه الطريقة المنظمة إلا في العصر العباسي الثاني بوجه خاص.

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن عطية (٤٨١ ـ ٥٤٦ هـ).

ويمتاز ابن جرير الطبري في تفسيره الذي يقع في ثلاثين مجلداً، والذي وصفه أبو حامد الأسفراييني بقوله: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصّل كتاب تفسير ابن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيراً، بتحري الدقة في النقل عن الرسول والصحابة والتابعين، ومعارضته أصحاب الرأي لأنهم كثيراً ما يتبعون هواهم. ويقول جولدتسيهر[1] عن كتاب تفسير الطبري إنه دائرة معارف غنية في التفسير بالمأثور. وقد أعطى ـ كذلك ـ في تفسيره لإجماع الأمة سلطاناً كبيراً. وعلى هذا النحو انتظم في تفسيره، آية بعد آية، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم. ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلي، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل، من نقد الرجال جرحاً وتعديلاً. فعندما يظهر أن الحديث غير موثوق به، فإنه يصرح بما يناسبه، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفاً حراً صريحاً. وقال مرة عن مجاهد الذي كان يحب أتباعه، إن رأيه «يخالف إجماع الحجة الذين لا يمكن نسبتهم إلى الكذب». وفي مرة أخرى «وما ذكر هنا عن مجاهد لا معنى له وفساد رأيه لا شك فيه». وعلى هذا النحو كان يعالج أيضاً آراء الضحاك وغيره من الرواة عن ابن عباس.

وكذلك ألف الطبري في علم القراءات كتاباً يقع في ثمانية عشر مجلداً، اشتمل على القراءات المعروفة والشاذة، وتحرى الدقة في نقدها. فكان يجمع الروايات ويمحصها ويفندها ويخرج منها برأي خاص. وإذا لم تمس هذه القراءات المختلفة المعنى بشكل جوهري فضل الأخذ بالقراءة الشائعة، وعارض في شدة القراءات التي لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون حجة في نظره. وكان ابن جرير يهتم عند التفسير بالمعنى الواضح الذي لا يصح العدول عنه. أما إذا كانت هناك مواضع تستدعي تفسيراً آخر، رجع إلى أقوال السلف، أي إلى الصحابة والتابعين وعلماء الأمة. كما اعتمد كثيراً على القصص الإسرائيلية التي كان يستمدها من مراجع يهودية الأصل كالتي أخذت عن أقطاب اليهود من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه. كما اعتمد أيضاً على بعض قصص النصارى التي استمدها من ابن إسحاق عن أبي عتاب، وكان نصرانياً من قبيلة تغلب ثم أسلم. وكان ابن جرير يهتم بالأمور الجدية ويتحاشى الدخول في الجدل الذي لا طائل تحته، فتراه في تفسير قوله تعالى في سورة

---

(١) كتاب المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ٨٦ ـ ٨٧.

يوسف (١٢ : ٢٠) عن بيع إخوة يوسف له بدراهم معدودة يقول «إن الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدّ مبلغ ذلك بوزن أو عدد، ولا وضع عليه دلالة من كتاب ولا خبر من الرسول. . . وليس في العلم بمبلغ ذلك فائدة تقع في دين ولا في الجهل به دخول ضر فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكليف علمه»[١].

ويعتبر ابن جرير أول من اهتم في تفسير القرآن بالرجوع إلى الشعر القديم. ولا غرو فقد كانت قدمه راسخة في علوم اللغة والشعر القديم رسوخاً في الدين والتاريخ. ويقول جولدتسيهر[٢]: «وقد احتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية. فاكتسب الطبري بذلك شهرة عظيمة. وإن ما قدمه في تفسيره القرآن من الناحية اللغوية يعد كنزاً ثميناً في هذه الأبحاث، كما أنه يعد ما في كتابه من الأبحاث النحوية والاختلافات بين المدرستين النحويتين (مدرستي البصرة والكوفة) من أقدم المراجع لهذه المعرفة. وتظهر هذه البحوث اللغوية كأمر غير مقصود لذاته، وإنما كانت عنده وسيلة التفسير بالعلم. وهنا لم ينس أن يقصر استعمال هذه الطريقة على هذا المبدأ، وهو ألا يتناقض ذلك مع ما نعرفه من تفسير مأثور عن أهل العلم من الصحابة والتابعين. فهذه المسائل اللغوية لا تجعله يترك موقفه من تمسكه بالمأثور. وبهذا كله كان تفسير الطبري الكبير لب التفسير بالمأثور والقمة العالية التي وصل إليها هذا المذهب في التفسير».

ولكن الطبري أثار عليه كراهة الحنابلة وبعض السنيين الذين اتهموه بالميل إلى الآراء التي كان السلف يقفون منها موقف الحيطة، كما اتهموه أيضاً بأن آراءه تتفق مع آراء المعتزلة بعض الاتفاق، مع أنه كان يرد على القدرية آراءهم في القدَر، كما جادل علماء الكلام في كثير من المسائل، كرؤية الله رأي العين، كما كان يخالف التفسير التنزيهي عند المعتزلة، أي أن الله سبحانه منزه عن الصفات التي يتصف بها البشر، وتمسك بروايات شيوخ المحدثين القدماء كالبخاري والقشيري وأبي داود السجستاني، ولكن الحنابلة وبعض العامة حنقوا على ابن جرير ورموه بالرفض والإلحاد، وحالوا دون دفنه نهاراً، فدفن ليلاً في داره. وقد عزا ابن الأثير[٣] ذلك إلى «أن الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشغبوا عليه وقالوا ما أرادوا.

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ ـ ٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٢.
(٣) جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.

حسـدوا الفتى إذْ لم ينـالـوا سَعْيَـه ... فـالـنـاسُ أعـداءٌ لـه وخـصـومُ
كضـرائـر الحسنـاءِ قُلْنَ لـوجهـهـا ... حَسَـداً وبُغـضـاً إنـه لـذمـيـمُ

. . . وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني. فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم. وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، والكتاب الذي في التفسير لم يصنف مثله، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة وأخباره من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه. . . وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبري: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبي جعفر، ولقد ظلمته الحنابلة، وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني بعد أن ذكر تصانيفه: وكان أبو جعفر ممن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل في علمه وتبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل، لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد. وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه وفضله وزهده، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه إقبالاً، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة».

أما النوع الثاني من التفسير: وهو التفسير بالرأي، الذي يخالف التفسير بالمأثور باعتماده على العقل أكثر من اعتماده على النقل، فقد شغف به المعتزلة والباطنية بنوع خاص. فإن المعتزلة لما كانوا يؤمنون بمبدأ التنزيه، أو بالأحرى بمبدأ نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى، أخذوا يفسرون القرآن وفق مبادئهم، مخالفين في ذلك تفاسير مدرسة التفسير المأثور. لذلك نرى مفسري المعتزلة يلجئون إلى التأويل إذا اعترضتهم من الآيات القرآنية ما يخالف مبدأ نفي الصفات عندهم. وقد عالج المعتزلة رؤية الله يوم القيامة بطريقة تخالف ما قام به المفسرون بالمأثور. من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾** (٧٥: ٢٢ - ٢٣) إن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن الصالحين يرون ربهم عياناً، مستدلين بقوله تعالى في سورة الأنعام (٦: ١٠١) **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾**، قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا، بدليل قوله تعالى عن لسان موسى **﴿رب أرني أنظر إليك. قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾**

(سورة الأعراف ٧: ١٤٣). وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أحرى. وإنه من الخطأ في الفرض أن نظن أن المعتزلة في تفسيرهم القرآن قد فعلوا ذلك من أجل قصدهم الخروج على الحديث، أو من أجل النقد الحر في فهم القرآن... ولا يسعنا أن ننكر هذه الحقيقة: وهي أنهم لم يظهروا عن تفكير حر، بل ظهروا عن تقوى وصلاح»[1].

ومن أشهر مفسري المعتزلة أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المتوفى سنة ٣٢٢ هـ، ويقع تفسيره في أربعة عشر مجلداً، وابن جرو الأسدي المتوفى سنة ٣٨٧ هـ، وقد قيل إنه كتب في تفسيره البسملة نحو ١٢٠ وجهاً، وأبو تونس عبد السلام القزويني المتوفى سنة ٤٨٣، وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبعة مجلدات. ويرجع السبب في عدم ذيوعها بين الناس إلى ضخامتها وما بها من عقائد تخالف عقائد السنيين أحياناً. ومن هؤلاء أيضاً الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضي أبي القاسم علي بن الطاهر المتوفى سنة ٤٣٦ هـ، وكانت له أمالي في الشعر والأدب، شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالي تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجبائي وغيره[2].

وكذلك اتخذ الباطنية التفسير وسيلة لنشر مبادئهم، ولجئوا إلى التأويل غير المشروع أي الذي لا يوافق العقائد الإسلامية، فنراهم يفسرون قوله تعالى **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** (سورة نوح ٧١: ١٠ ـ ١٢)، بأن قوله تعالى **﴿فقلت استغفروا ربكم﴾** أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم، ومعنى **﴿يمددكم بأموال وبنين﴾** أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى **﴿يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني[3]. كذلك فسر الباطنية في قوله تعالى في سورة الحشر (٥٩ ـ ٦١) **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾**، أن الشيطان

---

(١) جولدتسهير: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٠ ـ ١١١.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ ـ ١١٥.

(٣) Guyard, Fragments relatifs àla Doctrine des Ismaélis, p.209

هو عمر بن الخطاب، والإنسان هو أبو بكر الصديق: ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب، وتفسيرهم قوله تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾[١] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر[٢].

ظل القرآن منبع كثير من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في هذا العصر، فاستعان به علماء النحو على استنباط قواعد اللغة العربية، كما اعتمد الفقهاء في أحكامهم الفقهية على القرآن. وألفوا كتباً كثيرة أسموها «أحكام القرآن» واستعانت الفرق الإسلامية بكتاب الله واتخذوه أساساً للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه.

٢ ـ الحديث:

من أهم مصادر التشريع الإسلامي الحديث، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم. وقد ظهر في القرن الثاني للهجرة طائفة من أئمة الحديث من أشهرهم في المدينة الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ، وفي البصرة حماد بن سلمة المتوفى بسنة ١٧٦ هـ، وفي الكوفة سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ، وفي الشام الأوزاعي المتوفى سنة ١٨١ هـ، واشتهر في العصر العباسي الثاني من كبار أئمة الحديث الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ. وقد خالف القائلين بخلق القرآن وناله من جراء ذلك كثير من العنت والاضطهاد ويقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١٧). «ودعي إلى القول بخلق القرآن فلم يجب، فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع. وكان ضربه في العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين»: وقد ترك كتابه «المسند» الذي يشتمل على ٤٠,٠٠٠ حديث، منها عشرة آلاف مكررة، وجمع الأحاديث التي تمدح العلويين والأمويين ولم يخش في ذلك بأس العباسيين. ويتفق مذهبه مع مذهب الإمام مالك بن أنس من حيث اعتماده على الحديث، حتى اعتبره البعض محدثاً أكثر منه إماماً مشرعاً.

وقد أخذ عن ابن حنبل جماعة من الفقهاء المسلمين من أمثال محمد بن إسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ. وفي أيامه أخذت أساليب جمع الحديث وترتيبه تأخذ مكانتها في الدقة وشدة التحري. وكان البخاري محدثاً، وقد تفوق على من سبقه من

---

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٥.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، نشره جولدتسيهر (ليدن سنة ١٩١٦) ص ١٣.

المحدثين في جمع الأحاديث، فلم يكتف بجمع أحاديث البلاد التي نشأ فيها، بل تنقل في البلاد لجمع الحديث، حتى إن رحلاته استغرقت ست عشرة سنة. كما امتاز بقدرته النادرة في التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة[١]، وساعده على ذلك قوة حافظته ومعرفته بأقدار الرجال. ويعد كتابه الجامع الصحيح المصدر الأول للأحاديث الصحيحة. وقد جمع البخاري ٧٢٧٥ حديثاً فيها عدد من الأحاديث المكررة: فإذا حذفنا هذه الأحاديث المكررة منها وغير الموصولة السند، أصبح عددها أقل من ثلاثة آلاف حديث، اختارها البخاري، على ما قيل، من ثلثمائة ألف حديث، أي بنسبة ١ ـ ٢٪. وهذا منتهى الدقة العلمية في الاختيار والنقد لما جمع من الأحاديث الكثيرة في رحلاته الطويلة. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٧٦): «وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره، فخرّج أحاديث السنة على أبوابها في مسنده الصحيح، بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه، وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب، بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث، فتكررت لذلك أحاديثه، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين. منها ثلاثة آلاف متكررة[٢]. وفرق الطرق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب»[٣].

وقد صنف البخاري صحيحه في ٩٧ كتاباً، كل منها يحوي طائفة من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة مرتبطة بعضها ببعض، ككتاب الوضوء، وكتاب الصلاة وكتاب بدء الوحي. ووضع له منهجاً وقواعد عرفت «بشروط البخاري»، كانت نبراساً استضاء به من أتى بعده من علماء الحديث.

ثم جاء بعده تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وكان من أهل نيسابور. وامتاز، كالبخاري، بكثرة رحلاته في طلب الحديث، فرحل إلى العراق والشام

---

(١) الحديث الصحيح هو الحديث المسند أي الذي يتصل إسناده من الراوي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ويشترط في روايته العدل والضبط. أما الحديث الضعيف فهو الذي لا تتوافر فيه هذه الشروط

(٢) مثال ذلك حديث: بني الإسلام على خمس.. الخ. فإنه يذكر في باب الإيمان والإسلام ويذكر في كتاب الصلاة، وفي كتاب الزكاة، وفي كتاب الصيام، وفي كتاب الحج، باعتبار أنه أصل لفرض هذه الفروض على المسلمين.

(٣) بمعنى أنه يذكر الحديث في كل باب بسند مخصوص عن الصحابي الذي رواه كأن يسنده إلى أبي هريرة أو إلى عبد الله بن العباس، ولكل من هؤلاء الرواة سند ورجال مخصوصون.

ومصر والحجاز. وتكررت رحلاته إلى بغداد خاصة، وأفاد من البخاري في أثناء إقامته في نيسابور مدة. وعرف مصنف مسلم بصحيح مسلم أو المسند الصحيح، الذي يقول ابن خلدون[١] إنه «حذا فيه حذو البخاري في نقل المجمع عليه وحذف المتكرر منها، وجمع الطرق والأسانيد، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يستوعبا (أي البخاري ومسلم) الصحيح كله. وقد استدرك الناس عليهما في ذلك».

وقد وازن الدكتور علي حسن عبد القادر[٢] بين صحيحي البخاري ومسلم بقوله: «وإذا ما قارناه (يعني صحيح مسلم) بالبخاري (أي بصحيح البخاري) بالنسبة لمحتوياته في مجموعها، فإننا نرى بينهما اختلافاً شكلياً. فهو مصنف كالبخاري[٣]. وقد نظم حسب الأبواب مثله، ولكن الأبواب عند مسلم لم يعنون لها. وقد كان غرضه كزميله أن يستخدم كتابه في الفقه، ولكنه ترك للقارىء أن يستنتج وحده ما يراه حقاً فيما يظهر له. وأمر آخر شكلي جاء عند العلماء المتأخرين، فكلاهما كان يروي الحديث بطرق مختلفة زيادة في الإثبات. ولكن البخاري كان يرويها في أبواب مختلفة بسبب استعمال الحديث لهذه الأبواب. أما مسلم فكان يروي ذلك كله معاً: ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن مسلماً لم يكن يجعل نصب عينيه وفي الدرجة الأولى، الحياة العملية واستعمالاتها[٤] بل الحديث الخالص فقط».

وقد صنف بعض أئمة الحديث كتباً أخرى تعد في المرتبة الأولى من بين كتب الحديث، وأطلق عليها اسم الصحاح. وهؤلاء المحدثون هم: أبو داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفي سنة ٢٧٥ هـ وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحبا السنن. ويقول ابن خلدون[٥]: «ثم كتب أبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأبو

(١) مقدمة ص ٣٨٧.

(٢) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) أي على صنوف وأبواب.

(٤) يريد بالحياة العملية حاجة الفقيه إلى الحديث في باب من أبواب الفقه أو العلم كما فعل البخاري في توزيع أحاديثه على الأبواب والكتب.

(٥) مقدمة ص ٣٨٧.

عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح، وقصدوا ما توافرت فيه شروط العمل، إما الرتبة العالية في الأسانيد وهو الصحيح كما هو المعروف، وإما الذي دونه من الحسن وغيره ليكون ذلك إماماً للسنة والعمل. وهذه هي الأسانيد المشهورة في الملة، وهي أمهات كتب الحديث في السنة، فإنها وإن تعددت ترجع إلى هذه في الأغلب، ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها في علم الحديث»[١].

وممن نبغ في علم الحديث بالأندلس ابن وضاح، وابن عبد البر، والقاضي يحيى بن يحيى الليثي (وأصله من المصامدة)، وأبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد وابن عاصم مؤلف «التحفة»، ومنذر بن سعيد قاضي قضاة الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر (وأصله من سبتة بالمغرب).

٣ ـ الفقه:

رأينا أن العصر العباسي الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة، وهي مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب ابن حنبل. وقد ظهر في عصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه، ولكن لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام هذه المذاهب الأربعة. ومن هؤلاء الفقهاء أبو سليمان داود بن علي بن خلف القاشاني الذي ينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان والمتوفى ببغداد سنة ٢٧٠ هـ.

كان أبو سليمان داود شافعي المذهب؛ أخذ فقه الشافعي عن بعض تلاميذه. وله طريقة خاصة تتلخص في الأخذ بظاهر نص القرآن، وعدم قبول القياس والتأويل. وفي ذلك يقول ابن النديم[٢]: «هو أول من استعمل قول الظاهر وأخذ بالكتاب والسنة. وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس»، ومن ثم سمي أبا سليمان داود الظاهري، ويعرف أتباعه بالظاهرية، أي الذين أنكروا القياس وأبطلوا العمل به، ويقول فيهم ابن خلدون[٣]:

---

(١) هذه الدراسات الإسلامية تشبه إلى حد كبير قواعد علم التاريخ وفلسفته ونقده التي ظهرت حديثا بعد ابن خلدون في المشرق على يد علماء فلسفة التاريخ ونقاده في أوربا. وكانت هذه الدراسات الإسلامية الحديثة أساساً للدراسات العربية في الأدب واللغة وغيرهما من علوم الرواية. فأول من فتح هذه الميادين هم علماء الحديث ولا ريب، ومنها دخل الباحثون في علوم الرواية على اختلاف أنواعها في المشرق والمغرب

(٢) كتاب الفهرست ص ٣٠٣.

(٣) مقدمة ص ٣٩٠.

«والظاهرية جعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص، لأن النص على العلة نص على الحكم في جمع محالها». وبذلك خرج أبو سليمان داود على الأصول والقواعد الفقهية عند الشافعية أنفسهم: فتصدى للرد عليه أبو العباس بن سريح المتوفى سنة ٣٠٥ هـ في كتاب أسماه «الرد على المخالفين من أهل الرأي وأهل الظاهر». وله مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم[١] تدلنا على سعة اطلاعه. وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري، ولذلك سمي ابن حزم الظاهري.

ومن أئمة المذاهب أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) الذي تتلمذ للإمام الشافعي مدة سنتين (١٩٥ ـ ١٩٧ هـ)، واعتبره كثير من الشافعية أنه واحد منهم، وقال فيه الإمام الشافعي حينما خرج من بغداد إلى مصر: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل»[٢]. وقد لقي ابن حنبل كثيراً من ألوان الشدة والعنت في عهد المأمون والمعتصم لعدم اتفاقه مع المعتزلة في القول بخلق القرآن؛ فامتحن في هذه المسألة، وسجن وعذب، وبقي كذلك إلى عهد المتوكل الذي ترك القول بخلق القرآن، وأطلق سراح ابن حنبل الذي توفي ببغداد.

وكان ابن حنبل ـ كما رأينا ـ من كبار المحدثين. ولم يختلف العلماء في كونه محدثاً، وإنما اختلفوا في كونه فقيهاً، حتى إن ابن جرير الطبري أثار حنق الحنابلة عليه لعدم اعتباره إياه من أئمة الفقه. وفي الحق أن مذهبه في الفقه مبني على الحديث، أي إنه كتاب يجمع بين الحديث والفقه، كموطأ مالك بن أنس. وقد عرف عن ابن حنبل أنه كان يفضل الأحاديث الضعيفة على القياس الذي لا يجيزه إلا عند الضرورة أي عند نقد الحديث. ويختلف ابن حنبل عن غيره من أئمة الفقه، كأبي حنيفة والشافعي، في أنه لم يدون في الفقه كتاباً مفصلاً، بل روي عنه عدة مسائل في الفقه كانت عبارة عن إجابات لأسئلة وجهت إليه. أما ترتيب مذهبه الفقهي وتدوينه وتبويبه، فذلك من عمل تلاميذه وأتباعه. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩٢): «فأما أحمد بن حنبل فمقلد قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية[٣] وللأخبار[٤] بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث».

(١) كتاب الفهرست ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥.
(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٧.
(٣) أي تعمقه في الاعتداد بالرواية وتقديمها على الرأي.
(٤) أي وفي معاضدة الأخبار أي الأحاديث بعضها ببعض.

ومن أشهر الحنابلة في هذا العصر أبو القاسم الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ؛ وقد صنف كتابه المختصر في الفقه، وعبد العزيز بن جعفر المتوفى سنة ٣٦٣ هـ صاحب كتاب المقنع.

ومن أصحاب المذاهب الفقهية من المجتهدين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ)، وكان من أهل طبرستان. وقد درس فقه الشافعية، ولذلك لم يختلف مذهبه المعروف بالمذهب الجريري عن مذهب الإمام الشافعي، وقال فيه ابن خلكان[١]: كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحداً... وكان ثقة في نقله... وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء المجتهدين».

وكان الطبري واسع الاطلاع كثير التأليف، ومن كتبه كتاب الأمم والملوك في التاريخ، وكتاب في التفسير، وكتاب اختلاف الفقهاء[٢]، وكتاب تبصير أولي النهى ومعالم الهدى الذي لا يزال مخطوطاً، وكتاب شرح السنة، وكتاب بشارات المصطفى[٣]، وكتاب الرد على الحرقوسية، أي الحنابلة، لأن أحمد بن حنبل من بني حرقوس[٤].

ومن أشهر أئمة المذهب المالكي في الأندلس: أبو الوليد الباجي، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف، وابن عاصم مؤلف «التحفة»، ومنذر بن سعد، وقد ولاه عبد الرحمن الناصر قيادة الجيوش التي كانت تعتبر نوعاً من أنواع الجهاد نيابة عنه، كما كان يفعل الخلفاء الأمويون والعباسيون في الشرق الذين كانوا يولون قاضي القضاة قيادة الطوائف، والشواتي منذ البيزنطيين.

وهناك مذاهب أخرى انقرضت، كمذهب سفيان الثوري[٥] المتوفى سنة ١٦١ هـ. وقد أخذ عنه الأوزاعي إمام أهل الشام[٦]، ومذهب إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، حتى إننا نرى من المذاهب الشائعة في القرن الثالث الشافعية والمالكية والثورية

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥٦.

(٢) نشر الدكتور يوسف شاخت بعض أجزاء الكتاب تحت عنوان «كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).

(٣) من ١٧ جزءاً بعضها في النجف والبعض الأخر في طهران.

(٤) على حسن عبد القادر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٢١٠.

(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٧٥.

نسبة إلى سفيان الثوري، والحنفية والداودية. وفي القرن الرابع نرى من المذاهب السائدة مذاهب الحنفية والمالكية والداودية؛ كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كمذهب الحنابلة، والراهوية والأوزاعية. إلا أنه على مر الزمن أصبحت السيادة للمذاهب الأربعة وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي؛ ووقف الاجتهاد عند هؤلاء الأربعة. ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٣٩١ ـ ٣٩٢) ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم[١]، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من[٢] تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه، فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من[٣] اختص به من المقلدين، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم، وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا، ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه، مهجور تقليده. وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة».

٤ ـ علم الكلام:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن علم الكلام يقصد به الأقوال التي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جدلي، وعلى الأخص في العقائد، وأن المشتغلين بهذا العلم يسمون «المتكلمين»؛ كما ذكرنا أن هذا اللفظ كان يطلق أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة، ويقول دي بور[٤]: «على أن ظهور الكلام في الإسلام كان بدعة من أكبر البدع؛ وقد شدد في النكير على هذا العلم الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث في الأحكام الفقهية العلمية ابتداع، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم، بل إن هؤلاء الآخرين كانوا يعتبرون النظر العقلي من الواجبات

---

(١) أي لم يبق منهم أحد.

(٢) سقطت هذه الكلمة من النسخ المطبوعة، وهي موجودة بالنسخة المخطوطة رقم ١٥ بالمكتبة التركية بدار الكتب المصرية.

(٣) كذا في النسخ المقدمة المحفوظة بدار الكتب رقم ١٥ بالمكتبة التركية بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وسقطت الواو من جميع النسخ المطبوعة.

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبي ريدة، ص ٥١.

المفروضة على المسلمين. وقد صادف هذا الرأي قبولاً في هذا العهد. وفي الحديث أن النبي قال «أول ما خلق الله تعالى العلم أو العقل».

ويقول ابن خلدون (مقدمة ص ٤٠٦) إن علم الكلام سمي بذلك «لما فيه من المناظرة على البدع. وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه تنازعهم في إثبات الكلام النفسي» إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردهم على أهل البدع، بحجة أن هذا الرد ترويج لعقائد هؤلاء المبتدعين، لأنهم - كما يقول الغزالي[١] - «اعتمدوا على مقدمات تسلم (يعتقد صحتها) من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً».

وكان للمعتزلة أثر كبير في تطور علم الكلام، فقد تم على أيديهم القول بخلق القرآن، ونادوا بنفي الصفات، مخالفين في ذلك جمهور أهل السنة واستمر الصراع والجدل بين طائفتي المعتزلة وأهل السنة والجماعة، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري، فتوسط بين الفريقين.

ومن أشهر متكلمي المعتزلة أبو الهذيل العلاف المتوفي سنة ٢٣٥ هـ. وقد اشتهر بالجدل، وأصبح على رأس المعتزلة في أيامه، وعرف أتباعه بالهذلية. وقال أحمد بن يحيى بن المرتضي[٢] المتوفي سنة ٣٢٥ هـ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ. وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة؛ شهدته في مجلس وقد استشهد في كلامه بثلثمائة بيت. وكان أبو الهذيل «حسن الجدال قوي الحجة، كثير الاستعمال للدلالة والإلزامات[٣]. ولأبي الهذيل كتاب يعرف بميلاس. وكان ميلاس رجلاً مجوسياً فأسلم؛ وكان سبب إسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور وجماعة من الثنوية، فقطعهم[٤] أبو الهذيل، فأسلم ميلاس عند ذلك[٥]» وقد بلغ من قوة

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) كتاب المنية والأمل ص ٢٦.

(٣) يريد أنه يكثر من الاستنباط واستعمال القياس الذي يؤدي إلى نتائج ملزمة للخصم.

(٤) أي بطل حججهم وأسكتهم.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٠.

جدله الذي شغل كل حياته، وخاصة مع الزنادقة والمجوس والثنوية، أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وهو ـ كما يقول ديبور [١] ـ أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر في مذاهبهم الكلامية».

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن يسار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ، من تلاميذ أبي الهذيل العلاف وأستاذ أبي عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) الذي تنسب إليه فرقة الجاحظية من المعتزلة. وقد نسب إليه في علم الكلام كتب منها: الاعتزال وفضله على الفضيلة، والاستطاعة وخلق الأفعال، وخلق القرآن، وفضيلة المعتزلة. وقد رمى الجاحظ من تأليفه إلى الثناء على المعتزلة من ناحية، والرد على مخالفتهم، وخاصة الرافضة، والطعن فيهم من ناحية أخرى. ويظهر أن هذا الكتاب أثار حنق الرافضة، فردوا عليه ردوداً عنيفة. ويعتبر كتاب فضيلة المعتزلة لأحمد بن يحيى الراوندي، وكان معتزلياً ثم أصبح رافضياً، خير مثل لهذا. كما يعد كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي متمماً لكتاب فضيلة المعتزلة للجاحظ [٢]، كما تناول في كتابه البخلاء أخباراً تتصل بالمتكلمين والمعتزلة، وأخذ في كتابه الحيوان كثيراً من آراء أرسطاطاليس في كتابه الحيوان [٣].

وقد أثرت الفلسفة اليونانية في ثقافة الجاحظ حتى عد من كبار أحرار الرأي، وعارضه السنيون في كثير من آرائه. ومما يرمى به قوله: «إن الله لا يدخل النار أحداً، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود». وقد رد عليه السنيون بقولهم إنه لو كان هذا الرأي صحيحاً لألزم الجاحظ «أن يقول في الجنة إنها تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها وإن الله لا يدخل أحداً الجنة، فإن قال بذلك قطع الرغبة إلى الله في الثواب وأبطل فائدة الدعاء، وإن قال إن الله تعالى هو يدخل أهل الجنة الجنة، لزمه القول بأن يدخل النار أهلها» [٤].

ومن كبار متكلمي المعتزلة أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط الذي تنسب إليه طائفة الخياطية. وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومات

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥٧.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦٢.

(٣) نيبرج: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد: مقدمة ص ٢٣ ـ ٣٤.

(٤) البغدادي. الفرق بين الفرق ص ١٦١.

في أوائل القرن الرابع، واشتهر برده على ابن الراوندي في كتاب أسماء «الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد»[(١)]. وقال نيبرج في مقدمة الكتاب (ص ١٩ ـ ٢٠) عن الخياط إنه كان «في غاية الشهرة، بعلمه باختلاف المتكلمين ومذاهبهم وآرائهم وتراجمهم. ويشهد بشهرته بذلك كثرة ذكره في كتاب ابن المرتضي، ومروج الذهب للمسعودي وغيرهما من الكتاب عند الرواية عن المعتزلة أو الحكاية عن رجالها. ويشهد كتاب الانتصار من أوله إلى آخره بواسع سلمه، فإنه يفيدنا علماً مفصلاً بدقائق كلام المعتزلة وجلائله. ويشتمل على أخبار عن المتقدمين منها وآرائهم ومناقشاتهم لا نجد مثلها في كتاب آخر مما انتهى إلينا. ولقد اقتبس من قبس الخياط المتأخرون الموافق منهم والمخالف، فقد ألف تلميذه أبو القاسم الكعبي البلخي مثلاً كتاباً في رجال المعتزلة ومقالاتها أفاد ابن المرتضي منه في كل صفحة من كتابه. ولو استنتجنا أن التلميذ نقل قصص أستاذه لما أخطأنا. واقتبس من الخياط أيضاً البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق.

ومن أشهر متكلمي هذا العصر أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ[(٢)]. وتنسب إليه فرقة الجبائية. وكانت له مواقف رائعة مع أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٢ هـ). فقد قال الجبائي يوماً للأشعري: ما معنى الطاعة عندك؟ فقال: موافقة الأمر. وسأله عن قوله فيها فقال الجبائي: حقيقة الطاعة عندي موافقة الإرادة، وكل من فعل مراد غيره فقد أطاعه، فقال شيخنا أبو الحسن رحمه الله: يلزمك على هذا الأصل أن يكون الله تعالى مطيعاً لعبده إذا فعل مراده فألزم ذلك، فقال شيخنا رحمه الله: خالفت إجماع المسلمين وكفرت برب العالمين[(٣)].

ولما مات الجبائي خلفه ابنه أبو هاشم في زعامة الجبائية، وعرفوا باسم البهشمية نسبة إليه. وكان تأثير أبي هاشم هذا بين المعتزلة عظيماً، حتى إن مبادئه استمرت إلى القرن الخامس الهجري، كما يتضح من عبارة البغدادي (ص ١٦٩) المتوفي سنة ٤٢٩ هـ، «وأكبر معتزلة عصرنا على مذهبه».

٥ ـ علم اللغة:

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم. فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة التي تعتبر

---

(١) نشرة نيبرج (القاهرة سنة ١٩١٤).

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٠.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

مدرستها أقدم من مدرسة الكوفة بنحو مائة سنة، وكيف نبغ في هاتين المدرستين كثير من العلماء المبرزين: كأبي عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض، ووضع أول معجم عربي مرتب على الحروف الهجائية وهو كتاب العين»، وسيبويه صاحب الكتاب في النحو الذي يجمع القواعد التي انتهت إليها مدرسة البصرة منذ عهد أبي الأسود الدؤلي، إلى أن جاء الخليل بن أحمد، فنظمها وشرحها وعللها وأملاها على تلاميذه، ومنهم سيبويه[١].

ومن أئمة مدرسة الكوفة علي بن حمزة الكسائي المتوفي سنة ٢٨٣، وهو أحد القراء السبعة، ومن أئمة الكوفيين في النحو، ومن مؤدبي الأمين والمأمون. وقد أخذ عنه أبو زكريا بن زياد المعروف بالفراء، «وكان ـ كما يقول ابن خلكان[٢] ـ أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب»، وهو أحد رؤساء المذهب الكوفي بعد أستاذه الكسائي. وقال فيه تلميذه ثعلب: «لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها». وقد ألف كثيراً من الكتب منها كتاب معاني القرآن، وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة، ويقع في نحو ألف ورقة، وهو أشهر كتبه[٣].

ومن مشهوري الكوفيين المفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات في الشعر، ومن مشهوري النحويين أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري النحوي المعروف بالنحاس، وقد رحل إلى بغداد، وأخذ من أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر وأبي إسحاق الزجاج، وابن الأنباري ونفطويه وغيرهم من أعيان أدباء العراق، وتوفي بمصر في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٨ هـ (وقيل سنة ٣٣٧ هـ). ومن مؤلفاته «تفسير أبيات سيبويه»، و «كتاب التفاحة في النحو»، و «كتاب الوقت والابتداء»، و «شرح المعلقات السبع» و «طبقات الشعراء»[٤].

ومن النحويين أيضاً أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل النجيرمي اللغوي البصري نزيل مصر. وقد نشأ في بيت اشتهر بالعلم والأدب. وكان يوسف أمثل أهل بيته،

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٢٨ ـ ٣٢٩. ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠ ش تفسير.

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٩.

ومن طريقه روي في مصر أكثر الكتب القديمة في اللغة والشعر وأيام العرب. فإنه كان راوية لها عارفاً بها، وتوفي النجيرمي في شهر المحرم سنة ٤٢٣ هـ[١].

ويعتبر القرن الثالث الهجري عصر انتقال في اللغة. فقد ظفر نهاية القرن الثاني بأول محاولة في ضبط اللغة وعمل المعاجم، حين وضع الخليل بن أحمد منهج كتاب العين لتلميذه الليث بن المظفر. ولا ريب أن كتاب العين، مع علو قدر الخليل، لا يمثل علمه وضبطه للغة، إذ وقع فيه كثير من الأخطاء التي أخذها عليه العلماء ولذلك هب لغويو القرن الثالث لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف، فوضعوا المعاجم الواسعة، لكنها كانت على طريقة الخليل نفسها من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق، وأولها حرف العين. وعلى هذا النظام أنشأ ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) كتابه «جمهرة اللغة»[٢]. وهو، وإن خلا من كثير من العيوب التي وجدت في كتاب العين، لم يخل من مآخذ. فقد أخذ عليه العلماء بعض الألفاظ التي لم يروها الثقات وانفرد بها ابن دريد. كما أن في طريقته في شرح الكلمة وتقليب صيغها كثيراً من الصعوبة وخاصة على الباحث الذي يؤثر السرعة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة.

وكما كان ابن دريد إماماً في اللغة، كان أديباً بارعاً ينشىء النظم وينشىء النثر، ولعله أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية؛ فقد تنبه نقاد العرب ومؤرخوهم إلى الأحاديث الكثيرة التي رواها عنه تلميذه أبو علي القالي في كتابه «الأمالي»[٣] من أحاديث موضوعة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة ظهرت فيها براعة ابن دريد الأدبية واللغوية. وقد نبه على هذا الحصري في كتاب «زهر الآداب»، وقال إنه مخترع هذا الفن من القصص، وبه سبق أصحاب المقامات فيما أنشأوا من فنهم بعده. ولابن دريد شعر كثير كان يذهب فيه كل مذهب من الرقة والجزالة ومن الحد، والهزل وهو مشهور في كتب الطبقات والتراجم؛ ومن مصنفاته كتاب «الاشتقاق في الأسماء»، وكتاب «زوار العرب»[٤].

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣١٥.

(٢) ويقع في ثلاثة مجلدات ضخام، غير مجلد للفهارس، وقد طبع بحيدر أباد سنة ١٣٤٥ هـ، ومنه نسختان مخطوطتان بدار الكتب المصرية.

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ ويقع في ثلاثة مجلدات تشمل الطرف والنوادر والتنبيه.

(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٩ ـ ٤٩٨.

وممن ألف في اللغة معجماً واسعاً على طريقة الخليل، أبو علي القالي البغدادي (٢٢٨ ـ ٣٥٦ هـ) صاحب كتاب «البارع في اللغة» وكتاب «الأمالي» في اللغة والأدب [١]؛ وهو الذي غرس علوم اللغة وآدابها في الأندلس، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وكبار الأدباء في تلك البلاد.

ومن هؤلاء الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥هـ)؛ وقد ألف في اللغة كتاب «المحيط»، ويقع في سبعة مجلدات، وابن فارس صاحب كتاب «المجمل» المتوفى سنة ٣٩٥ هـ، وأبو منصور الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب «التهذيب». وأشهر علماء اللغة في القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهري (المتوفى سنة ٣٩٢) صاحب كتاب «الصحاح في اللغة». وقد اقتصر فيه على الألفاظ الصحيحة اقتداء بالبخاري الذي اقتصر على الأحاديث النبوية الصحيحة. ولهذا المعجم مزية أخرى، فإنه ترك الطريقة التي سار عليها سلفه من اللغويين منذ عصر الخليل، من حيث ترتيب الحروف الهجائية على المخارج الصوتية، إلى ترتيبها على طريقة أخرى لا تزال مستعملة في التعليم وفي أكثر الكتب اللغوية التي جاءت بعده. مثل «لسان العرب» و «القاموس المحيط»، وهي أن ترتب المادة اللغوية على الحروف أ ب ت ث ج الخ، مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب، والحرف الأول منها هو الفصل. وهذه الطريقة التي ابتكرها الجوهري في ترتيب المعاجم تسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التي يريدها الكاتب في الأسجاع والشاعر في القوافي. وقد ذاعت هذه الطريقة بعده في تأليف المعاجم في الشرق والمغرب.

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم، وإنما ألفوا كتباً كثيرة في الاشتقاق والتصريف وأصول النحو واللغة. وعلى رأس هؤلاء أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، وتلميذه ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ صاحب كتاب «الخصائص» الذي يعد أعظم الكتب في أصول اللغة والنحو. ويقول الثعالبي [٢] في ابن جني: «هو القطب في لسان العرب وإليه انتهت الرياسة والأدب».

ومن علماء اللغة من شرح الدواوين الأدبية، كابن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب التبريزي (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ). وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره. وقد تتلمذ

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٢) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٨٩.

لأبي العلاء المعري. وقال عنه ابن خلكان[١]: «وصنف في الأدب كتباً كثيرة مفيدة، منها شرح الحماسة، وكتاب شرح ديوان المتنبي، وكتاب شرح سقط الزند، وهو ديوان أبي العلاء المعري، وشرح المعلقات السبع، وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث، وتهذيب إصلاح المنطق. وله في النحو مقدمات حسنة، والمقصود منها أسرار الصنعة وهي غزيرة الوجود. وله كتاب الكافي في علم العروض والقوافي، وكتاب في إعراب القرآن سماه الملخص، رأيته في أربعة مجلدات وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة: أكبر وأوسط وأصغر: وله غير ذلك من التآليف. . ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد».

ولا بأس من أن نورد هنا ما ذكره ابن خلدون[٢]عن تطور تأليف المعاجم العربية، قال: «إن كثيراً من العلماء اتخذوا كتاب العين أساساً لمعاجمهم. وجاء أبو بكر الزبيدي، وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص».

وقد ألف الجوهري من المشارقة كتاب الصِّحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم، فجعل البداءة منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل. ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين، وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، فجاء من أحسن الدواوين، ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمي رحم وسليلي أبوة. هذه هي أصول كتب اللغة فيما علمناه».

ومن علماء اللغة البارزين ابن سيدة الأندلسي صاحب كتاب المعجم الذي رتبه مثل كتاب العين للخليل بن أحمد وتعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر الموحدي أحد ملوك الدولة الحفصية بتونس.

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٣.
(٢) مقدمة ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

٦ ـ الأدب:

(أ) النظم:

تمهيد:

كانت نزعة الأمويين في الشعر، كما رأينا، جاهلية لا تميل إلى الفلسفة. وقد ظهر في العصر العباسي كثير من الشعراء نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب. ومن أشهرهم بشار بن برد، وأبو نواس الذي أنحى باللائمة على كل قديم، وحذا حذوه في هذا العصر ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) في القول بالتجديد، ثم حذا من جاء بعده من الكتاب كالثعالبي وابن خلدون.

ومن العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر وأخيلته وأساليبه وفي الأدب عامة.

١ ـ اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية، ففضائل العرب في الجاهلية لم تعد في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به.

٢ ـ تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة، بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجاربهم في العصر العباسي.

٣ ـ انتشار الشعوبية التي قامت على الحط من شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم.

٤ ـ أثر الثقافة الأجنبية، والفارسية خاصة، في الشعر والأدب العباسي. إلا أنه على الرغم من هذا كله، لا يزال يوجد في اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافي والأوزان.

يقول نيكلسون[١]: «لم يدخل الفرس على الشعر العباسي مثل تلك الفخامة التي كانت لأساليبه في الشعر القديم، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحي اللطيف، والتعبير الدقيق، وعمق الإحساس، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار. وقد ساعد على هذا التحول في الشعر العربي، عدا تأثير الثقافة الفارسية واليونانية، شدة تأثير الإسلام في الحياة العامة،

---

(١) Lit. Hist. of the Arabs.p. 290

وظهور روح ديني قوي بين الناس، بلغ أقصى مداه في شعر أبي العتاهية في الزهد والتهذيب». فالشعر في هذا العصر يمتاز برقة العبارة، والتعمق في النقد، والتفنن في المعاني باختيار الألفاظ.

٥ ـ اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين ـ عدا فترات قليلة ـ على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم. فكان كل اعتماد الشعراء في كسب عيشهم، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا. ولهذا كان الإغراق في المدح من أهم مميزات الشعر في أيام العباسيين. أضف إلى ذلك دخول غير العرب، وخاصة الفرس، في حلبة الشعراء. ولما كان الحكم في الدولة العباسية استبدادياً، كان الإفراط في المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم.

١ ـ أمراء الشعر العباسي:

(أ) البحتري:

وقد ظهر في هذا العصر كثير من أفذاذ الشعر من أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري والشريف الرضي.

ولد أبو عبادة الوليد البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٥ هـ) القحطاني الطائي بمدينة منبج ونشأ بها، وزار بعض مدن الشام كالمعرة وحلب وحمص حيث لقي بها أبا تمام وأخذ عنه. ثم قصد العراق وأقام ببغداد وسامرا حيث ذاع صيته، واتصل بالخليفة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وأمراء الدولة العباسية في ذلك الوقت، ومدحهم ونال جوائزهم. وقد حضر قتل المتوكل، ثم اتصل بحاشية بعض خلفاء هذا الخليفة، ومات في عهد المعتضد وقد ناهز الثمانين من عمره.

وقد شهد كبار الشعراء بعلو كعبة في الشعر؛ فقد أنشد البحتري أستاذه أبا تمام شعراً فقال له: «أحسنت! أنت أمير الشعراء بعدي». وقيل للبحتري: «أيكما أشعر، أنت أم أبو تمام؟ فقال: جيده خير من جيدي، ورديئي خير من ديئه». وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب وهو في الطبقة العليا. وقيل لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر: أبو تمام، أم

البحتري، أم المتنبي؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري(١).

وقيل في شعر البحتري: «هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتع، فلله دره. ما أسلس قياده، وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه، وألطف مقاصده، وليس فيه من الحشو شيء، بل جميعه نخب»(٢).

ومن أشهر قصائد البحتري القصيدة التي يمدح فيها الخليفة المتوكل ويصف موكبه في يوم عيد الفطر:

الله مَكَّنَ للخليفة جعفرٍ ... مُلْكاً يحسنه الخليفة جعفرُ
فانعمْ بيوم الفطر عيناً إنه ... يومٌ أغرُّ من الزمان مُشَهَّرُ
أظهرت عز الملك فيه بجحفلٍ ... لجبٍ يُحاط الدينُ فيه ويُنصر
خِلْنا الجبال تسير فيه وقد غدَت ... عَدَداً يسير بها العديدُ الأكثرُ.
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا ... لما طَلَعْت من الصفوف وكبروا
حتى انتهبت إلى المصلَّى لابساً ... نورَ الهدى يبدو عليك ويظهر(٣)

ومن روائع قصائد البحتري هذه القصيدة السينية التي وصف فيها إيوان كسرى.

حضـرَتْ رحْليِ الهمومُ فوجهت ... إلى أبيض المدائن عَنْسي(٤)
أتسلى عن الحظوظ وآسي ... لمحلٍّ من آل ساسانَ دَرْسِ
وهم خافضون(٥) في ظلٍّ عالٍ ... مشرفٍ يحسر العيون ويُخْسي(٦)
حُلل لم تكن كأطلال سُعْدى ... في قفار من البسابس مُلْسِ(٧)

---

(١) خلكان جـ ٢ ص ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧.

(٣) ديوان البحتري (طبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ) ص ١٠ - ١١.

(٤) في هذا البيت وما بعده يقول حلت الهموم بساحتي فركبت جملي إلى قصر المدائن الأبيض لاتسلى عن حظي، وآسى لما درس من قصور آل ساسان.

(٥) خافضون ناعمو العيش.

(٦) يرد النظر كليلاً متعباً، من قوله تعالى في سورة الملك ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

(٧) أي هذه الآثار العظيمة ليست كأطلال البدو في القفار الخلوية.

نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون أنضاء لبْس(١)
فكأن الجرماز(٢) من عدم الإنْس وإخلاله بَنية رمس
لو تراه علمتَ أنَّ الليالي جعلتْ فيه مأتماً بعد عُرْس
فإذا ما رأيتَ صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس(٣)
والمنايا مواثلٌ وأنوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس(٤)
ليس يُدْرَى أصنع إنس لجنٍّ سكنوه أم صنع جن لإنس
عُمِّرتْ للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعُهم والتأسي
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي(٥)

(ب) ابن الرومي:

ومن أشهر شعراء هذا العصر وأبرعهم في توليد المعاني وأطولهم نفساً في القصائد، أبو الحسن بن العباس المعروف بابن الرومي. ولد ببغداد سنة ٢٢١ هـ، واستقر بها طوال حياته، ولم يتركها إلا قليلاً. قيل إنه رحل مرة إلى سامرا، ولكنه تشوق إلى بغداد وحن إليها فقال:

بلد صحبتُ بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثَّلَ في الضمير رأيتَه وعليه أغصانُ الشباب تميد(٦)

ولم يكن ابن الرومي عربي الأصل، كانت أمه فارسية وأبوه من أصل رومي، كما يتبين ذلك من قوله:

كيف أغضي على الدنية والفر سُ خئولي والروم من أعمامي

---

(١) أنضاء لبس أي ثياب بالية.

(٢) الجرماز أحد القصور في الإيوان.

(٣) في هذا وفي الستة الأبيات التالية من القصيدة لم نذكر منها إلا البيت التالي وتركنا الأبيات الخمسة التي تليه خشية التطويل، يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دار في أنطاكية بين كسرى والروم.

(٤) الراية الكبيرة.

(٥) فهي جديرة أن أبكيها وإن كنت غريباً لا أمت لأصحابها بنسب. ديوان البحتري ص ١١٠ أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٦) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥١.

وقد تأثر ابن الرومي بالفلسفة اليونانية حتى إنه ذهب في شعره ـ كما يقول المسعودي[1] ـ إلى معاني فلاسفة اليونان.

وقد وصفه ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٥١) فقال: «هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكانها، ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية».

وكان لموت زوجته وأبنائه الثلاثة أثر بالغ في حالته، حتى إنه لم يتزوج، وأصبح رثاؤه مثلاً يحتذى في الجودة. من ذلك قصيدته التي رثى فيها ابنه الأوسط، وتعد من أرقى ما فاضت به عواطف أب على ولده، ومنها:

بكاؤكما يَشْفي وإن كان لا يُجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورَمْيَها ... من القوم حباتِ القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي ... فلله كيف اختار واسطة العقد!
على حين شِمتُ[2] الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عني فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد
ثكلتُ سروري كله إذ ثكلته ... وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
أريحانة العين والأنف والحشا ... ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟
ألام لما أبدي عليك من الأسى ... وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي[3]

وتعتبر قصيدة ابن الرومي التي نظمها على أثر احتلال صاحب الزنج مدينة البصرة وما أحدثه فيها من التخريب والتدمير من أهم المصادر التاريخية عن ثورة الزنج التي شغلت الدولة العباسية نحو خمس عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ)، وفيها يقول:

لَهْفَ نفسي عليك أيتها البصرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبة الإسلام. لهفاً يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلدان، لهفاً يبقى على الأعوام
بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيدهم باصطلام

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩٥.

(٢) شمت الخير ارتقبته ونظرت إليه.

(٣) ديوان ابن الرومي (نشره كامل كيلاني في ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٢٤) جـ ١ ص ٢٩.

دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذ راح مدلهم الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام؟
أين فلك فيها، وفلك إليها ... منشآت في البحر كالأعلام (١)
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟
بُدِّلَتْ تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام (٢)

وقد عزا ابن خلكان (جـ ١ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢) موت ابن الرومي (٣٨٣ هـ)، إلى حنق أبي الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، الذي كان يخاف هجوه، «فدس عليه من سمه في خشكنانة (٣) وهو في مجلسه. «فلما أكلها أحس بالسم، فقام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه، فقال له: سلم على والدي، فقال له: ما طريقي على النار. وخرج من مجلسه، وأتى منزله، وأقام أياماً ومات. وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم، فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومي يجود بنفسه، فقلت له: ما حالك؟ فأنشد:

غلطَ الطبيبُ عليَّ غلطة مورد ... عجزتْ موارِدُهُ عن الإصدار
والناس يلحون (٤) الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

(جـ) أبو الطيب المتنبي:

ومن فحول شعراء هذا العصر أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي (٣٠٢ ـ ٣٥٤ هـ)، وتوفي في محلة كندة بالكوفة. ويقال إنه كان في أول أمره سقاء بالكوفة، ثم رحل إلى الشام، وإلى هذا يشير أحد الشعراء في هجائه له:

أيُّ فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بُكرةً وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ... ء وحيناً يبيع ماء المحيا (٥)

---

(١) إشارة إلى أنها كانت فرصة عظيمة.

(٢) أي متراكم بعضه فوق بعض. ديوان ابن الرومي جـ ٣ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٧.

(٣) الخشكنان، نوع من الفطائر المحشوة: يعجن دقيق الحنطة بالشيرج، ثم يبسط ويملأ بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد، ويجمع ويخبز (عن تذكرة داود بتصرف).

(٤) لحا يلحاه لامه.

(٥) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٧.

اتصل المتنبي بسيف الدولة الحمداني في سنة ٣٣٧ هـ، وأصبح لساناً ناطقاً يشيد بمديحه. وكان ـ كما يقول الثعالبي (جـ ١ ص ٩٠) نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر. ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به؛ إذ هو الذي جذب بضبعه[1] ورفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده والأيام تحفظه، كما قال وأحسن ما شاء:

وما الدهر إلا من رواةِ قصائدي ... إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر مُنْشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنىَّ به من لا يغني مُغَرِّدا

ومن إحدى قصائد المتنبي يعاتب سيف الدولة:

ما لي أكتم حباً قد بري جسدي ... وتدعي حبَّ سيف الدولة الأمم؟
إنْ كان يجمعنا حبٌّ لغرته ... فليتَ أنَّا بقدر الحب نقتسم
يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
إذا نظرتَ نيوب الليث بارزةً ... فلا تظنن أنَّ الليثَ مبتسم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
يا مَنْ يعز علينا أن نفارقهم ... وجُداننا كل شيء بعدكم عدم
شرُّ البلاد بلادٌ لا صديقَ به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم[2]

فارق المتنبي سيف الدولة مغاضباً، وقصد مصر وامتدح كافوراً بأحسن المدائح طمعاً في أن يوليه بعض أعمال مصر، فخلع كافور عليه وأنزله في داره وعين جماعة لخدمته، وحمل إليه كثيراً من المال. ولكنه لم يوله عملاً من الأعمال، معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولي رجلاً يدعى النبوة؛ فانقلب مدح أبي الطيب هجاء، وأسرف في ذلك كما أسرف في مدحه من قبل[3]. فمن مدائح المتنبي لكافور، قوله في أول قصيدة أنشدها إياه في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هـ[4]:

---

(١) الضبع العضد كلها.
(٢) البرقوقي: شرح ديوان المتنبي جـ ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٦.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٧٤.
(٤) أنظر شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي جـ ٢ ص ٥١٤، جـ ١ ص ١١٨ ـ ١١٩، ٢٦٠ ـ ٢٧٦.

قواصدَ كافور توارِكَ غيره ... ومنْ قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه ... وخلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

ولما لم ينل المتنبي من كافور ما طلبه، استعد للرحيل، وأنشد في يوم عرفة سنة ٣٥٠ هـ قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدة طويلة هجا كافوراً فيها أشد الهجاء، ومنها[١]:

عيدٌ بأية حالٍ عدتَ يا عيد ... بما مضى أمْ لأمرٍ فيك تجديدُ؟
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيد

قصد المتنبي بعد ذلك بلاد فارس حيث مدح عضد الدولة بن بويه، فأجزل جائزته؛ ومن مدائحه له قوله:

أروح وقد ختمتُ على فؤادي ... بحبك أن يحل به سواكا
ولو أني استطعت خفضتُ طرفي ... فلم أبصر به حتى أراكا
وكيف الصبر عنك وقد كفاني ... نداك المستفيضُ وما كفاكا[٢]

ولما عاد المتنبي من فارس قصد بغداد، ثم الكوفة، فتعرضت له عصابة على رأسها فاتك بن أبي الجهل الأسدي، فحاربها المتنبي وأصحابه، وقد فكر في الفرار فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فكر راجعاً وقاتل حتى قتل[٣].

(د) أبو العلاء المعري:

ولد أبو العلاء في سنة ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان، وهي بلدة صغيرة ببلاد الشام على مقربة من حماة وشيزر، تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري؛ وسمي المعري نسبة إلى هذه المدينة. وقد أصيب بالجدري وهو في السنة الرابعة من عمره، وذهب الجدري ببصره. وعاش معظم حياته في المعرة في عصر اضطربت فيه الأحوال السياسية: فكانت إمارة حلب

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧٦.

(٢) البرقوقي: شرح ديوان المتنبي جـ ٢ ص ١٨٩. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ١ ص ١٦٣.

(٣) ابن خلكان: جـ ١ ص ٣٧. أنظر شرح ديوان المتنبي البرقوقي جـ ١ ص ٢٦٢.

صراعاً بين الحمدانيين والفاطميين تارة، وبين قبائل البدو والروم تارة أخرى[١]، وكان لهذه الأحداث أثر في شعر أبي العلاء النقدي.

تعلم أبو العلاء النحو واللغة على أبيه، وكان من أسرة تولى أكثر أفرادها منصب القضاء على مذهب الشافعي في المعرة وما جاورها من البلاد مثل شيزر. وبقي القضاء في هذا البيت إلى أن دخل الصليبيون المعرة ٤٩٢ هـ، واستمرت الفتيا على مذهب الإمام الشافعي في هذا البيت أكثر من قرنين. وكان أبو العلاء كثير الترحال في شبابه، زار المدن الشامية المشهورة بالعلم والعلماء كأنطاكية واللاذقية وطرابلس، وأخذ العلم عن علمائها واختلف إلى مكتباتها[٢]. كما زار بغداد مرتين: إحداهما في سنة ٣٩٨ هـ، والثانية في سنة ٣٩٩. لكنه رجع إلى المعرة ولزم منزله، وشرع في التصنيف، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله وذهاب بصره[٣].

كان أبو العلاء منذ نعومة أظفاره شاعراً مطبوعاً. قرض الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره، وكان متضلعاً في فنون الأدب والنحو واللغة، حتى قيل إنه كان يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد، «وأخذ عنه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار». وقد عدد ابن خلكان مصنفات أبي العلاء فقال: «وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة،وله من النظم «لزوم ما لا يلزم»[٤]، وهو كبير يقع في خمسة أجزاء أو ما يقاربها. وله «سقط الزند»[٥]أيضاً، وشرحه بنفسه وسماه «ضوء السقط». وبلغني أن له كتاباً سماه «الأيك والغصون» وهو المعروف بالهمزة والردف (الحرف الذي قبل الهمزة) يقارب المائة جزء في الأدب أيضاً. ولما فرغ من تصنيف كتاب «اللامع العزيزي» في شرح شعر المتنبي وقرىء عليه، أخذ الجماعة في وصفه، فقال أبو العلاء: كأنما نظر المتنبي إليَّ بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعتْ كلماتي مَن به صَمَم

(١) ابن خلكان جـ ١ص ٣٢ ـ ٣٤.
(٢) المقدسي: أمراء الشعر العربي ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.
(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٣ ـ ٣٤.
(٤) طبعة القاهرة سنة ١٨٩١.
(٥) طبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هـ في جزأين.

اختصر أبو العلاء ديوان أبي تمام وشرحه وسماه «ذكرى حبيب»، وديوان البحتري وسماه «عبث الوليد»، وديوان المتنبي وسماه «معجز أحمد»؛ وتكلم على غريب أشعارهم ومعايبها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن لخطئهم.

كانت لأبي العلاء آراء فلسفية عميقة؛ فتراه في لزومياته جريئاً مبتكراً، وله آراؤه في الأخلاق والنقد الاجتماعي. ولم يقنع بإظهار النقائص الاجتماعية والسياسية في جرأة، بل جعل الحياة السياسية كلها موضوعاً لبحثه، وأخذ يتأمل في أعمق معضلاتها[١]. يؤيد هذا قوله في لزومياته (ص ٦٤)[٢].

أفيقوا أفيقوا يا غواةً فإنما ... ديـاناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... وبادروا فماتت سنة اللؤماء

وقوله:

قد حُجب النور والضياء ... وإنما ديننا رياء
يا عالمَ السوء ما علمنا ... أن مصليك أتقياء

وكان أبو العلاء يرى رأي الحكماء الذين لا يأكلون اللحم؛ وبقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً حتى لا يعذب الحيوانات بذبحها. وكان بيته كعبة العلماء؛ فقد زاره عبد الوهاب بن نصر المالكي[٣]، وكان من كبار الشعراء، فأضافه عنده، وشهد له بالتضلع في الدين والشعر، وأشار إلى ذلك في قصيدته التي أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول:

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ ... بلادَنا فحمدْنا النأيَ والسفرا

---

(١) نيكلسون: أنظر مادة «أبو العلاء المعري» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) سقط الزند ص ٥١، ٥٢.

(٣) تولى عبد الوهاب بن نصر القضاء بمدينتي بادرايا وباكسايا الواقعتين على مقربة من النهروان، وفي مدينة إسعود الواقعة في أرض الجزيرة على مقربة من دجلة أو على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبي ميافارقين. وهجر بغداد في أخريات أيامه بعد أن ضاقت به سبل العيش، وقصد مصر في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي سنة ٤٢٢ هـ، ولم يلبث أن مات في تلك السنة. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٤٦.

إذا تـفـقـه أحـيـا مـالـكـاً جـدلاً　　وتنشـر الملك الضليـل[١] إن شعـرا[٢]

كذلك زاره في معرة النعمان ناصر خسرو الشاعر والرحالة الفارسي الذي أصبح داعياً للإسماعيلية[٣]، والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الإسماعيليـة في فارس وداعي دعاة الفاطميين في مصر، وتحدث إليه في مذهب النباتي، وقد اعتز أبو العلاء بتقدير هؤلاء العلماء له وترددهم عليه فقال:

يـزورني النـاس: هـذا أرْضُـه يمنٌ　　مـن الـبـلاد وهـذا داره الـطبس[٤]

قال الدكتور طه حسين[٥]: إن أبا العلاء «هو الفيلسوف الفذ الذي التزم ما لا يلزم عند المسلمين في سيـرته ولفـظه؛ فحرم الحيـوان، والتزم النبـات، وأبى الزواج والنسـل وأراد اعتزال الناس. ومع أنه من أصحاب اللذة فلديه شدة غريبة في رفض الخمر،فقد حرمها من جهات ثلاث: من جهة العقل والصحة والدين، وألف في ذمها كتاباً خاصاً سماه «حمـاسة الـراح»..وأبو العـلاء هو الفيلسـوف الفذ الـذي أنكر النبـوات، واعترف بـالإلـه، وعـرض بالتكليف، وعارض القرآن، وهزىء بشيء من أحكامه، ثم بقي مع ذلك سالماً لم يصبه أذى في نفسه حتى مات» (٤٤٩ هـ).

٢ ـ شعراء الفرس:

ارتقى الشعر الفارسي وبلغ أقصى مداه في عهد السـامانيين. ويعـد أبو عبـد الله بن محمد الرودجي (١٨٥ ـ ٢٣٦ هـ) أشهر شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجـري. وقد علت شهرته على شهرة من سبقـه من الشعراء، حتى لقب أبـا الشعر الفـارسي، وأول شعراء الفرس ومن أصاب القدح المعلى والزعامة بين شعراء عصـره. وكان البلعمي وزيـر إسماعيل بن أحمد الساماني (ت ٣٣٠/ ٩٤٠) يقول إن الرودجي لم يكن له نظير بين العرب

---

(١) الملك الضليل لقب لامرىء القيس الذي عده النبي ﷺ أشعر الشعراء. وقد روى الكتبي (كتاب فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات التي ذكرها في كلامه عن عبد الوهاب بن نصر المالكي.

(٢) أبو العلاء المعري، ديوان سقط الزند ص ١٣٤.

(٣) راجع لفظة «أبو العلاء» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) قصة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قوهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، إحداهما طبس العناب، والأخرى طبس التمر، أنظر لفظ طبس في معجم البلدان لياقوت.

(٥) ذكرى أبي العلاء ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

والفرس. وقد تقلد أبو علي البلعمي ابن هذا الوزير الوزارة في عهد الأمير منصور بن نوح الساماني، ونقل كتاب تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري إلى اللغة الفارسية وتوفي سنة ٣٦٨ هـ (٩٩٦ م)[١].

واشتهر في هذا العصر كثير من شعراء الفرس، نخص بالذكر منهم عمر الخيام صاحب كتاب الرباعيات المشهور، وابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) أحد فلاسفة المسلمين. وقد نظم كثيراً من القصائد بالفارسية، وبالعربية، من ذلك قوله في النفس:

هَبَطَتْ إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتَمَنُّعِ
محجوبة عن كل مُقلة عارفٍ وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدتْ تغرد فوق ذِرْوة شاهق والعلمُ يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمةً بكل خلية في العالمين فخرقها لم يُرفع[٢]

ومن شعراء الفرس الذين نظموا القصائد بالعربية مهيار الديلمي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ. وقد تحول عن المجوسية إلى الإسلام في سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) على يد الشريف الرضي نقيب العلويين في بغداد[٣]. ومن شعراء الغزنويين الفردوسي الذي يعد أشهر شعراء الفرس في كل العصور. ويأتي بعده العنصري شاعر بلاط محمود الغزنوي، والأسدي صديق الفردوسي الذي نشأ معه في مدينة واحدة، وهو مخترع ذلك النوع من القصائد الجدلية التي يطلق عليها «المناظرة»، والعسجدي والفروخي السجستاني. ثم يأتي بعد قليل المنوشيري، والمنصوري، واليميني الذي قيل إنه ألف تاريخ عهد السلطان محمود الغزنوي بالشعر الفارسي، والشاعرة ربيعة بنت كلب القُصدارية. ومن هؤلاء الشعراء أبو سعيد بن أبي الخير الذي اشتهر برباعياته في التصوف[٤].

---

(١) Browne, vol. I.pp. 355 - 356,369.
(٢) ابن خلكان جـ ١ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠. Browne, vol. II.pp. 113 - 114.
(٤) Browne, vol. II.pp.115 - 117.

٣ ـ شعراء مصر والأندلس

نبغ في مصر والأندلس كثير من الشعراء ولا سيما في العصر الفاطمي. وقد أكثر رجال الأدب في قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين، لما كان يدره هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم. ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين. على أن السنيين، وإن كانوا في مدحهم أكثر اعتدالاً من الشيعيين، كان ابن هانئ وغيره، قد غلوا في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وكثيراً ما دفعهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد.

ومن أشهر هؤلاء الشعراء محمد بن هانىء الأندلسي، وكان من قبيلة الأزد، ولد في إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه، ثم اتصل بالخليفة المعز الفاطمي الذي بالغ في الإنعام عليه. ثم توجه المعز إلى مصر، فتبعه ابن هانىء ورجع إلى المغرب لأخذ أولاده واللحاق بمولاه. وأعد العدة للرحيل وسار في طريقه إلى مصر. فلما بلغ برقة توفي سنة اثنتين وستين وثلثمائة. وعمره ست وثلاثون سنة. وقيل اثنتان وأربعون».

وكان المعز يؤمل آمالاً كباراً في هذا الشاعر ويريد أن يباهي به شعراء المشرق. فإنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر، أسف عليه أسفاً شديداً وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك»[١]. ولا شك أن المعز أصاب فيما قاله، لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانىء، ألفينا أكثره قد نظم في مدح المعز وأسرته، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه، كما يتبين ذلك في هذين البيتين:

لي صارمٌ وهو شيعي كحامله ... وهو يكاد يسبق كرابي إلى البطل

إذا المعز معز الدين سلّطه ... ولم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[٢]

ولم يفتر ابن هانىء عن مواصلة مدحه للمعز والإغراق في مدحه حتى جعله في منزلة عيسى ومحمد، بل نسب إليه بعض صفات الألوهية[٣]. ونسب إليه القدرة على إتيان المعجزات[٤].

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٤ ـ ٥.

(٢) ديوان ابن هانىء (طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ) ص ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٤.

ومن أشهر شعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكي. وقد عاصر المعز والعزيز والحاكم، وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس وغيرهما، ومن قوله يمدح ابن كلس:

لم يَدعْ للعزيز في سائر الأر ض عدواً إلا وأخمدَ نارَه
فلهذا اجتباه دون سوا ه واصطفاه لنفسه واختاره
كل يوم له على نُوب الدهر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنُها الفرار من البخل وفي حومة الوغى كراره
قد أقلَّتْ عن العزيز عِداه بالعطايا وكثَّرت أنصارَه [1]

(أ) النثر

(١) الجاحظ

تنوعت الكتابة لكثرة العلوم، وتنوع الفنون في العصر العباسي الثاني، وأصبح في المتكلمين كتَّاب، وفي الفقهاء كتاب، وللفلسفة كتاب، وللأدب،وخاصة النثر، كتاب يجيدون الكتابة في فنه. ويقول الدكتور طه حسين[2] عن الكتاب في القرن الثالث الهجري إنهم «قد تقسموا فنوناً مختلفة، وتخصص كل منهم في فرع من هذه العلوم: فمنهم من تخصص في الفلسفة والكلام، ومنهم من تخصص في اللغة والنحو، وقليل منهم من جمع من هذه الأشياء شيئاً كثيراً. بل نرى أن هذه الحياة العقلية غلبت العقل العربي على الخيال العربي، ورفعت شأن النثر على شأن الشعر، وأكثرت الكتاب وقلت الشعراء». والذي يهمنا هنا هو النثر الأدبي.

اهتم الأدباء بدراسة البيئة التي تحيط بهم: فألف القاضي محمد بن إسحاق الصيمري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ كتاب مساوىء العوام وأخبار السفلة والأغتام [3]. ووصف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الحياة في المدن. ويعد أبا النثر العربي الجديد، كما يعد أعظم كتاب النثر أثراً، حتى قال ثابت بن قرة المترجم: «ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن البصري، والثالث أبو عثمان الجاحظ»[4]. وإن أسلوب

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٢) صحيفة الجامعة المصرية، إبريل ١٩٢١ ص ٥.
(٣) يعني الأغبياء الجهال.
(٤) ياقوت: إرشاد الأريب جـ ٦ ص ٦٩ ـ ٧٠.

وما تحويه كتبه من معلومات غزيزة يؤهله لأن يوضع في المرتبة الأولى من متقدمي كتاب النثر العربي[١].

ويقول المسعودي[٢] في مؤلفات الجاحظ: «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه مع قوله بالعثمانية[٣]. وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب. إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع وكتب الجاحظ، مع انحرافه المشهور: تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم؛ ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة. وله كتب حسان منها: كتاب البيان والتبيين[٤]. وهو أشرفها، لأنه جمع فيه المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب مما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين والبخلاء، وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى نصب[٥] ولا إلى دفع حق. ولا يعلم ممن سبق وخلف من المعتزلة أفصح منه.

ومن أشهر مؤلفات الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير[٦] التي هجا فيها أحمد بن عبد الوهاب وتقع في نحو ١٥٠ صفحة[٧].

---

(١) Browne, vol. i, p. 331.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

(٣) أي تشيعه لعثمان بن عفان كما هو مذهب أهل البصرة، ومذهبهم مخالف لمذهب الشيعة العلوية في الكوفة.

(٤) اعتبر ابن خلدون (مقدمة ص ٥٠٦) كتاب البيان والتبيين أحد أركان الأدب فقال: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي على القالي البغدادي، وما سوى هذه الأبواب الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

(٥) النصب التدين ببغض علي، ويلقب أصحاب هذا المذهب بالنواصب والناصبة وأهل النصب، لأنهم نصبوا لعلي أي عادوه. وانظر القاموس المحيط.

(٦) وهي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ الإحدى عشرة (القاهرة ١٣٢٤). وقد طبعت في ليدن سنة ١٩٠٣ ضمن ثلاث رسائل هي: رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وكافة جند الخلافة، وكتاب فخر السودان على البيضان، وكتاب التربيع والتدوير (ص ٨٦-١٥٧).

(٧) أنظر طه حسين: صحيفة الجامعة المصرية (إبريل ١٩٣٣١)

(٢) أبو إسحاق الصابي:

ويمتاز القرن الرابع الهجري بنهضة أدبية مباركة. فقد ظهر فيه كثير من أعلام البيان، من بينهم طائفة من الوزراء، وذاع استعمال السجع في الرسائل. وقد وصف متز[١] هذه الرسائل في هذه العبارة فقال: «إن رسائل القرن الرابع الهجري هي آية الفن الإسلامي ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون، وهي اللغة. ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن، لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق، وامتلاكهم ناصية البيان في أصعب صورة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً. وليس من محض الاتفاق أن يكون كثير من وزراء ذلك العهد أساتذة البيان وإعلامه. لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة بأن تنشر كتباً للناس. وكان من أولئك الوزراء: الخصيبي، وابن مقلة، والمهلبي، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والإسكافي وزير السامانيين، وإبراهيم بن هلال الصابي الذي تقلد ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩ هـ.

ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الحراني (٣٢٠ - ٣٨٤ هـ) من أشهر رجال الأدب في هذا العصر. وقد ولد ببغداد، ووصفه الثعالبي[٢] في هذه العبارة فقال: «أوحد العراق في لبلاغة، ومن به تثنى الخناجر في الكتابة[٣]، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة». وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ، في عهد معز الدولة بن بويه ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار. وأثار كراهة عضد الدولة برسائله اللاذعة على لسان بختيار، فحقد عليه واعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق على أثر قتل بختيار سنة ٣٦٧ هـ. ثم أطلقه في سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه، وأمره أن يضع له كتاباً في أخبار بني بويه سماه «التاجي». وقد قيل إن عمال السوء سعوا بالصابي عند عضد الدولة وأوغروا صدره وأثاروا سخطه وحركوا ضغنه عليه، على الرغم من أنه أكب على تأليف هذا الكتاب، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه[٤]، فرفع إلى عضد الدولة

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣١٨.

(٣) تثنى أي توضع في الأغماد، والمقصود هنا أنه يستغنى بقلمه عن استعمال السيف والخنجر كما يقول الشاعر:

قوم إذا راموا عداوة معشر ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

(٤) أي تزيينه بالشنوف وهي كالأقراط من الحلي.

أن صديقاً للصابي دخل عليه يوماً فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض، فسأله عما يعمله من ذلك فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها. فأمر (عضد الدولة) بأن يلقي تحت أرجل الفيلة. فأكب نصر بن هارون ومطهر بن عبد الله وعبد العزيز بن يوسف على الأرض يقبلونها بين يديه ويستشفعون إليه في أمره ويتلطفون في استيهاب دمه إلى أن أمر باستيحائه[1] مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله، فبقي في ذلك الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلص في آخر أيام عضد الدولة إلى أن رزحت حاله وتهتك ستره»[2].

وكان هلال بن الصابي متمسكاً بدينه على الرغم مما بذله الخلفاء والسلاطين والوزراء من جهود لتحويله إلى الإسلام، حتى إن بختيار عرض عليه الوزارة إذا أسلم، «فلم يهده الله للإسلام كما هداه لمحاسن الكلام، وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويخدم الأكابر أرفع خدمة، ويساعدهم على صيام شهر رمضان، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه»[3].

(٣) الصاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ):

وكان الصاحب إسماعيل بن عباد يحب أبا إسحاق الصابي أشد الحب ويواصل إرسال منحه وعطاياه إليه. قال أبو القاسم علي بن محمد الكرخي، وكان الصاحب يقول: كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع؛ يعني نفسه.. وكان الصاحب يكتب كما يريد، والصابي يكتب كما يؤمر. وبين الحالين بون بعيد، وكيف جرى الأمر فهما هما، وقد وقف فلك البلاغة عندهما»[4].

ويعد الصاحب إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة البويهي في أصبهان والري وهمذان من أشهر رجال الأدب في عصره. وقد وصفه الثعالبي[5] وصفاً شائقاً في هذه العبارة فقال: «هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، وينبوع العدل والإحسان.. وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم، وموسم فضلائهم، ومنزع آمالهم، وأمواله مصروفة إليهم، وسار كلامه مسير الشمس، ونظم ناحيتي الشرق

(١) أي تركه حياً.
(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٩.
(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٥) يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

والغرب[١]؛ واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر، من يربي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رقاب المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين: كأبي العتاهية، والنمري، ومسلم بن الوليد، وأبي الشيعي، ومروان بن أبي حفصة، ومحمد بن مناذر، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والزهري[٢] وجرجان مثل: أبي الحسين السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني. وأبي الحسن البديهي وأبي سعد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي، وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني، وأبي القاسم بن أبي العلاء، وأبي محمد الخازن، وأبي هاشم العلوي، وأبي الحسن الجوهري، وبني المنجم، وابن بابك، وابن القاشاني، وأبي الفضل الهمذاني، وإسماعيل الشاشي، وأبي العلاء الأسدي، وأبي الحسن الفويري، وأبي دلف الخزرجي، وأبي حفص الشهرزوري، وأبي معمر الإسماعيلي، وأبي الفيض الطبري، وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عني اسمهم، ومدحه مكاتبه الشريف الموسوي الرضي، وأبو إسحاق الصابي، وابن حجاج، وابن سكرة، وابن نباته. . وما أحسن وأصدق قول الصاحب:

إن خير المُدَّاح مَنْ مدحَتْهُ   شعراء البلاد في كلِّ نادي

ذكر ابن خلكان[٣] أنه «اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره» وصنف الصاحب كثيراً من الكتب،منها كتاب في سبعة مجلدات أسماه (المحيط)، وكتاب الكافي في الرسائل، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز، وكتاب الإمامة ذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب وأثبت إمامة من تقدمه، وكتاب الوزراء، وكتاب الكشف عن مساوي شعر المتنبي إلى غير ذلك من الرسائل البديعة[٤].

وكانت مكتبة الصاحب تزخر بالمصنفات، حتى إن نوح بن أسد الساماني لما كتب إليه يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، فكان من جملة أعذاره إليه، أنه يحتاج لنقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل[٥].

---

(١) أي جمع من تدبيره بين بلاد الشرق والغرب.
(٢) كذا في كتاب يتيمة الدهر الثعالبي ولعلها الري.
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧٥.
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٧٥.
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٧.

(٤) أبو بكر الخوارزمي:

وقد تطور الأدب تطوراً ملحوظاً في هذا العصر. فبعد أن كانت المحسنات اللفظية مقصورة على الرسائل الرسمية، تعدت الرسائل الإخوانية (أو الشخصية) بوجه عام. وأصبحت كتابة هذه الرسائل في أواخر القرن الرابع الهجري فناً من أرقى الفنون، حتى استطاع كثير من الأدباء أن يتخذوا من كتابة هذه الرسائل الجديدة وسيلة للتكسب، كما كان الشعراء من قبل. ومن أشهر هؤلاء الأدباء أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ، وكان أبوه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري. وقد قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان، وتنقل في كور العراق والشام، واتصل بسيف الدولة الحمداني، وشرق بعد أن غرب، وورد بخارى، ثم نيسابور، ثم قصد سجستان وطبرستان، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها، وتوثقت الصلة بينه وبين الصاحب بن عباد في أصبهان[١].

ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد وهو بأرجان؛ فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول. فدخل الحاجب وأعلمه، فقال الصاحب: قل له، قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: إرجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي. فأذن له في الدخول فدخل عليه. فعرفه وانبسط له[٢].

حاز الخوارزمي شهرة واسعة في ميدان الأدب، فقصده الطلاب من كل حدب وصوب. فمن رسائله في الفقر: وإنما يكره الفقر لما فيه من الهوان، ويستحب الغنى لما فيه من الصوان[٣]. فإذا نبغ الغم من رتبة الغنى، فالغنى هو الفقر، واليسر هو العسر، لا بل الفقير على هذه القضية أحسن من الغني وأقل منه أشغالاً، لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق، منفك الرقبة من كل رق. فلا يستبطئه إخوانه ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تنتظر في الفطر صدقته، ولا في النحر أضحيته، ولا في شهر رمضان مائدته، ولا في الربيع باكورته[٤]. ولا

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٢ ـ ١٩٤، ٥٢٣.

(٢) أي سر به ورفع الكلفة بينه وبينه. ابن خلكان جـ ١ ص ٥٢٣.

(٣) أي صون الكرامة والنفس.

(٤) باكورة لشيء أول ما يظهر منه.

في الخريف فاكهته، ولا في وقت الغلة شعيره وبره، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره. وإنما هو مسجد يحمل إليه ولا يحمل عنه[١]، وعلوي يؤخذ عليه[٢]، تتجنبه الشرط نهاراً ويتوقاه العسس ليلاً، فهو إما غانم وإما سالم. وأما الغني فإنما هو كالغنم غنيمة لكل يد سالبة، وصيد لكل نفس طالبة، وطبق على شوارع النوائب[٣]، وعلم منصوب في مدرجة المطالب[٤]، تطمع فيه الإخوان ويأخذ منه السلطان وينتظر فيه الحدثان[٥] ويحيق ملكه النقصان»[٦].

وكان أبو بكر الخوارزمي شيعياً غالياً. ولو وازنا بين رسائل الخوارزمي ورسائل الصابي، لوجدنا رسائل الصابي أكثر اتزاناً وأقل مبالغة وأقرب إلى الواقع. وكان أهم ما امتازت به رسائل الخوارزمي المحسنات البديعية والسلاسة... وبين هذا الأسلوب وبين الأسلوب العربي القديم كثير من وجوه الشبه، ومن شغف بالألفاظ الجزلة ذات الجرس[٧] والتشبيهات الحسنة وقلق نفس الكاتب. غير أن ما كانت تنطوي عليه الفروسية قديماً من نبل العاطفة قد تغير وصار موضع سخرية، وهذه هي الصورة الوحيدة التي أتيحت له في مجتمعات المدن، أما الصفات الرئيسية التي اتصف بها أسلوب الخوارزمي، فهي أيضاً صفات الأسلوب الساخر. وهي المبالغة والتكرار، وهو يعمد إليهما باعتبارهما طريقة فنية في الكتابة»[٨].

(٥) بديع الزمان الهمذاني:

وكان زعيم هذا النوع من الكتابة أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨[٩]. ـ وكان كما وصفه الثعالبي[١٠]ـ «معجزة همذان ونادرة الفلك. وبكر

(١) أي أن الفقير يشبه المسجد في أنه يوهب له ولا يستوهب منه.

(٢) لا يؤخذ عليه أي لا يعقد عليه شيء، وفي الأصل «عنه» ولعله تحريف.

(٣) يشبه الغني بالطبق على الإناء يغطي بماله النوائب التي تنتاب الناس.

(٤) بمعنى أنه كالراية المنصوبة الظاهرة يقصد إليها كل طالب، والمراد أن الغني يكون ظاهراً في قومه. فإذا نزلت بهم المغارم والمطالب قصده الطالبون أولاً.

(٥) أي يرتقب نزول الحوادث به.

(٦) أي يأتي على مملوكه النقص بالحوادث والعلل. الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٧) الجرس الموسيقي والعذوبة.

(٨) متز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ١ ص ٤٠٤.

(٩) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩.

(١٠) يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٠.

عطارد[١]، وفرد الدهر وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف النفس وصفاء الذهن وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرره ودرر النظم ونكته. ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب: فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفاً ولا يخل بمعنى، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يهذها[٢] عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً. وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها.

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها.

وربما كان يكتب الجواب المقترح عليه، فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه. ويوشح القصيدة[٣] الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه. ويقترح عليه كل عويص وعسير من النثر، فيرتجله في أسرع من الطرف على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه».

اتصل بديع الزمان بالصاحب بن عباد وأخذ عنه، كما اتصل بأبي بكر الخوارزمي. ومن رسائله إلى الخوارزمي: «أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه، كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب»[٤].

ومن رقعة له: «يعز عليَّ أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي قبل وصولي، ويرد مشرع الأنس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة:

وعليَّ أن أسعى وليـ ـسَ عليَّ إدراكُ النجاح

(١) قال الأزهري: «عطارد كوكب الكتاب» ومعناها أن الذين يولدون في طلوع عطارد يكونون ذوي حظ في الأدب والكتابة والشعر.

(٢) الهذ سرعة القراءة.

(٣) التوشيح التزين بالوشاح، والمراد أنه يجمع بين صناعتي الشعر والنثر.

(٤) رسائل بديع الزمان الهمذاني ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وما بي حب الحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق إلى السكان(١).

على أن بديع الزمان كان بخلاف الخوارزمي، سنياً مغالياً في عقائد هذا المذهب. وكان من أثر ذلك أن دب الخلاف بينهما، فتقارعا وتساجلا، وكانت الغلبة لبديع الزمان الذي ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، وخاصة بعد موت الخوارزمي. وكان بديع الزمان يضع من قيمة أسلوب الخوارزمي ويقول: إنه لا يجيد من الكتابة «إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول لكل يد وفم»(٢).

ومن قول بديع الزمان في تعزية: «الموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنب حتى صار الحمام أصغر ذنوبها. فلتنتظر يمنة هل ترى إلا محنة؟ ثم لتعطف يسرة هل ترى إلا حسرة؟»(٣).

وهناك رجل آخر من رجال الرسائل المشهورين، هو أبو الفتوح علي بن محمد البستي الذي اشتهر بحذقه في الشعر والنثر. وقد أمر سبكتكين أبو السلطان محمود الغزنوي بإحضاره حين فتح مدينة بُست، فدخل في خدمة سبكتكين، وأصبح كاتب الرسائل في ديوانه وشاعر بلاطه، ثم خدم ابنه محموداً بعد وفاته، ومات في منفاه ببخارى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م)(٤). وقد حذق الصناعة البديعة التي اشتهرت في زمانه على يد ابن العميد والصاحب وأضرابهما. وكانت له طريقة جميلة في التجنيس خاصة. «فمن ألفاظه البديعة قوله: من صلح فاسده أرغم حاسده، ومن أضاع غضبه أضاع أدبه، عادات السادات سادات العادات، من سعادة جدك وقوفك عند حدك، الرشوة رشاء الحاجات، أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً وعلى السلطان مدلاً. الفهم شعاع العقل، المنية تضحك من الأمنية، حد العفاف الرضا بالكفاف، ما لخرق الرقيق ترقيع».

وقد ذاعت أشعار البستي في زمانه وحفظها الباس وتناقلوها. . وكثير منها كان يروى على ألسنة الرواة في مجالس القاهرة ومقاهيها. من ذلك القصيدة التي مطلعها:

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٤٣.
(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني ص ٧٦.
(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٣٤٤.
(٤) تاريخ اليميني جـ ١ ص ٦٧ ـ ٧٢.

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران

ومنها:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسان[١]

(ب) العلوم العقلية

١ ـ الفلسفة:

(أ) الكندي:

تأثر المسلمون بالفلسفة اليونانية بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربية في عهد الرشيد والمأمون، فاشتغل «كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها. نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم. وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها». وكان معاصراً للمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وكان المأمون ـ كما لا يخفى ـ أكثر الخلفاء عناية بالفلسفة وحثا للعلماء على دراستها ونقل كتبها، كما لا يخفى أثر الفلسفة في علم الكلام.

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التي تأثرت بهذه الثقافة، وخاصة الكنيسة النسطورية التي انتشرت آراؤها في بلاد المشرق عامة وفي فارس خاصة، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التي انتشرت في سورية. كما كان لمدارس الرها أثر كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي مدارس نصيبين، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التي نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس. ولا تقل مدارس حران في بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين؛ إذ كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية والأفلاطونية الحديثة[٢]. وكان الحرانيون ـ أو الصابئة، وهذه التسمية التي أطلقت عليهم في

---

(١) Browne vol. I, pp.98,100

(٢) دي بور. تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٥ ـ ١٧.

القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع الهجري) ـ [١] ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة[٢] وأغاثاذيمون[٣] وأورانيوس[٤] وغيرهم. وقد أخذوا عن حسن نية بآراء موضوعة ترجع إلى العصر الإغريقي المتأخر، وربما يكون بعض هذه الآراء قد وضع بين ظهرانيهم. وقد نشط قليل منهم في الترجمة وفي التأليف الذي يدل على سعة العلم، وكان لكثيرين منهم اتصال علمي وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن إلى العاشر (الثاني إلى الرابع الهجري)[٥].

وقد أسس كسرى أنوشروان (٣٥١ ـ ٣٧٩ م) في مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين. وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر كبير في جذب العلماء، لا من النسطوريين وحدهم، بل من اليعقوبيين والسريانيين، الذين ذاعت شهرتهم في الطب، سواء في عهد الساسانيين أو في عهد الخلفاء الراشدين. ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطوني الحديث من وسائل التشجيع والتعضيد[٦].

وممن تأثر بالآراء الفلسفية اليونانية خاصة يعقوب بن إسحاق الكندي، من قبيلة كندة اليمنية التي ينسب إليها امرؤ القيس الشاعر. وهو ـ كما يظهر من اسمه ـ عربي الجنس، ولذلك سمي فيلسوف العرب. وكان ـ كما يقول ابن النديم[٧] ـ «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها... وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقي والموسيقي والنجوم، وغير ذلك».

نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغداد، وكانت ـ كما نعلم ـ من مراكز الثقافة الإسلامية التي تأثرت بالثقافتين الفارسية واليونانية واشتهر الكندي بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتنقيح ما ترجمه غيره من المترجمين. وتأثر بآراء المعتزلة، كما تأثر

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) ذكر ابن النديم (الفهرست ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤، ٤٩٦ ـ ٤٩٧) أن الكندي اطلع على مقالات لهرمس في التوحيد «لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها».

(٣) أوغاثوذيمون. وهو مصري، وكان أحد أنبياء اليونانيين والمصريين.

(٤) يسميه ابن النديم أراني ويذكره مع أنبياء الحرانيين والكلدانيين.

(٥) راجع دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٧، ١٨ هامش (١)، (٢)، (٣).

(٦) المصدر نفسه ص ١٨ ـ ١٩.

(٧) كتاب الفهرست ص ٣٥٧.

بالفلسفة اليونانية، وخاصة فلسفة أرسطو، واشتغل بالرياضيات وما وراء الطبيعة. ومن أشهر تلاميذه أحمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ. وكان مؤدب الخليفة المعتضد، واتصل به اتصالاً وثيقاً. ثم قلده الحسبة، وجعل يستشيره في أمور خلافته، واشتغل بالكيمياء والجغرافيا والتاريخ[١]. ومن تلاميذ الكندي أيضاً أبو معشر البلخي المنجم المشهور المتوفى سنة ٢٧٢ هـ، كما تأثر بآراء إخوان الصفا[٢].

وذكر ابن النديم (ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩) مؤلفات الكندي في الفلسفة والمنطق والحساب، والموسيقى والنجوم والهندسة، والفلك والطب والجدل والنفس والسياسة وغيرها.

ومن هؤلاء الفلاسفة أبو نصر الفارابي (٣٣٩ هـ) الذي لقب المعلم الثاني، والرئيس ابن سينا (٤٢٨ هـ)، وحجة الإسلام الغزالي (٥٠٥ هـ). على أن بعض الخلفاء والعامة حاربوا المشتغلين بالدراسات الفلسفية. فاضطهدوا الفلاسفة واتهموهم بالزندقة. حتى لقد نودي ببغداد في سنة ٢٧٩ هـ بألا يقعد على الطريق منجم وألا تباع كتب الفلسفة.

وقضى الحاجب المنصور بن أبي عامر على الفلاسفة وأمر بإحراق كتبهم مع ميله إلى الفلسفة. وإنما فعل ذلك ليتقرب إلى العامة. ومن ثم كانت دراسة المسلمين للفلسفة ضرورية للدفاع عن الشريعة الإسلامية. وما له صلة بالعلوم الفلسفية التي أباح الإسلام دراستها للحاجة إليها كالطب.

(ب) إخوان الصفا:

ومن أشهر فلاسفة هذا العصر هذه الطائفة التي تعرف باسم «إخوان الصفا». وكانت ذات نزعة شيعية متطرفة، حتى قيل إنها إسماعيلية[٣]. وكانت هذه الطائفة ـ كما يقول براون[٤] ـ موضع عطف بني بويه الذين اشتهروا بأفكارهم الحرة، وحلوا محل العنصر التركي ردحاً من الزمن، وأصبح لهم النفوذ الفعلي في بغداد حول منتصف القرن الرابع (٩٤٥/٣٣٤). ومن ثم استطاعت هذه الطائفة أن تتم ما بدأه المعتزلة، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف».

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٦٦.

(٣) يرى بعض أن إخوان الصفا جماعة من علماء القرامطة الإسماعيلية، وأنهم اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم العلمي، وكان لهم فرع في بغداد.

(٤) Browne, vol. I, p. 292

وكان إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة. وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية، متأثرين بالفيثاغورية الحديثة، ولجئوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازياً[١]. وتعتبر رسائل إخوان الصفا أشبه بدائرة معارف. أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف، وتدل في الوقت نفسه على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقي العقلي. وتتألف هذه الرسائل من إحدى وخمسين رسالة تقوم على دعائم من العلم الطبيعي، ولها من وراء هذا أغراض سياسية، وتبدأ فلسفة إخوان الصفا بالنظر في الرياضيات، وبالتلاعب بالأعداد والحروف، ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات، فترد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى، وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي. وصفوة القول في آرائهم أنها تتضمن مذهب جماعة مضطهدة، تبدو النزعات السياسية مع جميع أجزائه، ونرى من خلاله بعض ما عاناه أصحاب هذه الرسائل من آلام وما قاموا به من كفاح، وما استهدفوا له هم وأسلافهم من ظلم، نتبين منه ما كان يختلج في نفوسهم من الأمل، وما تواصلوا به من الصبر. وهم يلتمسون في هذه الفلسفة الروحية سلوى لنفوسهم وتطهيراً لها. وهذه الفلسفة هي دينهم، وشعارهم المذكور أن يكون الواحد منهم مخلصاً حتى الموت، لاعتقادهم أن ملاقاة الموت في سبيل صلاح الإخوان هي الجهاد الصحيح. وكانوا يؤولون الحج إلى مكة بأنه مثل ضربة الله لطواف الإنسان على هذه الأرض[٢]. فأوجبوا على الإنسان أن يساعد أخاه في هذه الحياة بكل ما يستطيع، فيجب على صاحب المال أن يجعل للفقير حظاً من ماله، وعلى من أوتي شيئاً من العلم أن يعلم أخاه الجاهل، غير أن العلم ـ كما نراه في رسائل إخوان الصفا ـ قد حبس على خاصة المستنيرين من أفراد الطبقة العليا[٣].

من هذا نرى أن الغرض الذي كان يرمي إليه مؤلفو هذه الرسائل هو محاولة التوفيق بين الدين والعلم، ولكنهم لم يستطيعوا إرضاء أهل الدين ولا أهل العلم، فإن المتكلمين والفقهاء السنيين عابوا عليهم طريقتهم في التأويل. كما أن الفلاسفة، والمتأثرين منهم بفلسفة أرسطو بوجه خاص، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية. ومع هذا استطاعت الفلسفة اليونانية أن تستقر في الشرق بفضل هذه الطائفة، كما تأثرت بكتاباتهم طوائف الإسماعيلية: كالدرزية والنزارية المشهورين بالحشيشية في فارس والشام، كما أفاد آخرون في تأليف موسوعاتهم على غرار رسائل إخوان الصفا[٤].

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥.

(٢) رسائل إخوان الصفا جـ ٢ ص ١١٩.

(٣) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٤) المصدر نفسه ص ٩٩.

وقد ذكر الشهرزوري أسماء خمسة من العلماء من مؤلفي هذه الرسائل وهم: أبو سليمان محمد بن نصر البستي، ويسمى أيضاً المقدسي (أو المقدّسي)، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد النهرجوري (أو المرجاني)، والعوفي، وزيد بن رفاعة. ويظهر أن الثلاثة الأولين من هؤلاء من أصل فارسي كما يتضح من أسمائهم. وكان من بينهم أيضاً ابن سيناء الطبيب والفيلسوف المشهور الذي «انتهت بموته (سنة ٤٢٨ هـ) - كما يقول Dietrici[1] - . حركة الفلسفة في المشرق»[2].

(جـ) أبو نصر الفارابي:

ومن أشهر فلاسفة المسلمين في هذا العصر أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي[3] (٣٣٩ هـ). وكان أبوه من كبار القواد. وقد تنقل أبو نصر في أمهات المدن الإسلامية، واختلف إلى بغداد حيث أخذ المنطق على أبي بشر متى بن يونس الحكيم المشهور، وإلى حران حيث أخذ عن يوحنا بن خيلان الحكيم. ثم عاد إلى بغداد «وقرأ بها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس، وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها». ويقال إنه وجد كتاب لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط أبي نصر الفارابي، إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة، ونقل عنه أنه كان يقول: قرأت السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة، وأرى أني محتاج لمعاودة قراءته[4]. ويعتبر الفارابي أكثر فلاسفة المسلمين، حتى لقب بفيلسوف المسلمين بالحقيقة وفيلسوف المسلمين غير مدافع[5].

اتصل الفارابي ببلاط سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وصحب سيف الدولة عند فتحه مدينة دمشق ومات بها في سنة ٣٩٩ هـ. وترجع شهرته إلى شروحه الكثيرة على مؤلفات أرسطو، حيث لقب «المعلم الثاني»، تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب «المعلم الأول». كما يمتاز الفارابي برسائله الكثيرة في علم النفس والإلهيات. ومنها العقل والمعقول، والنفس، وقوى النفس، والواحد والواحدة، والجوهر، والزمان، والخلاء، والمكان، والمقاييس. كما كتب عدة رسائل للتوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون منها: كتاب

---

(١) نشر رسائل إخوان الصفا وترجمها إلى الألمانية بين سنتي ١٨٥٨، ١٨٨٦ م. ونشرت أيضاً في ثلاثة أجزاء (بمباي ١٣٠٥ هـ)، تصنيف أحمد بن عبد الله.

(٢) Browne, vol.I,p.293'

(٣) سمي بذلك لأنه ولد في محلة وسيج المنيعة الواقعة في إقليم فاراب ببلاد وما وراء النهر.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٧٦.

(٥) القفطي: أخبار الحكماء ص ١٨٢.

الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطاطاليس، وأغراض أفلاطون، وأرسطو، وكتاب التوسط بين أرسطاطاليس وجالينوس. كما نشرت له رسالة آراء أهل المدينة الفاضلة[١]، وتقع في أربعة وثلاثين فصلاً، وتبين مدى تأثر الفارابي بأفلاطون[٢]. كما تكلم الفارابي في الأخلاق والمنطق، وفيما وراء الطبيعة، فتكلم عن الوجـود والله، وعن العالم العلوي، والعالم السفلي، وبحث في النفس الإنسانية والعقل في الإنسان، وعن الحياة الآخرة[٣].

(د) ابن سينا:

ومن فلاسفة هذا العصر الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ) الذي أحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب. ولهذا ذاع صيته في هاتين الناحيتين في العصور الوسطى، ليس في تفكير أهالي آسيا وحدها، بل في تفكير الأوربيين أيضاً[٤].

ولد ابن سينا في إحدى قرى مدينة بخارى. وانتقل مع أسرته إلى هذه الحاضرة وهو في الخامسة من عمره، وحفظ القرآن ودرس الأدب وأصول الدين وحساب الهندسة والجبر ولما يجاوز العاشرة من عمره، ثم درس على أبي عبد الله الناتلي الفلسفة والمنطق، ثم درس وحده الطبيعيات والإلهيات مستعيناً في ذلك بمؤلفات الفارابي. ثم درس الطب ونبغ فيه ولم يكن قد جاوز السابعة عشرة. ولما اضطربت أحوال الدولة السامانية خرج ابن سينا من بخارى وقصد خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، ثم انتقل إلى نيسابور وأبيورد وطوس وغيرها. وكان يتردد على شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان. ثم انتقل إلى الري وقزوين وهمذان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة (٣٨٧ ـ ٤١٢هـ)، ابن فخر الدولة. ولكن الجند ثاروا عليه، فتوارى، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير الذي قلده الوزارة من جديد، وظل فيها إلى أن مات. ثم تولى تاج الدولة، فلم يستوزره، فتوجه إلى أصبهان، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة[٥].

ألف ابن سينا في المنطق مقتفياً أثر أبي نصر الفارابي. ويعتبر المنطق المدخل

---

(١) طبعة مصر سنة ١٣٢٣ هـ.

(٢) راجع مادة «أبو نصر الفارابي» في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) يرى الفارابي أن كل موجود إما واجب الوجود أو ممكن الوجود، وليس هناك بين هذين الضربين وجود.

(٤) راجع دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٢٧ وما يليها.

(٥) Browne, vol.II.p.206

للفلسفة التي ألف فيها الكتب وتأثر بأرسطو، كما بحث في الإلهيات وشرح إلهيات أرسطو، وتكلم عن الطبيعة. وكان يحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة أو الجماعية. كما تكلم في الإنسان والنفس الإنسانية والعقل، وانفرد في العقل بآراء، ففي رسالته حي بن يقظان يرى أنه هو هادي النفوس الناطقة الإنسانية، وهو العقل الفعال آخر العقول الفلكية، وهو الذي يؤثر في العقل الإنساني[١].

وكان ابن سينا ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ٢ ص ١٥٣) ـ «نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه، وصنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والإشارات والقانون[٢] وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر». وقد ذكر السمرقندي أن «كل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من «القانون» لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكلياته ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب».

٢ ـ الطب:

كان لتقدم الطب في أواخر العصر العباسي الأول أثر كبير في العصر العباسي الثاني فقد نبغ في عهد الواثق والمتوكل كثير من الأطباء من أمثال يحيى بن ماسويه المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٦ م)، وبختيشوع الذي دخل في خدمة الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكانوا يثقون به في معالجة نسائهم وأولادهم[٣]. ولكن المتوكل صادر ثروته الضخمة التي جمعها من اشتغاله بالطب ونفاه إلى البحرين في سنة ٢٢٤ هـ لأسباب واهية[٤].

وممن نبغ في الطب أيضاً حنين بن إسحاق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ، وكان ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١٦٧) إمام وقته في صناعة الطب، كما اشتهر بنقل كثير من الكتب اليونانية وترجم عن اليونانية كتب إقليدس، الذي نقحه ثابت بن قرة فيما بعد. ومن مؤلفات بختيشوع في الطب كتاب المسائل في الطب للمتعلمين وكتاب علاج العين. وكتاب الأسنان واللثة، وكتاب تدبير الفاقة، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها، وكتاب المولودين لثمانية أشهر (عمله لأم ولد المتوكل)، وكتاب الأغذية، وكتاب اللبن[٥].

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ١٥٢

(٢) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٨١.

(٤) جهار مقالة، ترجمة عزام والخشاب ص ٧٦,

(٥) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤١١، ٤١٣

(٦) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٤١٠.

اعتمد العباسيون على أطباء العراق والهند، كما اعتمدوا على الطب الذي خلفه اليونان. وقد نبغ في عهد الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) من الأطباء ابن بختيشوع، وابن ماسويه، وميخائيل، وحنين بن إسحاق، وحذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الأمراض.

وكذلك وصف الأطباء في هذا العصر، الفم والأسنان وأنواعها وعهدها ووظيفة كل منها. حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحاق، وطلب منه أن يصنف له كتاباً يذكر فيه جميع ما يحتاج إلى معرفته، «فصنف له كتاباً جعله ثلاث مقالات، يذكر فيها الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد[1]».

ويعد أبو يعقوب إسحاق بن حنين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ، (وقيل سنة ٢٩٩ هـ)، من أشهر أطباء هذا العصر. وقد فاق أباه حنين بن إسحاق في النقل من اليونانية والسريانية إلى العربية. «وكان ـ كما يقول ابن النديم (ص ١٤٥) ـ فصيحاً بالعربية، يزيد على أبيه في ذلك». واتصل بالخلفاء وكبار رجال الدولة، ثم انقطع إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وأصبح من المقربين إليه[2]. وله كثير من الكتب في الطب غير ما نقله إلى العربية، منها كتاب الأدوية المفردة على الحروف، وكتاب تاريخ الأطباء (ابن النديم ص ٤١٥).

ومن أشهر أطباء هذا العصر: أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م)[3] وابنه إبراهيم المتوفى سنة ٣٣٦ هـ. وقد أراد الخليفة القاهرة أن يحوله إلى الإسلام فهرب، ثم اعتقد هذا الدين بعد ذلك (ابن النديم ص ٤٢١). وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي عقد سنان بن ثابت امتحاناً لأطباء بغداد رخص بعده لثمان وستين بمزاولة مهنة الطب. وكان ذلك على أثر وفاة مريض بسبب إهمال الطبيب. وكان يشرف على هؤلاء الأطباء رؤساء ومفتشون. وقد أمر كل طبيب بأن يحتفظ بصورة من تذكرة الدواء التي يعطيها للمريض، لتقديمها إلى الرئيس ليفحصها ويحكم فيما إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين. وكان ينزل العقاب على الطبيب إذا مات المريض بسبب إهماله أو عدم كفايته.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٦.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٢٤٥.

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية، أو البيمارستانات، على نظام معاهد الطب الأجنبية ولا سيما السريانية منها، لأن السريان غلبوا على مهنة الطب في العصر العباسي الأول، فاقتبس المسلمون فكرة البيمارستان منهم. وكان يطلق على مدير البيمارستان إذا كان سرياني الأصل «الساعور»، ومعناها بالسريانية «متفقد المرضى». أما إذا كان مسلماً أطلق عليه «رئيس الأطباء»، وهو الذي يشرف عليهم ويأذن لهم بممارسة مهنة الطب[١].

وقد أطلق على من يشتغل بالطب في العصور الوسطى «حكيم» لأن الطب كان إذ ذاك من أبواب الحكمة أو الفلسفة، وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة كالطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين وغيرهم. وقد ذكر ابن قيم الجوزية أنواع الأطباء في هذه العبارة فقال: «والطبيب في هذا الحديث تناول من يطب بوصفه وقوله وهو الذي يختص باسم الطبائعي، وبمروده وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحي، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن. وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم»[٢].

(أ) أبو بكر الرازي:

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١ هـ أشهر أطباء عصره، ويعرف عند الأوربيين باسم Rhazee. وكان في حداثة سنه مولعاً بالغناء، ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الأربعين. فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها، فبلغ من معرفة غوابرها الغاية، واعتقد الصحيح منها، وعلل السقيم، وألف في الطب كتباً كثيرة. وقال غيره: كان إمام وقته في علم الطب المشار إليه في ذلك العصر. وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها، عارفاً بأوضاعها وقوانينها، تشد إليه الرحال لأخذها عنه؛ وصنف فيها الكتب النافعة: فمن ذلك كتاب الحاوي، وهو من الكتب الكبار يدخل في مقدار ثلاثين مجلداً، وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف؛ ومنها كتاب الجامع، وهو أيضاً من الكتب النافعة، وكتاب الأعصاب وهو أيضاً كبير».

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٩، ٢٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ص١١٠.

اتصل الرازي بمنصور بن إسحاق بن أحمد بن نوح الساماني، فألف له كتابه «المنصور في الطب»، وبعد أشهر كتبه؛ «وهو على صغر حجمه من الكتب المختارة، جمع فيه بين العلم والعمل، ويحتاج إليه كل أحد» (ابن خلكان جـ٢ ص ٧٨).

وقد ذكر ابن النديم (ص ٤١٧) أسماء كتب الرازي، فمنها «كتاب الحاوي، ويسمى الجامع الحاضر لصناعة الطب، وينقسم هذا الكتاب اثني عشر قسماً: القسم الأول منه في علاج المرضى والأمراض، القسم الثاني في حفظ الصحة، القسم الثالث في الرئبة والجبر[1] والجراحات، القسم الرابع في قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من المواد في الطب، القسم الخامس في الأدوية المركبة، القسم السادس في صناعة الطب، القسم السابع في صيدلة الطب: الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها، القم الثامن في الأبدان، القسم التاسع في الأوزان والمكاييل، القسم العاشر في التشريح ومنافع الأعضاء، القسم الحادي عشر في الأسباب الطبيعية من صناعة الطب، القسم الثاني عشر في المدخل إلى صناعة الطب مقالتان: في الأولى الأسماء الطبية، وفي الثانية أوائل الطب».

ومن هذه الكتب كتاب في أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان، وكتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر، وكتاب الجدري والحصبة، وكتاب الحصى في الكلي والمثانة، وكتاب إلى من لا يحضره طبيب، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان، وكتاب الطب الملوكي، وكتاب اختصار النبض الكبير لجالينوس، وكتاب الفالج، وكتاب هيئة الكبد، وكتاب النقرس[2] وعرق المديني، وكتاب القلب، وكتاب هيئة الصماخ[3]، وكتاب أوجاع المفاصل اثنان وعشرون فصلاً، وكتاب أقراباذين (يعني المادة الطبية)، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجاتها على الشرح، وكتاب في العلة التي لها يحدث الورم من الزكام في رؤوس بعض الناس؛ وكتاب في التلطف في إيصال العليل إلى بعض شهواته، وكتاب دفع مضار الأغذية، وكتاب ترتيب أكل الفواكه، وكتاب ما يعرض في صناعة الطب[4].

---

(١) رأب الصدع: أصلحه وشعبه، ولعله في صناعة جبر العظام.

(٢) بتشديد النون وسكون القاف وكسر الراء: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين، ويسمى داء الملوك.

(٣) تشريح صماخ الأذن.

(٤) راجع ابن النديم (ص ٤١٧ ـ ٤١٩) حيث تجد كل ما ألفه الرازي في الطب والمنطق والفلسفة والهندسة والكيمياء.

اشتهر الرازي بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى، حتى كان يعالجهم وينفق عليهم، ومن إرشاداته الطبية: «ومهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب. . . وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة. ومن كلامه: عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة[١].

وقد أسندت إلى الرازي إدارة مارستان الري ثم مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي العباسي. وللرازي آراء صائبة في الشروط التي تتوافر في الطبيب الماهر الذي يثق به المرضى في علاجهم. من ذلك يجب أن يكون حسن السيرة لا يقضي وقته في الملاهي وشرب الخمر والتمادي في الشهوات، وأن يكون أتم دراسة الطب دراسة تشهد له بالتفوق، وأن يكون قد شاهد كثيراً من المستشفيات واختلط بكثير من مهرة الأطباء، وأن يكون واسع الاطلاع بقراءته مؤلفات مشهوري الأطباء، وأن لا يقتصر على معلوماته وتجاربه الشخصية وحدها، وإلا كان متخلفاً في مهنته.

(ب) علي بن العباس المجوسي:

كان علي بن العباس المجوسي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) طبيب عضد الدولة البويهي، ومؤلف كتاب «كامل الصناعات» أشهر أطباء عصره. وكان يقيم مع عضد الدولة في مدينة شيراز. وقد ذكر نظامي عروضي السمرقندي في كتابه «جهار مقالة» الذي ترجمه براون[٢] إلى الإنجليزية أن شهرة علي بن العباس قد ذاعت على أثر معالجته حمالاً اعتاد أن يحمل أحمالاً ثقيلة، وأصيب من جراء ذلك بصداع مزمن كان يقعده عن عمله من حين إلى حين. وقد أصيب بهذا المرض وحاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قاسى آلام هذا المرض سبعة أو ثمانية أيام. وتصادف أن مر هذا الطبيب ببيت المريض، فحياه أخوه واستحلفه بالله سبحانه وتعالى وأخبره بحالة أخيه وطلب إليه أن يعوده. وكان هذا المريض بديناً يلبس حذاء ثقيلاً، فحلل بوله، ثم أمر بنقله إلى جهة خلوية، وأمر أحد خدمه بخلع حذائه وضربه على قفاه، ثم أمر بخلع عمامته ولفها حول عنقه، وأمر المريض أن يمتطي صهوة جواده ويعدو به حول ذلك المكان الفسيح، فبدأ الدم يتدفق من خياشيمه حتى ساءت حاله. ونام نوماً عميقاً

---

(١) ابن النديم ص ٤١١. ابن خلكان جـ ٢ ص ٧٨.

(٢) Chahar Maquala, Anechote XXXV I pp.124 - 125.

وسط هذه الدماء المتدفقة من أنفه، وفقد ثلثمائة درهم من دمه. ثم حملوه إلى داره ونام يوماً وليلة، وزال عنه الصداع ولم يعاوده أبداً. ولما سأل عضد الدولة طبيبه عن هذه الطريقة الغريبة في معالجة هذا المريض، أجابه أن الدم قد تجمد في رأسه وأنه كان من المستحيل أن يخلصه من هذا الدم المتراكم بالحجامة، فلجأ في علاجه إلى هذه الطريقة التي صادفت هذا النجاح.

ومن مؤلفات علي بن العباس كتابه المعروف «كامل الصناعة» أو الملكي الذي أهداه إلى السلطان عضد الدولة البويهي، وقد بين فيه طرق العلاج. ومن أحسن ما وصف في هذا الكتاب كلامه على مرض الجدري وأسبابه الظاهرية والباطنية وأعراضه وطرق علاجه.

(ج) ابن سينا:

ذكرنا من قبل أن ابن سينا درس المنطق والفلسفة على أبي علي القالي، وأنه أخذ - الفقه على إسماعيل الزاهد، واشتغل بالطب بعد أن توجه الناتلي إلى خوارزم شاه مأمون بن محمد «وتأمل الكتب المصنفة فيه، وعالج تأدباً لا تكسباً، وعلمه هذا فاق الأوائل والأواخر في أقل مدة، وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثل. واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة. وسنه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة. وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل في النهار بسوى المطالعة. وكان إذا أشكلت عليه مسألة، توضأ وقصد الجامع وصلى، ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له. وذكر عند الأمير نوح بن نصر الساماني (٣٣١ - ٣٤٣ هـ) صاحب خراسان في مرض مرضه، فأحضره وعالجه حتى برىء، واتصل به وقرب منه، ودخل إلى دار كتبه.. فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها، وحصل نخب فوائدها، واطلع على أكثر علومها. واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتفرد أبو علي بما حصله من علومها، وكان يقال إن أبا علي توصل إلى إحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه. ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عاناها[1].

ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو علي من بخارى وقصد قصبة خوارزم، واختلف إلى خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد، ثم انتقل إلى نسا وأبيورد وطوس وغيرها

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ن البلاد. وكان يقصد الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان. وكان السلطان محمود الغزنوي قد بعث في طلب العلماء الذين كانوا ببلاط خوارزم شاه. فلما هرب ابن سينا أمر هذا السلطان بنشر صورته في الآفاق. وقد مرض أحد أقرباء شمس المعالي قابوس وشمكير، فعالجه ابن سينا وتم شفاؤه على يديه، فاستدعاه قابوس إليه وعرف شخصيته، لكنه آثر بقاؤه في خدمته. ولما سجن قابوس ومات ذهب ابن سينا إلى داهستان، ثم عاد إلى جرجان وصنف بها كتابه الأوسط الجرجاني، ثم انتقل إلى الري، ثم إلى قزوين وهمذان، وتقلد الوزارة لشمس الدولة بن فخر الدولة (٣٨٧ ـ ٤١٢ هـ). لكن الجند ثاروا عليه فتوارى، ثم أعيد لمداواة هذا الأمير، وتقلد الوزارة من جديد، وظل فيها إلى أن مات شمس الدولة، وتولى تاج الدولة فلم يستوزره، فتوجه إلى أصبهان، فأحسن إليه أميرها علاء الدولة بن كاكويه الذي يقول فيه ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٧٠): «ولا شك أن أبا جعفر (ابن كاكويه) كان فاسد الاعتقاد، فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده[١]، وقد خلف ابن سينا كثيراً من الكتب في الطب، أشهرها كتابه «القانون» الذي كان يدرس في مدارس الطب في آسيا وأوربا أكثر من ستة قرون، وخاصة ما يتعلق منه بعلم الصحة والرضاع والشروط التي يجب أن تتوافر فيمن ترضع الطفل سواء أكانت أم الطفل أم امرأة أخرى، وكانت وفاة ابن سينا في مدينة همذان سنة ٤٢٨ هـ (١٠٢٦ م).

(د) أطباء مصر:

وكما زخرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا في الطب بأوفر سهم، كذلك حفل المغرب الإسلامي وخاصة مصر، بطائفة من أشهر أطباء هذا العصر، ومن هؤلاء سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون، وكان نصرانياً. ويقول ابن الداية[٢] إن ابن طولون شكا من الإسهال، فنصح له هذا الطبيب أن يلزم الحمية يومين لكنه خالفه وأكل، فانقطع عنه الإسهال. ولما علم هذا الطبيب بذلك، أيقن أن حياة ابن طولون قد آذنت بالأفول، ووصف حاله في هذه العبارة: «ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء، وسيتحرك حركة منكرة». وقد صدق هذا الطبيب ومات ابن طولون بعد يومين[٣].

---

(١) أنظر ترجمة أبي علي بن سينا في ابن خلكان جـ ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) سيرة ابن طولون ص ٨١.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء جـ ص ٨٣ ـ ٨٥.

ومن الأطباء الذين اشتهروا بمصر إبراهيم بن عيسى الذي صحب أحمد بن طولون إلى مصر ومات بها في سنة ٢٦٠ هـ، والحسن بن زيرك، وكان من أطباء ابن طولون أيضاً، ومات قبله بيوم واحد[١].

ولا غرو فقد نبغ في هذا العصر كثير من المصريين في علم الطب وما يتصل به من صناعة الأدوية والعقاقير. وقد عمل ابن طولون في مؤخر جامعه ميضأة وخزانة شراب، بها الأدوية والأشربة التي قد يحتاج إليها المصلون، وقرر لهذا المكان الخدم، وعين للمسجد طبيباً خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين، ويكاد هذا يشبه نظام الإسعاف اليوم.

وكان ابن طولون يعنى بالشئون الصحية، فقد بنى المارستان للمرضى في أرض العسكر؛ وقسمه إلى أقسام جعل كلاً منها خاصاً بفرع من فروع الطب (سنة ٢٥٩ هـ) وجعل له حمامين. خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء. وأباحه للناس على اختلافهم من غير تمييز في الأديان والمذاهب.

وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح، وقلدوهم المناصب العالية، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط. ومما ساعد على تقدم دراسة الطب أنه أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات الطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحالين، أي الذين يعالجون أمراض العيون. وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية، بجانب إلمامه بالطب، وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في هذا العصر.

ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، وقد نشأ في بيت المقدس ثم تنقل في كثير من المدن في طلب هذا العلم، وتوفر على دراسته حتى نبغ فيه، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية. ثم اتصل التميمي بالحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدي عامل الرملة وما يليها من البلاد الساحلية في عهد الإخشيديين، فقربه إليه، ثم صحب يعقوب بن كلس وصنف له كتاباً يشمل عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء». ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي.

---

(١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٣.

ومن أطباء المعز موسى العازار الإسرائيلي الذي حذق صناعة الطب، كما اشتهر ابنه إسحاق بن موسى بالطب، وكان مقرباً من المعز، لكنه مات في شهر صفر سنة ٣٦٣ هـ. فحزن هذا الخليفة على وفاته لحذقه وكفايته، وعين مكانه أخاه إسماعيل بن موسى وكان قد تحول إلى الإسلام، وابنه يعقوب بن إسحاق. ومن كتب موسى بن العازار في الطب «الكتاب المعزي في الطبيخ» الذي ألفه للخليفة المعز، وكتاب الأقرباذين[١].

وممن نبغ في الطب في عهد الخليفة العزيز أبو الحسن علي بن رضوان. وقد خلف كثيراً من الكتب التي تبرهن على سعة فكره وعلو كعبه في هذه الناحية، كما أن له كتباً في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[٢]. كذلك نبغ أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصراني طبيب الخليفة الحاكم الخاص؛ وكان مقرباً منه كما كان مقرباً من أبيه العزيز، وكان لشفاعته عند الحاكم أثر كبير في إطلاق سراح الكتاب من النصارى واليهود وإعادتهم إلى مراكزهم[٣].

ومن أطباء هذا العصر رجل يهودي كان خامل الذكر يرتزق بمداواة الجراح، واتفق أن الحاكم أصيبت ساقه بعقر مزمن. وعلى الرغم من عناية ابن مقشر وغيره لم يبرأ الحاكم من هذا الجرح. ولما أحضر هذا الطبيب إليه وضع على الجرح دواء يابساً، فشفي بعد ثلاثة أيام، فمنحه الخليفة ألف دينار وخلع عليه،ولقبه «بالحقير النافع» وجعله من أطباء الخاص[٤] (يحيى بن سعيد ص ١٧٨).

٣ ـ علم الفلك والنجوم:

وكان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم. فقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة

---

(١) ابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٨٦.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٥.

(٣) يحي بن سعيد: صلة تاريخ أوتيخا جـ ١ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) يرجع هذا إلى أنه كان خامل الذكر لا إلى أنه كان يهودياً، لأن الخلفاء والأمراء المسلمين كانوا يعاملون أهل الذمة من المسيحيين واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية.

عمارتها. وكذلك اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون لها شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد[١]، ومن قصيدة الفهري التي يقول فيها.

فعند الستِّ والتسعيـ ـنَ قَطْعُ القولِ في العُذرِ

ما يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم في سنة ست وتسعين ومائتين. وكان لهذه العقيدة أثر كبير في انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية[٢] كذلك حذا الفاطميون حذو العباسيين في الاعتماد على التنجيم. فقد ذكر ابن دقاق[٣] أن مدينة القاهرة التي بناها جوهر سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي «يسمى القاهر».

وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم، حتى إنه أنشأ رصداً بسفح المقطم أطلق عليه «الرصد الحاكمي» واستعان بأبي الحسن علي بن يونس المنجم المصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ صاحب الزيج[٤] المعروف بالزيج الحاكمي وزيج ابن يونس.

وقد نبغ في علم النجوم أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، وكان في بدء حياته من أصحاب الحديث، ثم اشتغل بعلم النجوم ثم نبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره، وعمر طويلاً حتى جاوز المائة. وكان أبو معشر ـ كما يقول ابن خلكان (جـ ١ ص ١١٢) ـ «إمام وقته في فنه، وله التصانيف المفيدة في علم النجامة»، ومن أشهر كتبه في النجوم: كتاب المدخل الكبير، وكتاب المدخل الصغير، وكتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه، وكتاب السهمين وأعمار الملوك والدول، وكتاب تفسير المنامات من النجوم، وكتاب الأمطار والرياح وتغيير الأهوية (ابن النديم ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

وقد وضع أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني الحراني الصابي المتوفى سنة ٣١٩ هـ،

---

(١) عمارة اليمن: تاريخ اليمن (هنري كاسل، لندن ١٨٩٢) ١٤٠.

(٢) نظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية» ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) انتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٢ ص ٣٥.

(٤) بكسر الزاي هو كتاب يحسب فيه سير الكواكب ويستخرج التقويم، أعني حساب الكواكب لسنة سنة، وهو فارسي، أنظر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٢٧.

ويعرف عند الأوربيين باسم Albatengius[1] الزيج الصابي الذي أثبت فيه الكواكب الثابتة في سنة ٢٩٩ هـ[2]، «وله الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة.. وكان أوحد عصره في فنه وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه»[3] ومن أشهر كتبه أيضاً كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك[4].

وقد اشتهر بالنجامة بيت أبي الحسن علي بن أبي عبد الله بن هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور. وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبي جعفر المنصور، وابنه يحيى متصلاً بالفضل بن سهل الذي كان يعمل برأيه، ثم صار منجم المأمون ونديمه وأسلم على يديه، وتوفي بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس[5]. وكان أبو الحسن علي (٢٧٧ ـ ٣٥٢ هـ) من أكبر علماء النجوم في عصره، وقد قربه الصاحب بن عباد إليه وأطلق عليه اسم «جليس الخلفاء وأنيس الوزراء»[6]. ومن كتبه «كتاب النيروز والمهرجان»، وكتاب شهر رمضان الذي أهداه إلى الخليفة الراضي بالله العباسي[7].

وبلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته في القرن الرابع الهجري. وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ ـ ٣٧٩ هـ) لما استقرت قدمه في العراق «أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثال ما كان المأمون يفعل»[8].

وقد ضرب أبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) بسهم وافر في علم النجوم. وليس أدل على ذلك من مخاطراته في بلاط غزنة على ما جاء في المقالة الثالثة والعشرين من ترجمة كتاب «جشهار مقاله»[9] تأليف النظامي العروضي السمرقندي. ذلك أن السلطان محموداً الغزنوي بعث في طلب البيروني وهو في حديقة قصره الصيفي، وغرس فيها ألف شجرة ليمتحن البيروني علم النجوم، فسأله: من أي الأبواب الأربعة سأخرج؟ فأجاب البيروني: اجمع رأيك واكتبه على قطعة من الورق وضعها تحت وسادتي، ثم طلب أبو الريحان أسطرلابا واختير النجوم، ثم دون قراره في قطعة من الورق وضعها تحت

---

(١) Browne, vol. pp.363.
(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٣) ابن خلكان جـ ٢ ص ٨٠.
(٤) ابن النديم ص ٣٩٠.
(٥) ابن خلكان جـ ٢ ص ١٩٤.
(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٠٢.
(٧) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٥٦.
(٨) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٢.
(٩) pp.92 - 95. ترجمة ص ٦٤ ـ ٦٥

الوسادة. ثم قال السلطان محمود: هل اهتديت إلى قرار؟ فقال البيروني: نعم! وأمر السلطان أن يثقب أحد الحيطان ويتخذ منه باب خامس خرج منه، ثم أمر بإحضار الورقة. ولما أحضرت قرأ ما فيها وهو أنه لن يخرج من أحد هذه الأبواب الأربعة، إلا أنه ستفتح فتحة في الحائط الشرقي، وسيخرج من هذا الباب. ولما قرأ السلطان هذه الورقة أخذ الغضب منه كل مأخذ، وأمر بأن يلقى أبو الريحان من فوق سطح القصر. لكنه لم يصب بأذى، لأنه سقط على شبكة أقيمت لطرد الذباب فتمزقت، واستطاع أن يصل إلى الأرض ولم يلحق به أي ضرر. ولما أمر السلطان بإدخاله قال له: يا أبا الريحان! هل تنبأت بهذا الحادث أيضاً؟ فأبرز من جيبه كراسة «مذكرة» كتب فيها: سيلقي بي في هذا اليوم من قصر السلطان، لكني سأصل إلى الأرض سالماً وأنهض معافى الجسم. لكن ذلك لم يجر على هوى السلطان الذي زاد غضبه وأمر باعتقاله في قلعة غزنة، حيث بقي ستة أشهر لم يجرؤ فيها أحد على أن يكلم السلطان في أمره، ثم أطلق بفضل تدخل الوزير أحمد بن حسن الميمندي[١] الذي انتهز إحدى الفرص المناسبة وقال للسلطان إن أبا الريحان البيروني، ذلك الرجل المسكين، على الرغم من صدق نبوءته، قد قيد وسجن بدلاً من أن يخلع عليه ويجزل له العطاء، فأجابه السلطان: أعلم يا سيدي أن هذا الرجل ليس له نظير في الدنيا سوى ابن سينا، لكن لكل تنبوءاته لم تتفق مع رغباتي. والملوك كالأطفال الصغار، يجب على المرء أن يتكلم بما يتفق ورغباتهم ليفوز بمنحهم وعطاياهم. وكان من الخير له أن يخطىء في إحدى هاتين النبوءتين. ومع ذلك أمر بإحضاره في الغد، وأعطاه جواداً محلى بالذهب وخلعة سلطانية وعمامة من الطيلسان، ووهبه ألف دينار وعبداً وأمة.

٤ ـ الرياضيات:

وممن اشتهر بالرياضيات ثابت بن قرة الحراني (٢٢١ ـ ٢٨٨ هـ). وكان في بدء أمره صيرفياً بحران، واتصل بالخليفة المعتضد الذي أدخله في عداد من اعتمد عليهم في التنجيم وبفضل ثابت ارتفع شأن الصابئة وعلت منزلتهم عند الخلفاء. ومن أشهر مؤلفاته في الرياضيات: كتاب حساب الأهلة، وكتاب في استخراج المسائل الهندسية، وكتاب الأعداد، وكتاب شكل القطاع. وكان سنان بن ثابت المتوفى سنة ٣٣١ هـ من كبار الرياضيين والمهندسين في هذا العصر؛ على أن شهرته في الطب فاقت شهرته في هذه النواحي[٢].

---

(١) نسبة إلى ميمند، وهي رستاق بفارس وبنواحي غزنة أيضاً. أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت.

(٢) ابن النديم: كتاب الفهرست ص ٣٨٠، ٤٢١.

ومن أشهر الرياضيين أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس[١]. وقد ولد في نيسابور سنة ٣٢٨ هـ، ووفد على العراق وهو في العشرين من عمره، وتعلم الحساب على عمه أبي عمرو المغازلي وخاله أبي عبد الله محمد بن عنبسة. ومن مؤلفاته: كتاب ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب. وهو سبعة أقسام كل قسم سبعة أبواب، شملت جميع أنواع الرياضيات، وكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتاب المدخل إلى الأرثماطيقي، وكتاب استخراج ضلع المكعب، وكتاب معرفة الدائرة من الفلك.

ومن أشهر الرياضيين في عهد الفاطميين أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم؛ قد نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها. «وكان ـ كما يقول ابن أبي أصيبعة[٢] ـ فاضل النفس، قوي الذكاء، متفنناً في العلوم، ولم يماثله أحد من زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه. وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر الزهد محباً للخير. وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاليس وشرحها، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب. وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية، إلا أنه لم يباشر أعمالها».

٥ ـ التاريخ:

زخر العصر العباسي الثاني بطائفة كبيرة من أعلام التاريخ. ولا غرو فإن هذه النهضة العلمية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية، وبدأ المسلمون يصنفون الكتب في مختلف العلوم والفنون، وساهم الفرس في هذه الحركة بأوفر نصيب. ومن أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م). وكان شيعياً متحمساً لعقائد الشيعة. ولذلك أسهب في الكلام على الأئمة. ونقل كثيراً من الأقوال التي أثرت عنهم. ويعتبر كتابه في التاريخ المعروف بتاريخ اليعقوبي[٣] من أعظم المصادر التاريخية، كما يعد كتابه «البلدان» من أشهر الكتب الجغرافية[٤].

ومن هؤلاء المؤرخين أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م). وقد خلف كثيراً من الكتب، منها كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إليه،

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٤.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٩٠.

(٣) في جزئين Ed. Houtsma (Leydon, 1883).

(٤) Ed. De Goeje (Leyden 1892)

وكتاب المعارف[1] الذي يعد بحق مجموعة معارف مفيدة، وكتاب عيون الأخبار[2]، ويعد من خيرة كتب الأدب والتاريخ مادة وترتيباً[3].

ومن هؤلاء المؤرخين البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م)، ويعد كتابه فتوح البلدان من أحسن المصادر في الفتوح الإسلامية، ومن هذه المصادر كتاب الأخبار الطوال[4]، لأبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م). وأول هؤلاء المؤرخين الأربعة من أصل عربي، على حين يرجع الثلاثة الأخيرون إلى أصل فارسي.

ويعتبر كتاب الأمم والملوك[5] لأبي جعفر محمد بن جعفر بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) من أمهات الكتب التاريخية الموثوق بصحتها. ولا غرو فإن الطبري أكثر تحقيقاً ممن سبقه من المؤرخين، فضلاً عن أنه أنفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله. وقد تكلم على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليفة إلى سنة ٣٠٢ هـ. ثم جاء عريب بن سعد القرطبي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م)، فوصل الحوادث في كتابه المسمى «صلة تاريخ الطبري»[6] من سنة ٢٩١ هـ إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٢٠ هـ[7].

وكان القرن الرابع غنياً بكثير من المؤرخين. ومن هؤلاء سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) واشتهر باسم أوتيخا Eutychius وكان أحد بطارقة الإسكندرية، وخلف كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ١٩٠٩) الذي ذيله يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ويسمى «صلة كتاب أوتيخا».

(١) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣/١٩٣٣.

(٢) في أربعة أجزاء طبعت بدار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٩/١٩٢٥ - ١٩٣٤.

(٣) Ed. De Goeje, Leydon, 1855، القاهرة سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م).

(٤) Ed. Kraich Kovsky, Leyden. 1892

(٥) طبعة دي غوية هذا السفر الكبير في ١٣ مجلداً: منها مجلدان للمقدمة التاريخية والفهارس (١٨٧١ - ١٩٠١). وقد طبع أيضاً في القاهرة عدة طبعات من أقدمها طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ.

(٦) طبعة دي غوية سنة ١٨٩٨ م والمطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦.

(٧) ترجم أبو علي محمد البلعمي وزير منصور بن نوح الساماني كتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري بصورة موجزة إلى الفارسية، وقام بنقل هذه الترجمة إلى الفرنسية كل من ديبو وزوتنبرج Dubeau anp Zetenberg (باريس ١٨٦٧ - ١٨٧٤).
أنظر Browne. vol.I.pp.359,398

ومن مشهوري المؤرخين في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن عبدوس المعروف بالجهشياري صاحب كتاب الوزراء والكتاب[١]، وهو «مؤرخ قديم من طبقة ابن جرير الطبري (المتوفي ٣١٠ هـ)، والمسعودي (المتوفى ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ). وكان أبوه عبدوس الجهشياري حاجب علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي، ثم ولي ابنه محمد بن عبدوس هذه الحجابة لعلي بن عيسى لما انضم إلى حامد بن العباس حين تقلد الوزارة سنة ٣٠٦. وكان بن عبدوس على جانب عظيم من حسن الخلق، فكان يأبى الإسفاف في القول ولا يتسع صدره للغو[٢].

وللجهشياري كتب كثيرة أشهرها كتاب «الوزراء والكتاب»، وهو أول ما ألف من نوعه في تاريخ الوزراء. وقد حذا المؤرخون حذو الجهشياري في تاريخ الوزراء، فألف هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨ هـ) كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (بيروت ١٩٣٣)، وصل به تاريخ الجهشياري إلى سنة ٣٩٣ هـ. كما استمد منه ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وابن الطقطقي في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٣٣).

ومن مؤرخي هذا العصر أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) وكان مجوسياً من أهل جرجان، وقد تتلمذ عليه الراضي بن المقتدر قبل أن يلي الخلافة[٣]. وكتابه «الأوراق»[٤] مجموعة نفيسة في الأدب والتاريخ.

ويعتبر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[٥] لأبي الحسن علي المسعودي الذي ينتسب إلى الصحابي المشهور عبد الله بن مسعود، من أهم المصادر التاريخية في هذا

---

(١) أنظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، حققه الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الإيباري، وعبد الحفيظ شلبي (الطبعة الأولى).

(٢) المصدر نفسه ص «و»، «ز».

(٣) أبو بكر الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٥ ـ ٦، ٢٦.

(٤) نشر ج. هيورت دن من هذا الكتاب «كتاب أخبار الراضي بالله والمتقي لله»، ويتناول تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م)، وكتاب أخبار الشعراء (القاهرة سنة ١٩٣٤ م)، وكتاب أشعار الخلفاء وأخبارهم (القاهرة سنة ١٩٣٦).

(٥) نشره وترجمه للفرنسية باربييه دي مينار وبافت (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧). القاهرة ـ ١٣٤٢ هـ) في جزأين.

العصر، وخاصة في الناحية الاجتماعية. ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة إلى أيامه. ومن كتبه أيضاً كتاب التنبيه والإشراف، وهو من الكتب الهامة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين بوجه خاص[١].

ومن مؤرخي هذا العصر الحسين بن زولاق الذي عاصر الإخشيديين والفاطميين، وامتدت حياته في الدولة الفاطمية إلى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م). وقد أتى في كتابه «فضائل مصر وأخبارها وخواصها» على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى، وهو حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، لأنه كان مصرياً، ولأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه في مادة التاريخ.

ومن المؤرخين الذين عاصروا الخليفة العزيز بالله الفاطمي أبو الحسن علي الشابشتي حاجب وشمكير بن زيار الديلمي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٨٨ م). وقد اتصل أبو الحسن بخدمة العزيز، فولاه خزانة كتبه، واتخذه من جلسائه وندمائه، وترك في كتابه «الديارات» أخباراً طريفة عن الأديار في العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر، وما قيل فيها من الأشعار وما جرى من الحوادث (مخطوط برلين ـ فيمار ١١٠٠).

وهنا كتاب آخر عن كنائس وأديرة مصر لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م)، اعتمد فيه على ما سمعه وشاهده بنفسه في زياراته للكنائس والأديار في القاهرة وضواحيها[٢]. وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسيحي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) كتب عن مصر كتاباً مسهباً سماه تاريخ مصر، يقع في ثلاثة عشر ألف ورقة أي في ستة وعشرين ألف صفحة[٣]، ولا يوجد من هذا الكتاب غير الجزء الأربعين بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا. وهذا الكتاب أحد تصانيف المسيحي التي بلغت الثلاثين، والتي لم يعد لها الآن وجود إلا في هذه المقتبسات التي نعثر عليها في ثنايا الكتب.

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات (القاهرة ١٢٩٩ هـ) جـ ٢ ـ ٤٥.

(٢) نشره مستر B.T.A.Evetts، وزعم في مقدمته أن كتاب الديارات للشابشتي قد ضاع وأنه لا يعرف إلا طريق العبارات التي اقتبسها من غيره من الكتاب.

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٥١٦.

ولا ننسى ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين وهم مسكويه[١] المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م)، وهلال الصابي[٢] المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)، وأبو شجاع[٣] المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م).

أما تاريخ مسكويه المسمى «تجارب الأمم»، فهو من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية. ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبري (وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ). ولا يكتفي مسكويه في تاريخه بذكر الحوادث، بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة. وبذلك خطا خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية.

وقد أسهب مسكويه في تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه، ولم يغفل أن يمدنا بتاريخ الأحوال الخارجية للعباسيين، وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذاوري وزير الخليفة العباسي المقتدي (٤٧٦ ـ ٤٨٧/ ١٠٨٢ ـ ١٠٩٣) المعروف بأبي شجاع. تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على المدة التي تقع بين سنتي ٣٦٩، ٣٨٩ هـ ثم تلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به أمد روز كتاب الوزراء لهلال بن الصابي إلى سنة ٣٩٣ هـ ونقله عنه مرجليوث[٤].

ومن المصادر التي ألفها جماعة من المؤرخين والأدباء في هذا العصر: كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ. وهو من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ الدولة العباسية منذ تأسيس مدينة بغداد في عهد الخليفة المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف.

---

(١) اختلف الكتاب في صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه، فبعضهم كالتنوخي (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجي خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه، على حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمذاني (ص ١٥٧ وقد سماه مسكويه)، وياقوت (إرشاد ٢ ص ٨٨)، وابن خلكان (جـ ٢ ص ٩٢)، والقفطي (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٣١)، وابن أبي أصيبعة (عيون لأنباء في أخبار الأطباء جـ ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو.

(٢) ياقوت (إرشاد جـ ٧ ص ٢٥٤) وابن خلكان (جـ ٢ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، ووستنفلد Geschichte der Araber Litteratur, no. 198

(٣) ابن خلكان جـ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٤) أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ١٣د ـ ٥١٥. وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة في القاهرة (١٣٣٣ ـ ١٣٣٤/ ١٩١٥ ـ ١٩١٦).

ويشتمل هذا الكتاب على وصف ضاف لمدينة بغداد، كما يمدنا بأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ممن عاش فيها أو رحل إليها من أهل العلم والفضل. ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً، ولا غنى عنه لطلاب البحث في تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها إلى سنة وفاة المؤلف.

كذلك لا نغفل مؤلفات أبي الريحان البيروني[١] الخوارزمي المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م). وقد قضى حياته تحت كنف أمراء بيت مأمون بن مأمون أمير خوارزم، ثم زار حول سنة ٩٣٠ هـ (١٠٠٠ م) بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء، وأهدى إليه تاريخه المشهور «الآثار الباقية عن القرون الحالية»[٢]، ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات المختلفة، والاحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص. ثم عاد البيروني إلى خوارزم حيث قضي بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي، كذلك ألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». ويعرف باسم «تاريخ الهند»، وقد نشر سخاو نسخته العربية وترجمها الإنجليزية. ثم ألف البيروني كتابه «التفهيم» وهو باللغة الفارسية، كما وضع كتابه «التفهيم في الفلك» الذي أهداه إلى الأميرة ريحانة الخوارزمية، و«القانون المسعودي» وقد أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، كما أهدى كتابه الذي ألفه في الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود.

وممن كتب في تاريخ المدن والبلاد في هذا العصر الترشخي الذي وضع كتابه «تاريخ بخارى» حول سنة ٢٣٠ هـ (٩٤٢ م) ومن هذه الكتب «تاريخ أصفهان» للمافرُوخي، وتاريخ طبرستان لليزدادي، وقد وضعا أول الأمر بالعربية، ولكنهما لم يعرفا إلا عن طريق الترجمة الفارسية. أضف إلى ذلك ما كتبه أبو نصر العتبي عن حياة السلطان محمود الغزنوي إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م)، ومع أن هذا المؤلف عاش حتى سنة ٤٢٨، ويسمى هذا الكتاب «تاريخ اليميني»[٣]، نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوي»[٤].

---

(١) نسبة إلى Bérti أحد أحياء حاضرة هذه البلاد.

(٢) Sachau, Préface te Bérunis Chronology of Ancient Nations, English Translation (London, 1879),p.VII

(٣) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ، ويقع في جزأين.

(٤) Browne, vol. II,pp.114 - 115

وممن ألف في تاريخ مكة في هذا العصر الأزرقي المتوفى سنة ٢٤٤ ـ ٨٥٨، والفاكهي المتوفى ٨٨٥/٣٧٣: ويعتبر كتاب «أخبار المدينة» لعمر بن شبة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢ هـ)، من أهم مصادر المدينة المنورة. فقد عني بوصفها من الناحية «الطبوغرافية» معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة. وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها. وكما تناولها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائرهم ودورهم وأخبارهم. ولابن شبة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة. ويروي الطبري أخبار ابن شبة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين المتأخرين، وممن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ويعتبر كتابه «أخبار المدينة» من الكتب التي لعبت بها يد الدهر. وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه ابن الزبير عن المدينة[١].

٦ ـ الجغرافية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أنه كان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين بالبلد القاصية براً وبحراً، ثم تعبيد الطرق وجعلها آمنة، أثر كبير في تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين. فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة، ووضعوا في وصفها الكتب والأسفار ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي اختلفوا إليها وصفاً دقيقاً مبنيًّا على المشاهدة. وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان.

لكن مما يسترعي النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة التي خلفها جغرافيو المسلمين لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا في العصر العباسي الثاني. ويعتبر ابن خرداذبه الفارسي الأصل الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري من أقدم جغرافيي المسلمين في العصر العباسي. وقد خلف لنا كتابه «المسالك والممالك»[٢] الذي يشتمل على معلومات

---

(١) أنظر البحث القيم «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» للدكتور صالح أحمد العلي (بحث مستل من المجد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤) ص ١٥ ـ ٢٠.

(٢) نشره دي غويه في ليدن سنة ١٨٨٩ م (ص ٤ ـ ١٨٣) ويليه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، ويشمل الباب الحادي عشر من الكتاب عنوانه: في ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب (١٨٤ ـ ٢٦٦).

هامة في نظم الحكم وفي النظام المالي بوجه خاص. ويعد هذا الكتاب من أقدم الكتب الجغرافية في اللغة العربية. وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ويصل إلى الهند والصين.

ومن جغرافيي هذا العصر اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) صاحب كتاب «البلدان». وقد قام برحلات طويلة في أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب، ودون نتائج رحلاته في كتابه[١] ومن جغرافيي هذا العصر أبو محمد الحسن الهمداني (ت ٣٣٤ هـ ٩٤٦) وقد ألف كتابه «صفة جزيرة العرب» (ليدن ١٨٩١).

وكان أبو الحسن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) من كبار الرحالين المسلمين. وقد زار كل أرجاء العالم تقريباً، فزار فارس والهند وجزيرة سرنديب (سيلان) وصحب التجار إلى بحار الصين. كما زار زنزبار وسواحل إفريقية الشرقية والسودان، وقام برحلات في إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين، وزار مصر في عهد الإخشيد سنة ٢٣٠ هـ. واهتم بوصف الأهرام وغيرها من الآثار أكثر من اهتمامه بوصف المباني والبلاط وطبقات الشعب. إلا أنه مع ذلك لم يغفل الكلام على وصف نظام الري وجبر الخليج وقطع السدود وليلة الغطاس[٢]. كما وصف ما قام به المصريون من أعمال البحث والتنقيب عن الآثار، وكشفهم أقبية مملوءة بالهياكل والموميات، وما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان إلى أهمية البحث عن الآثار المصرية القديمة[٣].

وقد ألف أبو إسحاق الإصطخري الفارسي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتاب الأقاليم، ووضحه بالخرائط، كما ألف كتابه «المسالك والممالك» الذي وصف فيه نتائج مشاهداته في الأقاليم التي زارها. ونقل كثيراً من كتاب صور الملوك لأبي زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ) تلميذ الكندي الفيلسوف المشهور، واعتمد على ما دونه بوزرج بن شهريار الذي كتب كتابه «عجائب الهند» باللغة العربية. مستعيناً في ذلك

---

(١) وقد نشره دي غويه في جزأين (ليدن ١٨٩٢) وترجمه إلى الفرنسية جاستون فييت (القاهرة ١٩٣٧).
(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

بمشاهداته وما نقله عن غيره من الرحالة[١]. ثم جاء ابن حوقل (ت ٣٨٠ هـ) في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فراجع كتاب المسالك والممالك للاصطخري وزاد عليه وأخرجه بنفس هذا الاسم[٢]. وكلا الكتابين قد ألف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ويحتوي كل منهما على وصف دقيق لكل جزء من أجزاء العالم الإسلامي وأشهر مدنه وأماكنه.

ومن أشهر الجغرافيين والرحالة في القرن الرابع الهجري شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري المقدسي (ت ٣٨٧ هـ) وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»[٣] ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية[٤].

وناصر خسرو (ت ٤٨١/١٠٨٨) الرحالة الفارسي الذي أمدنا في كتابه «سفر نامه» أو زاد المسافر) بمعلومات ذات غناء عن مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، كما وصف ثروة البلاط الفاطمي وأبهته وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء[٥].

---

(١) Browne, vol. I.p.368

(٢) نشره دي غويه في المجموعة الجغرافية العربية (ليدن سنة ١٨٧٣ م).

(٣) نشره دي غويه (ليدن ١٨٧٧).

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٢١.

(٥) أنظر كتابي «تاريخ الدولة الفاطمية» ص ٥٢١ ـ ٥٢٢.

الباب العاشر

الفن

١ ـ العمارة عند العباسيين

كثرت العمارة في العصر العباسي الثاني، فبنيت المدن التي امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات. وكان تأثير الفن الفارسي في الفن الإسلامي عظيماً في هذا العصر، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج، وعليها صور من الجص المجسم، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي.

عزم جعفر المتوكل على أن يبني مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته، فوضع أساس مدينة الجعفرية[١] في مكان قريب من مدينة سامرا ناحية الشمال، وبنى قصره الذي سماه الجعفري نسبة إليه، وشجع الأمراء والقواد وغيرهم على البناء. ويقول الطبري (جـ ١١ ص ٥٦) إن المتوكل أمر بنقض قصري المختار والبديع بسامرا وحمل ما فيهما من خشب الساج لاستعماله في بناء قصره الجديد[٢].

كذلك بني المتوكل في هذه المدينة قصراً آخر سماه لؤلؤة، امتاز بارتفاع بنائه. كما أمر بحفر نهر يأخذ ماءه من دجلة ويصل إلى هذه المدينة، عرف باسم جبة دجلة، وأنفق على شق هذه الترعة مائتي ألف دينار. وكان يقوم بحفرها اثنا عشر ألف عامل، كما بلغت تكاليف قصر الجعفري أكثر من مليون دينار. يقول ياقوت[٣] إن سامرا كادت تخرب وتخلوا من أهلها على أثر انتقال المتوكل إلى الجعفرية. ولم تلبث هذه المدينة أن تخربت على أثر مقتل هذا

(١) وتسمى أيضاً المتوكلية.

(٢) أنظر لفظ الجعفري في معجم البلدان لياقوت.

(٣) أنظر لفظ الجعفري في معجم البلدان لياقوت.

الخليفة في سنة ٢٤٧ هـ، بعد أن هجرها ابنه وخليفته المنتصر، وعاد إلى سامرا التي ظلت حاضرة الدولة العباسية إلى سنة ٢٧٩ هـ حيث عاد الخليفة المعتضد إلى بغداد، فسقطت عمائر سامرا ولم يبق منها إلى المسجد الجامع(١).

وكان المتوكل ولوعاً بالعمارة وزخرفة الأبنية وتزيين جدرانها بالرسوم التي تمثل الحروب والمواقع الحربية. ويقول المسعودي(٢): «وأحدث المتوكل في أيامه بناء لم يكن الناس يتعرفونه، وهو المعروف بالحيري الكمين والأروقة. وذلك أن بعض سماره حدثه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئته للهجه (لشغفه) بها وميله نحوها، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله. فكان الرواق مجلس الملك، وهو الصدر والكمان ميمنة وميسرة ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه. وفي اليمين منها خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب. والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق؛ فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين إضافة إلى الحيري. واتبع الناس المتوكل في ذلك اتماماً بفعله واشتهر إلى هذه الغاية».

حفل عصر بني بويه بالعمارة التي ولع بها معز الدولة: فقد أنشأ في سنة ٣٥٠ هـ قصراً فخماً شرقي بغداد، أنفق عليه ثلاثة عشر ألف ألف درهم، أي ما يقرب من مليون دينار، ونزع ملكية المباني المجاورة لهذا المكان، وأمر بخلع الأبواب الحديدية ببغداد والرصافة ونقلها إلى قصره. كما نقض دور الخلافة بسامرا(٣)، وأحضر مهرة البنائين(٤). وقد أصاب هذا القصر ما أصاب غيره من قصور الخلافة في سامرا على يد بهاء الدولة الذي شرع في تخريبه واستعمال أنقاضه في بناء قصره الذي بناه في سنة ٤١٨ هـ(٥).

كذلك كان عضد الدولة ولوعاً بالعمارة، وإليه يرجع الفضل في تعمير مدينة بغداد بعد أن أصابها التدمير بسبب إهمال شأنها مدة طويلة، حين اتخذ بعض الخلفاء مدينتي سامرا والجعفرية حاضرة الدولة. لذلك أعاد عضد الدولة بناء كثير من مساجدها وأدر الأرزاق على

---

(١) نرى أنقاض هذا المسجد في قرية لا تزال تحمل اسم سامرا.

(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦٩.

(٣) نوع من الجير (المصيص).

(٤) مسكويه: تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٨٣:

(٥) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٦.

القائمين بها من المؤذنين والأئمة والقراء. كما أعاد بناء ما تخرب من أرباض هذه المدينة وأمر أصحاب العمارات التي أصابها الخراب بإعادتها إلى ما كانت عليه وتجميلها، وأمد العاجزين منهم بما يحتاجون إليه من مال. كما عمل على تجميل الأحياء الواقعة على ضفتي نهر دجلة، وأقام الميادين والمنتزهات فامتلأت ـ على ما يقول مسكويه[١] ـ هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح[٢] الجيف والأقذار، وجلبت إليها العروس من فارس وسائر البلاد. كما عمل عضد الدولة على تحديد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها بعد أن أهملت زمناً طويلاً، وأقام جسر بغداد وحصته بالدرابزينات، ووكل به الحفظة والحراس[٣]، وأصلح الطريق الذي كان يمتد من العراق إلى مكة، وأعاد بناء مشهد علي والحسين[٤]. وكذلك أنشأ البيمارستان المنسوب إليه في الجانب الغربي من بغداد (٣٧٢)، وعين له الأطباء وغيرهم من الموظفين، وأمده بكل ما يحتاج إليه[٥].

وليس هذا كل ما قام به عضد الدولة من الأعمال العمرانية، فقد بنى بفارس وخوزستان كثيراً من العمائر، كما بنى البيمارستان العضدي المشهور، «وعمل السكور[٦] وأنفق فيها الأموال، وأعد عليها الآلات، ووكل بها الرجال، وألزمهم حفظها بالليل والنهار، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة الممدود والجوارف، وأزمنة الغيوث الهواطل، وأوقات الرياح العواصف»[٧].

وكان البويهيون يعنون ببناء الأسوار حول المدن؛ فقد أمر أبوكاليجار (٤٣٥ ـ ٤٤٠ هـ) ببناء سور مدينة شيراز في سنة ٤٣٦ هـ لرد غارات السلاجقة الذين تفاقم خطرهم في ذلك الحين. وبلغ طول هذا السور اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع، وجعل له أحد عشر باباً[٨].

---

(١) تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(٢) الأماكن التي تطرح فيها القمامات والجيف ونحوها.
(٣) مسكويه: نفس الجزء والصفحة.
(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٥٥.
(٥) أبو المحاسن جـ ٤ ص ١٤١.
(٦) السكر (بتشديد السين وسكون الكاف) سد النهر.
(٧) مسكويه: جـ ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٨) ابن الأثير جـ ١٦٩.

٢ ـ العمارة في مصر

١ ـ تأسيس مدينة القطائع ـ جامع ابن طولون:

ولم يكن ولوع أمراء مصر وخلفاؤها بالعمارة أقل من ولوع العباسيين. ذلك أنه لما ضاقت مدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي سنة ١٣٣ هـ بسكانها من أتباع ابن طولون وحاشيته وعسكره! اتخذ لإقامته قصراً فسيح الأرجاء، واتخذ أمامه ميداناً فسيحاً. ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلمانه وأتباعه دورهم حول هذا المكان. واتخذ كل منهم قطعية خاصة به، فسميت هذه المدينة «القطائع». وكانت هذه المدينة تمتد غربي القلعة. ويحدها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة، ومن الغرب نواحي المشهد الزيني، ومن الجنوب العسكر. وفي هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة من سوادنيين ونوبيين وروم وغيرهم، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الطائفة التي تسكنها كذلك أفرد ابن طولون لأصحاب الحرف والصنائع والتجار قطائع خاصة بهم، فعمرت المدينة وامتدت مبانيها حتى اتصلت بالفسطاط. وقد حدد المقريزي مدينة القطائع في عهد أحمد بن طولون فقال: إنها كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون، ومن الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين[١].

عني ابن طولون ببناء قصره وتجميله، وجعل له ميداناً فسيحاً. وكان يطلق على القصر اسم «الميدان» وربما كان ذلك لاتساعه. وعمل ابن طولون للميدان أبواباً كثيرة: فباب الميدان خصص لدخول الجند وخروجه، وباب الصوالجة[٢]، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصة الأمير، وباب الجبل لأنه كان يلي جبل المقطم، وباب (الدرامون)، وكان يجلس عنده حاجب أسود عهد إليه النظر فيما يرتكبه الغلمان السودان من الجرائم، وباب «دغناج» لأنه كان يجلس عنده خادم أسود يقال له دغناج، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان في الشارع الأكبر، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون. وكان على هذا الباب صورة سبعين من جبس، ولهذا سمي باب السباع أيضاً. وكان لابن طولون طريق خاص به ثلاثة أبواب يتصل بعضها ببعض.

وفي مدينة القطائع بنى أحمد بن طولون ثالث المساجد الجامعة التي أقيمت فيها صلاة الجمعة منذ الفتح الإسلامي بعد جامعي عمرو والعسكر. وقد بني هذا الجامع على

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٧.

(٢) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز والفرنسيين باسم «بولو» وهي شبيهة بلعبة كرة القدم.

جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة، وهو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأولى بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة[١]. ويحيط بهذا المسجد من الجهات الأربع شوارع ابن طولون جنوباً والزيادة غرباً وبئر الوطاويط شرقاً[٤] والخضيري شمالاً، وكانت هذه الجهات تعرف بخط المغاربة.

وقد دعت حالة ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند ابن طولون وخدمه وعبيده إلى شكوى الناس فرأى أن يقوم بهذا العمل تحقيقاً لرغبة الناس من جهة، ورغبته في الخير من جهة أخرى، ثم لأن وجود القطائع من غير مسجد فيها نقص يجب تلافيه، خصوصاً وأن أول ما كان يعنى به الولاة عند إنشائهم المدن لاتخاذها حاضرة البلاد أن يبنوا مسجداً يقيمون فيه شعائر الدين، كما كانت الحال عند تأسيس الفسطاط والعسكر والقاهرة.

وكان ابن طولون يرمي من بناء هذا الجامع إلى إقامة الصلاة فيه لضيق جامع العسكر بالمصلين كما تقدم، واتخاذه معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي، وليكون أيضاً أشبه بمعهد تدرس فيه العلوم الدينية، ومكان تعلن فيه أمور الدولة، وتعقد فيه المحاكم للفصل في قضايا الأفراد أو فض المشاكل التي تنشأ بينهم وما إلى ذلك. وبعد الفراغ من بناء هذا الجامع، افتتحه ابن طولون سنة ٢٦٥ هـ. وعهد فيه بالصلاة والخطبة إلى القاضي بكار بن قتيبة.

ولجامع ابن طولون أهمية خاصة بالنسبة إلى جوامع مصر، لأنه يعد المثال الأول الذي اتخذه بناة المساجد الجامعة فيما بعد. وفي وسط الجامع بني ابن طولون فوارة مشبكة من جميع نواحيها، عليها قبة مذهبة مقامة على عشرة أعمدة، وفي جوانبها ستة عشر عموداً من الرخام، وأرض هذه الفوارة وقبتها محاطة كذلك بالرخام، وعلى سطح الفوارة علامات للزوال لتعيين أوقات الصلاة، وقد صنعت من خشب الساج. أما المنارة فمراقيها (أي درجاتها) من ظاهرها، بمعنى أن الرائي يرى الصاعد من داخل المسجد وخارجه. وتمتاز هذه المنارة على غيرها من المنارات باتساع عرضها، على مثال منارة المسجد الذي بناه المتوكل العباسي في مدينة سامرا.

---

(٣) ابن خلكان جـ ١ ص ٥٥. ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١٤ ـ ١١٥.

٢ ـ تأسيس مدينة القاهرة ـ الجامع الأزهر:

لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة للفاطميين، وفكر في تأسيس مدينة جديدة تكون مقراً للفاطميين، ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية، وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون حدود مصر الشمالية. لذلك وضع أساس مدينة القاهرة (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ). كما وضع أساس قصر مولاه المعز. ثم اختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها، فاختطت جماعة من برقة (الحارة البرقية) واختط الروم حارتين إحداهما حارة الروم والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر.

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة. وأقام حوله السور سمى المدينة كلها (المنصورية) نسبة إلى المنصور أبي المعز، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر، فسماها (القاهرة المعزِّية). وتقع هذه المدينة شمالي الفسطاط، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة، وحدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية. أما الجهة الغربية فلم تجاوز خليج أمير المؤمنين، وتحد شمالاً بباب النصر، وجنوباً بباب زويلة، وشرقاً بباب البرقية والباب المحروق (الدراسة الآن)، وغرباً بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة. وكانت القاهرة المعزية تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكي والغورية وباب الخلق[1]. ويقال إن الخليفة المعز لما قدمها في أواخر سنة ٣٦٢ هـ ورأى أنه لا ساحل لها ولم يعجبه موقعها وقال: (يا جوهر! فاتتك عمارتها ههنا [2]، يريد المقس)[3].

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير من اللبن ضم الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية وكانت بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة. وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار، على حين كان يعرف الجزء الواقع خارجها يعرف بظاهر القاهرة وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية.

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٢٧٣.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ص ٧٤.

(٣) كانت تقع عند جامع أولاد عنان الآن.

وقد وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز (١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ). في الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة من الناحية الشرقية. لذلك أطلق عليه اسم «القصر الكبير الشرقي». ويسمى أيضاً القصر المعزي، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر جوهر ببنائه حين سيره لفتح مصر ووضع له رسمه. وكان الخليفة يقيم فيه ويجلس للنظر في أمور الدولة، كما كان هذا القصر يشتمل على دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها والجند الخاص بحراسة الخليفة، وبه أربعة آلاف حجرة.

وقد وصف علي مبارك باشا مدينة القاهرة كما كانت في أيام الخليفة المعز فقال: «شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً، ضلعه ألف ومائتا متر، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فداناً. منها سبعون فداناً بني فيها القصر الكبير، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافوري، ومثلها للميادين فيكون الباقي مائتي فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية في عشرين حارة بجانبي قصبة القاهرة. وكان سور المدينة الغربي بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً. وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة في وزارة بدر الجمالي وخلافة المستنصر بالله الفاطمي، هدم هذا السور وبنيت الأبواب من الحجر[١].

اتخذ جوهر عدة أبواب لمدينة القاهرة وأشهرها: باب زويلة[٢]، وباب النصر، وباب الفتوح، وباب العيد. فلما تولى أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٦٥ هـ، أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريباً من مواضعها أولاً، وكانت مبنية باللبن، فنقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن، كما بني باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم، ونقل باب زويلة إلى حيث موضعه الآن، وهو المعروف عند العامة «ببوابة المتولي»[٣]. وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاورين عند سبيل العقادين الآن، ونقل باب النصر، وكان على مقربة من مدرسة القاصد، إلى موضعه الحالي. وكانت هذه الأبواب الثلاثة التي جدد بناءها بدر الجمالي من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها.

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨١.

(٢) نسبة إلى قبيلة زويلة (بوزن سفينة) إحدى قبائل المغرب التي قدمت إلى مصر على أثر الفتح.

(٣) نسبة إلى متولي الحسبة في مدينة القاهرة، وقد أطلق عليه هذا الاسم في العهد العثماني، إذا كان متولي الحسبة في مدينة القاهرة يجلس على مقربة من هذا الباب.

ولما فتح جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ، وأسس مدينة القاهرة في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (أي الفسطاط والعسكر)، لم ير أن يفاجىء السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر المذهب الفاطمي، حتى لا يثير كراهة المصريين. لذلك وضع أساس الجامع الأزهر (١٤ من رمضان سنة ٩٧٠/٣٥٩). ولما تم بناؤه في سنتين تقريباً، أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ[١].

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها. أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض اللون في صفوف متوازية. وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كتخذا مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام. وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بهما مائة وستة وعشرون عموداً. وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً. وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد. وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع، وهما متلاصقتان، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء. وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف، مرصوف بالحجر، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين. ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائق مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل.

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن «القبلة القديمة»، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى، لم يبق منها سوى ستة أشهرها اثنان: يعرف أحدهما بالمقصورة القديمة، والآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي.

وللأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم. وأنشىء به عند تأسيسه منارة واحدة. ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم. وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي، ومهنته التنبيه على

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشي جـ ٣ ص ٣٦٤. المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٧٣.

أوقات الصلوات. وكان يعرف الأوقات بالنظر في المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر. وكانت مساجد القاهرة تتبع أصوات المؤذنين في الأزهر في الآذان.

وأهم خصائص الأزهر أنه بدأ كغيره من المساجد لإقامة الشعائر، ولم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب مختلف العلوم والفنون. ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية. وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية، وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من شتى أرجاء البلاد الإسلامية،بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن وما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة. وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء، عدتهم خمسة وثلاثون، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر.

٣ ـ العمارة في المغرب والأندلس

١ ـ تأسيس مدينتي المهدية والمنصورية:

أقام عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب بمدينة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع واتخذها حاضرة لدولته إلى سنة ٣٠٣ هـ، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها «المهدية». وقد عزا البكري[١] بناء هذه المدينة إلى محاولة أبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس ومن معهما من كتامة قتل المهدي والتنكيل بأهل القيروان.

خرج المهدي إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه مدينة حصينة يعتصم بها إذا خرج عليه أحد الخوارج. وقيل إنه وجد في بعض الكتب ما يدل على خروج أبي يزيد مخلد بن

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٠.

كيداد على دولته[١]. ثم وفق المهدي إلى موضع المهدية، وهي متصلة بالبحر كهيئة كف متصلة بزند، فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة، فقال له: بِم يعرف هذا الموضع؟ فقال: هذا يسمى جزيرة الخلفاء. فأعجبه هذا الاسم، فبناها وبها دار مملكته[٢].

تقع المهدية على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان. وقد ذكر البكري أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأنه يدخل إليها من الجانب الغربي. وقد شيدت مبانيها بالصخر، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً، ووزن كل مسمار من المسامير التي استعملت في تركيبه ستة أرطال. ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات. وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجاً عدا ما كان يجري فيها من القنوات. ولم تلبث هذه المدينة أن أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافقة للسلع التي كانت تحملها السفن من الإسكندرية ومن الشام وصقلية وغيرها[٣].

ولما فرغ المهدي من بناء حاضرته الجديدة في سنة ٣٠٥ هـ قال. «اليوم أمنت على الفاطميات» يعني بناته. ثم انتقل إليها في شهر شوال سنة ٣٠٨ هـ وأقام بها. ثم عمر بها الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصة بها، فنقلوا إليها أموالهم. وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة، منها ربض زويلة، وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره. وفيه الأسواق والحمامات، وربض الحمى، وقد أقام فيه أجناد إفريقية من العرب والبربر، وربض قفصة[٤].

وقد أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية، وجعل بين المدينتين ميداناً فسيحاً، وأحاطها بسور وأبواب وأقام عليها الحراس، وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر، وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم[٥]. ويظهر أن المهدي حذا في ذلك حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته إلى الكرخ.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٣.

(٢) أنظر لفظ المهدية في معجم البلدان لياقوت.

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٩. ذكر البكري (ص ٨٤ ـ ٨٦) أن السفن التي كانت تخرج من المهدية كانت تمر في طريقها إلى الاسكندرية بكثير من الموانىء كمدينة قابس، ومرسي الأندلسيين، ومرسي مدينة طرابلس، ولبدة، وسرت، وأجدابية، وسوسة، وبرقة، وتبني، وطبرق، والزيتونة، والسلوم، والأندلسيين ثم تصل إلى الاسكندرية.

(٤) البكري ص ٣٠ ـ ٣١.

(٥) أنظر لفظ المهدية في معجم البلدان لياقوت.

بقيت مدينة المهدية حاضرة الدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد بن كيداد على الخليفة القائم. ثم ولي ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته (سنة ٣٣٧ هـ) فسميت المنصورية نسبة إليه.

وكان لهذه المدينة خمسة أبواب: الباب القبلي، والباب الشرقي، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير. وقد نقل الخليفة المنصور إلى حاضرته الجديدة أسواق مدينة القيروان وأرباب الصناعات. فازدهرت فيها الصناعة والتجارة،وغدت حاضرة الدولة الفاطمية إلى أن قدم الخليفة المعز مصر (٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ)، فأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية [١].

تأسيس مدينتي الزهراء والزاهرة:

ولما ولي عبد الرحمن الناصر حكم بلاد الأندلس كانت قرطبة حاضرة هذه البلاد. وقد بلغ عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة، وعدد دورها ثلاثة عشر ألفاً ومائة، غير قصورها الفخمة وضواحيها الثمانية والعشرين وحماماتها الثلثمائة، ومساجدها التي بلغت ثلاثة آلاف على ما قيل، ولم يتفوق عليها في الاتساع سوى مدينة بغداد. وقد أولع أهل قرطبة بمقارنتها بها، فقال بعضهم:

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظِّم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة ... وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

كذلك بلغت شهرة قرطبة أهالي جرمانية الذين أطلقوا عليها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) «جوهرة العالم»[٢].

أما مدينة الزهراء فإنها لم تقل عن قرطبة روعة وبهاء. وقد ذكرى المقري[٣] في سبب بناء هذه المدينة «أن الناصر ماتت له سرية (مملوكة) وتركت مالاً كثيراً، فأمر بأن يفك بذلك أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد[٤]. فشكر الله تعالى على ذلك

---

(١) البكري ص ٢٥. أنظر لفظ المنصورية في معجم البلدان لياقوت.
(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦.
(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٤) يقصد مملكتي ليون ونافار.

فقالت له جاريته الزهراء، وكان يحبها حباً شديداً، اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالي قرطبة» وسماها الزهراء.

على أن ما أدلى به المقري لا يمكن أن يكون سبباً مباشراً لبناء هذه المدينة، إذا عرفنا أن عبد الرحمن الناصر ولي الأندلس بعد فترة طويلة انتابها الضعف. فلما وطد عبد الرحمن دعائم ملكه، ووحد بلاد الأندلس وأصبح خليفة للمسلمين، فكر في بناء مدينة يتخذها حاضر لخلافته، مقتدياً في ذلك بأبي جعفر المنصور حين بنى مدينة بغداد، وعبيد الله المهدي حين بنى مدينة المهدية، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد.

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء في أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ في الشمال الغربي من مدينة قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها. وتأنق في بنائها، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية والمجزع من رية، والوردي والأخضر من إفريقية، وأرسل بعضه هدية من الملوك والأمراء. وقد استعمل في بناء هذه المدينة ستة آلاف من الصخر المنحوت المعدل كل يوم. سوى الصخر غير المعدل والآجر[١] وأقيم بها أربعة آلاف سارية[٢]، وعمل في بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف عامل وألف وخمسمائة دابة، واستمر العمل في بنائها حتى نهاية عهد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ هـ)، وفي عهد ابنه الحكم المستنصر إلى سنة ٣٦٥ هـ. أي نحواً من أربعين سنة[٣].

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس، وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء، كما يتبين ذلك من عبارة الإدريسي[٤] حيث يقول: «وهي في ذاتها مدينة عظيمة

---

(١) المقريزي: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٩.

(٢) السارية هي الأسطوانة أو العمود. ذكر المقري في كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض (طبعة الأستاذ السقا وآخرين جـ ٢ ص ٢٧٠). أن عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس: طركونة وغيرها. فالرخام المجزع من رية، والأبيض من غيرها، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة سفاقس.

(٣) ذكر المقري. (نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩) أن الناصر كان ينفق على بناء مدينة الزهراء ثلثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين سنة، أي سبعة ملايين ونصف مليون دينار في مثل هذه المدة عدا ما أنفقه ابنه الحكم من بعده مدة خمس عشرة سنة.

(٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والمغرب ص ٢١٢.

مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازي الجزء الأوسط، وسطح الثلث الأعلى يوازي الثلث الأسفل، ولكل ثلث منها سور؛ فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط لبساتين وروضات والجزء الثالث للديار والجامع».

بدأ الناصر ببناء قصره، مقتدياً في ذلك بجده الأمير محمد وأبيه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم، الذين شيدوا قصورهم الفخمة، كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف. فبنى الناصر إلى جانب المجلس الزاهر قصره العظيم الذي سماه «دار الروضة»؛ ثم اختط مدينة الزهراء التي اتخذها داراً لإقامته وكرسياً لخلافته وبنى فيها دوراً فسيحة للحيوان، ومسارح للطيور مظللة بالشباك وداراً لصناعة آلات الحرب، والحلي للزينة[1].

وقد ذكر المؤرخون أن حيطان قصر الزهراء كانت من الذهب والرخام السميك الصافي، وأن قرامده من الذهب والفضة، ووضعت في وسط المجلس «اليتيمة» التي أهداها إياه إمبراطور القسطنطينية. وفي وسط هذا القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق. وفي كل من جوانب القصر ثمانية أبواب، انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر، القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي. «وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه، أومأ إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس»[2].

ومن عجائب قصر الزهراء الحوض المنقوش المذهب الذي جلب من القسطنطينية، والحوض الصغير الأخضر[3] المنقوش بتماثيل الإنسان. «وقالوا لا قيمة له لفرط غرابته، وجماله، وحمله من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر. ونصبه الناصر في بيت المنام، في المجلس المستشرف الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس الغالي، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه صورة غزال، إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقارب. وفي المجنبتين

(١) ابن خلدون: كتاب العبر جـ ٤ ص ١٤٤.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٠، ٢٥٦.

(٣) وقد جلب من الشام وقيل من القسطنطينية.

حمامة، وشاهين، وطاووس، ودجاجة، وديك... وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها.. وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر على أمين غيره. وكان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرة ثمانمائة خبزة (وقيل أكثر)، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه»[١].

وقد أطنب المؤرخون والرحالة في وصف قصر الزهراء، فقال المقري[٢]: «إنه لم يبق مثله في الإسلام ألبتة... ولو لم يكن إلا السطح الممرد المشرف على الروضة، المباهي بمجلس الذهب والقبة. وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة، وحسن المستشرف (المنظر)، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها».

وعلى الرغم من أن مدينة الزهراء لا تبعد كثيراً عن قرطبة، أراد الناصر أن يستكمل مدينته الجديدة ببناء مسجد جامع فيها. ولا غرو فإن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية، ومعهداً يجتمع فيه علماء التفسير والحديث وغيرهم.

ويعد مسجد الزهراء من آيات الفن الإسلامي، وقد عمل في بنائه ألف رجل في اليوم: منهم ثلثمائة بناء، ومائتا نجار، وخمسمائة من الصناع والفعلة. وطول المسجد من القبلة إلى الجوف[٣]، سوى المحراب، سبعة وثلاثون ذراعاً. وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً، وأقيم في المسجد منبر حوله مقصورة بديعة، وفرش بالرخام الخمري، وأقيمت في وسطه فوارة يجري فيها الماء. وقد بناه الحكم بن الناصر، وتم بناؤه في شهر شعبان سنة ٣٢٩[٤].

رأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة والزهراء، أصبح هذا الماء لا يصلح للشرب. فحفر قناة تمر بالجبل طولها ثمانون كيلو متراً. وفي سنة

---

(١) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠.
(٢) أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٣) الفضاء المتسع غير المسقوف الذي يسمى الصحن.
(٤) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٨، أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٧.

٣٢٩ هـ تم بناء هذه القناة الغريبة الصنعة التي لا تزال آثارها الهندسية باقية إلى الآن(١).

وقد أطنب المؤرخون والرحالة في وصف مدينة الزهراء، وجداولها المتدفقة، وبساتينها النضرة، ومبانيها الفخمة وقصورها الجميلة، ودور الموظفين ورجال البلاط وثكنات الجند، وغلمان الصقالبة الذين كانوا يغدون ويروحون في شوارعها الواسعة بسراويلهم الحريرية الخاصة أو الموشاة بالذهب والفضة، وجماعة القضاة والفقهاء والشعراء الذين يسيرون في جد ورزانة في ردهات القصر الفخمة وأبهائه الفسيحة(٢).

وإن هذا العمل الذي يشهد لأمويي الأندلس بالبراعة في الهندسة والبناء كلف الناصر أموالا ضخمة، حتى قيل إنه خصص ثلث خراج دولته في بناء هذه المدينة(٣)، وإنه لقي معارضة قوية تزعمها رجل اشتهر بالورع والتقوى والتفقه في الدين، هو المنذر بن سعيد البلوطي الذي ولاه الناصر إمامة الصلاة بقرطبة والزهراء بعد أن تم بناء مسجدها. وقد تحلى هذا الإمام بالشجاعة التي جعلته ينقد تصرف الخليفة متهماً إياه بأنه بذل الأموال الضخمة في بناء المدينة مما شغله عن مباشرة أمور الدولة.

على أن هذه المدينة لم تعمر طويلاً، بل ذبلت ودكت معالمها حين ولي الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الحاجب، ويلقب بشنجول(٤). ففي سنة ٣٩٩ هـ. خلع الخليفة المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن، وتقلد الخلافة من بعده محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهدم مدينة الزهراء، واتخذ قرطبة حاضرة لخلافته(٥).

ولم يقتصر بناء المدن على الخلفاء، بل تعداه إلى الوزراء، فقد بنى المنصور بن أبي

---

(١) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) Lane - Pool: The Moors in Spain, pp. 140 - 141.

(٤) المقري: أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

شنجول تصغير شانجة ملك قشتالة الذي أهدى ابنته إلى المنصور فتزوجها وأنجب منها ولده عبد الرحمن الذي عرف باسم شنجول نسبة إلى جده لأمه.

(٥) قال ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٠) إنه تلقب الناصر لدين الله، وحجر على الخليفة هشام، وطلب منه أن يوليه عهده، وأحضر أهل الحل والعقد وكتب عهده. ولكن العامة غضبوا على عبد الرحمن لتعديه على حرمة الخلافة، وخرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر في سنة ٣٩٩ هـ، وتلقب المهدي، وخلع هشاماً وحبسه، وأسر شنجول وقتل.

عامر الحاجب مدينته الزاهرة بضواحي قرطبة وشيد فيها قصراً فخماً. وفي سنة سبعين وثلثمائة انتقل إليها المنصور واتخذ فيها الدواوين والأعمال، ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه، فبنوا بها الدور القصور، واتخذوا خلالها الضياع. وقامت بها الأسواق وكثرت بها الأرفاق[1]، ونزل الناس بالنزول في أرباضها التي اتصلت بأرباض قرطبة[2].

(١) الأعمال ووجوه الرزق.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٥.

الباب الحادي عشر

الحالة الاجتماعية

١ ـ طبقات الشعب

(أ) في عهد العباسيين :

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أنه يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها، وما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة، ووصف المنازل وما فيها من أثاث وشراب ولباس، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع.

كان الشعب في أواخر العصر العباسي الأول يتألف من عدة عناصر، هي العرب والفرس والمغاربة. وقد ظهر العنصر التركي على مسرح السياسية في عهد الخليفة المعتصم الذي اتخذهم حرساً له، وأسند إليهم مناصب الدولة العالية، وأهمل العرب والفرس، فأصبح الأتراك خطراً يهدد الخلفاء أنفسهم، حتى إن كثيرين من هؤلاء الخلفاء ذهبوا ضحية تآمرهم. على أن بعض الخلفاء أدركوا خطر هذا العنصر، فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة وغيرهم من الجنود المرتزقة، كالأكراد والقرامطة الذين بدأت الدولة العباسية تستعين بهم منذ أيام الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ). إلا أن الخلفاء العباسيين لم يسلموا من خطر هذه العناصر التي كانت تنضم إلى أمراء الأمراء تارة وإلى الخلفاء أخرى.

ولما انتقلت السلطة إلى بني بويه قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ويعتمدون عليهم في إقرار نفوذهم. ووقع بنو بويه فيما وقع فيه العباسيون من قبل، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية بسبب قيام المنافسة

بينهم وبين الأتراك. واستعانة البويهيين بهؤلاء تارة وأولئك تارة أخرى. وقد أدرك معز الدولة هذا الخطر فأوصى ابنه بختيار بمداراة الديلم والتودد إلى الأتراك. ولكن بختيار، على الرغم من استعانته بالأتراك، لم يسلم من شرهم، فعزلوه وانضموا إلى ابن عمه عضد الدولة. ومهما يكن من شيء فقد كان الجيش في عصر بني بويه يتألف من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة وغيرهم من المرتزقة.

وكان من أثر انقسام المسلمين في هذا العصر إلى شيع وطوائف أن تعرض المجتمع الإسلامي إلى التفكك والتنازع. فهناك السنيون الذين كانوا يكونون السواد الأعظم ويتمتعون بقسط وافر من الحرية والطمأنينة في عهد نفوذ الأتراك وفي عهد إمرة الأمراء وهناك الشيعيون الذين قاسوا كثيراً من العنت والاضطهاد، حتى استولى بنو بويه على العراق، فتمتعوا بشيء غير قليل من الطمأنينة في ظل البويهيين المتشيعين. ومن ثم قامت المنازعات بين الشيعيين والسنيين، فضرب يحيى بن عمر بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وحبس في بغداد سنة ٢٣٥ هـ(١). ولم ينج من عنت هذا الخليفة إلا العلويون الذين لجئوا إلى مصر. ومع ذلك أمر هذا الخليفة واليه على هذه البلاد بإخراج العلويين من مصر إلى العراق، ثم أمر بإرسالهم إلى المدينة. وقد خرج يحيى بن عمر العلوي على الدولة العباسية، ولكنه قتل في عهد المستعين سنة ٢٥٠ هـ(٢). كذلك ثار بطبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واستولى عليها وعلى جرجان، وحكم هذه البلاد عشرين سنة (٢٥٠ - ٢٧٠ هـ) إلى أن مات، فخلفه أخوه، وكانا يدعوان إلى الرضا من آل محمد، ثم خلفه الحسن بن علي الحسني المعروف بالأطروش(٣).

بيد أن الشيعيين انتعشوا في عهد بني بويه، وأصبحوا يقيمون شعائرهم في شيء كثير من الطمأنينة، وإن كانت مساكنهم لم تتعد المكان المحيط بسوق الكرخ غربي بغداد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري. وفي سنة ٣٤٩ هـ قامت فتنة بين العامة ببغداد، وتعطلت صلاة الجمعة في مساجد السنيين على حين أقيمت في مسجد براثا الشيعي، ولم تلبث هذه الفتنة

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٤٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٥، ٤٧٤.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤١٣ - ٤١٤.

أن سكنت بعد أن اعتقل معز الدولة جماعة من السنيين. وفي السنة التالية احتفل الشيعيون بيوم عاشوراء الذي جعلوه من أيام الحزن عندهم[١].

وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة من هذه السنة احتفل الشيعيون بيوم غدير خم، وأمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد فرحاً بعيد الغدير، وضربت الدبادب والبوقات[٢].

ولم يكن هذا الاختلاف قائماً بين السنيين والشيعيين وحدهم. بل تعداه إلى داخل السنيين أنفسهم. فقد رأينا أن الحنابلة أصبحوا قوة يخشى بأسها،حتى إنهم حالوا دون دفن محمد بن جرير الطبري سنة ٣١٠ هـ، لأنه جمع كتاباً في اختلاف الفقهاء، لم يذكر فيه أحمد بن حنبل من بين هؤلاء الفقهاء[٣]. كما رأينا كيف بلغ من تشددهم في الدين أن قاموا في وجه ذوي اليسار وكسروا أواني الخمر وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنيين[٤]. وذكر السيوطي[٥] أن الحنابلة ثاروا ببغداد سنة ٣١٨ هـ، لاختلافهم مع غيرهم من السنيين في تفسير قوله تعالى **﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾**[٦]، فقال الحنابلة إن المقصود من هذه الآية أن يقعد الله نبيه على عرشه، وقال غيرهم بل هي الشفاعة واحتدم الجدل بسبب ذلك واقتتل الحنابلة مع خصومهم[٧].

ومن طبقات الشعب طبقة الرقيق، وكانت مصر وشمالي إفريقية وشمالي جزيرة العرب من أهم أسواق الرقيق الأسود، وقد جلب إلى العراق كثير من الزنجيات اللاتي عرفن بكثرة النسل، كما جلب كثير من الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور. وكثر الزنج في العراق، وأدت كثرتهم إلى قيام ثورة الزنج الخطيرة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ)، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء.

وقد كثر شراء الرقيقات اللاتي أصبح منهم المغنيات وارتفع ثمنهن. وقد قيل إن ابن رائق اشترى حول سنة ٣٢٥ هـ جارية مولدة سمراء موصوفة بحسن الغناء بأربعة آلاف

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٢) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص ٤٥ ـ ٤٦.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤.
(٦) سورة الإسراء ٧٩.
(٧) راجع كتاب الخليفة الراضي إلى الحنابلة في مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ـ

دينار[١]، وارتفع ثمن الرقيق الأبيض بسبب انقطاع عبيد الأندلس في القرن الرابع الهجري وتخريب الثغور الغربية، وكاد ينضب المصدر الوحيد الباقي من الرقيق وهو ببزنطية وأرمينية[٢].

ومن الرقيق الأبيض الذين كانوا يسمون العلماء، الأتراك والديلم والأكراد الذين قاموا بدور هام في السياسة والحرب في هذا العصر، وكانوا يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيراً. وكانت سمرقند، التي كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق، بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[٣]. ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق. وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر.

ومن طبقات الشعب في ذلك العصر أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ويقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة. وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح. ولم تتدخل الحكومة الإسلامية في شعائر أهل الذمة، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضروا مواكبهم وأعيادكم ويأمروا بحمايتهم.

وكان للنصارى بطريق يعينه الخليفة بعهد خاص كما يعهد لكبار العمال، ويطلق عليه الجاثليق النسطوري أي رئيس المسيحيين الشرقيين، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين أبناء ملته[٤]، وكذلك عومل بطريق اليعاقبة[٥].

وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب الملك، ويدفع له أهل ملته الضرائب، فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة

---

(١) الصولي: أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٠١.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٤٢.
(٣) متز الإسلامية ص ٢٦٨.
المصدر نفسه جـ ١ ص ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٠. راجع نسخة الجاثليق في تذكرة ابن حمدون التي نشرها أمدروز في
(٥) المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٨ ص ٤٦٧ وما يليها.

للنصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد رأس الجالوت. وقد امتد نفوذه على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة شرقي الفرات. وبلغ عدد اليهود في البلاد الإسلامية ٣٠٠,٠٠٠ وكلما تقدمنا شرقاً زاد عدد اليهود، ففي همذان مثلاً بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، وفي أصبهان خمسة عشر ألفاً، وفي شيراز عشرة آلاف، وفي غزنة ثمانين ألفاً، وفي سمرقند ثلاثين ألفاً، ويظهر أن عددهم كان ضئيلاً في بلاد الشام، وخاصة في أثناء الحرب الصليبية، حتى إن عددهم في الحي الخاص بهم في بيت المقدس لم يجاوز أربعة أنفس أو مائتين على ما ذكره بنيامين، أو شخصاً واحداً على ما ذكره بتاحيا. أما في دمشق فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف، وفي حلب خمسة آلاف[١]، ويقول المقدسي[٢] إنه كان بخراسان «يهود كثيرة ونصارى قليلة»، ويقول عن بلاد الجبل: «واليهود به أكثر من النصارى»[٣].

وفي القرن الرابع الهجري اعترفت الدولة العباسية بالمجوس الذين لم يكن قد تم التغلب عليهم في البلاد البعيدة، لتمسكهم بدينهم وتقاليدهم وكراهيتهم للإسلام بأنهم أهل ذمة. وكان لهم ـ كما كان لليهود ـ رئيس ديني يلقب بألقاب الملوك، يدفع له أبناء محلته الضرائب كما يفعل اليهود[٤]. وكان منصبه وراثياً. وقد كثر عدد المجوس في القرن الرابع في العراق وجنوبي فارس[٥].

(ب) في عهد الفاطميين:

وكان الشعب المصري في عهد الفاطميين يتكون من أهل السنة الذين كانوا منذ أيام الطولونيين، يكونون السواد الأعظم من المصريين، وكانوا يختلفون مع الشيعيين أنصار الفاطميين، الذين لم يدخروا وسعاً في نشر مذهبهم في المساجد والقصور وفي دور العلم وغيرها. وقد فعلت هذه السياسة فعلها في الناس، فتحول كثير من السنيين إلى المذهب الفاطمي رغبة في الهبات والعطايا والمناصب، واضطر كثير من الموظفين من أهل السنة إلى التحول إلى المذهب الفاطمي، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب.

---

(١) متز الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٦٠ ـ ٦٢.
(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٤.
(٤) متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٥٨.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٦.

أما الطبقة الثانية فهي طبقة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم في بلاد المغرب ثم في مصر. وكان الفاطميون يعتمدون عليهم في جيوشهم، وخاصة الكتاميين الذين كانوا عصبة الدولة الفاطمية وقوتها في مصر.

والطبقة الثالثة هي طبقة أهل الذمة، وهم النصارى واليهود. وقد دفعت رغبة كثير منهم في الحصول على الهبات والعطايا والمناصب إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي لأغراض مادية. وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية، فتقلدوا أرقى المناصب في عهد الخليفة العزيز، وشغلوا في عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة، بل تقلدوا الوزارة أيضاً.

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية. فقد استعان أحمد بن طولون، وكان تركياً من بلاد ما وراء النهر، بعدد كبير من هؤلاء الأتراك، وظهر أمر الأتراك في مصر في عهد الحاكم حين بالغ ابن عمار في محاربة المغاربة.

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ عهد كافور الإخشيد، وظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك، فأحرقوا القاهرة حنقاً منهم على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته المضطربة. وقد ظهر أمر السودانيين من جديد في أيام الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية، ثم تفاقم خطرهم في عهد ابنه المستنصر.

(حـ) في عهد الأمويين في الأندلس:

وكان الشعب في الأندلس يتألف من عدة عناصر، من بينها المسلمون من العرب البربر الذين ساهموا في فتح هذه البلاد بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، ومن مسيحيي الأندلس من الأسبان الذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح.

أما العرب فقد نزل كثير من القبائل الجنوبية أو اليمنيين والقبائل الشمالية أو المضريين، وسكنوا في أماكن كثيرة. ونزل كثير من المضريين في طليطلة. وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وغيرها، كما نزل اليمنيون بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبطليوس.

وعلى الرغم من أن البربر قد أبلوا بقيادة طارق بن زياد البلاء الحسن في فتح بلاد الأندلس وتحملوا أكثر أعباء الفتح، نرى العرب يحرمونهم ثمار فتوحهم وينزلونهم الأقاليم الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال، حيث استهدفوا لخطر حملات المسيحيين الذين أقاموا

في الأماكن الحصينة، على حين نعم العرب بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين. لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب[١]، وأخذوا يناصبونهم العداء كما كانوا يناصبون العرب والروم من قبلهم في بلاد المغرب.

ولكن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) استطاع أن يرغم البربر على الطاعة وأن يعيد وحدة البلاد. ولم يستطع هؤلاء البربر الظهور إلا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (٣٩٣ هـ) حيث غدت بلاد الأندلس مسرحاً لفوضى القوى المتعادية المتنافسة، ومن بينها البربر الذين اعتمد عليهم المنصور في تحقيق سياسته حتى أصبحوا خطراً يهدد كيان الدولة[٢]. وبعد وفاة الحاجب المنصور انفض هؤلاء البربر من حول أخيه عبد الرحمن وقتلوه وأزالوا دولة العامريين[٣]، وساعدوا أفراد البيت الأموي بعضهم على بعض. لذلك نرى البربر يلتفون حول محمد بن هشام (بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) الذي تلقب بالمهدي ويساعدونه في الحروب التي قامت بينه وبين هشام بن سليمان (بن عبد الرحمن الناصر). ولما وجد محمد بن هشام حنق أهل قرطبة على البربر لمناصرتهم المنصور بن أبي عامر وأولادهم طردهم من جيشه وجردهم من سلاحهم[٤]. وقد تخلى البربر عن المهدي وناصروا هشام بن سليمان (شوال سنة ٣٩٩ هـ) وحثوه على الخروج على طاعة المهدي ولكن أهل قرطبة فتكوا بهم فتكاً ذريعاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لذلك ساعد البربر سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين بالله، وساروا معه إلى قرطبة التي أصبحت مسرحاً للفوضى والنهب والإحراق، حتى دخلها سليمان سنة ٤٠٠ هـ، وفر المهدي واستعان بالنصارى على طرد البربر والمستعين، وتم لهم ما أرادوا، وأدى ذلك إلى تفريق كلمة المسلمين وظهور ملوك الطوائف، وقامت دولة بني حمود بمساعدة البربر على ما تقدم.

أما المسيحيون فكانوا فريقين: فريق بقي متمسكاً بدينه القديم، وفريق آخر عرف باسم المستعربين. وعلى الرغم من أنهم ظلوا على عقيدتهم الأولى أظهروا ميلهم إلى تعلم اللغة العربية فتكلموا بها، وألفوا الكتب، ونظموا الشعر، وتخلقوا بأخلاق العرب وعاداتهم. وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى الكونت، يختاره الأمير أو الخليفة. ولهم ممثل يمثلهم

---

(١) Lane - Poole, The Moors in Spain, P 53 - 55

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٤) ابن الأثير جـ ٧ ص ٨٤.

في البلاط وآخر يقوم بجمع الخراج، كما كان لهم قاض منهم ومحكمة استئنافية برياسة الكونت. وكثيراً ما كان هؤلاء المسيحيون يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية ويتمتعون بقسط وافر من التسامح الديني، ويختلطون بإخوانهم في حرية تامة.

وقد تمتع اليهود في هذا العصر بشيء كثير من التسامح الديني الذي لم يظفروا به تحت حكم القوط. ولا غرو فقد أسند إليهم كثير من مناصب الدولة، وأصبح بعض الحرف، وخاصة الطب، مقصوراً عليهم، وغدوا عنصراً هاماً في الإدارة والتجارة والثقافة وأصبحت قرطبة مركز الدراسات العبرية، وأصبح كثير من اليهود يتحدثون اللغة العربية الصحيحة ويكتبون بها.

وكان لليهود، كما كان للمسيحيين، نظام إداري خاص بهم. وقد ذكر الإدريسي[١] أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة، وأنهم كانوا «يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيما مسلم ألبتة، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين». وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ من اختيار حسداي بن شبروط اليهودي لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يغدون على البلاط الأموي في هذه البلاد. وقد قام حسداي هذا بدور هام في البعثة التي أوفدها قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر. وفي البعثة التي أوفدها أوتو إمبراطور ألمانيا، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار.

ومن أهم طبقات الشعب في الأندلس «الصقالبة» الذين قربهم عبد الرحمن الناصر إليه بعد أن رأى روح العصبية العربية كانت مثار النزاع والانقسام، فتخلص من العرب واعتمد على جماعة من الأرقاء والمماليك الذين اتخذهم حرساً له، كما اتخذ منهم جنوداً يعتمد عليهم في إذلال العرب. وقد ذكر المقري[٢] أن عدد الصقالبة بلغ بقصر الزهراء وحده ٣٧٥٠.

ولكن هؤلاء الصقالبة لم يلبثوا أن انضموا إلى الثورات التي قامت بعد موت الحاجب المنصور الذي عمل على القضاء على العرب والصقالبة. واعتمد على البربر كما تقدم. كما استعان بهم عبد الرحمن الناصر في حروبه التي شنها على مسيحيي الأندلس الشماليين وعلى الفاطميين.

(١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٩٦.

٢ ـ مجالس الغناء والطرب

(أ) في الدولة العباسية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين انغمسوا في الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وأن قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة كانت مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يكتنفها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة، وازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة. وكان العباسيون في العراق والطولونيون والفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس ينفقون في سبيل رفاهيتهم عن سعة، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، لذلك حفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين. وأصبحت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال.

أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس كما نعلم، وعلى الرغم من ضعف الدولة في العصر العباسي الثاني، كان للخلفاء مجالس للطرب والغناء يحضرها والشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون. وقد ذكر المسعودي[1] أن مجلس المتوكل أول خلفاء العصر العباسي جمع مرة بين الشعراء والأدباء والملهين. وقد مدح البحتري هذا الخليفة بقصيدة قال في مطلعها:

عَنْ أيِّ ثغرٍ تبتسمْ ... وبأيِّ طرفٍ تحتكمْ؟
حُسْنٌ يضيءُ بحسنه ... والحسنُ أشبَهُ بالكرم
قُلْ للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم
أما الرعيةُ فهي مِنْ ... أمنات عدلِكَ في حَرم

فلما انتهى هذا الشاعر سار القهقري للانصراف، فوثب أبو العنبس الصيمري الشاعر فقال: أمير المؤمنين تأمر برده، فقد والله عارضته في قصيدته هذه. فأمر برده فأخذ الصيمري ينشد قصيدة له على مثل قافية البحتري ووزنها يهجوه فيها فقال:

في أيِّ سلح ترتطمْ ... وبأي كف تلتقمْ

(١) مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦.

ووصل ذلك بما أشبه من الشتم، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، وفحص برجله اليسرى وقال: يدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم، فقال الفتح (بن خاقان): يا سيدي.. البحتري الذي هجي وأسمع المكروه ينصرف خائباً! قال: ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم. قال: يا سيدي! فهذا البصري الذي أشخصناه من بلده لا يشركهم فيما حصلوه؟ قال: ويدفع إليه عشرة آلاف درهم. فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل، ولم ينفع البحتري جده واجتهاده وحزمه. ثم قال المتوكل لأبي العنبس: أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره في الرؤيا التي رأيتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان أعقل من القضاة، ولم يكن له جزية ولا زلة، فاعتل علة على عقلة ومات منها، فرأيته فيما يرى النائم، فقلت له: يا حماري! ألم أبرد لك الماء، وأنق لك الشعير، وأحسن إليك جهدي؟ فلم مت على غفلة؟ وما خبرك؟ قال: نعم! لما كان في اليوم الذي وقفت على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا، مرت بي أتان حسناء فرأيتها فأخذت بمجامع قلبي، فعشقتها، واشتد وجدي بها، فمت كمداً متأسفاً، قلت له: يا حماري! هل قلت في ذلك شعراً؟ قال: نعم! وأنشدني:

هامَ قلبي بأتانٍ ... عند باب الصيدلاني

تيمتني رضا بدلال ... بثناياها الحسان

وبخدّين أسَيلين ... كلوْن الشقران

وبخدٍّ ذي دلالٍ ... مثل خد الشنفراني

فيها مِتُّ ولو عشت، إذاً طال هواني

فقلت: يا حماري! فما الشقراني؟ قال: هذا من غريب الحمير، فطرب المتوكل، وأمر الملهين المغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح ذلك اليوم فرحاً شديداً وسر سروراً لم ير مثله، وزاد في تكرمة أبي العنبس وجائزته».

كان الخليفة المعتمد مشغوفاً بالطرب والغناء والموسيقى. دخل عليه يوماً جماعة من ندمائه، فسأل عبد الله بن خرداذبة والد أبي القاسم عبيد الجغرافي المشهور صاحب كتاب «المسالك والممالك» عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير، فأجاد في وصفها في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور، فسر المعتمد وقاله له: «قد قلت فأحسنت ووصفت فأطنبت، وأقمت في هذا اليوم سوقاً للغناء وعيداً لأنواع الملاهي. وإن كلامك لمثل الثوب الموشى، يجتمع فيه الإحمرار والأصفر والأخضر وسائر الألوان». ثم سأل عن الصفات التي يجب أن تتوافر في المغني الحاذق، فقال له: المغني الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من

أنفاسه[١] ولطف في اختلاسه[٢] وتفرع في أجناسه. ثم سأله عن أنواع الطرب قال: «على ثلاثة أوجه يا أمير المؤمنين، وهي طرب محرك مستخف لأريحية[٣]، ينعش النفس ودواعي الشيم عند السماع. وطرب شجن وحزن، لا سيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثي لمن عدم الأحباب، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس[٤]، لا سيما عند سماع جودة التأليف وإحكام الصنعة،إذ كان من لا يعرفه، ولا يفهمه ولا يسره، بل نراه متشاغلاً عنه فذلك كالحجر الجلد والجماد الصلد، سواء وجوده وعدمه. وقد قال يا أمير المؤمنين جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام اليونانيين: من عرضت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب، ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه قال المعتمد: فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم؟ قال: قد قال في ذلك يا أمير المؤمنين من تقدم: إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب. وهو أربعة أجناس: ثقيل الأول وخفيفه، وثقيل الثاني وخفيفه، والرمل الأول وخفيفه، والهزج وخفيفه»[٥].

ثم أخذ ابن خرداذبة يصف الإيقاع في كثير من الإفاضة حتى قال: «فهذه يا أمير المؤمنين جوامع في صفة الإيقاع ومنتهى حدوده. ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضر من ندمائه، وفضله عليهم».

وللمعتمد مجالس قد دونت في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله، وذم التفرد بشرب النبيذ وما قيل في ذلك من النثر والشعر، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وأنواع الشرب، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه، وأصول الغناء عند العرب وغيرهم، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس ومراتبهم[٦].

ولم تقتصر مجالس الغناء على الخلفاء بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء وغيرهم من

---

(١) أي من جمع نفسه لمده الصوت.

(٢) أي اختلس النفس دون أن يشعر الناس به.

(٣) يحرك الارتياح للكرم من كثرة الطرب.

(٤) أي من أنواع الطرب ما هو استجابة للدواعي الفنية وحدها من إحكام صنعة الغناء وجودة الإيقاع وحسن تأليف اللحن، وهذا النوع لا يطرب له إلا الفنان القوي الحس.

(٥) المسعودي: مروج الذهب (طبعة باريس) جـ ٨ ص ٩٥ ـ ٩٩.

(٦) المسعودي (طبعة باريس) جـ ٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٣.

كبار رجال الدولة، فقد وصف المسعودي مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين[1].

وكان انتشار الغناء في هذا العصر راجعاً إلى كثرة الجواري، وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في أوائل القرن الرابع الهجري من الجواري، وقليل منهن من الحرائر[2]. وذكر السيوطي[3] أن الخليفة القاهر أمر في سنة ٤٢١ هـ بتحريم القيان والخمر وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو، كما فعل الحنابلة في أوائل هذا القرن، وأمر ببيع المغنيات من الجواري على أنهن غير مدربات على الغناء سوادج. ومن الغريب أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات.

(ب) في مصر والأندلس:

وقد عني الطولونيون والفاطميون بالغناء والموسيقى. يدلنا على ذلك بيت الذهب الذي بناه خمارويه بن أحمد بن طولون، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف. وكان على رؤوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكودان[4] المرصعة بالجواهر، وعلى آذانها المثبتة في الحيطان بمسامير، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع وقد لونت أجسادها بالأصابع العجيبة التي تبدو للرائي كأنها ثياب حقيقية. وذكر المقريزي[5] أيضاً أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون أمر المغنيات بوقف الغناء، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع. وذكر المقريزي في مكان آخر[6] أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ و ٤٠١ هـ قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطىء الخليج. كما حرم فتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطىء، وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها، ويمنع

---

(١) المصدر نفسه جـ ٧ ص ٣٣٥ - ٣٩٢.

(٢) متز: جـ ١ ص ٢٩٥.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٧.

(٤) لعلها جمع كدن، وهو كما في القاموس المحيط - ثوب للخدر (المنزل) أو ثوب توطىء به المرأة في الهودج، ويتعين أن يكون المراد به هنا ثوب الخدر، وهو أشبه بالطرحة اليوم.

(٥) خطط جـ ١ ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٧.

البعض الآخر سماع المغنيات. يقول ابن خلكان[١]. إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولي الخلافة الظاهر بن الحاكم، وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر في بغداد، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين:

يا بني العباس صُدُّوا ملك الأمرَ مَعَدُّ
ملككم كان مُعاراً والعواري تُسْتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم في مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة.

وقد أولع أمويو الأندلس بالغناء والموسيقى، وأجزلوا العطاء للمغنين والموسيقيين، وقد قيل أن علون وزرقون كانا أول من دخل هذه البلاد من المغنين وذلك في عهد الحكم ابن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ)، الذي اشتهر منصور اليهودي بالغناء في زمانه. وفي عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب[٢]. وقد روى المقري قصة هذا المغني، وكيف تفوق على أستاذه إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي خيره بين الموت والنفي، وكيف رحل إلى قرطبة فقربه عبد الرحمن إليه وأجزل له العطاء، وكيف أصبح لفن الغناء على يديه مكان ملحوظ بين الفنون في هذه البلاد. على ما ذكرناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

٣ ـ قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

(أ) في الدولة العباسية:

اتخذت دور بغدار وسامرا وغيرهما من أمهات المدن في هذا العصر على مثال دور الفرس والروم، وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس. وتقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هي: مقاصير الحرم، وحجرات الخدم، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة. ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين. وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة. وزينت أسطحها بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة في

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٢٧.
(٢) أطلق عليه هذا اللقب لسواد لونه وفصاحة لسانه تشبيهاً له بطائر أسود حسن الصوت.

الفضاء. ويحيط بكل دار سور واحد. أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها. وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع، حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها.

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني، على قدر الغلمان الذين يجتمعون في كل منها.

وقد ابتدع المتوكل ـ كما رأينا ـ نوعاً من القصور يسمى الحيري، ينقسم ثلاثة أقسام. أوسطها الباب الأكبر، وإلى جانبه البابان الصغيران. وكان هذا الخليفة يتخذ في طريق الوصول إلى قصره ثلاثة أبواب ضخمة يدخل منها الفارس برمحه، وحذا الناس حذو المتوكل في هذا النوع من البناء. ومن أشهر هذه القصور «قصر التاج» الذي وضع أساسه الخليفة المعتضد في الجانب الشرقي من دجلة على مقربة من القصر الحسني الذي كانت تقيم فيه بوران بنت الحسن بن سهل وزوج الخليفة المأمون، ثم أتمه الخليفة المكتفي، ويقول ياقوت[١] إن واجهة قصر التاج كانت على خمسة عقود أقيم كل عقد منها على عشرة أساطين من الرخام.

وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها. يشتمل على دور وبساتين ومسطحات تظللها الأشجار، كما كانت تشتمل على قاعات ذات قباب وأروقة. ويزيد في جمال هذه القصور البرك والأنهار الجارية. وقد رأينا أن الخليفة القادر كان يجلس في قصره المعروف ببيت الرصاص «بين يديه نهر يجري الماء فيه إلى دجلة»[٢].

ومن أحسن البساتين التي كانت تلحق بقصور الخلفاء بستان القاهر المعروف ببستان النارنج الذي وصفه المسعودي[٣] فقال: «وكان للقاهر... بستان من ريحان، وغرس من النارنج، قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر. وبين ذلك أنواع العروس والرياحين والزهر، وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الأطيار من القماري والدباسي والشحارير[٤] والببغاء، مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار، وكان في غاية الحسن».

---

(١) أنظر لفظ «التاج» في معجم البلدان.

(٢) هلال الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٤٢٠.

(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٥٢٨.

(٤) هذه كلها أنواع من الحمام.

(ب) في مصر :

وقد تأثر الطولونيون في تشييد قصورهم بالبناء الجيري، فبنى أحمد بن طولون قصره على مثال قصور الخلافة العباسية. ولما ولي ابنه خمارويه انتقل إلى قصر أبيه، وزاد فيه، وحول الميدان الفسيح الذي كان أمام القصر إلى بستان غرس فيه الرياحين على اختلافها، والشجر بأنواعه الكثيرة. ونقل إليه الودي[١] المختلف طولاً وقصراً. ويتناول من ثمره القائم والجالس. وأمر خمارويه، فحمل إلى هذا البستان أصناف الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران.

ومما زاد خمارويه في هذا القصر «بيت الذهب»، كان من أعجب مباني الدنيا. وهو إيوان فسيح يتصل برواق رحب، طليت حيطانه بالذهب المحلول باللازورد، ويمتاز بحسن النقش وجمال التنسيق. وكذلك بني خمارويه في هذا القصر بيتاً أطلق عليه «الدكة» على مثال قبة الهواء التي بناها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسي في مصر على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن. وكان خمارويه ومن أتي بعده من الأمراء يختلفون إلى هذه الدكة طلباً للراحة وتبديل الهواء[٢]. وقد وضعت فيها الستائر لتقي الجالسين من الحر والبرد بحيث ترفع وتخفض عند الحاجة. وفرشت أرضها بأفخر الفراش، واتخذ لكل فصل من الفصول فراش يناسبه. وكان خمارويه يجلس في هذا المكان حيث يشرف على ما في قصره وبستانه، فيشاهد النيل والجبل والصحراء وكافة جهات مدينة القطاع[٣].

ومن أشهر القصور في عهد الإخشيديين قصر المختار الذي بناه محمد بن طغج الإخشيد في جزيرة الروضة، كما اتخذ بستاناً عرف فيما بعد بالبستان الكافوري، لأن كافوراً اتخذه مكاناً للتنزه في أيام الجمعة والأحد والثلاثاء فنسب إليه.

تنزه محمد بن طغج الإخشيد مرة في بستان يمتلكه أبو بكر المادرائي، الذي تقلد خراج مصر واتسعت ثروته حتى بلغ خراج ضياعه أربعمائة ألف دينار في السنة. فقدم له من أفخر ألوان الطعام والشراب، وفرشت أرض البستان بالبسط، ونصب بين يدي ضيفه الكبير تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة والكافور والعنبر وصينيتين من الفضة ملئت إحداهما

(١) الودي: بفتح الواو وكسر الدال وتشديد الياء، الشجر الصغار المنقولة.
(٢) الكندي: كتاب الولاة ص ١٤٧.
(٣) المقريزي: خطط حـ ١ ص ٣١٧.

دنانير وملئت الأخرى دراهم لينثر منهما على من يشاء من رجال الدولة أو على المغنين والمغنيات.

وفي عهد الفاطميين بنى الخليفة العزيز كثيراً من القصور التي تدل على وفرة ثروة مصر. من ذلك القصر الغربي، وكان يقع غربي القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز شرقي مدينة القاهرة، وكان أصغر من القصر الشرقي، لذلك أطلق عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن القصر الشرقي الكبير وهو القصر الذي بناه المعز.

وقد بنت الملكة تغريد زوجة المعز قصر القرافة، وكان يتصل به بستان وحمام. وقد وصف المقريزي[١] هذا القصر فقال: إنه كان قصراً فخماً يسر الناظرين، يتردد عليه أهلوه طلباً للراحة؛ وبه قنطرة مقامه على قبو يستظل به المسافرون من الشمس. كما بنت تغريد منازل العز[٢]، وهو قصر فخم على شاطىء النيل، اتخذه ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده للتنزه.

وابتنى العزيز قصوراً أخرى في عين شمس، كما بنى في عهده قصر البحر الذي يقول فيه ابن خلكان[٣] إنه لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب. كذلك أسس العزيز قاعة للذهب التي كان يجتمع فيها مجلس الملك، وكانت مؤثثة أثاثاً فخماً، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب. وكانت كلها من رسم واحد ولون واحد. وفي صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حتى إذا جلس وانعقد المجلس رفعت تلك الستور.

ويمتاز الفاطميون ببناء المناظر، وهي أماكن اتخذها الخلفاء في القاهرة ومصر[٤]، والروضة والقرافة وغيرها للتنزه والاحتفال ببعض الأعياد. وقد عدد المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٦٥) هذه المناظرة ووصف الاحتفال فيها ببعض الأعياد، وهذه المناظر هي: الأزهر، اللؤلؤة، الدكة، المقس، باب الفتوح، البعل، التاج، الخمسة وجوه، الصناعة، دار الملك، منازل العز، الهودج، بركة الحبش، الأندلس قبة الهواء، السكرة.

---

(١) جـ١ ص ٤١٥.

(٢) راجع وصف هذا المنزل في المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٨٥. المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٢.

(٤) وهي الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع.

(جـ) في الأندلس:

ولم تكن قصور الأمويين في الأندلس بأقل روعة وبهاء من قصور العباسيين والطولونيين والفاطميين. فقد اشتهرت قرطبة والزهراء وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس بقصورها الفخمة. وقد ذكرنا أن أمراء الأمويين في الأندلس، كالحكم الأول وعبد الرحمن الأوسط ومحمد، شيدوا قصوراً فخمة كالمجلس الزاهر، والبهو الكامل والقصر المنيف، وقصر الدمشق، وأن عبد الرحمن الناصر شيد بمدينة الزهراء قصره العظيم الذي سماه دار الروضة، والذي أطنب المؤرخون والرحالة في وصفه. وقد وصف المقري[1] قصر قرطبة في هذه العبارة فقال: «ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها، في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم. وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه، في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهَب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه، إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة، في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. وفي هذا القصر القباب العالية السمو المنيفة العلو التي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها».

ومن قصور الأمويين في الأندلس القصر الذي بناه المأمون بن ذي النون بطليطلة، وقد أنفق على بنائه أموالاً ضخمة، وجعل في وسطه بحيرة في وسطها قبة من زجاج ملون منقوش، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من جوانبها. فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله. وتوقد فيها الشموع، فيرى لذلك منظر بديع عجيب. وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين وإنما ... مُقامُك فيما لو علمتَ قليلُ
لقد كان في ظل الأراك كفايةٌ ... لمن كلَّ يومٍ يقتضيه رحيلُ

فنغص عليه حاله وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفي... وذلك سنة ٤٦٢ هـ»[2].

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٥٠- ٢٥١.

٤ ـ الطعام والشراب

(أ) عند العباسيين :

أسرف المسلمون في الطعام وتفننوا في ألوانـه، واهتم به الخلفـاء حتى إنهم أجازوا للشعراء وصفه. روى المسعودي[١] عند كلامه على الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) عن محمد بن يحيى الصولي الشطرنجي قال: «كنا يوماً نأكل بين يدي المكتفي، فوضعت بين أيدينا قطائف رفعت من بين يديه في نهاية النضارة ورقة الخبز وإحكام العمل، فقـال: هل وصفت الشعراء هذا؟ فقال له يحيى: نعم! فقال أحمد بن يحيى فيها:

قـطائـفُ قـد حُـشِيَـتْ بـالـلّوز ... والسكـر المـاذِي حَشْـوَ المـوز
تـسـبَـحُ فــي آذى دُهـن الــجـوز ... سُــررت لمَّــا وقعـت في حـوزي

كذلك أولع الأمراء وغيرهم من الأغنياء بتنوع الطعام والإسراف في إعداده. فقد ذكر المسعودي[٢] عند كلامه على يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية، «أنـه كان تذبح له في كل يوم عشرون شاة، فتطبخ في خمس قدور من الصفر الكبار. وله قدور حجارة يتخذ له فيها بعض ما يشتهيـه، وله إوزة كـل يوم وخبيصـة (رقاقـة)، وفالـوذج مع القـدور الخمس، وهي ألوان غليظة، فيأكل منها ويفرق الباقي في الغلمان الذين في داخل مضربه. ثم أهل عسكره حول مضربه وقربهم منه على حسب مراتبهم عنده».

وقد تأنق أبو جعفر محمد بن بسام في إعداد مائدته وتزيينها بالورد والـرياحين وألـوان الطعام والشراب. وقال أبو عبد الرحمن العتبي: ودخلت عليه في بعض الأيام وهو جـالس في موضع في آخر داره، فقد رفعه على بركـة وفي صدره صفـة[٣]، وهو يشـرف منها على البستان وعلى حيز الغزلان وحظيرة القماري[٤] وأشباهها، فقلت له: يا أبا جعفر! أنت والله جالس في الجنة. قال: ليس ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها. فما جلست واستقـر بي المجلس حتى أتوه بمـادة جزع[٥] لم أر أحسن منهـا، وفي وسطهـا جام جـزع

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥٨.

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٥٥.

(٣) مكان عال قد يشبه البلكون الآن.

(٤) جمع قمري وهي الحمامة.

(٥) بفتح الجيم وكسرها وتسكين الزاي. الخرز اليماني الصيني فيه بياض وسواد، وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع.

ملونة[١] قد لوي على جنباتها الذهب الأحمر؛ وهي مملوءة من ماء ورد، وقد جعل سافاً على ساف[٢] كهيئة الصومعة من صدور الدجاج. وعلى المائدة سكرجات جزع فيها الأصباغ وأنواع الملح. ثم أتينا بشنبوشق بلور[٣] وبعده جامات اللوزينج. ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة، فقدم بين أيدينا أجانة (طشت) صيني بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيري[٤]، وغيرها مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامي، قدر مقدارنا ما حضر فيها ألف حبة. فما رأيت طعاماً أنظف منه، ولا ريحاً أظرف منه، فقال لي: هذا حق الصبوح. فما أنسى إلى الساعة طيب ذلك اليوم».

(ب) في مصر والأندلس:

كان أحمد بن طولون مضرب المثل في الكرم والجود، قال المقريزي[٥]: «وكانت صدقاته على أهلي المسكنة والستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة. وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار، سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم، وسوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها، يذبح فيها البقر والكباش، ويغرف الناس في القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة، في اثنين منها فالوذج، والإثنان الأخران على القدر. وكانت تعمل في داره وينادى: من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ـ وتفتح الأبواب، ويدخل الناس الميدان، وابن طولون ينظر الناس في المجلس الذي تقدم ذكره، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته».

وقد حذا خمارويه بن أحمد بن طولون حذو أبيه في الكرم والجود، فبلغت نفقات مطبخه الذي عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر. وذكر المقريزي[٦] عند كلامه على دار الحرم التي بناه خمارويه لنساء أبيه، أنه عين لهذه الدار الخدم والطهاة، وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التي بلغت من كثرتها ووفرتها، أن الطهاة والخدم كانوا يعطون ما بقي منها للعامة.

---

(١) أي من زجاج ملون بسواد وبياض، وهو وعاء بلور، على هيئة الشنبوشق.
(٢) أي طبقة فوق طبقة من لحم الدجاج كهيئة مخروط.
(٣) هو وعاء بلور على هيئة الشنبوشك.
(٤) قد فرش فيها البنفسج والخيري وهو نوع من الرياحين.
(٥) خطط جـ ١ ص ٣١٦.
(٦) خطط جـ ١ ص ٣١٨.

ومن ألوان الطعام: الدجاج ولحوم الجدي والضأن والفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس من العصيدة التي كانت تعرف على عهد المقريزي باسم المأمونية. وبلغ من وفرة هذه الأطعمة أنها أصبحت في متناول العامة، حتى كانت القطعة من الدجاج أو لحوم الضأن أو الجدي أو الحلوى الكبيرة تباع بدرهم واحد أو درهمين، «بحيث إن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى باب دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه، مما لا يقدر على عمل مثله ولا يتهيأ له من اللحوم والفراخ والدجاج والحلوى مثل ذلك».

كذلك كان الإخشيديون يعنون بالطعام وتنوع ألوانه واشتماله على العناصر الضرورية للتغذية. فقد ذكر ابن زولاق أن الإخشيد كان يميل إلى لون من ألوان الطعام يقال له حماضية، تعمل من الحماض الذي يستخرج من الإترج، وهو نوع من البرتقال، ويلقى به في الحصرمية، وهو العنب الأخضر الذي لم ينضج بعد، ثم يلقى عليها ماء الورد والأفاويه[١]. وكان للأخشيد طبيب خاص يشرف على الطعام ويشير بما يصلح تقديمه منه للأمير[٢]. ولا يبعد أن يكون قد اتخذ هذا الطبيب ليحول دون تقديم طعام فاسد أو مسموم عن طريق من تحدثه نفسه باغتياله.

وكان كافور ينفق على مائدته إلى حد التبذير: روى أبو المحاسن عن كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر»[٣]، لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك المتوفى في القرن الثامن الهجري: «أنه بلغ ما كان يعمل في مطبخ كافور ـ لما قوي سلطانه وكثرت أمواله ـ في كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائة رطل، وخمسمائة طائر دجاج، وخمسمائة طائر حمام، ومائة طائر إوز، وخمسون خروفاً رميساً، ومائة جدي سمين، وعشرون فرخاً سمكاً، وخمسمائة صحن حلوى في كل صحن عشرون رطلاً، ومائتان وخمسون طبقاً فاكهة، وعشرة أفراد نقل، وخمسمائة كوز فقاع[٤] كبير، ومائة قرابة سكر وليمون». روى ابن خلكان[٥] عن وكيل كافور قال: «خدمت الأستاذ كافور والجراية التي يطلقها ثلاث عشرة جراية في كل يوم، ومات وقد

(١) المغرب في حلى المغرب ص ٣١. أنظر ستينجاس.
٢) ابن زولاق: المغرب ص ٣٦.
(٣) فهرست التاريخ بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨.
(٤) هو شراب يتخذ من الشعير، سمي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزبد.
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٣١.

بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفاً في كل يوم» ومن العجب ما تقرؤه في الثعالبي[١] من دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها في قصائدهم، ويضمنونها ألوان الطعام والشراب وما تتخلله الوليمة من ضروب اللهو والسرور وسماع الموسيقى والغناء، وتزيين السماط بالورود والرياحين وكل ما يضفيه صاحب الدعوة على زائريه من مظاهر البهجة والسرور. فقد بعث محمد بن أبي الجرع الشاعر المعروف بهذه القصيدة إلى بعض أصدقائه يدعوهم فيها إلى تناول الطعام قبل حلول شهر رمضان.

وكان الفاطميون يقيمون الأسمطة في الأعياد والمواسم، وخاصة في أول العام الهجري وفي مولد النبي ﷺ، وفي غرة رمضان، وفي عيدي الفطر والأضحى حيث كانت تعم خيراتهم الناس فيها، وقد عنوا بالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً. ففي ليلة عيد الفطر كان يقام بالإيوان الكبير الذي يقابل مجلس الخليفة، سماط ضخم طوله نحو ثلثمائة ذراع، وعرضه سبعة أذرع، نثرت عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية مما أعد في دار الفطرة الخليفية.

وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية، ويستقبل الشعب المصري هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة، إلا يوم عاشوراء، فقد كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الأسواق ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر، حيث ينشدون الأناشيد المحزنة في رثاء الحسين. ويقام سماط يسمى سماط الحزن، ينظم في منتهى البساطة في بهو صغير ويمد عليه خبز الشعير والعدس والجبن، ويحضره الخليفة ملثماً مرتدياً الثياب القاتمة.[٢]

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام، فأدخل بقلة الهيلتون المسماة عندهم الأسفراج Aspirago، كما زاد في الأطعمة لوناً أطلقوا عليه «النقايا»، يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب، ولوناً من التقلية أطلقوا عليها تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب في مرق كثير الأفاويه والتوابل، كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة. وابتكر أسمطة الطعام من الأديم (الجلد). وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخواصيهم زرياب قدوة فيما سنّه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة التي نسبت إليه.

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

وقد ذكر المقري[١] عند كلامه على قصر عبد الرحمن الناصر أن عدد فتيان قصر الزهراء بلغ ١٣,٧٥٠، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣,٠٠٠ رطل، عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك.

وقد رأينا كيف كان الخلفاء والأمراء وذوو اليسار كلفين بالحصول على بواكير الفواكه طرية سليمة، بوساطة البريد الذي بلغ حد الكمال في عهد بني بويه في المشرق وفي عهد الفاطميين في مصر.

٥ ـ الملابس:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن اللباس الفارسي أصبح لباس البلاط الرسمي وأن أبا جعفر المنصور أمر بلبس القلانس، وهي القبعات السود الطويلة المخروطة الشكل بصفة رسمية، كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة. يتبين لنا من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل، حيث تظهر صورته مرتدياً ملابس فارسية. وكان اللباس العادي للطبقة الراقية في العصر العباسي يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة. أما لباس العامة: فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال.

غير أن الخليفة المتوكل أدخل نوعاً جديداً من الملابس نسب إليه. فأظهر لباس الملحم (المبطن)، وفضل ذلك على سائر الثياب، وأتبعه من في داره على لبس ذلك، وشمل الناس لبسه، وبالغوا في ثمنه اهتماماً بعمله واصطناع الجيد منها، لمبالغة الناس فيها وميل الراعي والرعية إليها. فالباقي في أيدي الناس إلى هذه الغاية من تلك الثياب يعرف بالمتوكلية، وهي نوع من ثياب الملحم نهاية في الحسن والصبغ وجودة الصنع[٢].

كان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الأسود[٣] أو البنفسجي الذي يصل الركبة، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتصل بعباءة سوداء، ويلبس قلنسوة طويلة

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٦٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩.

(٣) كان القباء مفتوحاً عند الرقبة، فيظهر القفطان زاهياً من تحته، وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي أمر بجعلها فضفاضة، ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع.

غالية. وكـان الأمراء والنبـلاء يقلدون الخلفاء في مـلابسهم. أما الخلفـاء والقضاة فكـانوا يلبسون العمامة والطيلسان مقيدين في ذلك بالنبي ﷺ، كما كانوا يلبسون قلنســوة طويلة، حولها عمامة ذات لون أسود، وهو شعار العباسيين.

وكان لباس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. وكان الكتاب يلبسون الدراعات، وهي ثياب مشقوقة من الصدر. ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة. وأمـا غير العلمـاء فيلبسون في داخـل بيوتهم القلنســوة وحدهـا فوق كلونـة[١] من الحـريـر الأبيض، ثم استعاضوا عنهـا بكلونة خفيفـة بنفسجية اللون. وكـان اللباس العـادي للطبقة الراقية يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة، وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبـة. وكان الأغنياء من الرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير والصوف أو الجلد، ويسمونها «الموزج»[٢]. وثمة فروق ملحوظة في ملابس أصحاب المهن المختلفة. أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى «قمربند». وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال، أما الجنود فيلبسون الأحذية، على حين ينتعـل بعض الأعيان كليهمـا في وقت واحـد، ويخلعون الحـذاء الخارجي المسمى «الجـرموق» عنـد دخول المسـاجـد أو القصور[٣].

وقد أحدث الخليفـة المستعين تغييراً في المـلابس، فصغر القـلانس بعد أن كـانت طويلة، وأمر بلبس الأكمام الواسعة التي أصبح عرضها ثلاثة أشبار[٤]. وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب ليحفظ فيها الإنسان كل مـا يحتاج إلى حفـظه كالـدنانيـر والكتب فكان المهندس يضع فيها أدواته الهندسية،ويضع الصيرفي فيها رقاعه، والخياط أدوات الخياطة والقاضي الكراسة التي يقرأ فيها يوم الجمعة، ويحفظ الكاتب الرقعة قبل عرضها[٥].

---

(١) بتشديد اللام هي كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن. أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠.

(٢) الموزج شبه الجـورب من الجلد يلبسه الفـرسان ومن يشبههم. وكـان الفتح بن خـاقان إذا جلس حضـرة الخليفة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ، أخرج من ساق موزجه كتاباً يطالعه في ممره وعوده. فـإذا وصل إلى لحضـرة الخليفة أعاده إلى ساق موزجه. أنظر كتاب الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠.

(٣) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٤) المسعودي: مروج الذهب جـ ص٤٣٠.

(٥) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

وكان السواد شعار العباسيين الرسمي[١]، وكثيراً ما كان الأثرياء يلبسون الثياب البيض لما أثر عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله الجنة بيضاء، وخير ثيابكم تلبسونها في حياتكم وتكفون بها موتاكم». وكانوا يلبسون الملابس ذات الألوان الطبيعية، لأن الألوان غير الطبيعية لا يلبسها إلا الإماء والقيان والنبطيات. وكان اللون الأزرق في المشرق واللون الأبيض في الأندلس علامة الحداد. وفي القرن الرابع كانوا لا يجيزون للرجال لبس الثياب الملونة إلا في خاصة بيوتهم، وإنما أجازوا لبسها للنساء[٢].

كانت ملابس المرأة تتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

وقد تطورت ملابس النساء في العصر العباسي تطوراً ظاهراً عما كانت عليه في العصر الأموي، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة. ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى علية بنت المهدي وأخت الرشيد. وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة. أما نساء الطبقة الوسطى فكن يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب، يلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن، ولم يجهلن فن التجميل الذي أخذنه عن الفارسيات. وكان «طابع الحسن» الصناعي مما يتحلى به الأعرابيات[٣].

واتخذ الناس من القماش المشمع المماطر في البلاد التي يكثر فيها المطر[٤]. وقد ورد ذكر المماطر في إحدى قصائد البحتري حين سأل أحد ممدوحيه أن يهب له ممطراً يقيه المطر[٥].

---

(١) راجع ما قيل عن اتخاذ العباسيين السواد شعاراً لهم في كتاب «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن وترجمة المؤلف: ص ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٩.
(٣) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٤) المقدسي: أحسن التعليم ص ٩٦.
(٥) ديوان البحتري جـ ١ ص ١٨٥.

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت القاهرة من أهم مراكز النسيج. وقد بلغ نظام الطراز مبلغاً عظيماً من الرقي. واشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية. من ذلك القلموني ذي الألوان البراقة التي تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس، وكانت تصنع في دمياط وتنيس خاصة، والقرقبي الذي اشتهر بألوانه اللامعة التي تتغير إذا انعكست عليها أشعة الشمس، والنصفية، وتصنع من الحرير والقطن، والدبيقي الذي ينسب إلى مدينة دبيق حيث كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم الشرب المذهبة. وفي دار الكسوة التي بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة كانت تفصل الثياب للخليفة والأمراء والوزراء وسائر موظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، والخلع التي كانت تمنح بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر، حتى سمي عيد الحلل.

وفي بلاد الأندلس تحكم زرياب في ابتداع الأزياء، وحث الناس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول، و «رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم الملون، من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة، الكائن في ست بقين من شهر بؤونة الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي، منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة. ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من صبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها، لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة. وكذا رأى زرياب أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرس البرد في الغدوات إلى أن يقوى البرد، فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء»[١]. كما أبطل زرياب عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقاً إلى الحاجبين والصدغين[٢].

٦ ـ المرأة

كانت المرأة في العصر العباسي الثاني كما كانت في العصر العباسي الأول، تتمتع بقسط وافر من الحرية. فقد تدخل بعض النساء في شئون الدولة، كقبيحة أم المعتز، والسيدة أم المقتدر وقهرمانتها ثومال، وأم موسى، وست الملك أخت الخليفة العزيز

(١) المقري: نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٥٢. (٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٥١ ـ ٧٥٢.

الفاطمي، والسيدة صبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في الأندلس.

وقد قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ) بدور هام في عزل الخليفة المستعين ليصفو الجو لابنها المعتز. واشتهرت قبيحة بالثراء، حتى ذكر ابن الأثير (جـ ٧ ص ٧٠) أنهم وجدوا عندها مليوناً وثمانمائة ألف دينار، ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك الذين تأخرت رواتبهم المستحقة لهم وقدرها خمسون ألف دينار فقط، ولم يلبث أن ذهب ضحية هذا البخل.

واستأثرت «السيدة» أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) بنفوذ كبير في الدولة العباسية. وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة، من ذلك الكتاب[١] الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التي ألقتها عليه في إدارة شئون الدولة المالية.

وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل. وقد ذكر ابن الأثير (جـ ٨ ص ٣٧) أن أم موسى القهرمانة ذهبت إلى منزل الوزير لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم، فطلب إليها حاجبه أن تنتظر ساعة حتى يستيقظ، فعادت إلى دارها مغضبة، ولما استيقظ الوزير أرسل حاجبه وولده يعتذران إليها فلم تقبل، ودخلت على الخليفة المقتدر ورمت الوزير بما أدى إلى عزله عن الوزارة وقبض عليه.

وليس هذا كل ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قرمانتها «ثومال» صاحبة للمظالم. فكانت تجلس أيام الجمع في مكان بنته «السيدة» في الرصافة[٢]. ومما يدل على مبلغ تدخل السيدة في شئون الدولة هذه الحكاية التي قصها الصولي[٣] الذي تلمذ له الراضي بن المقتدر وهو أمير، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم، وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكم، والوقوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول، بل على العكس من ذلك، فإن النساء اللاتي غدون أصحاب الحل والعقد، لم

(١) راجع هذا الكتاب في مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ٥ ـ ٦، ٢٦.

يأبهن أن يكون الأمير أو ولي العهد متعلماً مثقفاً، وإنما يردنه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم.

وقد أدى تدخل «السيدة» في شئون الدولة إلى ضعف الخلافة العباسية، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح علي بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت قد حرم الخلافة الاستفادة بمواهبه الممتازة وسياسته الرشيدة. كما كان من أثر تعيين «ثومال» قهرمانة «السيدة» صاحبة المظالم، أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكامها نظرة الاحتقار والازدراء.

ازداد نفوذ حرم الخليفة في عهد الوزير حامد بن العباس وأصبحن يتدخلن في شؤون الدولة، على حين قبع الخليفة في داره، فكن يجلسن للمظالم ينظرن في رقاع الناس، ويصدرن الأوامر مذيلة بتوقيعاتهن، كما عملت السيدة على عزل الوزير أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الخصيب، وصودرت أمواله في سنة ٣١٤ هـ.

وكان للنساء شأن كبير في الدولة الفاطمية، حتى إنهم كن يتدخلن في شؤون الدولة، واشتهر كثير منهن بالثراء والبذخ، ذكر المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤١٥) أن رشيدة بنت المعز تركت نحو مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أي ثلاثة أرباع مليون جنيه)، وتركت أختها عبدة كثيراً من خزائن الحلي والصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد، وثلثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف ثوب صقلي، وغير ذلك من الذخائر.

وفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) أنفقت السيدة تغريد زوجة المعز أموالاً جمة على بناء مسجدها بالقرافة، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة، كما بنت هذه السيدة القرافة كما تقدم.

وقد تزوج الخليفة الفاطمي العزيز بسيدة رومية نصرانية على المذهب الملكاني ـ مذهب كنيسة القسطنطينية ـ فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك. وكان لزوج العزيز هذه نفوذ كبير في الدولة، حتى إن الخليفة عين أخويها بطريرقين ملكيين: أحدهما في الإسكندرية والآخر في بيت المقدس[١].

وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرم والحلم، وعرفت بالتسامح الديني. وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى. وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبة

---

(١) يحيى بن سعيد :صلة تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

السلطة، مما أثار حفيظتها، ولا سيما عند ما انتقد مسلكها، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة.

وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة، منها ثمانمائة جارية، وثمان جرات ملأى بالمسك وكثير من الأحجار الكريمة، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل، وكانت مخصصات هذه الأميرة خمسين ألف دينار في السنة[١].

الإماء:

ومن نساء هذا العصر زوجة الظاهر وأم المستنصر. وكانت سودانية، على ما تقدم، واشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين، الذين كثر عددهم وقوي بطشهم في عهد المستنصر، حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً. ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة.

وكان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس، وقامت الجواري بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة. وليس أدل على صحة هذا القول من قصة «طروب» جارية عبد الرحمن الأوسط، فقد بلغ من شدة ميله إليها وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله، ترضاها ببدر المال والحلي الذي قدرت قيمته بمائة ألف دينار. وقد ذكر المقري أن هذه الجارية كانت تبرم الأمور مع نصر الخصي، وأن عبد الرحمن لم يرد لها شيئاً مما أبرمته. كذلك أولع عبد الرحمن بجارية أخرى تسمى مدثرة، فأعتقها وتزوجها كما أولع بجواري أخر منهن شقاء، وقلم، وكانت أديبة راوية الشعر حافظة للأخبار، كما كانت حسنة الحظ[٢].

كذلك تمتعت السيدة صبح زوجة الحكم الثاني وأم المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ) بنفوذ كبير في الدولة الأموية بالأندلس، وتغلبت على أمور ابنها الذي لم يكن قد جاوز العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إليه، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحد، وأسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبي عامر الذي غدا ساعدها الأيمن، لكنه أصبح بعد قليل الحاكم المطلق للدولة الإسلامية في الأندلس كما تقدم.

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٦٥. راجع كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف ص ٦٤٨.
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ - ١٦٥.

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد. فكانت شجاع أم المتوكل خوارزمية، والسيدة أم المقتدر رومية، كذلك كانت أم المستكفي. وكانت أم المطيع صقلبية. وقد لعبت الإماء دوراً هاماً في تاريخ الدولة العباسية في هذا العصر، كما يتبين من هذه الرسالة الممتعة التي كتبها الشيخ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المتطبب، يذكر فيها أنواع الجواري[١] في البلاد الإسلامية ننقل بعضها عن كتاب متز[٢] حيث يقول:

«فالهنديات لهن حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال، مع صفوة وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نعمة، لكن الشيخوخة تسرع إليهن. . . وهن يصلحن للولد ورجالهم لحسن النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقة، غير أن النزلات تسرع إليهن، والفندهاريات في معنى الهنديات، والسنديات ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور، والمدنيات سمر الألوان معتدلات القوام، قد اجتمع فيهن حلاوة القول ونعمة الجسم وملاحة دل وحسن شكل وبشر. ولا غيرة فيهن على الرجال، قنوعات بالقليل، لا يغضبن ولا يصخبن ويصلحن للقيان. . . والمكيات خبات مؤنثات لينات الأرساغ، ألوانهن البياض المشرب بسمرة، قدودهن حسنة، وأجسامهن ملتفة، وثغورهن نقية باردة، وشعورهن جعدة، وعيونهن مراض[٣] فاترة، والطائفيات سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهن فكاهة ومزاحاً، لسن بأمهات أولاد، يكسلن في الحمل ويهلكن عند الولادة.

والبربريات مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة، ويصلحن للتوليد، لأنهن أحدب شيء على ولد[٤]. ويقول أبو عثمان (الجاحظ) وهو من سماسرة هذا الشأن[٥]: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة، فتأدبت بالعراق، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات، واستحقت أن تخبى (تخبأ على الأصح) في الحفون وتوضع على العيون. والزنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورتهن، وتحددت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن، وخفيت المضرة منهن. والغالب عليهن

---

(١) وردت هذه الرسالة في مخطوط رقم ٩٧٩ بمكتبة برلين ورقة ١٣٦ ب، ١٣٧، ١٤٥، ١٥١ ب.

(٢) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٤.

(٣) ذابلة مكسورة وهو من جمال النساء.

(٤) أحسن وأعطف على الأولاد.

(٥) أي من الخبيرين به.

سوء الأخلاق وكثرة الهرب، وليس في خلقهن الفهم، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن. ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمن والرقص. ويقال لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق، وكثرة الريق لفساد الهضوم، وفيهن جلد على الكد. فالزنجي إذا شبع فصب العذاب عليه صبا فإنه لا يتألم، وليس فيهن متعة لصنانتهن (نتن الريح) وخشونة أجسامهن. أما الحبشيات فالغالب عليهن نعمة الأجسام ولينها وضعفها، يتعاهدهن السل والدق (الهزال). ولا يصلحن للغناء ولا الرقص، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها. وفيهن خيرية وسلامة انقياد، يصلحن للائتمان على النفوذ يخصهن قوة النفوس وضعف الأجسام، كما يخص النوبة قوة الأجسام وضعف النفوس: قصار الأعمار لسوء الهضم. والبجاويات مذهبات الألوان، حسنات الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جواري متعة، إن جلبت الواحدة صغيرة وسلمت من أن ينكل بها ـ لأنهن يقورن ويمسح بالموسى أعلى فروجهن حتى يبدو العظم ـ فيصرن شهرة من الشهر[١]. والشجاعة والسرقة في رجال البيعة طبع وغريزة، ولهذا لا يؤمنون على مال ولا يصلحون أن يكونوا خزاناً.

والنوبيات من جملة أجناس السودان، ذوات ترف ولطف، وأبدانهن يابسة مع لين بشرة. وهواء مصر يوافقهن، لأن ماء النيل شربهن في بلادهن. وإذا انتقلت عن غير مصر تسلطت عليهن العلل الدموية والأمراض الحادة. والتركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعمة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقدودهن ما بين الربع والقصير، والطول فيهن قليل. وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل، قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا رديء التركيب. والروميات بيض شقر، سباط الشعور[٢] زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووقاء وأمانة، يصلحن للخزن، لضبطهن وقلة سماحتهن[٣]. ولا يخلو أن يكن يألفن صنائع دقيقة. أما الأرمنيات فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من صحة بنية وشدة أسر (قوة البدن). والعفة فيهن قليلة أو مفقودة. والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ، وليست النظافة في لغتهن، وهن عبيد كد وخدمة، متى تركت العبد ساعة بغير شغل، لم يدعه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة، الواحد منهم

---

(١) أي شناعة من الشناعات في القبح.

(٢) الشعر النسبط هو الطويل المسترسل الناعم وهو ضد الجعد.

(٣) أي لحسن محافظتهن على ما تحت أيديهن وعدم تفريطهن في شيء.

إذا رأيته كسلان، فليس ذلك عجز قوة، بل دونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر، فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب، لا يصلحن لمتعة. وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان، كما أن الزنج أشر السودان. وما أشبه بعضهم ونساؤهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد».

٧ ـ الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(أ) الأعياد والمواسم:

عني المسلمون منذ عهد بعيد الاحتفال بالعيدين في شيء من الأبهة والعظمة. وكانوا يحتفلون برمضان احتفالاً شائقاً، ويتخذون غرّة رمضان من مواسمهم الدينية، كما كانوا يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً، فيؤم خلفاء المسلمين الناس في الصلاة ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بالعيدين في البلاد الإسلامية، وخاصة في بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة.

وكان الاحتفال بعيد الفطر يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً، مثل طرسوس، حيث كان غزاة المسلمين يتوافدون إليها من أنحاء البلاد الإسلامية، وترد إليها تبرعات أهل البر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للغزو بأنفسهم. وقد قيل: «ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب، إلا بطرسوس، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها. وتكثر لديهم الصلاة وترد إليهم الأموال والصدقات العظيمة». ولا يخفى ما كان هنالك من أثر واضح في ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى مظاهرها في الاحتفال بالأعياد بطرسوس، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى في تلك المدينة من محاسن الإسلام، لتظهر قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم في الثغور.

وكانت المدن الإسلامية، كبغداد في عهد العباسيين، والقاهرة في عهد الفاطميين، تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة، وقد لبست الجماهير في بغداد وغيرها من المدن الإسلامية التابعة للدولة العباسية للطيالسة السود تشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين

اتخذوا السواد شعاراً لهم، وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها ﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾[١].

ولم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين، بل شمل الأعياد الفارسية القديمة: كالنوروز والمهرجان والرام التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعيادهم الرسمية، وكانت عظمة الخلفاء العباسيين وأبهتهم تتجلى في الاحتفال بالعيد، واتجهت سياستهم إلى اجتذاب الشعب على اختلاف طبقاته بالعطايا والأرزاق والهبات والأسمطة التي كانوا يمدونها في الأعياد والمواسم، وخاصة في أول العام الهجري، وفي مولد النبي ﷺ، ومولد الخليفة الجالس على العرش، وفي غرة رمضان، وفي أيام النوروز والمهرجان والرام، كما عنوا بالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى احتفالاً رائعاً.

وكان الخلفاء عامة والفاطميون خاصة يحتفلون بعيد الفطر الذي كانوا يتبركون به وتعمُّ خيراتهم الناس فيه. فمن هذه الخيرات تفرقة الفطرة، والكسوة، وعمل السماط، وركوب الخليفة لصلاة العيد. وكان هؤلاء الخلفاء يهتمون بالاحتفال بعيد الفطر في العشر الأخير من شهر رمضان، واتخذ الفاطميون في القصر باباً أطلقوا عليه «باب العيد»، لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد إلى المصلى، شرقي القصر الكبير في الفضاء الذي تشغله الآن قرافة باب النصر وراء حي الحسينية.

كذلك اهتم العباسيون بالنوروز في أول العام والمهرجان في آخره، كما كانوا يحتفلون بسائر الأعياد الفارسية القديمة التي أصبحت في العصر العباسي من أهم أعياد المسلمين الرسمية. وقد جعل العباسيون النوروز عيداً قومياً يتهادون فيه ويقيمون الولائم والحفلات، كما اتخذوا من النوروز موعداً لجمع الخراج. وتقرأ في هذا العصر كثيراً عن النوروز من حيث صلته بجمع الخراج[٢].

ولمصر منذ القدم نوروز خاص يسمى النوروز القبطي، وهو أول السنة القبطية. وفي مستهل توت توقد النيران في ليلة النوروز ويرش الماء في يومه، وتفرق الكسوة على رجال الدولة وعلى أولادهم ونسائهم، وتوزع الرسوم التي جرت العادة بتوزيعها عليهم، كما

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٣٧ .

(٢) مسكويه تجارب الأمم جـ٢ ص ٧٥، ٢٤٨، ٤٠٢ .

يتبادلون الهدايا في هذا اليوم. واستمر الاحتفال بالنوروز في العهد الإسلامي إلى أن فتح الفاطميون مصر، فاهتموا بالاحتفال بهذا العيد. و «زاد اللعب بالماء ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق، وعملوا فيلة، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السماجات والحلى في الأسواق. ثم أمر المعز بالنداء وبالكف، وأن لا توقد نار ولا يصب ماء. وأخذ قوم فحبسوا، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال»(١).

كذلك احتفل العباسيون بالمهرجان، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز، ومنها السكر. وفي هذا العيد يكثر الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور.

وفي عهد الفاطميين في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء أيام السبت والثلاثاء، وأيام الجمع ويومي العيدين، أيام دينية أخرى. وفيما يلي أسماء الأعياد والمواسم التي كان الفاطميون يحتفلون بها وهي: رأسن السنة، أول العام، يوم عاشوراء وهو يوم مقتل الحسين بن علي (١٠ المحرم)، مولد النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول)، مولد علي بن أبي طالب، مولد الحسن، مولد الحسين، مولد فاطمة، مولد الخليفة القائم بالأمر، ليلة أول رجب، ليلة نصف رجب، أو شعبان، ليلة نصف شعبان(٢)، غرة رمضان، جبر الخليج، يوم النوروز، يوم الغطاس(٣)، يوم الميلاد، عيد النصر(٤)، خميس العهد(٥).

(ب) المواكب:

كانت مواكب الخلفاء العباسيين أكثر روعة من مواكب الأمويين، وخاصة في أيام الجمع، وفي مواكب الحج التي تشبه في مصر الاحتفال بسفر المحمل إلى الحجاز وعودته

---

(١) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤٩٣.

(٢) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود، وكان الناس يصومون في هذه الأيام الأربعة كصومهم رمضان وكانوا يحتفلون بها كما يحتفلون برمضان. واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى يومنا هذا.

(٣) كان المصريون منذ عهد بعيد يحتلفون بليلة الغطاس. وقد وصف المسعودي (مروج الذهب جـ ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣) هذا الاحتفال في عهد الاخشيد.

(٤) كان يقع يوم ١٦ من المحرم، وهو اليوم الذي أطلق فيه الحافظ الذي حبسه الوزير أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي.

(٥) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام، وهو من الأعياد التي بقيت في العهد الفاطمي مشاركة للنصارى في شعورهم. ويسمي أهل القاهرة ذلك اليوم خميس العدس خطأ.

منها، وقد وصف مسكويه[١] موكب الخليفة الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) لتقديم العزاء بوفاة شرف الدولة البويهي في سنة ٣٧٩هـ.

كانت أعمال خمارويه بن أحمد بن طولون تدل على حبه للظهور، وكان شخصه محاطاً بمظاهر العظمة والأبهة إذا خرج للصيد أو للتنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة. وكان موكب هذا الأمير حافلاً يزيده هيبة أولاد الحوف[٢] وشناترة الضياع. وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام، عرفوا بالشجاعة والبأس، فأدخلهم خمارويه في خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايا، ومنع عن الناس أذاهم، واتخذهم حراساً له، وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج، ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة، ويتقلدون بالسيوف المحلاة. ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان، لهم درق[٣] من حديد محكم الصنعة، وعليهم الأقبية والعمائم السود، فيخالهم الناظر بحراً أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم. ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم والبيض[٤] التي تلمع على رءوسهم من تحت العمائم. فإذا مضى السودانيون قدم خمارويه وسار منفرداً عن موكبه بمقدار نصف غلوة (رمية) سهم. ويحف به حرسه المختار وهو ممتطٍ فرساً. فإذا سار، سار الناس جميعاً وبينهم الجند في صمت عميق كأن على رءوسهم الطير[٥].

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة في عهد الفاطميين ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين، ويرينا الكرم الذي مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار إليهم. وفي أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التي يمر بها الخليفة في طريقه إلى الجامع لصلاة الجمعة، ويقف كثير من الناس على

---

(١) راجع ما ذكره المقريزي (خطط جـ ١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٤) من هذه الأعياد والمواسم.

(٢) الحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي، أول الشرقي من جهة الشام، وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. ولعله يريد بذلك عرب الحوف.

(٣) معربة عن لفظ فارسي هو درجة، وهي درع بيضاوي الشكل غالباً، وفي وسطه نتوءات وله مقبض في ظاهره ويتراوح طوله بين قدم ونصف قدم وقدمين. وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة، وأحياناً من جلد التمساح.
أنظر Lane: Arabic -English Lexicon الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٣٤٧ (٢).

(٤) جمع بيضة وهي الخوذة الحديدية.

(٥) المقري: خطط جـ ١ ص ٣١٨.

جانبي الطريق، وكان الاحتفال بوفاء النيل من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في العصر الفاطمي ولا يزال ذلك إلى اليوم.

(جـ) الحفلات:

وكان الخلفاء والأمراء يهتمون اهتماماً بالغاً بإقامة الحفلات التي تتجلى فيها مظاهر الروعة والجلال. فقد أقام الخليفة العباسي المقتدر حفلة رائعة بمناسبة قدوم رسولي إمبراطور الروم بغداد في سنة ٣٠٥ هـ لطلب عقد الهدنة مع العباسيين[١]. وقد وصف السيوطي[٢] هذا الاحتفال فقال: «وفي سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة، فعمل المقتدر موكباً عظيماً، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفاً، من باب الشماسية إلى دار الخلافة، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب. وكانت الستور التي نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج، والبسط اثنين وعشرين ألفاً، وفي الحضرة مائة سبع في السلاسل، إلى غير ذلك».

كذلك احتفل الحاكم الفاطمي باستقبال رسول إمبراطور الروم، فأمر بتزيين القصر فكان من بين الأكياس التي تحتوي على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١. وقد نقل كله إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه، فغدا الإيوان كله يتلألأ ببريق الذهب. فقد وقعت أيام الإيوان قطعة على هيئة درقة مرصعة بالأحجار الكريمة، فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضيء ما حواليها[٣].

ويتجلى اهتمام الأمويين الأندلس بإقامة الحفلات والتأنق فيها، من وصف استقبال الحكم المستنصر أردون ملك الجلالقة، حين وفد على قرطبة في سنة ٣٥١ هـ واستنجد بالحكم على منافسه وابن عمه شانجة؛ فجاء به غالب الناصري وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور ثم ساروا معهم إلى قرطبة. فأمر محمد هشام بن محمد بن عثمان المصحفي أن يتلقاهم في جيش عظيم كامل التعبئة، وقدموا إلى باب قرطبة، ومروا بباب القصر. فلما انتهى «أردون» إلى ما بين السدة وباب الجنان، سأل عن المكان الذي فيه قبر عبد الرحمن الناصر، أشير إلى موضعه من القصر، فخلع قلنسونة، وسار إلى مكان القبر ودعا، ثم ردّ قلنسونة إلى رأسه.

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٣٧.
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣.
(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٤١٥.

زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد:

كان المسلمون يهتمون بحفلات الزواج اهتماماً بالغاً. فقد رأينا كيف بلغ إسراف خلفاء العصر العباسي الأول وبذخهم بما فعله الخليفة المهدي عند زواج ابنة هارون الرشيد من السيدة زبيدة، وما أنفقه المأمون على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل الذي تجلى إسرافه وبذخه في هذا الزواج، كما تجلى بذخ العباسيين والطولونيين في زواج الخليفة العباسي المعتضد من أسماء المعروفة بقطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون.

وقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت مال مصر، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقراً ولا يهاب عوزاً. فقد ذكر ابن دقماق[1] أنه «حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته» وذكر المقريزي (خطط جـ ١ ص ٢١٩) «أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلى حمله معها». فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك؛ في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه جبة من الجرجر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من الذهب لدق الطيب، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير. وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالمنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه وهي في طريقها إلى بغداد. وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه، فكانت في سفرها ممتعة بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت في قصر أبيها. أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم نقف عليه في مصدر من المصادر التي رجعنا إليها. وقد ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ١٧٤) أن صداقها كان مليون درهم. وليس هذا بالشيء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهري الذي عهد إليه بإعداد الجهاز. نال جائزته وهي أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس[2].

كل هذا يدلنا على مبلغ الرخاء الذي شمل مصر في عهد خمارويه، وما كان من تقدم الصناعة، ورواج التجارة، وعمارة الأسواق لدرجة لم تبلغها في غضون القرن الخامس الهجري، وهو العصر الذي عاش فيه المؤرخ والفقيه القضاعي الذي يقول: «ولا يعرف اليوم في أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد في الحال[3]. على أن هذا يدل من جهة

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٦٧.

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٤.

(٣) ابن دقماق جـ ٤ ص ٦٧.

أخرى على ما انطوى تحت هذا العمل وغيره من الأعمال من إفقار خمارويه للدولة من جراء زواج ابنته إلى الخليفة المعتضد العباسي. وقد ذكر لنا التنوخي[١] أن قطر الندى لما وصلت إلى بغداد كان خمارويه في شدة وكرب شديدين بسبب تجهيز ابنته الذي استنفذ كل ثروته. وليس أدل على صحة هذا القول من أنه احتاج إلى شمعة فلم يوفق إلى إيجادها لوقته، فلعن ابن الجصاص الذي عده مصدر فقره وبلائه.

وقد أقيمت في قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج، واجتمعت النساء في أحسن ملابسهن الحريرية وظهرن في أجمل حليهن وارتدت قطر الندى ثوباً من الحرير الأبيض، ووضع على رأسها إكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر وعلى أذنها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب، وفي أصابعها الخواتم، وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة، فبدت في أحسن زينة.

ومدَّ السماط، وزين بالأزهار ذات الرائحة الذكية والألوان المختلفة. وجلست العروس في صدر السماط. وجلست أمها عن يمينها وجدتها مياس عن يسارها ووضع في طرفي السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى، ونشرت عليه صحاف ملأى بألوان الطعام المختلفة.

خرجت قطر الندى من قصر أبيها في موكب اخترق مدينة القطائع التي اشترك أهلها في توديع ابنة الأمير الذي تقدم الموكب، يحف به حرسه المختار يلبسون الأقبية. ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب، وهو ممتطٍ فرسه الأشهب، متقلداً سيفاً بحمائل، تكسوه الهيبة، ويتبعه جيشه من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود.

ولما وصلت قطر الندى إلى بغداد نزلت في قصر صاعد، وأقيمت الحفلات ودعيت النساء من علية القوم، وكي يرتدين أفخر الثياب ويتزين بأنفس الحلي، ومدت الأسمطة، وعليها ألوان الطعام، على النحو الذي مدت به في مصر، وأحضرت القيان، والمغنيات.

وكان من أثر هذا الزواج أن ولي الخليفة المعتضد خمارويه جميع البلاد الممتدة من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء، وخلع عليه اثنتي عشرة خلعة وسيفاً وتاجاً ووشاحاً.

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار الذاكرة (طبعة مرجليوث) ص ٢٦٢.

ولم يحفل المؤرخون بنقل صورة من الحفلات الشعبية للزواج وغيره، ولكن هذا يفهم ضمناً مما نقلوه من صور الحفلات الملكية، لأن ما يفعله الملوك تجتذبه الشعوب في صور متفاوتة على حسب أقدارهم ومنازلهم. وما زال الناس في كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم في مظاهر حياتهم. والناس على دين ملوكهم.

٨ ـ أنواع التسلية

كان الناس في هذا العصر يتلهون بلعبة الشطرنج التي عرفها المسلمون في عهد الرشيد ثم انتشرت بين العرب، وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم. وقد نقل المسعودي[١] عن الجاحظ أن ما اتفق عليه الناس صور رقعة الشطرنج ست صور، ظهر منها في عهد الراضي الجوارحية، نسبة إلى الجوارح، وتتألف رقعتها من سبعة أبيات في ثمانية، وأمثلتها اثنا عشر في كل جهة منها ستة، كل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان التي يميز وينطق ويسمع ويبصر ويبطن ويعي، وهي سائر الحواس والخامس والمشترك وهو الذهب من القلب.

كذلك كان النرد من الألعاب التي اعتاد أن يتلهوا بها في هذا العصر العباسي الأول. ويستعمل في اللعب به ثلاثون حجراً وفصان، على رقعة رسم اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون منزلاً وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وما يخرج من الفصين إذا رمى بهما القضاء الجاري على العباد. والمشهور أن الشطرنج اختراع هندي وأن النرد من اختراع الفرس.

وكان سباق الخيل في هذا العصر من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة. وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على ألا يكون وسيلة للحصول على المال، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب. وبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السابق يستولي في بعض الأحيان على الحصان المسبوق[٢]. وقد ورد في المسعودي[٣] وصف شائق لخيل السباق والشروط التي يجب أن تتوافر فيها، ووصف تاج

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٢١ ـ ٥٢٢، ٥٢٥.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٥.

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٣٥.

الدولة أبي الحسين أحمد بن عضد الدولة الصيد بالفهود في قصيدة طويلة رواها الثعالبي[١].

وكانت السباحة والمصارعة من أهم أنواع التسلية عند العباسيين، ففي عهد الخليفة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ) «انهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون، وفوقه قدر، فيسبح حتى ينضج اللحم»[٢]. وقد جعل أحمد بن طولون في قصره بمدينة القطائع ميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة، وهي لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز وغيرهم باسم بولو، وهي شبيهة بعلبة كرة القدم[٣].

وقد عني أحمد بن طولون بحلبات السباق، فبنى مكاناً لعرض الخيل سماه «المنظر». ووصف القضاعي المؤرخ هذا العرض فقال: إنه من عجائب الإسلام الأربعة وهي: هذا العرض، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد. وأضاف هذا المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة، والجمعة ببغداد، وقل الاهتمام بالاحتفال بيوم الجمعة ببغداد بعد استيلاء هولاكو التتاري عليها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)[٤].

وكانت حلبة السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد، لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة، وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة. وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد. فإذا جاء وقت السباق، وأطلقت الخيل إلى غايتها، فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضاً حتى نهاية الشوط.

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعاً شديداً، فكان يخرج في جهات الأهرام والعقاب وغيرها، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده في صحبة رجال عليهم اللبود، فيدخلون في الغابة ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم، ثم يضعونه في قفص من الخشب محكم الصنعة بسعة وهو قائم. فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذي فيه السبع، واجتمعت العامة لمشاهدة السبع[٥].

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٢٠٠.
(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٤.
(٣) المقريزي: خطط جـ ١ ص ٣١٥.
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.
(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٣١٨.

وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمي، كخمارويه بن أحمد بن طولون، مشغوفاً بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان، وكان مغرماً أيضاً بالصيد، وخاصة صيد السباع[١]، وولع بعض الخلفاء الفاطميين بالصيد، وكان الخليفة الآمر يعطي الرهبان في دير نهيا[٢] بالقرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير[٣].

---

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠.

(٢) وصف. الشابشتي: (Aziz Suryal Atiya: Some Egyptian Monasteries Acording to the Unpublished Ms. of al - Shabushti's Kitab Al - Diyarat, p17) أن دير نهيا بالجيزة «من أحسن الديارات وأنزهها وأطيبها، عامر برهبانه وسكانه. وله في النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته. فإذا انصرف الماء وزرع، أظهرت أراضيه غرائب النوار، وأصناف الزهر، فهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المشهورة. وله خليج يجتمع إليه ساير الطيور، فهو أيضاً متصيد حسن».

(٣) أبو صالح: كنائس وأديرة مصر ص ٧٧ ـ ٧٨. ناصر خسرو: Safar Nameh . pp. 155 - 156. أنظر كتاب «تاريخ الدولة الفاطمية» للمؤلف.

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

كيف كان عضد الدولة يقضي يومه[1]

«فإنه كان يباكر دخول الحمام، فإذا خرج منه ولبس ثيابه أدى فرض الصلاة، ودخل إليه خواصه وحواشيه، فجلس منهم أبو القاسم المطهر بن عبد الله وزيره ومن قام مقامه بعده. فسأله عما عمله فيما سبق التقدم به إليه، فيخبره بذلك. ثم يذكر له ما عرض من الأمور ويستأذنه في كل أمر، فيوعز إليه بما يعتمده فيه، ويفعل مثل ذلك مع أبي الحسن علي بن عمارة وأبي عبد الله بن سعدان عارضي الجيش: ذاك الديلم وهذا الأتراك والأعراب والأكراد. فإذا ترحل النهار سأل عن ورود النوب المترددة بالكتب، ولها وقت معلوم تصل فيه وتراعى من ساعات النهار. فإن انفق أن تأخرت قامت القيامة ووقع البحث عن العارض العائق، فإن كان بعائق ظاهر فيه عذر قبل، أو عن أمر يحتاج إلى إزالته أزيل، أو من تقصير النوبيين أنزل العذاب بهم. ولقد ذكر بعض الطراد[2] أن أحد المرتبين قالت له امرأته: قد طبخنا رزاً فتوقف لتأكل منه وتمضي، فتوقف بقدر ما أكل، وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا. لا جرم أن النوب كانت تصل من شيراز في سبعة أيام. وكان يحمل مع المرتبين بواكير الفواكه والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصل طرية سليمة. وقيل إن بعض أصاغر الحواشي حمل في النوبة من همدان في كنانة[3]، دنانير يسيرة إلى منزله. وقد كانت عاداتهم جارية بذاك، فقصرت عن أهلها. وعرف عضد الدولة الخبر، فلم يزل يكشف عن ذلك إلى أن ظهر الخرائطي آخذ الدنانير فأمر بقطع يده.

---

(١) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم جـ ٣ ص ٤٠ ـ ٤٣.

(٢) من المطاردة وهي الأجزاء للسباق، والمراد هنا أحد المشرفين في محاط البريد.

(٣) في الأصل كتانة، والصواب كنانة، وهي جعبة السهام وتصنع مر أدم.

فإذا وصلت النوبة كان فض ختومها وفتح خرائطها وإخراج الكتب منها بحضرته، ويأخذ منها ما كان إلى مجلسه. ويخرج الباقي إلى ديوان البريد فيفرق على أربابه، ثم يقرأ الكتب إليه كتاباً كتاباً ويطرحه إلى أبي القاسم عبد العزيز. فإذا تكامل وقوفه عليها جدد أبو القاسم قراءتها عليه، فيأمره في جواب كل فصل بما يوقع بـه تحته، وأخـرج منها مـا يأمـر بإخراجه ليوجه عليه المطهر بن عبد الله أو من يجري مجراه في تذكرة وهي أبداً بين يديه، يعلق فيها ما يعرض له. ثم يسأل عن الطعام عند فراغه من ذلـك فإذا حضـر الوقت الـذي رسمه بالأكل فيه، استدعاه فأصاب منه، وطبيب النوبة قائم على رأسه، وهو يسأله عن شيء من منافع الأغذية ومضارها. ثم يغسل يده وينام، فإذا انتبه جدد الوضوء وصلى الصلاة الوسطى، وخرج إلى مجلس الشرب فجلس وحضر الندماء والملهون.

ووافى أبو القاسم بن عبد العزيز فقعد بحضـرته على رسمـه، وعرض عليـه ما كتبـه الكتاب أو كتبه هو بنفسه من أجوبة الكتب الواردة، فربما زاد فيها أو نقص منها. ثم تصلح وتختم وتجعل في إسكدارها، وتحمل إلى ديوان البريد فتصدر في وقتهـا، ومتى غاب أبـو القاسم بن عبد العزيز لأمر يقطعه أو تأخر في داره واحتيج إلى كتاب يكتب، يستدعى كاتب النوبة، فأجلس بين يديه، وتقدم بما يريده إليه، وأملاه عليه وهو مع ذلـك يشرب ويسمـع الغناء ويسأل عما يمضي من أشعاره وما تجب معرفته من أخباره، ولا يزال على ذلك إلى أن يمضي صدر الليل ثم يأوي إلى فراشه.

وإذا كان يوم موكب برز للأولياء ولينهم ببشر وتأنيس تعلوهما هيبة ووقار، وأجاب كل ذي حاجة بما يجب في السياسة من بذل ومنع. وتفرق الناس عند انتصـاف النهار، وأقـام أصحاب الدواوين وكتابهم إلى حين غروب الشمس. فأما عموم الأيام فإن الأمر يجري على ما تقدم ذكره. . .

فأما ما ذكر في أمر تدبيره لجنده، فقـد كانت أمـوالهم مطلقـة في أوقاتهـا متتبعة في تصرفاتهـا، وأكثر كتـابهم وأصحابهم عـوناً لـه عليهم. وطبل العـطاء يضرب في كـل يوم، ويحضر من تنتهي إليه الدعوة من القواد، ومعه أصحابه بأحسن رتبة، فقبض ماله، والزيادات في الأصـول محظورة على العمـوم، إلا عند الفتـوح وما تـدعو السيـاسة إليـه من استمالـة القلوب».

الملحق الثاني

سياسة يعقوب بن الليث الصفار[1]

«كانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته، لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته. . واتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره، فيكثر الجلوس عليه ويشرف منه على أهل عسكره وعلى قضيم[2] دوابه ويؤمن الخلل من وكلائه، فإذا رأى شيئاً يكرهه بادر بتغيره. وقد كان انتخب من أصحابه ألف رجل على اختيار لهم، والغنى الظاهر منهم والنكاية في حروبهم، فجعلهم أصحاب الأعمدة للذهب، كل عمود منها فيه ألف مثقال من الذهب، ثم يليهم في اللباس والغنى فوج ثان أصحاب الأعمدة للفضة. فإذا كان في الأعياد أو في الأيام التي يحتاج فيها إلى مباهاة الأعداء والاحتفال، دفع إليهم تلك الأعمدة، وإنما ضربت هذه الأعمدة للنوائب.

«وسئل بعض ثقاته ممن ينظر حاله عن أشغاله في خلواته وعن مجالسته مع أهل بطانته وهل يسير مع أحد أو يجالسه، فذكر أنه لا يطلع أحداً على سره، ولا يعرف أحد بتدبيره وعزمه. و[يكون] أكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريده، ويظهرغير ما يضمره، ولا يشرك أحداً فيما يريده برأي ولا غيره. وإن تفرجه واشتغاله بغلمان صغار يتخذهم ويؤدبهم ويحرجهم ويدعوهم ويدفع لهم ما قد عمله لهم من السيور يتضاربون بها بين يديه ففي هذا أكثر شغله إذا فرغ من تدبيره. ولما وقع الصفار الحسن بن زيد الحسيني بطبرستان،وذلك في سنة ستين ومائتين، وقيل سنة تسع وخمسين ومائتين، وانكشف الحسن بن زيد وأمعن

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥.

(٢) قضيم الدواب: صوتها وهي تأكل، من قضت الدابة الشعير أي كسرته بأطراف أسنانها.

يعقوب في الطلب، وكانت معه رسل السلطان قد قصدوه بكتب ورسالة من المعتمد وهم راجعون في طلب الحسن بن زيد، قال له بعضهم لما رأى من طاعة رجاله وما كان منهم في تلك الحرب: ما رأيت أيها الأمير كاليوم؟ قال له الصفار: وأعجب منه ما أريك إياه، ثم قربوا من الموضع الذي كان فيه عسكر الحسن بن زيد فوجدوا البدر والكراع والسلاح والعدد وجميع ما خلف في العسكر حين الهزيمة، على حاله لم يلتبس أحد من أصحابه منه بشيء، ولا دنوا إليه معسكرين بالقرب منه، من حيث يرونه بالموضع الذي خلفهم فيه الصفار، فقال له الرسول. هذه سياسة ورياضة راضهم الأمير بها إلى أن تأتي له منهم ما أراد. وكان لا يجلس إلا على قطعة مسح يشبه أن يكون طوله سبعة أشبار في عرض ذراعين أو أرجح. وإلى جانبه ترسه عليه اتكاؤه، وليس في مضربه شيء غيره؛ فإذا أراد أن ينام في ليله أو نهاره، اضطجع على ترسه وتزع راية فيجعلها مخدته. وأكثر لباسه خفتان مصبوغ فاختي.

وكان من سنته [أن] للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه، بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم، فيمرون مع أطناب[1] الشقاف إلى خيمة مضروبة بحيث لا يرى هو موضعها، لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها، فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره. وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضاً من السلام عليه. ولم يكن لأحد أن يتقدم إلى باب مجلسه إلا رجل من خواصه يعرف بالعزيز وإخوته، وله من وراء خيمته خيمة تقرب من أطناب مجلسه فيها غلمان من خواصه. فإذا احتاج إلى أمر يأمره به، صاح بهم فخرجوا إليه، وإلا فهو في أكثر نهاره وليله في ذلك الموضع لا يقومون على رأسه. وخيمته داخل أخبية[2] مطنبة كلها، يدور فيها خمسمائة غلام يبيتون من داخل مضربة، على كل نفس منهم ثقة وكل يتفقد أحواله لئلا يكون منهم عبث أو فساد فهو المأخوذ به. وقال بعض من ورد إليه برسالة السلطان (يعني الخليفة العباسي): أيها الأمير! أنت في رياستك ومجلسك ليس في خيمتك إلا صلاحك ومسح[3] أنت عليه. قال: إن رئيس القوم يأتم به أصحابه في أفعاله وسيرته، فلو استعملت ما ذكرت من الأثاث لأثقلنا البهائم ولأتم بي في فعلى من في عسكري. ونحن نقطع في كل يوم المهامه[4] والمفاوز

(١) الطنب بضم الطاء وسكون النون (أوضمها): الحبل تشد به الخيمة، ومطنب مشدود بالحبال.

(٢) الخباء هو كل ما يعمل من وبر أو صوف، وقد يكون من شعر، والجمع أخبية من كساية وأكسية، ويكون على عمودين أو ثلاثة، وما فوق ذلك فهو بيت.

(٣) المسح بالكسر: البلاس أو اللباس وجمعها مسوح كحمل وحمول.

(٤) هام يهيم على وجهه لا يدري أين يتوجه، والهيماء: المفازة التي لا ماء فيها، ورجل هيمان عطشان.

والأودية والقيعان[١]، ولا يصلح لنا إلا التخفيف. وكان قليل الاستعمال البغال في عكسره، وكان في عكسره خمسة آلاف جمل بختي[٢] وأضعاف عددها حمير شهب كالبغال، وهي الحمير المعروفة بالصفارية تحمل الأثقال عوضاً عن البغال. وكان السبب في ذلك أنه إذا نزل خليت الجمال الحمير للرعي وليس في وسع البغال ذلك.

الملحق الثالث

رد الإخشيد على كتاب أرمانوس إمبراطور الروم[٣]

وكتب محمد بن طغج (صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والأعمال الحجازية) إلى أرمانوس ملك الروم: من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين، إلى أرمانوس عظيم الروم ومن يليه. . .

أما بعد، فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا وإسحاق رسوليك، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة، وما نمي عنا إليك وصح من شيمنا فينا لديك، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا، وما وصلت به من هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخليص الأسرى إلى [غير] ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه. . . .

وإنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك، فإن ذلك لو كان حقاً وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه، وكان لك في ترك مكاتبتنا غنم ورشد، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيبا، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته، والذي تجشمته من مكاتبتنا، إن كان كما وصفته، فهو أمر سهل يسير لأمر عظيم خطير، وجل نفعه

---

(١) القاع والقيعة، وجمعها قيعان. المستوى من الأرض الذي لا يثبت.

(٢) البختي بضم الباء وتسكين الخاء: واحد البخت والبخاتي وهي الإبل الخراسانية، وفي الأصل حمل بحت

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٠ ـ ١٨.

لأمر عظيم خطير، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم، لأن مذهبنا انتظار إحدى الحسنيين. فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من أمره وبصيرة فيما بسبيله، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته، ويعلم أن الله تعالى قد أعاذه من أن يفتنه[1] ولم يعذه (يحفظه) من أن يبتليه. هذا إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم، وما توجيه عليكم عزائم سياستكم والتوصل إلى استنفاذ أسرائكم. ولولا أن إيضاح القول في الصواب أولى بنا من المسامحة في الجواب: لأضربنا عن ذلك صفحاً إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم أو عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم، بل إلى من نزل عن مرتبنا، هو أنه لم يثق من منعه ورد ملتمسه ممن جاوره، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم، ولا عار على أحد وإن جل قدره في ردهم. ومن وثق في نفسه ممن جاوره، وجد قصده أسهل السبيلين عليه وأدناهما إلى إرادته حسب ما تقدم. وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ولم يقرب من منزلتنا، فممالكنا عدة، كان يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن[2].

وأما الفداء ورأيك في تخليص الأسر، فإنا وإن كنا واثقين لمن في أيديكم بإحدى الحسنيين، وعلى بينة لهم من أمرهم، وثبات من حسن العاقبة وعظم المثوبة، عالمين بما لهم، فإن فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها، سكوناً إلى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب، ويعلم أن الله قد أعاده من أن يفتنه ولم يعذه من يبتليه. وقد تبينا مع ذلك في هذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضون والسلف الصالحون، فوجدنا ذلك موافقاً لما التمسته وغير خارج عما أجيبه، فسررنا بما تيسر منه، وبعثنا الكتب والرسل إلى عمالنا في سائر أعمالنا وعزمنا عليهم في جمع كل من قبلهم وأتباعهم بما وفر الإيمان في إنقاذهم، وبذلنا في ذلك كل ممكن، وأخرجنا إجابتك عن كتابك ليتقدم فعلنا قولنا وإنجازنا وعدنا، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن المؤاقع منك إن شاء الله...

---

(١) يعني يبتليه بأمور على سبيل المحنة والتمحيص.

(٢) ورد في هذا الكتاب أن سلطان الأخشيد شمل ما كان يسمى قديماً ملك مصر، وممالك اليمن، وأجناد الشام التي منها جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وما يتفقده من أمر مكة والمدينة، وأن سياسته لهذه البلاد كانت ترمي إلى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة وإقرار الأمن والدعة في المعيشة وكسبها المودة والمحبة ـ صبح الأعشى جـ ٧ ص ١٣ ـ ١٤.

والحمد لله أحق ما ابتدىء به وختم بذكره، وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وسلم تسليماً».

الملحق الرابع

الموقعة التي دارت ببلاد الشام بين محمد بن سليمان الكاتب والحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة[1]

«ولما كان في يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم (سنة ٢٩١ هـ)، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة في جميع العسكر من الأولياء، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك. فلم أبعد أن وافاني الخبر بأن الكافر القرطمي أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعاته في ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة، وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع، بينه وبينَ حماه اثنا عشر ميلاً. فاجتمع إليه جمع من كان بمعرة النعمان وبناحية القصيصي وسائر النواحي من الفرسان والرجالة. فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعاً ولم أظهره، وسألت الدليل الذي كان معي عن هذا الموضع، وكم بيننا وبينه، فذكر أنه ستة أميال، فتوكلت على الله عز وجل وتقدمت إليه في المسير نحوه، فمال الناس بالناس جميعاً، وسرنا حتى وافت الكفرة، فوجدتهم على تعبئة، ورأينا طلائعهم.

فلما نظروا إلينا مقبلين، زحفوا نحونا، وسرنا إليهم. فافترقوا ستة كراديس، وجعلوا على ميسرتهم، على ما أخبرني من ظفرت به من رؤسائهم، مسروراً العليصي وأبا الحمل وغلام هارون العليصي وأبا العذاب ورجاء وصافي وأبا يعلى العلوي في ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا كميناً في أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا، وجعلوا في القلب النعمان العليصي، والمعروف بأبي الخطي والحماري وجماعة من بطلانهم في ألف وأربعمائة فارس وثلاثة آلاف راجل، وفي ميمنتهم كليباً العليصي والمعروف بالسديد العليصي والحسين بن العليصي وأبا الجراح العليصي وحميداً العليصي وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس، وكمنوا مائتي فارس، فلم يزالوا زفا[2] إلينا ونحن نسير نحوهم غير

---

(١) الطبري جـ ١١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) زف يزف زفا وزفونا وزفيفاً: أسرع.

منفرقين، متوكلين على الله عز وجل. وقد استحثثت الأولياء والغلمان وسائر الناس غيرهم، ووعدتهم. فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط، فقصد الحسين بن حمدان وهو في جناح الميمنة، فاستقبلهم الحسين بارك الله عليه وأحسن جزاءه بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم، فكسروها في صدورهم، فأنفلوا عنهم.

وعاود القرامطة الحمل عليهم، فأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في أول واقعة، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة، وولوا مدبرين مفلولين، وأتبعهم الحسين فرجعوا عليه، فلم يزالوا حملة وحملة. وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة، حتى أفناهم الله عز وجل، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل. وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سيما ويمن الخادم ومن كان معهما من بني شيبان وبني تميم، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم. واعتنق بعضهم بعضاً، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة، وحمل عليهم في وقت حملتهم خليفة بن المبارك ولؤلؤ، وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة في ثلثمائة فارس، وجميع أصحاب خليفة وهم يعاركون بني شيبان وتميم، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة وأتبعوهم. فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك.

وزحف النعمان ومن معه في القلب إلينا، فحملت ومن معي، وكنت بين القلب والميمنة. وحمل خاقان ونصر القشوري ومحمد بن كمشجور ومن كان معهم في الميمنة، ووصيف موشكير ومحمد بن إسحاق كندا جيق وابنا كيغلغ والمبارك القمي وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحي الكبير ووصيف البكتمري وبشر البكترمي ومحمد بن قراطغان. وكان في جناح الميمنة جميع من حمل على من في القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال. ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل، خفت أن يكون من الكفار مكيدة في الاحتيال على الرجالة والسواد. فوقفت إلى أن لحقوني، وجمعتهم، وجمعت الناس إليَّ، وبين يدي المطرد المبارك مطرد أمين المؤمنين، وقد حملت في الوقت الأول، وحمل الناس.

ولم يزل عيسى النوشري ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على ما رسمته له. فلم يزل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إليَّ من كل موضع. وضربت مضربي في الموضع الذي وقفت فيه حتى نزل الناس جميعاً. ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب، حتى استقر العسكر بأهله، ووجهت في الطلائع، ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على

ما هنأنا به من النصر. ولم يبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية في نصر هذه الدولة المباركة، في المناصحة لها إلا بلغوها، بارك الله عليهم جميعاً. ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لنقيم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع. وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع[1] الشكر. وأنا، أعز الله سيدنا الوزير، راحل إلى حماه، ثم أشخص إلى سلمية بمن الله تعالى وعونه، فمن بقي من هؤلاء الكفار مع الكافر، فهم بسلمية، فإنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام، واحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب من بني شيبان وتغلب وبني تميم، يجزيهم جميعاً الخير على ما كان بقي هذه الوقعة، فما بقي أحد منهم، صغير ولا كبير، غاية، والحمد لله على ما تفضل به، وإياه أسأل تمام النعمة».

الملحق الخامس

الجدل بين طائفتي المعتزلة وأهل السنة والجماعة[2]

«ثم لما كثرت العلوم والصنائع، وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وألف المتكلمون في التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في السلوب[3]، فقضوا بنفي صفات المعاني مع العلم والقدرة والإرادة والحياة زائدة على أحكامها؛ لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم؛ وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها. وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام؛ وهو مردود لعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ. وإنما هو إدراك المسموع أو المبصر. وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر. ولم يعقلوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقضوا بأن القرآن مخلوق، بدعة صرح السلف بخلافها. وعظم ضرر هذه البدعة، ولقنها بعض الخلفاء عن أئمتهم[4]، فحمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف؛ فاستحل لخلافهم أبشار[5] كثير منهم

---

(١) التوزيع كالإيراع، معناه القسمة والتفريق أي توزيع الشكر على الناس.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٣) أي في أنواع النفي والسلب بتنزيه الله عن كل ما لا يليق به من الصفات.

(٤) أخذها المأمون والمعتصم عن أحمد بن أبي داود وبشر المريسي وغيرهما من متقدمي المعتزلة.

(٥) جمع بشر وهو الجلد، يعني استحل قتلهم وجلدهم.

ودمائهم. وكان ذلك سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد، دفعاً في صدور هذه البدع. وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري إمام المتكلمين، فتوسط بين الطرق، ونفي التشبيه، وأثبت الصفات المعنوية، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف، وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه، فأثبت الصفات الأربع المعنوية، والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكمل للعقائد في البعثة، وأحوال الجنة والنار؛ والثواب والعقاب. وألحق بذلك الكلام في الإمامة، لما ظهر حينئذ من بدعة الإمامية من قولهم إنها من عقائد الإيمان، وإنه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة[١] في ذلك لمن هي له، وكذلك على الأمة[٢]. وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد؛ فلذلك ألحقوهما بمسائل هذا الفن. وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري؛ واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد[٣] وغيره؛ وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني[٤]، فتصدر للإمامة في طريقتهم، وهذبها، ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار... وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية في وجوب اعتقادها، لتوقف تلك الأدلة عليها. وإن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول، وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية. إلا أن

---

(١) أي تبرئة بيان من تكون له الخلافة.

(٢) يريد أنه من الواجب على الأمة تعيين الإمام أو الخليفة إن لم يعينه سلفه.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد، الطائي البصري ثم البغدادي، أحد شيوخ المالكية وصاحب أبي الحسن الأشعري، وناصر مذهب أهل السنة، غلب عليه علما الأصول والكلام، وكان حسن الدين جميل الطريقة. وعنه أخذ القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي المتوفي سنة ٤٠٣ هـ عام الكلام، وهو الذي راوده الباقلاني على الخروج إلى شيراز لمناظرة المعتزلة بحضرة فناخسرو: كما ذكر المقري في أزهار الرياض.

وهو غير أبي بكر بن مجاهد شيخ القراء، لأن هذا متقدم الوفاة، وليس معاصراً للباقلاني (راجع ابن مجاهد المتكلم على طريقة الأشعري في تاريخ بغداد للخطيب، الترجمة ٢٦١، وفي الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون اليعمري المالكي (أنظر هامش المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض جـ ٣ ص ٨٥ ـ ٨٦ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بإشراف الأستاذ مصطفى السقا وآخرين).

(٤) ذكر ابن خلكان (جـ ١ ص ٤٨١) «أنه كان على مذهب الأشعري، وأنه صنف كتباً كثيرة في علم الكلام، وكان أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه.. وكان كثير التطويل في المناظرة مشهوراً بذلك عند الجماعة». وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ.

صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة[١]. ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة، فكانت مهجورة عندهم لذلك».

الملحق السادس

استقبال الحكم المستنصر الأموي بالأندلس، أردون ملك جليقية حين وفد عليه في سنة ٣٥١ هـ واستنجد به على منافسه وابن عمه شانجه[٢]

«وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له في الكرامة، ولأصحابه،فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبب، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة. وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح وقعد الإخوة وبنوهم، والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس. فيهم القاضي منذر بن سعيد، والحكام والفقهاء. فأتى محمد بن القاسم طملس لملك أردون وأصحابه، وعالي لبوسه ثوب ديباجي رومي أبيض، وبليوال من جنسه وفي لونه. وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر. وقد حفته جماعة من وجوه الذمة بالأندلس، يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما. فدخل بين صفي الترتيب، يقلب الطرف في نظم الصفوف، ويجيل النظر في كثرتها وتظاهر (قوة) أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلبوا على وجوههم، وتأملوا ناكسي رءوسهم غاضين من جفونهم؛ قد سكرت أبصارهم[٣]، حتى وصلوا إلى باب الأقباء، أو باب قصر الزهراء، فترجَّل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم حتى انتهوا إلى باب

(١) يريد أن الأدلة تتوقف صحتها ونقدها على الأقيسة المنطقية، ولم تكن هذه الصناعة المنطقية فاشية في أهل الملة الإسلامية لذلك العهد. وما وجد منها كان مجفواً من علماء الدين لاتصاله بعلوم الفلسفة.

(٢) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٦. أزهار الرياض جـ ٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٤.

(٣) أي أصبحوا كالسكارى لا يستطيعون فتح عيونهم لروعة ما رأوا.

السدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشي على الأقدام، فترجلوا، ودخل الملك أردون وجده راكباً مع محمد بن طملس، فأنزل في برطل[١] البهو الأوسط من الأبهاء القلبية التي بدار الجند، على كرسي مرتفع مكسو الأوصال[٢] بالفضة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجه بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى. فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل السطح.

فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه، وبقي حاسراً إعظاماً لما كان له من الدنو إلى السرير، واستنهض، فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو. فلما قابل السرير خر ساجداً سويعة، ثم استوى قائماً. ثم نهض خطوات، وعاد إلى السجود ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة، وأهوى إلى يده، فناوله إياها، وكر راجعاً متقهقراً على عقبه، إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير. فجلس عليه؛ والبهر قد علاه؛ وأنهض خلفه من استدنى من قواسمه وأتباعه؛ فدنوا ممتثلين فعله في تكرير الخنوع. وناولهم الخليفة يده؛ فقبلوها وانصرفوا متقهقرين؛ فوقفوا على رأس ملكهم، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً ريثما يفرخ روعه (يطمئن). فلما رأى أن قد خفض عليه (اطمأن في المجلس) افتتح تكليمه. . .

فكرر أردون الخضوع، وأسهب في الشكر، وقام للانصراف مقهقراً، لا يولي الخليفة ظهره، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح، وقد علاه البهر وأذهله الروع، من حول ما بشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة. فلما أن دخل المجلس، ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحط ساجداً إعظاماً له. ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذي بجوفي هذا المجلس، فأجلسوه هنالك عن وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلما بصر به قام إليه، وخضع له، وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه، فعانقه وجلس معه، فغبطه، ووعده من إنجاز

---

(١) البرطل بفتح الباء والطاء. المظلة الضيقة.

(٢) الأجزاء أي إنه مغشى عند اتصال أجزائه بالفضة.

عدات[١] الخليفة له بما ضاعف سروره. ثم أمر الحاجب جعفر. فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة. وكانت دراعة منسوجة بالذهب، وبرنساً مثلها. له لوزة[٢] مفرغة من خالص التبر. مرصعة بالجواهر والياقوت. ملأت عيني العلج[٣] تجلة، فخر ساجداً وأعلن بالدعاء. ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً؛ فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم؛ وخر جميعهم خاضعين شاكرين. ثم انطلق الملك أردون وأصحابه، وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب، عليه سرج حلي، ولجام حلي مفرغ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون. واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه. ما أفاضوا في التبجح به والتحدث عنه أياماً».

---

(١) جمع عدة وهي الوعد.

(٢) حلية على شكل اللوزة.

(٣) العلج: رجل من كفار العجم.

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي أهم مصادر الكتاب، وقد رتبت أسماء المؤلفين على حسب أحرف الهجاء، مع ذكر سنة وفاة المؤلف

ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠): علي بن أحمد بن أبي الكرم.

١ ـ «الكامل في التاريخ» ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ).

الإدريسي (١٢٥١/٦٤٩): محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي.

٢ ـ «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان» (روما ١٥٩٢).

أرنولد: «سير توماس و. Arnold: Sir Thomas w.

٣ ـ The Preaching of Islam 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (London. 1935)، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي (القاهرة ١٩٥٧).

٤ ـ The Caliphate (Oxford, 1924).

الأشعري (٩٣٦/٣٢٤) الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل.

٥ ـ «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» نشره ريتر (اسطنبول ١٩٢٩).

الأصفهاني (٩٦٧/٣٥٦): أبو الفرج.

٦ ـ «كتاب الأغاني» ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥)، (القاهرة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٦).

ابن أبي أصيبعة (١٢٧٠/٦٦٧): موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي.

٧ ـ «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» جزآن (القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ).

أماري: ميشيل Amari: Michel.

٨ ـ «مكتبة صقلية العربية» Bibliotica Arabe - Siculs في جزأين.

أمدروز: هـ. ف. Amedros: H,E.

٩ ـ Three Years of Bawaihid Rule in Baghdad, A. H. 383 - 393 Being a Fragment of the History of Hilal - as - Sabi (A. H. 448) from a Ma. in the Library of the British Museum.

أمير علي: سيد Ameer Ali: Sayed.

١٠ ـ A Short History of the Saracene (Lond. 1921) «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي» (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية: رياض رأفت أوتيخا (٩٢٩/٣١١) سعيد بن الطريق.

١١ ـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (بيروت ١٩٠٩).

أوليري: دي ليسي O'Leary de Lacy.

١٢ ـ A Short History of the Fatimid Khalifate (Lond. 1923).

بارتولد: ف Bartold: F.

١٣ ـ «تاريخ الحضارة الإسلامية» نقله إلى الغربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢).

بالمر. Palmer.

١٤ ـ Haroun al - Raschid (Lond. 1881).

باون: هارولد Bowen: Harold.

١٥ ـ The Last Buwayhids J. R. S. (April, 1929) pp. 225 - 285.

البحتري (٢٨٥/٦٩٨): أبو عبادة الوليد القحطاني.

١٦ ـ «ديوان البحتري» (القسطنطينية ١٣٠٠ هـ).

بديع الزمان (٣٩٨/١٠٠٧ ـ ١٠٠٨): أحمد بن محمد.

١٧ ـ «رسائل بديع الزمان الهمذاني»، شرح الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي (بيروت ١٨٩٠).

براون: إدواردج . . . Browne: Edward G.

١٨ ـ A Literary History of Peria (From the Earliest Times until Firdawsi 4 vols. vol. 1 (London, 1906) Vol. 11 (London, 1909).

١٩ ـ The Chahar Maqala (Four Discourses) of Nidhami - i - Samarqandi'. trans. from Persian (Lond. 1899).

ترجمه إلى العربية عزام والخشاب (القاهرة ١٩٤٩).

بروكلمان: كارل Brockelmann: Carl.

٢٠ ـ Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols (Weimar, - 1898 - 1902).

ابن بسام (٥٤٢/١١٤٧): أبو الحسن علي الشنتريني.

٢١ ـ «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، نشرت الأجزاء الأربعة الأولى منه. (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٤/١٩٣٩ ـ ١٩٤٥).

البغدادي (٤٢٩/١٠٣٧): أبو منصور عبد القادر بن طاهر.

٢٢ ـ «الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨/١٩١٠).

البكري (٤٨٧/١٠٩٧): أبو عبيد الله بن عبد العزيز.

٢٣ ـ «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (باريس ١٩١١).

البلاذري (٢٧٩/٨٩٢): أحمد بن يحيى بن جابر.

٢٤ ـ «فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٨ هـ).

البلخي(٣٢٢/٩٧٣ـ ٩٢٤): أبو زيد بن سهل.

٢٥ «كتاب البدء والتاريخ» وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسي، ستة أجزاء.

دي بور: ت. ج. De Boer T. J.

٢٦ - «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٩٣٨/١٣٥٧).
البيروني (٤٤٠/١٠٤٨): أبو الريحان محمد بن أحمد.
٢٧ - «الآثار الباقية عن القرون الخالية» (طبعة إدوارد سخاو) ليبزج سنة ١٨٧٨، ١٨٧٩.
وترجمه إلى الإنجليزية وعلق عليه إدوارد سخاو بعنوان:
The Chronology of Ancient Nations (London, 1879).
بيمونت ومونود: Bemont et Monod.
٢٨ - Histoire de I' Europe au Moyen Age (395 - 1270). (Paris, 1921).
التنوخي (٣٨٤/٩٩٤ م): أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم.
٢٩ - «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» (القاهرة ١٩١٨ - ١٩٢١): ترجمه إلى الإنجليزية د. س. مرجليوت (لندن ١٩٢٢).
تيمور: المغفور له أحمد (باشا).
٣٠ - «التصوير عند العرب» نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن (القاهرة ١٩٤٢).
٣١ - «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
الثعالبي (٤٢٩/١٠٣٧): أبو منصور عبد الملك.
٣٢ - «يتيمة الدهر» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤).
الجاحظ (٢٥٥/٨٦٨): أبو عثمان عمرو بن بحر.
٣٣ - «كتاب التاج في أخلاق الملوك» (القاهرة ١٣٣٢/١٩٢٤).
حققه المرحوم أحمد زكي باشا.
٣٤ - «كتاب البيان والتبيين» أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨).
٣٥ - «كتاب التبصير بالتجارة» الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥).
نشره وصححه وعلق عليه السيد حسني عبد الوهاب باشا التونسي.
٣٦ - ثلاث رسائل نشرت في كتاب (القاهرة ١٣٤٤ هـ): الأولى في الرد على النصارى، والثانية في ذم أخلاق الكتاب، والثالثة في القيان.
جبون: Gibbon: Edward.
٣٧ - The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by G. B. Bury.
٣٨ - الجهشياري (٣٣١/٩٤٢ - ٩٤٣): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
«كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨).
حققه ونشره الأستاذ مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
٣٩ - دي جوبينو De Gobineau.
Religion et Philosophie dans I' Asie Centrale (Paris, 1863)
جولدتسيهر إيناس Goldziher Ignaz.

٤٠ ـ المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن.
ترجمه الدكتور علي حسن عبد القادر(القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).
٤١ ـ Vorlesungen uber den Islams (2nd ed, Heidelberg. 1910). trans. into French by Felix Arin under the trle Le Dogme et la Loi de I' Islam. (Paris, 1920).
جويارد: س. Guyard: S.
٤٢ ـ Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaèlis Paris, 1874.
٤٣ ـ حتي: فيليب. ك. Hitti: Philip. K.
History of the Arabs (London. 1940, 1944).
٤٤ ـ The Origins of the Druze People and Religion (Columbia, 1928).

حاجي خليفة (١٠٦٧/١٦٥٧): مصطفى كاتب شلبي.
٤٥ ـ «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (ليبسك ولندن ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨).
ابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤) أبو محمد علي بن أحمد.
٤٦ ـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).
حسن إبراهيم حسن:
٤٧ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨).
٤٨ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن Van Vloten ترجمه وعلق عليه بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣، ١٩٦٥).
٤٩ ـ «أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية» تأليف أدولف جروهمان: ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه: الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤: الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦).
٥٠ ـ «تاريخ الإسلام السياسي» الجزء الأول، الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٤) «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الجزء الثاني، الطبعة. السابعة (القاهرة ١٩٦٤)، والجزء الثالث، الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٥).
٥١ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢).
٥٢ ـ «الدعوة إلى الإسلام» تأليف سير توماس أرنولد، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي (القاهرة ١٩٤٧) (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧).
٥٣ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة ١٩٤٢) (ص ١٢٧ ـ ٢٢٩).
٥٤ ـ «كافور الإخشيد»، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مايو ١٩٤١.

٥٥ ـ «انتشار الإسلام في الهند»، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، مايو ١٩٤٤.
٥٦ ـ عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٧).
٥٧ ـ المعز لدين الله الفاطمي، مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (القاهرة ١٩٤٨) الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).
٥٨ ـ تاريخ القاهرة، تأليف ستانلي لينبول، ترجمه المؤلف بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، والأستاذ إدوارد حليم (القاهرة ١٩٤٩).
٥٩ ـ Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain (Extract from the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Dec, 1984).
٦٠ ـ زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣).
٦١ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٣).
٦٢ ـ اليمن: البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨).
٦٣ ـ Islam: Rligions, Political and Social Study. (تحت الطبع).

الحمادي اليماني (من فقهاء السنة في اليمن في أواسط القرن الخامس الهجري): محمد بن مالك بن أبي الفضائل.
٦٤ ـ «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» (مطبعة الأنوار ١٣٥٧/١٩٣٩).

ابن خرداذبه: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.
٦٥ ـ «كتاب المسالك والممالك» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٨٩) وبذيله نبذة من كتاب «الخراج وصنعة الكناية لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي».

الخضري: محمد.
٦٦ ـ «تاريخ الدولة العباسية» (القاهرة ١٩١٦).

الخطيب البغدادي (٤٦٣/١٠٧٠ ـ ١٠٧١): الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن علي.
٦٧ ـ «تاريخ بغداد أو مدينة السلام» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١).

الخفاجي: شهاب الدين أحمد.
٦٨ ـ «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» (القاهرة ١٢٨٢ هـ).

ابن خلدون (٨٠٨/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦): عبد الرحمن بن محمد.
٦٩ ـ «مقدمة ابن خلدون» (بيروت ١٨٨٦) النسخة محفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٥.
٧٠ ـ «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ).

ابن خلكان (١٢٨٢/٦٨١): شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.
٧١ ـ «وفيات الأعيان» جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ) المطبعة الميمنية بمصر (١٣١٠ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية دي سلان De Slane باريس (١٨٤٢ ـ ١٨٤٨).
الخوارزمي (٩٩٣/٣٧٣): أبو بكر محمد بن العباس.
٧٢ ـ «رسائل الخوارزمي» (القسنطينية ١٢٩٧ هـ).
الخوارزمي: (٩٩٧/٣٨٧) أبو عبد الله بن أحمد بن يوسف الكاتب.
٧٣ ـ «كتاب مفاتيح العلوم». صنفه سنة ٣٦٦ هـ (القاهرة ١٣٤٤ هـ)، (ليدن ١٨٩٥ م).
الخياط (عاش في القرن الرابع الهجري): أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي.
٧٤ ـ «كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد» مع مقدمة وتحقيق وتعليقات للدكتور نيبرج (القاهرة ١٩٢٥/١٣٤٤).
ابن دقماق (٨٠٩/١٤٠٦ ـ ١٤٠٧): إبراهيم بن محمد المصري.
٧٥ ـ «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» الجزءان الرابع والخامس، (القاهرة ١٨٩٣/١٣٠٩).
الدوري: عبد العزيز.
٧٦ ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥).
٧٧ ـ النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥).
دوزي: و، ب، ا .Dozy: R. P. A.
٧٨ ـ Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden. 1861), trans, into English by F G. Stokes. The Moslems in Spain (London, 1913).
٧٩ ـ Dictionnaire des Noms des Vètementschezles Arabes, Amsterdam, 1845).
٨٠ ـ Spplèment au Dictionnaires Arabes , 2.vols (Leyden, 1881).
٨١ ـ Essai sur l'Histoire de I'Islamisme trans. du Hollandais par Victor Chauvin (Leyden - Paris, 1879).
الدينوري (٨٩٥/٢٨٢): أبو حنيفة أحمد بن داود.
٨٢ ـ «الأخبار الطوال» جزءان (ليدن ١٨٨٨).
«رسائل الحاكم بأمر الله».
٨٣ ـ «كتبها كثير من دعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (مذهب الشيعة رقم ٢٠).
الرضي (١٠١٥/٤٠٦): الشريف أبو الحسن محمد بن موسى.
٨٤ ـ «ديوان الشريف الرضي» (بيروت ١٣٠٧ هـ).
ابن الرومي (٨٩٦/٢٨٣): أبو الحسن علي بن العباس.
٨٥ ـ «ديوان ابن الرومي» ثلاثة أجزاء، نشره كامل الكيلاني (القاهرة ١٩٢٤).

زكي محمد حسن:
٨٦ - «الفن الإسلامي في مصر» الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).
٨٧ - «الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي» (القاهرة ١٩٤٠).
٨٨ - «كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٤٠).
ابن زولاق (٣٨٧/٩٩٧): أبو محمد الحسن بن إبراهيم.
٨٩ - «العيون الدعج في حلى دولة بني طغج» نشره ابن سعيد المغربي، (٦٧٣/١٢٧٥) في كتاب المغرب في حلى المغرب (لندن ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م).
زيدان: جرجي.
٩٠ - «تاريخ التمدن الإسلامي» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦).
دي ساسي: س: De Sacy. silvesrtre
٩١ - Expose de la Beligion des Druzes. précédé d' une Introduction et de la Vie au Khalife Hakim - Biamr - Allah. 2 vols. (Paris. 1838).
٩٢ - Chrestomathie Arabe. 3 vols. (Paris. 1826 - 1827).
٩٣ - Recherehes sur l'initiation à la Secte des Ismaèlis Joural Asiatique. 1824.
لي سترينج: جاي La Stange: Guy.
٩٤ - Baghdad During the Abbasid Caliphate (Oxfard. 1924).
ابن سعيد (٦٧٣/١٢٧٥) علي بن موسى المغربي.
٩٥ - «المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلي المشرق» (ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩).
السلاوي: الشيخ أحمد بن خالد الناصري.
٩٦ - «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، في أربعة أجزاء (القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢ هـ)
ابن سيدة (٤٥٨/١٠٦٥ - ١٠٦٦): أبو الحسن علي الأندلسي.
٩٧ - «المخصص في اللغة» ٤٠ جزءاً (بولاق ١٣٢١ هـ).
السيوطي (٩١١/١٥٠٩): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين.
٩٨ - تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة ١٣٥١ هـ).
٩٩ - «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» جزآن (القاهرة ١٣٢٧ هـ). ترجمه إلى الإنجليزية ميجر هـ. س، جاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا ١٨٨١ م).
١٠٠ - «تفسير الجلالين» أربعة أجزاء.
الشابشتي (٣٨٨/٩٩٨) أبو الحسن علي بن محمد.
١٠١ - «كتاب الديارات» (مخطوط بمكتبة برلين Weimar. 1100 وقد نشر الدكتور عزيز سوريال عظمة الجزء الخامس «بديارات مصر التي يقصد للشرب فيها والتنزه بها»، وترجمها إلى الإنجليزية (Extrait du Bulletin de la Société - d Archèologie Copte. t. v. 1939).

شتاينجاس: ف. Steingass F.

١٠٢ ـ Persian - English Dictionary (London, 1930).

أبو شجاع (١٠٩٥/٤٨٨) محمد بن الحسين عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين الروذراوري.

١٠٣ ـ «ذيل كتاب تجارب الأمم» نشره هـ. ف أمدروز، وترجمه إلى الإنجليزية د. س مرجليوت (أكسفورد ١٩٢١).

شكيب أرسلان: الأمير.

١٠٤ ـ «تاريخ غزوات الغرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» (القاهرة ١٣٥٢ هـ).

الشهرستاني (١١٥٣/٥٤٨ هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.

١٠٥ ـ «الملل والنحل» ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

الشيرازي (١٠٨٧/٤٧٠)، المؤيد في الدين هبة الله.

١ ـ «السيرة المؤيدية» مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة» القاهرة رقم ٢٦٠٥٦.

الصولي (٩٤٦/٣٣٥): أبو بكر محمد بن يحيى.

١٠٧ ـ «كتاب الأوراق» قسم أخبار الشعراء، نشره ج هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٤).

١٠٨ ـ «أخبار الراضي بالله والمتقي لله» أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٢٢٢ هـ إلى سنة ٣٣٣. نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٥).

١٠٩ ـ «أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم» نشره ج. هيوارث دن (القاهرة ١٩٣٦).

ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي.

١١٠ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (القاهرة ١٩٢٣).

الطبري (٩٢٢/٣١٠)، أبو جعفر محمد بن جرير.

١١١ ـ «تاريخ الأمم والملوك» طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٨١ م): (القاهرة ١٣٢٦).

١١٢ ـ «تفسير محمد بن جرير الطبري» في ثلاثين مجلداً.

١١٣ ـ «اختلاف الفقهاء» نشر يوسف شاحت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان «الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لمحمد بن جرير الطبري» (ليدن ١٩٣٣).

طه حسين: الدكتور

١١٤ ـ «حديث الأربعاء» (القاهرة ١٩٢٥).

١١٥ ـ «ذكرى أبي العلاء (القاهرة ١٩١٥/١٣٣٤).

الطوسي (١٠٦٧/٤٦٠) محمد بن الحسن.

١١٦ ـ «فهرست كتب الشيعة» (كلكتا ١٨٥٥ م).

طيفور (٨٩٤-٨٩٣/٢٨٠) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر.

١١٧ - «تاريخ بغداد» الجزء السادس «طبعة هـ. كلر H. Keller (لايبسك ١٩٠٨).
ابن عبد ربه (٣٢٩/٩٤٠) شهاب الدين أحمد.
١١٨ - «العقد الفريد» ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦/١٩٢٨)
العتبي (٤٢٨/١٠٣٦): أبو نصر محمد بن عبد الجبار.
١١٩ - «تاريخ اليميني» في جزئين (القاهرة ١١٨٦ هـ)، وبه شرح الشيخ أحمد بن علي الحنفي المنيني المتوفي سنة ١٢٧٢ هـ، وسماه «الفتح الوهي على تاريخ أبي نصر العتبي».
ابن عذارى (توفي في أواخر القرن السابع الهجري): أبو عبد الله محمد المراكشي.
١٢٠ - «البيان المغرب في أخبار المغرب» نشره دوزي في ثلاثة أجزاء (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١ م وباريس ١٩٣٠).
عريب بن سعد (٣٦٦/٩٧٦ - ٩٧٧) القرطبي.
١٢١ - «صلة تاريخ الطبري» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٦١ م): (القاهرة ١٣٢٠ هـ).
العلي: الدكتور صالح أحمد.
١٢٢ - «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز» بحث مستل من المَجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤).
علي إبراهيم حسن: الدكتور
١٢٣ - «تاريخ جوهر الصقلي» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٣).
١٢٤ - «دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص (القاهرة ١٩٤٣).
علي حسن عبد القادر: الدكتور
١٢٥ - «نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي» الجزء الأول (القاهرة ١٣٦١/١٩٤٢).
العمري (٧٤٢/١٣٤١) شهاب الدين أحمد بن فضل الله.
١٢٦ - «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» نشره وعلق عليه أحمد زكي باشا.
(القاهرة ١٣٤٢/١٩٢٤).
ابن العميد (٦٧٢/١٢٧٣) الشيخ الكين جرجس بن العميد.
١٢٧ - «تاريخ المسلمين» (١٦٢٥ م).
العيني (٨٥٥/١٤٥١) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى
١٢٨ - «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ.
الغزالي (٥٠٥/١١١١) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد.
١٢٩ - «المنقذ من الضلال» (دمشق ١٣٤٣/١٩٣٤).
١٣٠ - «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» (القاهرة ١٣١٩/١٩٠١).
١٣١ - «فضائح الباطنية» نشره جولدتسيهر (ليدن ١٩١٦).

دي غويه : م .ج. De Goeje: M. G.
١٣٢ - Mémoires sur les Carmathes de Bahrain et les Fatimides (Leyden,1886)
فاسيل إف . ا . ا. Vasil. Ev. A. A.
١٣٣ - Cambridge Mediaeval History, vol. IV.
أبو الفدا (١٣٣١/٧٣٢): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه.
١٣٤ - «المختصر في أخبار البشر» ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ)، القاهرة ١٣٢٥ م.
فنلي : جورج Finaly: George
١٣٥ - History of the Byzantine Empire 716 - 1703 A.D. (London, 1859)
ابن قتيبة (٢٧٦ / ٨٨٩) أبو محمد عبد الله بن سلم.
١٣٦ - «المعارف» (١٣٥٢/ ١٩٣٤).
١٣٧ - «عيون الأخبار» أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨ هـ).
قدامة (٩٤٨/٢٣٧): أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادي.
١٣٨ - «نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة» (طبعة دي غويه - ليدن ١٨٨٩).
القزويني (١٢٨٣/٦٢٨) أبو عبد الله زكريا الأنصاري.
١٣٩ - «آثار البلاد وأخبار العباد» (جونتجن ١٨١٨).
القفطي (١٢٤٨/٦٤٦): جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.
١٤٠ - «إخبار العلماء أخبار الحكماء» (ليبسك ١٣٢ /١٩٠٣).
ابن القلانسي (١١٦٠/٥٥٥) حمزة.
١٤١ - «ذيل تاريخ دمشق»، مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي، وسبط ابن الجوزي والذهبي (بيروت ١٩٠٨).
القلقشندي (١٤١٨/٨٢١): أبو العباس أحمد
١٤٢ - «صبح الأعشى بن ضباعة الإنشا» ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧).
الكتبي(١٣٦٣/٧٦٤) محمد بن شاكر بن أحمد المحلي.
١٤٣ - «فوات الوفيات» جزآن (القاهرة ١٢٩٩ هـ).
كريزول : ك . ا. Creswell K. A. C.
١٤٤ - Early Muslim Arehitecture 2 vols. (Oxford, 1928 and 1938)
كريمر : ألفرد فون Kremer: Alfred Von
١٤٥ - The Orient under the Caliphs, 2 vols.(Calecotta. 1920)
كشاجم: أبو الفتح محمود
١٤٦ - «ديوان كشاجم» مخطوط ملك الأستاذ مصطفى السقا
الكندي (٩٦١/٣٥٠) أبو عمر محمد بن يوسف.

١٤٨ ـ «كتاب الولاة وكتاب القضاة» (طبعة روفن جست)
Rhuvon Guest. E. J. W., Gibb Memorial Series (London 1912)

لويس بارنارد Lewis: Bernard
١٤٨ ـ The Origins of Ismailism (Cambridge, 1940)
لينبول: ستانلي Lane - Poole. Stanley
١٤٩ ـ The Muhommadan Dynasties (Paris, 1892).
١٥٠ ـ Coins and Medals (London, 1892).
١٥١ ـ A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1924)
١٥٢ ـ The Moors in the Sapin (London, 1887).
ترجمه إلى العربية علي الجارم بك (القاهرة ١٩٤٤).
ماسنيو: لوي Massignon Louis
١٥٣ ـ La Passion D'Al - Hosayn - Ibn - Mansour Al - Hallaj
2 Vols (Paris 1922).
مأمور: الأمير Mamur Prince
١٥٤ ـ Polemios on the Origin of the Fatimi Caliphs (London, 1934)
الماوردي (٤٥٠/١٠٥٧): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.
١٥٥ ـ «الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٣٩٨ هـ)
متز: آدم Mets: Adam
١٥٦ ـ The Renessance of Islam tnans. into English by S. Kbuds Bukheb and D. S. Margliouth (London, 1939).
وترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، في جزئين (القاهرة ١٣٥٦ ـ ١٣٦٠/ ١٩٤٠ ـ ١٩٤١).
الوافي (٣٥٤/٩٦٥) أبو الطيب أحمد بن الحسين السكوني.
١٥٧ ـ «ديوان المتنبي» نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقي (القاهرة ١٣٤٨/ ١٩٣٠).
المدور: جميل نخلة
١٥٨ ـ «حضارة الإسلام في دار السلام» (القاهرة ١٣٥١/١٩٣٢).
أبو المحاسن (٨٧٤/١٤٦٩): جمال الدين يوسف بن تغري بردي.
١٥٩ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» جزءان (طبعة جوينبل، ووليم بوير) (ليدن ١٨٥١/١٨٥٥) ج ١ ـ ٩ (طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٨ (١٣٦١/١٩٢٩ ـ ١٩٣٣).
المراكشي (٦٦٩/ ١٢٧٠ ـ ١٢٧١): محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي.

١٦٠ ـ «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» طبعة دوزي، ليدن ١٨٨١)، وترجمه وشرحه ا فانيان E. Fagnan (الجزائر ١٨٩٣).
ابن المرتضى (٣٣٥/٩٣٦ ـ ٩٣٧) المهدي لدين الله أحمد بن يحيى.
١٦١ ـ «باب ذكر المعتزلة» من كتاب المنية والأمل، طبعة الهند.
المسعودي (٣٤٦/٩٥٥): أبو الحسن علي.
١٦٢ ـ «كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٤٦ هـ)، وترجمه إلى الفرنسية باربييه دي مينار Barbier de Meynard تحت عنوان Prairies d'Or (باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧).
١٦٣ ـ «كتاب التنبيه والإشراف» (طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٨).
المقدسي: أنيس
١٦٤ ـ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي (بيروت ١٩٣٦).
مسكويه (٤٢١/١٠٣٠): أبو علي أحمد بن محمد.
١٦٥ ـ «كتاب تجارب الأمم»، جزءان نشره هـ. ف. أمدروز (القاهرة ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣/١٩١٤ ـ ١٩١٥) وترجمه إلى الإنجليزية د. س مرجليوت (أكسفورد ١٩٢١). وذيله أبو شجاع الصابي (الجزء الثالث) القاهرة ١٣٣٤/١٩١٦).
مسلم (٢٦١/٨٧٥): أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري.
١٦٦ ـ «الجامع الصحيح» ٨ أجزاء (القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ م).
المعري (٤٤٩/١٠٥٧): أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان.
١٦٧ ـ «سقط الزند» (القاهرة ١٣١٩ هـ)، (بولاق ١٢٨٦ هـ) في جزئين.
١٦٨ ـ «لزوم ما لا يلزم» (القاهرة ١٨٩١ م).
١٦٩ ـ «آثار أبي العلاء المعري»، والجزء الأول، بإشراف الدكتور طه حسين (القاهرة ١٣٦٣/١٩٤٤).
المقدسي (٣٨٧/٩٩٧) شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المقدسي المعروف بالبشاري.
١٧ ـ «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» طبعة دي غويه (ليدن ١٨٧٧).
المقدسي: أنيس
١٧١ ـ «تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي»، الجزء الأول (بيروت ١٩٣٥).
١٧٢ ـ «أمراء الشعر العربي» الطبعة الثانية (بيروت ١٩٣٦).
المقريزي (٨٤٥/١٤٤١) تقي الدين أحمد بن علي
١٧٣ ـ «اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا» (بيت المقدس ١٩٠٨).
المقري (١٠٤١/١٦٣٣) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.
١٧٤ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أربعة أجزاء (بولاق ١٢٩٧/١٨٦٢).

١٧٥ ـ «زهار الرياض في أخبار عياض» ثلاثة أجزاء، ضبطه وحققه وعلق عليه الأساتذة: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٣٦٠/١٩٣٩ ـ ١٩٤١).

ابن منجب (٥٤٢/١١٤٧): أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علي الصيرفي المصري.

١٧٦ ـ «الإشارة إلى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٧٤ م).

ميجون: ج. Migeon: G

Manuel d' Art Musulman :2 vols. (Paris,.1927). ـ ١٧٧

ميور: وليام تمبل Muir: Wiliam Temple

The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1925). ـ ١٧٨

ابن ميسر (٦٧٧/١٢٧٨): محمد بن علي بن يوسف بن جلب.

١٧٩ ـ «تاريخ مصر» طبعة هنري ماسيه (Henri Massé) (القاهرة ١٩١٩ م).

ناصر خسرو (٤٨١/١٠٨٨).

١٨٠ ـ سفر نامه Relation du voyage de Nasiri Khosrau (Safar Namèh) en Syrie, en Palestine, en Egypte en, Arabie en et Perse trans. from Persian by Charles Schefer (Paris. 188).

ابن النديم (٣٨٣/٩٩٣) محمد بن إسحاق.

١٨١ ـ «كتاب الفهرست» جزآن (لايبسك ١٨٧١ م)، (القاهرة ١٣٤٨ هـ).

النسيبي:

١٨٢ ـ «كتاب مطالب السول في غزوات الرسول» مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط رقم ٩٩٧٩.

النعمان (٣٦٣/٩٧٣): أبو حنيفة المغربي.

١٨٣ ـ «المجالس والمسايرات»، ثلاثة أجزاء: مخطوط بجامعة القاهرة، القاهرة رقم ٢٦٦٠.

نظام الملك (٤٨٥/١٠٩٢).

١٨٤ ـ كتاب «سياسة نامه»

Siasset Naméh, Traité de Gouvernement, composé Pour le Sultan Melik - chah Par le Vizir Nizam oul - maulk. Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols. (Paris, 1891 - 1897).

النوبختي (٣٠٢/٩١٤): أبو محمد الحسن بن موسى.

١٨٥ ـ «كتاب فرق الشيعة» (استانبول ١٩٣١).

النويري (٧٣٢/١٣٣١) أحمد بن عبد الوهاب.

١٨٦ ـ «نهاية الأرب في فنون الأدب»، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٣٠.

نيكلسون ا. رينولد Nicholson A. Reynold

Literay History of the Arabs (Cambridge, 1930) ـ ١٨٧

ابن هانيء (٩٧٣/٣٦٢) أبو القاسم المسكني بأبي الحسن محمد
١٨٨ ـ «ديوان ابن هانيء» (بيروت: ١٣٢ هـ).
هل: يوسف Hell: Joseph
١٨٩ ـ The Arab Givilization trans. form. German by Khuda Dukhrh (Cambridge, 1936).
هلال الصابي (١٠٥٦/٤٨٨) أبو الحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الكاتب.
١٩٠ ـ «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» نشره هـ ف. ا بروز بيرن ودخل بـه مرجليوث كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (القاهرة ٩١٩).
هيد: و Heyd: W
١٩١ ـ Histoire du Commerce du levant au Moyen - âge 2 Vols (Leiprig 1925).
وستنفلد. ف فون W'stenfeld. F. Von
١٩٢ ـ Die Creschichts Chriber der Araber and ihre Werke (Goetingen 1662).
ياقوت (١٣٣٩/٧٢٦): شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي.
١٩٣ ـ «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٦٢٦/١٣٣٢).
١٩٤ ـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» طبعة ذكرى جب (القاهرة ١٩٠٧ ـ ١٩١١ م).
يحيى بن سعيد الأنطاكي (١٠٦٦/٤٥١).
١٩٥ ـ «صلة كتاب أوتيخا» جزآن (بيروت ١٩٠٩).
اليعقوبي (٨٩٥/٣٨٢): أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.
١٩٦ ـ «تاريخ اليعقوبي» جزآن طبعة (W. Vh. Beutoms)
١٩٧ ـ «كتاب البلدان، طبعة دي غويه ـ ليدن ١٨٩٢.
أبو يوسف (١٩٢/٨١٧ ـ ٨١٨ يعقوب بن إبراهيم).
١٩٨ ـ «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ): و (المطبعة السلمية بمصر ١٣٤٦ هـ).

فهرس الأعلام

حرف الف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال والذال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد الطاء الظاء

حرف العين

حرف الغين والفاء

حرف القاف

حرف الكاف واللام

حرف الميم

محمد بن العداس (أبو عبد الله) ٢٦٩.

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس المناطق

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء ـ الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء - الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزين

حرف السين

حرف الشين ـ الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين ـ الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون الهاء الواو الياء

فهرس موضوعات الجزء الثالث
من تاريخ الإسلام السياسي

الباب الأول
عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ - ٣٣٤هـ)

الباب الثاني
عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤هـ)

الباب الثالث
عصر بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧هـ)

بنو بويه في العراق

الباب الرابع

الدولة المستقلة

بنو بويه في فارس

بنو بويه في الري وهمذان وأصبهان

الباب الخامس

الحركات السياسية والدينية

الباب السادس
العلاقات الخارجية

الباب السابع
نظم الحكم

الباب الثامن
الحالة الاقتصادية

الباب التاسع

الثقافة

(أ) العلوم النقلية

(ب) العلوم العقلية

الباب العاشر

٢ ـ الفن

الباب الحادي عشر

الحالة الاجتماعية

ملاحق الكتاب

مؤلفات ومترجمات

الدكتور حسن إبراهيم حسن

١ ـ «تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» ـ الجزء الأول. (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٤.

٢ ـ الجزء الثاني (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٤.

٣ ـ الجزء الثالث (الطبعة السابعة) القاهرة سنة ١٩٦٥[١].

٤ ـ الجزء الرابع (تحت الطبع).

٥ ـ «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، (المطبعة الأميرية) ببولاق سنة ١٩٣٢» تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٤).

٦ ـ «النظم الإسلامية» بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم حسن، (القاهرة سنة ١٩٣٩، ١٩٥٩، ١٩٦٢). وقد ترجم إلى اللغتين الفارسية والأردية.

٧ ـ «تاريخ عمرو بن العاص» (الطبعة الثانية) القاهرة سنة ١٩٢٦.

٨ ـ «مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، بحث مستخرج من «كتاب المجمل في التاريخ المصري» (القاهرة سنة ١٩٤٢) ص ١٢٧ ـ ٢٢٩.

٩ ـ «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية» تأليف فان فلوتن ترجمه وعلق عليه المؤلف، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكي إبراهيم الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٦٥).

١٠ ـ «أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية»، تأليف الدكتور أدولف جروهمان، ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه، الجزء الأول (القاهرة سنة ١٩٣٤) الجزء الثاني (القاهرة ١٩٥٦)، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦١) والجزء الرابع (تحت الطبع).

١١ ـ «الدعوة إلى الإسلام». ترجمه المؤلف إلى العربية وعلق عليه، بالاشتراك مع الأستاذين الدكتور عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، الطبعة الثانية (القاهرة سنة ١٩٥٧)، والطبعة الثالثة (تحت الطبع).

١٢ ـ «عبيد الله المهدي» إمام الشيعة الإسماعيلية مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف (الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٦٥).

١٣ ـ «المعز لدين الله الفاطمي، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر»، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).

١٤ ـ «تاريخ القاهرة» تأليف ستانلي لينبول، ترجمه المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذين علي إبراهيم حسن، وإدوار حليم (القاهرة سنة ١٩٥٠).

١٥ ـ زعماء الإسلام (القاهرة ١٩٥٣)، ترجم إلى اللغة الأردية.

١٦ ـ انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، نشر الطبعة الأولى المعهد العالي للدراسات العربية (جامعة الدول العربية) القاهرة ١٩٥٧) والطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤).

١٧ ـ اليمن: البلاد السعيدة، لجنة «اخترنا لك» (نشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٨).

١٨ ـ Islam: Its Origins and Developments (بالإنجليزية) (تحت الطبع) بالإضافة إلى كثير من الأبحاث المنشورة بالمجلات العلمية باللغتين العربية والإنجليزية.


Bibliotheca Alexandrina
0269008